الكاتب الفلسطيني

العدد "٩" تموز "يوليو" ١٩٧٩



الكاتب الفلسطيني

فصلية عن الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين

العدد ٩ ، تموز (يوليو) ١٩٧٩

المحتويات

الغلاف الأول : ثوب منطقة الخليل ١٩٢٠ **الغلاف الأخير :** من مجموعة تل الزعتر ـ للفنان توفيق عبد العال

الاشتراكات السنوية
٣٠ ليرة لبنانية في لبنان وسوريا
٦٠ ليرة لبنانية في بقية الأقطار العربية
١٠٠ ليرة لبنانية في اقطار العالم .
١٥٠ ليرة لبنانية للمؤسسات .

كلمة الكاتب

مع الديمقراطية بلا شروط

كم سنة علينا أن ننتظر في هذا الوطن ، من محيطه حتى خليجه ، كي نجد مكاناً آمناً ، ورقعة نتنفس فيها هواء الحرية ، والكرامة ، والشرف الانساني ؟!

سجون تنتشر أكثر من المدارس ، تأخذ مساحات أكثر من المستشفيات ، تضرب عميقاً ، في الأرض بجذورها الأسمنتية وزنزاناتها ، وتنغلق على مواطنين ، كل جرائمهم أنهم يحبون وطنهم بطريقة تتناقض مع أنظمة الـ ٩٩,٩٪ .

اغتيالات يومياً ، لشباب ورجال يهربون من بلد الى بلد ، بوجوه بريئة حزينة ، وأفكار تستحق ، في أسوأ الأحوال ، ان تحاور بالفكر ، لا أن يثقبها رصاص القتلة المحترفين .

اليس من حقك ، في هذا الوطن العربي الكبير ، أن تكون شيوعياً ، او بعثياً ، أو ناصرياً ، أو قومياً ، أو متديناً ؟!

لماذا ينصب بعض الضباط ، والتجار ، والسياسيين المتواضعي الوعي والثقافة والأخلاق ، من أنفسهم آلهة تختار لنا اتجاهنا السياسي ، وتفرض علينا أفكارها السياسية المتخلفة والساذجة ؟

من المحيط حتى الخليج ، سلطات رسمية تقتل باسم الوطن ، وتفتح السجون باسم العروبة ، وتغتال الانسان جسدياً وفكرياً ونفسياً ، باسم فلسطين . وتطعن الفدائي الفلسطيني في ظهره وصدره ، وتضيق عليه بلاداً ، رحبة للجواسيس ، سهلة تحت اقدام الخونة ، وكل هذا ، ايضاً ، باسم فلسطين ، والعروبة ، والسعي للمستقبل !

جوع للرغيف ، للكرامة ، للتنفس ، للتفكير براحة وهدوء ، لقراءة جريدة الصباح في مقهى دون رقيب أو حسيب ، ومع ذلك فهذه الأنظمة القمعية تحصل دائماً ، على ٩٩,٩٪ من أصوات الجماهير ، بدءاً من السادات ، مروراً بقابوس والنميري .. وانتهاء ... وماذا نقول ؟ انتهاء بالبقية .

وما يدل على أنهم يحصلون على ٩٩,٩٪ وأن الجماهير سعيدة بأنظمتهم انهم

ببلاغ عسكري رقم واحد يسقطون ولا تخرج مظاهرة للدفاع عنهم . أليس هذا هو الاستفتاء الأكثر دقة وصواباً ؟! الاغتيالات ، التصفية ، الملاحقة ، قتل الفكر ، تكميم الأقلام ، تدمير الانسان العربي من داخله ، انتشار الطائفية ، الأقليمية ، السماح بكل ما هو رجعي ، مطاردة كل ما هو تقدمي ، هذه سمات لكثير من الأنظمة ، انظمة الـ ٩٩,٩٪ .

وبعد ،

فلا يجوز استرحام من يعملون على تدمير الانسان ، على اغتيال من يخالفهم الرأي والاجتهاد ، لا يجوز ان ننتظر من الجهل ان يبدد ظلمات وطننا ، ومن السجانين ان يمنحونا الحرية ،

وبعد ،

فان من يطارد الفكر ، ويفرض وصايته على عقول الناس وضمائرهم ، لا يمكن ان يسهم في تحرير فلسطين . لأن تحرير فلسطين يبدأ من تحرير الانسان العربي ، حيث كان ، من الخوف ، والجوع ، والتخلف . إننا في الكاتب الفلسطيني نقف في صف المحاربين من اجل الديمقراطية ، والحرية ، والكرامة ، ومن هنا ينبع تقييمنا للأفراد ، والاحزاب ، والأنظمة .

كان فولتير يقول : قد اختلف معك في الرأي، ولكنني مستعد لدفع حياتي ثمناً لحريتك في التعبير عن رأيك .

نحن من هنا ننطلق ضد كافة أشكال الارهاب ، ضد زج الفدائيين الفلسطينيين في سجون النظام الهاشمي ، ضد اغتيال عادل وصفي ضد المجرمين الذين نسفوا بناية الفاكهاني ، فقتلوا ١٨٧ مواطناً فلسطينياً ولبنانياً . هذا هو موقعنا الطبيعي ، والصحيح ، والذي سندافع عنه باقلامنا ، ودمنا ، لأننا ننتمي الى شعب دفع الكثير الكثير ، وهو يواجه الرجعيات المحلية والصهيونية ، ومؤامرات الامبريالية ، ولأننا قدمنا خيرة كتابنا وفنانينا في حربنا ، حرب البقاء ، حرب الكرامة الانسانية .

إننا مع الديمقراطية بلا شروط ولا قيود ، لأننا مع حرية الاجتهاد والاختيار ، لكل مواطن ، ونحن ضد الخونة والتجار ، والطائفيين ، والاقليميين لأنهم ، دائماً ، ضد الوطن ، ضد فلسطين ، ضد الديمقراطية ، ضد الحوار ، **بالعقل**، ومع الحوار بالسلاح .

نائب رئيس التحرير

ازمة المقاومة في بُعدها العربي

عربي صالح

من البساطة بمكان التمييز بين أصعدة عديدة للأزمة التي تصيب كياناً أو تنظيماً سياسياً ما . فهناك ، أولا ، الأزمة الذاتية لهذا التنظيم ، وهناك ثانياً أزمته في علاقاته مع محيطه القريب الذي يمثل اطار نموه أو تدهوره ، وهناك ، ثالثاً ، أزمته في روابطه مع العالم ، بما فيه من اتجاهات متناقضة ومصالح متضاربة .

هذه المظاهر الثلاثة للازمة موجودة بهذا الشكل أو ذاك من الحدة ، في المقاومة ، فهناك ازمة المقاومة الذاتية ، ما كان منها نابعاً من إشكالات الولادة أم من مصاعب النمو على المستويات الايديولوجية والسياسية والتنظيمية والعسكرية . وهناك أزمة علاقاتها مع محيطها العربي ، وهو اطار نموها « الطبيعي » ، كما انه اطار تقهقرها « الطبيعي » ، واخيراً فان للمقاومة شكلا معيناً من العلاقات مع العالم نعتقد أن فيه بعض العيوب .

واذا كنا سنتحدث في مناسبة اخرى عن الشكل الأول من أزمة المقاومة ، أي عن ازمتها الذاتية ، وهي الأكثر اهمية وحسماً في سياق ايجاد مخرج من الوضع الراهن ، فاننا سنقصر حديثنا عن علاقاتها العربية ليس بوصفها كتلة من الخيوط المتشابكة والعلاقات الشخصية ، وليس بوصفها نلك الخليط الغريب من المواقف والتصريحات المتناقضة ، التي تكون صباحاً ممتازة كطقس الربيع ، لتتحول عند الظهر الى بروق ورعود وعواصف عاتية ، بل نقصد تلك الروابط النضالية التي تعرف كيف تأخذ من عالمها الموضوعي أقصى ما يستطيع منحه لها ، وتعرف كيف تتكيف به ، حتى يكون في أحسن الاوضاع تلاؤماً مع حاجاتها ومصالحها ، سواء كان هذا العالم معها أو ضدها ، موال لها أم معارض .

ونحن نعتقد أن الحاجة الى مثل هذه الروابط غدت هامة إلى درجة حاسمة ، وخاصة في المأزق الذي تمر به حركة الثورة العربية عامة ، والمقاومة خاصة ، عقب تحول هذه بسرعة إلى حلقة جد ضعيفة من حلقاتها ، ان لم نقل انها مهددة بالتحول قريباً الى أضعف حلقاتها .

□

من الصفات الأساسية للوضع العربي انه يقوم على تبادل الازمات ، فليس هناك من قطر عربي واحد لا يعيش الأزمة العربية العامة ، وليس هناك من يستطيع القول : انه قد عزل نفسه عن أزمات الأقطار الأخرى ، وبدأ تطوراً مغايراً لتطورها ، فصعد ان كانت تهبط ، وهبط إن كانت تصعد .

ويعود ذلك إلى الصفات المشتركة ، والعميقة للأوضاع والأنظمة العربية ، المختلفة في اللون والشكل ... وفي الظاهر ، كما يعود إلى ذلك الشكل المتأخر من العمل القومي ، الذي يركز على تجاوز المشاكل النابعة من الصفة الاقليمية لكل دولة بترسيخ القطرية والاقليمية ، وبتوطيد سلطة الدولة القمعية ، بدلا من تعزيز طابعها الديمقراطي القومي واخيراً ، فانه يعود إلى آليات العمل الواحدة ، التي تطبق في كل الأقطار العربية ، على ما بينها من « خلافات » ظاهرية . فالطريقة التي تدار بها « الدولة المتحضرة » لا تختلف في شيءعن اسلوب ادارة مزرعة للأبقار في أي قطر بدوي ، مع ان هذه تدار كلها بأسلوب مزارع الابقار والجمال ، ونحن لا نجد حاكماً

عربياً واحداً يعتقد ان سلطته مستمدة من الشعب ، بل يتصرف كل حاكم بالجماهير وكأنها تفسد عليه رسالته الزعامية النبوية المستمدة من مهمة إلهية بحتة، لا شأن لأحد بالسؤال عنها إلا الله عز وجل هذا إذا كان الحاكم متواضعاً ولم يعتبر نفسه تجسيداً بشرياً لاله ما فوق رباني .

* * *

والأزمات العربية المتبادلة هي الأمر المنطقي في الحياة السياسية والاجتماعية الراهنة لوطننا المنكود ، ما دام الأصل الذي تنبع منه واحداً أو متقارباً في سائر الأقطار. وانن فان من الطبيعي أن تصل أزمات الوضع العربي إلى المقاومة بحكم المنشأ والتطور الفلسطيني . فهي تشارك الأنظمة في كثير من صفاتها وتكاد تتقلص لتصبح محصلة التنظيمات التابعة للأقطار والدول العربية وتتسلل الأزمة العربية العامة ، والأزمات الموسمية والدورية والدائمة للأنظمة إلى المقاومة من سبيلين :

ـ الأول : الوضع العربي الذي صارت المقاومة جزءاً منه .

ـ والثاني : العلاقات العربية مع المقاومة ، على تنوعها وعلاقات المنظمات العربية داخل المقاومة مع الحقيقة الفلسطينية التي تتمتع بهذا القدر أو ذاك والتي عوملت في البدء كشيء منفصل عن القضية العربية ، حتى كادت تفترق عنها في كل كبيرة وصارت .ثم صارت تعامل كجزء عضوي منها ، ولكن ان تيسلم، بأية صفة خاصة ونوعية .

إلا أن هناك شكلا آخر للأزمة ، هو الشكل النابع من أزمة المقاومة الذاتية نفسها . فالمقاومة ، بحكم وضعها ، تحتل على رقعة صغيرة من ساحة الفعل السياسي ملامح خاصة تتجلى فيها ، على الصعيد الرسمي ، أزمتها أكثر مما يتجلى أي شيء آخر ، بقدر ما يتجلى على الصعيد الجماهيري الاصرار على الاستمرار في المعركة .

ومع ان هذين الشكلين من الأزمة ، الأول النابع من الجو العربي وتوضعاته الفلسطينية والثاني الخاص بالمقاومة ذاتها كشيء مختلف في العالم العربي ، يتداخلان ويتفاعلان ، فان من المهم التأكيد على أن أزمة المقاومة نابعة بالأصل من قضايا متعددة :

١ ـ كانت المقاومة تطمح ، عند ظهورها ، لأن تكون طليعة للقوى العربية المعادية للامبريالية والصهيونية ، تعبر ، على الرقعة الفلسطينية الخاصة ، عن مستوى هذه القوى وطموحاتها ، وتصل من خلال علاقات متبادلة مع الجو العربي الى تطويره وتطوير نفسها .

٢ ـ وكانت المقاومة تطرح طرائق جديدة للنضال تأخذ بعين الاعتبار اهمية العامل الخارجي ـ الصراع ضد العدو الامبريالي ـ الصهيوني ـ في تعزيز وتطوير الداخلي ـ الوضع الخاص بالقوى الوطنية العربية ـ ولهذا فقد طرحت اسلوب الكفاح المسلح كطريقة لادارة الصراع مع العدو في الخارج ، وللقاء القوى العربية الوطنية والقومية في الداخل .

٣ ـ عملت المقاومة على تكثيف الجهود العربية ، بغض النظر عن طبيعتها السياسية والاجتماعية وتصنيفاتها ، وراء جهدها الرئيسي في الميدان الفلسطيني ، ومع ان هذه العملية لم تكن سهلة ، بسبب الحذر والشكوك التي قوبلت بها من قوى اليمين العربي ، فانها لم تلبث ان حققت بعض النجاحات في هذا الميدان ، لم تلبث ان ظهرت كاطار عام جديد لنشاطها يخالف اطارها الاصلي كطليعة تقدمية ، ويعمل على نسفه .

والواقع ان خطة المقاومة هذه كانت تأخذ بعين الاعتبار عاملا واحداً فقط من عوامل الحركة السياسية العربية ، هو عامل نمو الحركة وصعودها ، ولم تأخذ بالحسبان العوامل الأخرى، مثل تقهقر الحركات الوطنية العربية وصعود نجم وقوة الأطراف الأخرى ، الحليفة والصديقة للامبريالية ، ولأن نلك لم يحدث ، فان المقاومة واجهت معضلتين صعبتين جداً :

ـ الأولى هي عجز حركة التحرر العربية عن تبني استراتيجية طويلة الأمد للكفاح ضد العدو ، وبالتالي تباين اساليب العمل النضالي بينها وبين فصائل الثورة العربية الأخرى . وكان هذا ثغرة نفذت منها كل انواع المناورات والألاعيب . وبما أن الاساليب هي محتوى العمل السياسي أيضاً ، وليست غلافه الظاهري وحسب ، كما يظن في الغالب . فان تباينها كان يعني عملياً ، تباين الاهداف . وهذا قاد بدورة إلى انفصال المقاومة كطليعة عن الجيش التحرري العربي الذي يفترض انها تشكل احدى قواه القيادية . وسرعان ما دفع هذا الواقع المقاومة الى تبني استراتيجية منفصلة عن تلك التي

تبنتها الحركة العربية الوطنية والقومية . فصار نشاطها معزولا في هذه النقطة ايضاً ، وظهر وكأنها قوة تمزيق للحركة الثورية وليست قوة توحيد لها . أمام هذا التباين لم تجد المقاومة بديلا عن التوجه الى الجماهير بأفكارها وأساليبها وطرائق عملها . فجر نشاطها هذا عليها تهمة الرغبة في منافسة القوى الوطنية على نفوذها وجماهيرها . **في الواقع العملي** قادت هذه العوامل الى خلق نقاط احتكاك بين المقاومة وبين الحركة العربية التي عدت نفسها جزءاً منها . فلم تتحول المقاومة إلى واحدة من قوى هذه الحركة ، بل غدت حقيقة قائمة بذاتها ، إلى جانبها احياناً ، وضدها في كثير من الأوقات .

الثانية : عدم حدوث تحول ينكر في الأنظمة التقليدية العربية الموالية لاصدقاء العدو من امبرياليين ورأسماليين في اميركا وأوروبا لقد اكثرت هذه الانظمة من الحديث عن المقاومة ودعمها ، لكنها لم تبدل علاقاتها مع القوى المعادية للمقاومة ولحركة الثورة العربية ، بل وطدتها وقوتها ، مضعفة بنلك الأساس العربي الذي تقف المقاومة عليه ، ومعززة على المدى الطويل امكانات اعدائها الذين تنازلهم بالسلاح ، وواضعه المرتكزات الأولى لاستقطابها ، وصرفها تدريجياً عن اسلوبها وأهدافها وطرق عملها وجماهيرها .

لقد أدى انفصال المقاومة العملي عن الحركة العربية الوطنية والقومية ، وعجز خطها النضالي عن تبديل الوضع العربي (ما كان منه تقليدياً أو غير تقليدي) نحو الأحسن ، لتحولها إلى اضافة كمية داخل الوضع العربي ، وابقاها في حدود هذا الوضع ، عاجزة عن دفعه الى الامام ، وخاضعة اكثر فأكثر لضروراته وحقائقه ، وهذه كانت تميل باستمرار ضد الحركة الثورية العربية ، وضد المقاومة أيضاً . مع أنها كانت تنفخ وتبرز، بمقدار ما يزداد تدهور وانهيار حركة الثورة العربية ولا يستبعد ان تكون هناك اطراف داخل المقاومة راودتها الاحلام بلعب الدور الأساسي داخل حركة الثورة العربية ، حتى تمت عملية انهيار القيادات التي كانت متصدرة آنذاك .

* * *

لا نريد تحديد مسؤوليات ما حدث في هذه العجالة ، لكننا نريد ملاحظة ما يلي : بقدر ما كان الخط العام لحركة الثورة العربية قاصراً بقدر ما كان يجب على المقاومة أن تفتش عن سبل ووسائل مجدية للتعامل معه وتطويره . نقول نلك للسبب الآتي :

المقاومة هي جزء من معركة عامة ، وليست جزيرة منعزلة في بحر بعيد ، واذا كانت الحركة العامة تفتقد للنضج في هذه أو تلك من المواقف والممارسات أو في كل المواقف والممارسات ، فان نلك لا يبرر الانفصال عنها ، ما دامت القوة الذاتية ليست كافية بعد لتحقيق الأهداف التي تعمل لها دون الحركة العامة. وطرح اهداف متطورة للنضال العربي ، وأساليب جديدة لبلوغ هذه الأهداف لا يعني تجاهل نقاط الالتقاء مع الحركة الثورية العربية ، ووضع برامج عمل مرحلية وتفصيلية بهدف شدها إلى فوق ، وتعريضها لضغط جماهيري منظم يدفعها الى أعلى ، في الوقت نفسه ، لقد كانت المقاومة بحاجة إلى قوى الثورة العربية ضد العوامل المعاكسة لها في الوضع العربي ، وضد الامبريالية والصهيونية ، وكان من غير المعقول أن لا توضع خطط عمل دقيقة تستغل امكانات وقدرات الحركة العربية في هذين المجالين ، وتفهم التطور السياسي **كعملية تاريخية تحسمها الممارسة** وليس كنتاج لهذا الخط النظري أو ذاك ، بحيث تبدل القوى السياسية تطورها بقرار ذاتي ، لمجرد انها بدلت مفاهيمها أو خطوطها النظرية . واذا كانت حركة الثورة العربية لم ترجدلا ، أهمية الكفاح المسلح ولم تتبناه فان نلك ليس سبباً كافياً لعدم كسبها ، وليس مبرراً لعدم التركيز على تطويرها بالاتجاه الذي يطمح اليه ، خاصة بعد ان وقعت بين مركزي جذب : مركز رجعي تدعمه الامبريالية ومركز معاكس مثلثة بالأساس حركة المقاومة وبعض الحركات الأخرى ، وبعد اتضاح ان مصير أحد المركزين سيحسم على ضوء الوضع المستقبلي للحركة الوطنية والقومية العربية ، فان انتصر المركز الرجعي بقيت المقاومة معلقة في الهواء ، وان انتصرت هي حسم ميزان القوى ضد المركز الرجعي ، وتعرض لانهيار سريع أو تدريجي مؤكد . لقد اعتقدت المقاومة انها ليست بحاجة إلى كسب الحركة العربية الوطنية والقومية ، وتصرفت عملياً وكأنها تفرض عليها حلا من اثنين : إما التدهور بعد افراغها من محتواها الجماهيري وسلبها قاعدتها الشعبية ، أوتبني مقولات المقاومة وشعاراتها . في حين كان كسب القوى الاساسية ، لهذه الحركة منظمة كانت أم شعبية ، هي المهمة الاكثر إلحاحاً ، **لأن مصير كل شيء يتوقف عليه .**

لقد كانت المقاومة بحاجة الى حلول مرحلية لجملة

القضايا التي طرحتها عليها علاقاتها مع حركة التقدم العربي ، دون ان تتخلى عن أفقها الاستراتيجي وأساليبها المسلحة . نلك كان يفرضه عجزها الذاتي عن حسم الصراع المسلح مع العدو أولا ، والآجال الطويلة التي يقتضيها الوصول للأهداف التي وضعتها لنفسها ثانياً ، وادراكها بأن العملية السياسية الصراعية الدائرة في المنطقة ليست ذات اتجاه واحد ، صاعد . وان الذين قادوا حركة الثورة العربية المعاصرة قد تعلموا من تجربتهم ، من الخطأ والصواب ، وانهم نضجوا ببطء ، وطوروا خطهم السياسي بتردد ، لأنهم من جملة أسباب ، كانوا من طبيعة سياسية واجتماعية وسطية .

* * *

كانت المقاومة تقدر اذن ان صعود حركة التحرر العربية يكون بتعيين اهداف جديدة لها ، وبالضغط باتجاه هذه الأهداف . ومع أن مخططها هذا قد تجاهل نقاطاً كثيرة ، في رأسها الدور الفاعل للمقاومة في تطوير حركة الثورة العربية السائدة تطويراً منهجياً متصلا ، عن طريق الالحاح والتأكيد على تنفيذ برامج **عمل** مرحلية تأخذ بعين الاعتبار تعزيز وتنظيم الطابع الشعبي للحركة ، فان هذا المخطط كان صالحاً ، ما دامت قوى الحركة القومية العربية قادرة على الدفاع عن نفسها في وجه ما تتعرض له من هجمات واعتداءات أو تمتلك اتجاهاً تصاعدياً يجعل ميزان القوى يميل لصالحها في الصراع مع الثالوث الامبريالي ــ الاسرائيلي ــ الرجعي ، إلا ان اتجاه الحركة كان هابطاً ، وكانت تدافع عن مواقعها بالضراوة التي يفرضها اليأس ، بعد أن نسفت هزيمة الخامس من حزيران .الأسس التي ارتكزت اليها طوال سنوات . في سياق هذه الحركة الهابطة ، كان ظهر المقاومة ينكشف اكثر فأكثر أمام الرجعية والامبريالية وصار ضربها في أمر اليوم بالنسبة لهذه القوى بعد أن درست منعكسات ضربة كهذه على مجرى واتجاه التطورات في المنطقة برمتها ، وخاصة على الصراع ضد مجمل حركة التحرر العربية . واتضح اكثر فأكثر ويوماً بعد يوم ، ان صعود المقاومة مستحيل مع هبوط الحركة التحررية العربية ، وان هذه محكومة بالعلاقات والقوانين المتحكمة بتلك ، وانه قد آن الأوان لحصاد ثمار الدفع والنفخ التي جاءت من بعض جهات **اليسار وكل اليمين** . في هذه الظروف الصعبة كان مخطط المقاومة محدود الفاعلية ، وكشف من نقاط الضعف اكثر مما اظهر من نقاط القوة .

إننا لا نريد تحميل المقاومة مسؤولية كل ما حدث ، فقد كانت الحركة العامة للثورة العربية سيئة التنظيم ، ضعيفة الفعالية ، متردية الاداء وفقيرة الخيال والروح ، وربما كانت المقاومة أدت أعظم أدوارها قاطبة ، لو انها وضعت يدها على هذه الجوانب واغنتها بالفعل لا بالقول ، بالعمل لا بالتصريحات والشعارات . والواقع أن الحالة التي كانت سائدة آنذاك كانت تفرض على المقاومة أمراً من ثلاثة :

ــ إما تطوير استراتيجية بديلة لتلك التي اخذت بها حركة الثورة العربية طوال عقدين من الزمان وانهارت في الخامس من حزيران ، أو

ــ أن تكون جزءاً من الاستراتيجية السائدة ، التي دمرها عدوان حزيران ولكن بشعارات ومطالب واهداف مختلفة ، أو

ــ ان تكون جزءاً من القوى التقليدية تعمل بأساليبها وتضع ، مثلها مقدراتها بين يدي قوى خارجية .

ولقد أخذت المقاومة من الحل الأول الشعارات والأهداف وأخذت من الخيار الثاني الاساليب والممارسات ، وها هي مهددة بأن تتحول الى قوة من قوى التقليدية العربية ، بعد أن مرت بين ١٩٦٧ و١٩٧٠ بمرحلة الاختلاف عن قوى حركة التحرر العربية ، وقاتلت منذ ١٩٧٠ وحتى الآن لتبرهن على تماثلها معها إذ صارت تخشى ، فيما تخشاه ، ان تفتح عيونها فلا تجد لنفسها محلا حتى بين القوى التقليدية ، بعد ان تواصل تدهور حركة التحرر العربية ، وصارت في وضع تطمح منه لأن تصبح بدورها قوة تقليدية تعامل كما تعامل هذه ، داخل الوطن العربي وخارجه .

لم تستطع المقاومة ان تشق لنفسها سبيلا خاصة ضمن حركة التحرر العربية ، ووجدت نفسها محكومة بكل الضغوط ومناحي القصور التي تتعرض لها هذه . انها حملت طوال سنوات مؤشرات كثيرة ايجابية على امكانات الحركة الثورية العربية ، والآفاق التي يمكن ان تبلغها ، والطاقات التي تستطيع زجها في المعركة من أجل الحرية ، وكان تراجعها ، في سياق الحركة العامة للتراجع ، مؤشراً بدوره على حجم التدهور العربي ، وعلى

قدرة الثورة المضادة على الردع والقمع والسحق .

* * *

والآن ، بعد مرور كل هذه التجربة المعقدة والشائكة ، وبعد نضوج التدهور العربي ، وانكشاف أبعاد الخطط التي تضعها الثورة المضادة عالمياً ومحلياً ، لتنجينه.ما هي القضايا التي تطرح نفسها على المقاومة بوصفها احدى قوى الحركة التحررية العربية في علاقاتها مع هذه الحركة ؟!

أولا : ان الطابع الأساسي لحركة التحرر العربية هو طابعها كحركة منضوية تحت اجنحة دول ، أو حركات سياسية تقود دولا ، الدولة القطرية هي الاطار **الواقعي** للحركات التي تشكل بمجموعها ما نسميه حركة التحرر العربية ، ومع ان هذه الحركات تحتوي فصائل معارضة للدولة في بنيتها الراهنة ، فان هذه ستعمل في المرحلة الأولى من استيلائها على السلطة (إن تم لها ذلك) ضمن اطار الدول القطرية القائمة ، وربما امتد بها القبول بواقع هذه الدولة وتأقلمت معها ، بل وتحولت الى مدافع أساسي عنها ، كما حدث لسواها من الحركات. المهم ان ازالة احدى حركات التحرر لا يعني ازالة الدولة التي تنشط هذه بداخلها . ولعله من المميز بالنسبة لمجمل التطور العربي المعاصر ان الدول بقيت **وازدادت** ، بينما انهار وتدهور كل شيء. الدول اذن باقية ، وان اندثرت حركة التحرر العربية ، بينما لا تملك المقاومة كياناً سياسياً يستطيع أن يبقى ان تم القضاء عليها . هنا ، في الحالة الفلسطينية ، يوجد تلازم تام بين حركة التحرر الوطني وبين اشكال التعبير السياسي ، بينما ستبقى الدول القطرية قائمة ، حتى ان زال آخر أثر لحركات التحرر . وبينما ستزول الاشكال الراهنة من التعبير السياسي عن شخصية الشعب الفلسطيني ، فيما لو زالت حركته الوطنية ، فان بعض التغير - ربما أصاب طابع الدول القطرية ، التي ستستمر على قيد الحياة حتماً ، مهما فشلت الحركة السياسية العربية .

هذا الفارق يعطي لحركة التحرر الوطني الفلسطينية طابعها الخاص ، **فهي** مهددة بالزوال قولا وفعلا ، وزوالها يعني زوال فرصها في اقامة دولة قطرية خاصة بها، بينما تستطيع حركة التحرر العربية ان تتجدد ضمن اطار دولها القطرية ، حتى لو تعرضت لضربة أدت إلى سحقها تماماً في مرحلة من مراحل العمل السياسي .

الوضع الفلسطيني الخاص يجعل للدور العربي في حركة التحرر الوطني الفلسطينية طابعاً خاصاً ، ويضفي عليه أهمية استثنائية . ويعطي الدور الفلسطيني بدوره طابعاً خاصاً في اطار حركة التحرر القومي العربية ، يبرز اكثر ما يبرز **في الطابع القومي العام** الذي يجب ان يكون له، لانه لا يملك اطاراً دوليا خاصا ومستقرا يدافع عن نفسه بداخله، بل انه لا يملك ما يداري الضربات به سوى حركة التحرر العربية ، حركات كانت أم دولا ، منظمات رسمية أم حركات شعبية أم جماهير غير منظمة .

هذا الوضع يحتم على المقاومة امتلاك خطط عمل واضحة تجعل التفاعل بينها وبين مختلف فصائل الحركة العربية ودولها مدروساً ومقنناً وخاضعاً للأهداف المشتركة التي تربطها بحركة التحرر القومي العربية ، وتضفي طابعاً عقلانياً منهجاً على علاقاتها بها ، ولقد أثبتت تجربة السنوات الماضية ان هذه الحقيقة البدهية لم تؤخذ **عملياً** بالجدية المطلوبة ، بل تم تجاهلها إلى حد بعيد ، فكان ان وصلت المقاومة الى الخندق الذي تجد نفسها فيه الآن في خط دفاعها الثالث !! .

ثانياً: يجب ان يكون موقف المقاومة من القضايا المطروحة عن حركات التحرر مختلفاً من حيث **نوعيته وحدته** عن موقف هذه الحركات. وعلى سبيل المثال فان هناك حالات يمكن تصورها تفرض على الدول والحركات العربية الوطنية القبول بنمط من التراجعات أمام الامبريالية واسرائيل والرجعية لانقاذ ما يمكن انقاذه وتحسين مواقع الحركة واعدادها للهجوم المعاكس. دون ان تنهار الحركات والدول . بينما لا نستطيع تصور المقاومة تقوم بتنازلات كهذه أمام الامبريالية والصهيونية والرجعية ، دون ان يقضي عليها ، في وصفها وتركيبها الراهن . ان أي نظام عربي يستطيع على سبيل المثال ان **يعقد صلحاً اجبارياً** مع العدو ، يقدم فيه كل انواع التنازلات الممكنة ، دون ان يؤدي ذلك الى زوال الاداة السياسية التي يستخدمها وهي الدولة بينما لا تستطيع المقاومة ، **ما دامت مقاومة** ، ان تقدم تنازلات مماثلة لأنها ، **في وضعها الحالي** ، ستقضي على نفسها كأداة سياسية وعسكرية لشعب فلسطين العربي. ان ميدان التراجعات أمام المقاومة محدود ، وهي تقامر دوماً بمصيرها المستهدف أصلا . وما دام الأمل في الوصول الى وضع شبيه من حيث الاطار العام ، بالوضع العربي ، قد تضاءل وتلاشى مع تضاؤل وتلاشي فرص اقامة الدولة الفلسطينية، فان حاجة المقاومة الى حركة التحرر القومي العربية تتعاظم، وواجبها في اقامة علاقات وطيدة معها يكبر. كما تتعاظم اهمية دورها في اخراج هذه الحركة من ورطتها الراهنة ، وهذا يضعنا مجدداً في مواجهة المهمة التي لم تجد حلا خلال السنوات العشر الماضية ، ألا وهي مهمة تحويل حركة التحرر العربية ، دولا كانت أم فصائل ومنظمات سياسية، الى مكون أساسي من المكونات التي تستند اليها المقاومة في وجودها ونشاطها . وهذا لا يتم بالطريقة الراهنة : طريقة ارتهان بعض المنظمات لارادة الدول العربية ، بل بالطريقة الاخرى ، طريقة الوصول الى برامج عمل تضعها المقاومة مع الحركات التحررية العربية أو دولها لمجابهة الاحداث والمشاكل بصورة مشتركة ، على ان تتضمن :

أ - تحديداً دقيقاً للمهمات المرحلية والبعيدة المشتركة .

ب - تحديداً دقيقاً لطبيعة المراحل التي يمر بها النضال المشترك .

ج - تحديداً واضحاً للقوى ذات المصلحة في التصدي أو في العمل المشترك .

د - برامج زمنية مرحلية ملزمة لكل الأطراف يتم تنفيذها بصورة مشتركة ويقدم عنها كشف حساب علني للجماهير والقوى السياسية .

هـ - تأسيس منظمات أو هيئات تخطيطية وتنفيذية (سياسية وعسكرية واقتصادية وثقافية) مشتركة بينها وبين القوى العربية ، الهدف منها الوصول مع هذه الحركات الى صيغ تنظيمية متطورة تحول أي قطر عربي الى قاعدة خلفية للنضال المشترك الفلسطيني - العربي، وتجعله قضية داخلية بالنسبة للقطر أو للحركة السياسية المعنية ، ليس كما حدث حتى الآن بتحويل القضية الفلسطينية الى قضية من قضايا الدجل والنفاق السياسي ، بل عن طريق اعادة النظر ببنى الدولة القطرية واسلوب عملها ، بحيث تصبح اداة فعالة في الدفاع عن حقوق شعب فلسطين ، بعد ان فشلت في ذلك طوال قرابة نصف قرن .

والحقيقة أننا لا نستطيع أن نفهم عدم وجود مثل برامج العمل هذه حتى الآن . كما لا نستطيع ان نفهم هذا « التحالف » القائم بين المقاومة وبعض الدول ، والذي يستند الى بعض العلاقات الشخصية في الغالب ، بينما كان يجب الشروع في **وضع برامج وخطط عمل** مشتركة منذ وقت طويل ، كتلك التي يجب ان توضع لفصائل متنوعة ضمن حركة واحدة ، تتكامل أدوارها وتتشابه مهماتها .

ثالثا: في الوضع الراهن لحركة التحرر العربية. وللمقاومة ، يجب ان يكون دور المقاومة أساسيا فالحركات العربية تعقد الصفقات وهي تتراجع ، بينما لا تستطيع المقاومة ان تتراجع اكثر مما تراجعت ولا تقدر أن تعقد الصفقات مع من يرفض بالأصل وجودها ، وهي ، على كل حال ، لم تعمل طوال السنوات الماضية على اعداد نفسها لعقد الصفقات ولامتصاص التراجعات ، بل كانت تعتقد في مرحلة من المراحل ان التطور العربي ، برغم **النكسات، هو** تطور سياسي صاعد ، وانها ، ما دامت تتجنب في عملها واهدافها اخطاء الحركة العربية العامة ، لن تعرف النكسات ، وان اضطرت بين حين وآخر للقيام ببعض المناورات .

في الوضع الراهن ، الذي يختلف جوهرياً عن الاحلام والآمال التي راودت النفوس في الماضي ، تصبح مهمة المقاومة مزدوجة : إنها انقاذ النفس أولا ، والمساعدة في وقف تدهور الحركة العامة ثانياً : واذا كانت عملية انقاذ النفس تقتضي اعادة دراسة الوضع الذاتي والواقع الموضوعي المحيط على ضوء ممارسة نقد ذاتي لا يرحم ، تشترك به كل الفصائل وسائر القوى ، والجماهير المناضلة ذاتها ، ويخلص الى وضع حلول عملية للأزمة، فان المساعدة في وقف تدهور الحركة العربية التحررية هو بدوره مهمة مركزية ، فالمقاومة كالسمكة التي تسبح في بحر الحركة العربية التحررية ، تموت متى جف البحر ، الذي تعمل قوى كثيرة، من داخل الحركة وخارجها ، على تجفيفه .

ويتراءى لنا ان هناك عوامل كثيرة تساعد المقاومة على القيام بدور كهذا ، في مقدمتها التشدد الاسرائيلي الذي سيواجه أي حاكم عربي يطالب « بالجلاء الكامل » عن الأراضي المحتلة و « استرداد حقوق شعب فلسطين » . وعجز الانظمة العربية حتى الآن عن تطوير سياسة بديلة لتلك التي اوصلتها الى حيث هي على حافة الهاوية ، وفي ظني ان عمل المقاومة في هذا الاتجاه يجب ان يصاغ على ضوء الاهداف التالية :

١ ـ كسب الوقت تجاه الثورة المضادة لتحسين الوضع الذاتي وشروط العمل الموضوعية العامة .

٢ ـ تقريب موقف القوى العربية الوسطية من موقفها ولو في بعض النقاط والقضايا : على ان يعبر نلك عن نفسه في الواقع العملي ، فالمقاومة شبعت كلامـاً ، واشبعتنا بدورها كلاماً . ولا بد من ان تلتفت الى العمل ، ولو قبل ساعة الصفر بدقائق معدودة .

٣ ـ كسب قوى الحركة العربية التحررية ، رسمية كانت أم جماهيرية، وتطوير التعاون معها بالاتجاه العملي المبرمج .

٤ ـ اضعاف القوى المضادة وانهاكها وعزلها شيئاً فشيئاً ، عن طريق خوض نفاع سياسي مرن ضدها في البدء، يتصاعد كلما تم تعزيز موقع من مواقع الحركة التحررية العربية بكل فصائلها ، الى هجمات معاكسة تستهدف استرداد زمام المبادرة بالتدريج .

وأقصد بصياغتـه على ضوء الأهـداف المنكورة الوصول الى تضمين هذا المخطط قرارات صعبـة ، تفترض تقديم تنازلات كبيرة والأخذ بحلول وسط تبدو مرفوضة ، والتراجع في بعض النواحي ، بل وفي كثير من النواحي والقضايا ، لكنه سيتضمن ايضاً وضوحـاً للرؤية وبعداً للنظر كانا مفقودين إلى حد كبير فيما مضى ، وربطاً للفعالية النضالية اليومية بأهداف وشعـارات مرحلية واضحة ومقنعة ، تفضي بتحققها الى رفع العمل السياسي والسوية التنظيمية للمقاومة ولحركة التحرر العربية الى مرتبة أرقى . كي لا تكون الاهداف منفصلة عن العمل السياسي اليومي ،ولا تحوم الشعارات في عالم الأوهام، بينما تغطس الممارسات والفعاليات الواقعية في عالم آخر ليس بالتأكيد عالماً وردياً . إن واحدة من المصائب التي ابتليت بها المقاومة ، شأنها شأن كل الحركات السياسية العربية هي هذا الانفصام ، بل والتناقض، بين العمل اليومي والشعار أو الهدف النظري المأمول . ان العمل اليومي لم يحقق الشعار، وهذا لم يتجسد في العمل اليومي ، بل تفارقا ، الى ان صار لكل منهما عالمه الخاص ، فصار عالم الشعار نظرياً لا يتحقق بأية ممارسة عملية ، وغدا عالم الممارسة مغرقاً في تجريبيته، لأنه لا يهتدي بأي خط نظري توصله الى الجماهير شعارات مقنعة وقابلة للتطبيق. وهكذا انفصمت شخصية هذه الحركات فصارت لها واحدة تجريبية لا ترقى الى مستوى الممارسة بوصفها نشاطاً عملياً يرشده مخطط نظري يغتني به ، واخرى تهويمية تسبح في عالم من التأملات الخيالية لانقطاعها التام عن الارتبـاط بالعمل . وبدل أن تقوم علاقة جدلية بين النشاط العملي والنظري تغني مسيرة النضال ، نشأت علاقة « جدلية » بين التجريبية والتهويم النظري فاقمت الأزمة القائمة وجعلتها كارثة حقيقية .

إن هدف انقاذ المقاومة ليس مسألة سهلة . ولا أحد يملك وصفة سحرية يضعها في برشامة تبتلعها ، فتسترد عافيتها وتمتلك قوتها وتحرر فلسطين ، فالمقاومة في **وضع دفاعي صعب جداً** ، ولا بد لها في البداية من ان تضع تاكتيكاً مرناً لاسترداد نفوذها وقوتها المتلاشيين او بقدر ما يوصلها هذا التاكتيك الى وضع افضل ، بقدر ما سيكون بوسعها الافصاح اكثر فاكثر عن دورها القيادي ورؤيتها الخاصة لقضايا العرب المعاصرة . أما رجوع المقاومة إلى وضعها عام ١٩٦٩ مثلا ، فليس ممكناً بضربة واحدة . وحتى لو افترضنا انها رجعت ، فان عودتها الى وضعها وطريقة عملها وتنظيمها أنـذاك سيوصلها الى مأزقها الراهن ثانية. لا بد اذن من المرونة المستندة الى التجدد الذاتي، والمراجعة الشاملة لمسار الماضي على ضوء الخبرات المكتسبة والواقع الحاصل بالفعل .

بصورة كاملة ما لم تعمل على اصلاح ما تستطيعه من الأزمة العربية العامة ، كما تنعكس عليها اولا ، وفي وجودها الموضوعي المستقل عنها ثانياً . والحال ، ان الوضع العربي ما كان يتطلب نشوء المقاومة، بالشكل الذي حدث ، لو كان وضعاً سليما ،لأنه ما كان بالاصل سيسكت على ضياع فلسطين ، ان هو سمح بحدوثه اصلا . وما كان سينتظر نشوء حركة تحرر وطني فلسطيني خاصة ليطرح على نفسه القضية الفلسطينية بوصفها احدى قضاياه الداخلية ايضا . والمقاومة التي تغطي رقعة صغيرة من مساحة الفعالية السياسيـة العربية ، مدعوة الآن بالحاح لممارسة الدور الذي اهلته طوال سنوات ، لأنها كانت تعتقد في مرحلة من مراحل نشاطها انه سيبدد طاقاتها ، إذ ما معنى ان تسعى قوة ثورية لكسب حلفائها في الحركة التي هي جزء منها . اننا نفهم الآن معنى نلك جيداً ، بعد ان دفعت الحركة في مجملها ، والمقاومة خاصة ، الثمن الباهظ .

ولا نعتقد ان ممارسة مثل هذا الدور ممكنة دون تغيير الاوضاع الذاتية اولا ، **فهي الاسـاس** في العـودة الجديدة . وبقدر ما يكون الاساس سليما،تكون النتائج أحسن ، خاصة وان اصلاح الوضع العربي يتطلب تغييراً جذرياً فيه وفي القوى المهيمنة والمسيطرة على مقدراته. وليس يعقل ان تكون المقاومة جزءاً من هذا الوضع ، يتوجه اليه بمطلب التغيير ثم يبقى هو بمنأى عن التغيير ، مع ان احواله ليست أحسن من أحوال غيره ، **بل هي** اكثر سوءاً ، من حيث الاطار العام،أم من حيث الوضع الخاص . ويشجع المقاومة على مثل هذا الدور الأزمة السياسية العامة التي تعاني منها مختلف الأنظمة، والتي جعلت الوضع يتطلب بديلا شاملا لا مفر منه من خلقه ، إذا شئنا ان لا تعود الأمة العربية إلى عصور بربريتها ، التي لاتني تقترب منها بخطى سريعة ، وتوشك ان تصل الى حافتها . والمقاومة تستطيع ان تلعب في هذا المجال دوراً حساساً وبارزا، شريطة ان تعمل للخلاص من نصيبها من عصر البربرية ، وان تحول نفسها إلى قوة مستقبلية ، اقوامها راسخة فوق ارض الحاضر ، ونظراتها نافذة الى ثنايا المستقبل تستجلي ما فيه ، لأنها تستلهم منه حدود مهماتها الراهنة ، كما تستلهمها من الواقع القائم ، وأخيراً ، فاننا نريـد التحذير من الاوهام التي كانت تراود الاذهان ذات يوم والقائلة ان في المقاومة دواء لكل داء ، وانها ستصلح الوضع العربي مفردها ، لأنها الوحيدة التـي تملك الاسلوب الصحيح والاهداف المقنعة . ثم ثبـت ان اصلاح الوضع العربي ليس في امكان حركة ضعيفة كالمقاومة.ان المقاومةلن تستطيع الآن ايضا اصلاح الوضع العربي بمفردها ، لكن نلك لا يعنـي ان لا تحاول ، فالوطن العربي مليء بالقوى القادرة على خوض تجربة التغيير.وعلى افتراض انه لا توجد فيه مثل هذه القوى، فان خوض التجربة هو جبهة رئيسية من جبهات الدفاع عن الذات . ثم ماذا تفعل المقاومة إذا كانت البضاعة السائدة ليست على ما يرام ؟ ! انها بالتأكيد لن تضع يدها في حضنها بانتظار الفرج الآتي من الغيب، بل يجب ان تعمل وتعمل ، لتحسين وضعها والوضع العربي العام ، **حتى لو لم تكن واثقة من النجاح** . ونحن لا ندعو إلى قفزات في الهواء،، وثوراجيات ويهورات لا معنى لها ، بل إلى عمل دؤوب ومتأن ، يدرس الوضع القائم جيداً بروح تتسم بالعقلانية والتفهم ، ويجد له الحلول العملية من خلال الممارسة واعمال الفكر ويتابع تنفيذه خطوة فخطوة الى ان يحدث تحول نوعي يستغرق انجازه سنوات وسنوات .

في الحالأت المشابهة لحالة المقاومة يوجد مخرج من اثنين :

اما التقوقع على الذات بانتظار الظروف الاحسن ، أو

العمل من ضمن خلق ضمانات الاستمرار لتحسين الوضع العام، الذي تثبت انه شرط النمو للخاص .

لقد تصدت المقاومة لخلق ادوات تعبير سياسي مستقلة للشعب العربي الفلسطيني ، وهي تجد نفسها الآن مهددة بوصفها هذا التعبير . والذي اهملته كان خلق حدا عظيما من التطابق بينها وبين ادوات التعبير الاخرى اولا ، وخلق شروط نمو موائمة لها وللحركة عموما ، تمكنها من التحول الى عامل فعال في الوضع العربي العام ، يضع العقبات في وجه تقهقره ويساعده على التخلص من عثراته ثانياً . والدور العربي للمقاومة كان يجب ان يحولها الى قوة نوعية ضمن الوضع المتاح، والى ضميره تتفاعل معه بهدف رفعه ومواجهته بمعضلاته الحقيقية. لكن نلك لم يحدث ، فصارت قوة من القوى الاخرى ، مقطوعة الجذور عن شروط نموها الخاصة وعن شروط نمو الحركة العربية العامة ، واداة التعبير السياسي، متى انقطعت عن القدرة على تنمية محيطها الطبيعي ، تتراجع وتتعرض للتفـكك ، وتتنقـل من انتكاسة لأخرى ، بقدر ما يكون الفارق كبيراً بين قدرتها الذاتية واهدافها العامة . والذي لم يدافع عن نفسه في اطاره الموضوعي ، يتعرض للأزمة فوق ساحته الخاصة كأداة، ينكشف صدره وظهره ، ويتعرض للتراجع ، حتى تسود القناعة بأنه صارعاجزاً، بصفته أداة ، عن انقاذ نفسه .

لقد مرت المقاومة بمراحل ثلاث .

ـ مرحلة النشوء .

ـ مرحلة الصعود الذي اعقب هزيمة الحركة العربية الوطنية في حزيران .

ـ مرحلة التدهور التي اعقبت التحولات التي حدثت داخل الحركة الوطنية العربية بعد حزيران ، وعقب اعادة

بناء ادوات الحكم في الدول العربية ، في اطار من القبول بمساومة عامة مع الامبريالية ، وليس من أجل مجابهة جديدة .

والمقاومة تقف الآن على عتبة مرحلة جديدة ظهر فيها ان المساومة لن تحدث بشروط الأنظمة، وانها قد تؤدي بها ، فاتحة المجال امام بدائل للوضع الراهن لا بد من العمل للتحكم بها ، بحيث تصبح شرطاً لنمو جديد لمجمل حركة الثورة العربية .

قدمنا تصوراً أولياً ومبسطاً حول المظهر العربي لأزمة المقاومة . ونعتقد انه لا يكتمل إلا بتقديم تصور مماثل لأزمتها الداخلية ، برغم ما بين الأزمتين من ترابط . •بقد ظفرنا إلى تقديم هذا التصور الطموح إلى ايجاد مخرج للأزمة العربية العامة وأزمة المقاومة ، وهو طموح يشغل كل المناضلين العرب ، ويجب أن نجري حوله نقاشاً مفصلاً وصادقاً .

الطبقة العاملة وحركتها النقابيَة في الضفة والقطاع*

د. مصطفى جمال

طوال سنوات الاحتلال الاسرائيلي شهدت الطبقة العاملة الفلسطينية تطورات عميقة وهامة على صعيد حجمها وثقلها وتكوينها الداخلي واكتسابها للعديد من المزايا الداخلية ، التي تفتح أمامها المجال للتحول الى دعم كبير وقاعدة يرتكز اليها نضال الوطنية من أجل دحر الاحتلال وانتصار الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني ، وفي مقدمتها حق العودة ، وتقرير المصير ، واقامة الدولة الوطنية المستقلة ، بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ، الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني .

ففي ظل الاحتلال وحاجته المستمرة لاستغلال الموارد التي تتمتع بها المناطق المحتلة ، وعلى رأسها تأتي اليد العاملة بأجر ، **توسعت الطبقة العاملة ونمت نمواً سريعاً في حجمها المطلق ، كما زادت نسبتها الى مجموع السكان والى مجموع القوة البشرية المنتجة ، نسبة تتجاوز الأغلبية . بالاضافة الى ذلك تحسنت ، الى حد كبير ، مزاياها الداخلية ، بمعنى درجة ثقافتها ، وتطور الوعي والتعليم بين صفوفها ، وتمركزها وزيادة عمال الانتاج وخاصة الصناعيين بين صفوفها ، على حساب عمال الانتاج الحرفي والزراعة ، وتحسين نسبة العمال الثابتين في العمل ، بحيث أصبحت تمتلك الأسس الموضوعية التي تمكن وتسهل عملية تنظيمها وتسييسها .**

وساهم في تصليب التكوين الداخلي للطبقة العاملة في المناطق المحتلة ، وفي إكسابها هذه المزايا المتقدمة ، العمال العاملون في المشاريع الاسرائيلية ، أو ما يسمى بعمال « ماوراء الخط الأخضر » ، الذين يشكلون الجسم الرئيسي من عمال المناطق المحتلة الأكثر وعياً وتقدماً ، ليس بسبب مزاياها وإنما ، أيضا ، لكونها الأكثر اضطهاداً ، قوميا وطبقيا .

غير أن مجمل هذه التطورات والتغيرات والامكانيات الموضوعية الثورية لم تتحول الى واقع فعلي ، على صعيد رفع درجة ومستوى وعي الطبقة العاملة لوضعها الجديد وقوتها المضطردة التقدم ، وللاستغلال الواقع عليها ، وللدور المطلوب ان تضطلع به في النضال الطليعي ، المطلبي والسياسي ، وتنظيمها في النقابات العمالية واستنهاض نضالاتها .

ويعود ذلك ، بشكل رئيسي ، لعدم اقتران هذه الأمكانيات الموضوعية الثورية بالعوامل الذاتية ، حيث بقيت العديد من القوى الوطنية والقيادات العمالية في المناطق المحتلة متخلفة عن هذه التطورات وبقيت أسيرة أفكار وتقاليد قديمة منسجمة مع وضع الطبقة العاملة في عهد النظام الأردني، ولم تضطلع ، بالتالي ، بتحمل مهماتها في تنظيم وتوحيد وتوعية هذه الطبقة ، وخاصة جسمها الرئيسي والذي تشكله فئة العمال العاملين في المشاريع والمؤسسات والمصانع الاسرائيلية .

كما يرجع ، أيضا **للمعضلات والثغرات، التي ما زالت تعاني منها الحركة النقابية في المناطق المحتلة** ، والناتجة عن عزلتها عن جماهير الطبقة العاملة (**فهي** لا تضم في صفوفها ، حتى الآن ، أكثر من ٧ بالمئة من العمال) وخاصة عن جسمها

* هذه الدراسة تلخص كتاباً سيصدر للكاتبض، في أواخر تموز الحالي ، بعنوان « الطبقة العاملة والحركة النقابية في الضفة الغربية وقطاع غزة » .

بناء ادوات الحكم في الدول العربية ، في اطار من القبول بمساومة عامة مع الامبريالية ، وليس من أجل مجابهة جديدة .

والمقاومة تقف الآن على عتبة مرحلة جديدة ظهر فيها ان المساومة لن تحدث بشروط الأنظمة، وانها قد تؤدي بها ، فاتحة المجال امام بدائل للوضع الراهن لا بد من العمل للتحكم بها ، بحيث تصبح شرطا لنمو جديد لمجمل حركة الثورة العربية .

قدمنا تصورا أوليا ومبسطا حول المظهر العربي لأزمة المقاومة . ونعتقد انه لا يكتمل إلا بتقديم تصور مماثل لأزمتها الداخلية ، برغم ما بين الأزمتين من ترابط . وقد ظفرنا إلى تقديم هذا التصور الطموح إلى ايجاد مخرج للأزمة العربية العامة وازمة المقاومة ، وهو طموح يشغل كل المناضلين العرب ، ويجب ان نجري حوله نقاشا مفصلا وصادقا .

الطبقة العاملة وحركتها النقابيّة في الضفة والقطاع*

د. مصطفى جمال

طوال سنوات الاحتلال الاسرائيلي شهدت الطبقة العاملة الفلسطينية تطورات عميقة وهامة على صعيد حجمها وثقلها وتكوينها الداخلي واكتسابها للعديد من المزايا الداخلية ، التي تفتح أمامها المجال للتحول الى دعم كبير وقاعدة يرتكز اليها نضال الوطنية من أجل دحر الاحتلال وانتصار الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني ، وفي مقدمتها حق العودة ، وتقرير المصير ، واقامة الدولة الوطنية المستقلة ، بقيادة منظمة **التحرير الفلسطينية** ، الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني .

ففي ظل الاحتلال وحاجته المستمرة لاستغلال الموارد التي تتمتع بها المناطق المحتلة ، وعلى رأسها تأتي اليد العاملة بأجر ، **توسعت الطبقة العاملة ونمت نمواً سريعاً في حجمها المطلق ، كما زادت نسبتها الى مجموع السكان والى مجموع القوة البشرية المنتجة ، نسبة تتجاوز الأغلبية . بالاضافة الى ذلك تحسنت ، الى حد كبير ، مزاياها الداخلية ، بمعنى درجة ثقافتها ، وتطور الوعي والتعليم بين صفوفها ، وتمركزها وزيادة عمال الانتاج وخاصة الصناعيين بين صفوفها ، على حساب عمال الانتاج الحرفي والزراعة ، وتحسين نسبة العمال الثابتين في العمل ، بحيث أصبحت تمتلك الأسس الموضوعية التي تمكن وتسهل عملية تنظيمها وتسييسها .**

وساهم في تصليب التكوين الداخلي للطبقة العاملة في المناطق المحتلة ، وفي إكسابها هذه المزايا المتقدمة ، العمال العاملون في المشاريع الاسرائيلية ، أو ما يسمى بعمال « ماوراء الخط الأخضر » ، الذين يشكلون الجسم الرئيسي من عمال المناطق المحتلة الأكثر وعياً وتقدماً ، ليس بسبب مزاياها وإنما ، أيضا ، لكونها الأكثر اضطهاداً ، قوميا وطبقيا .

غير أن مجمل هذه التطورات والتغيرات والامكانيات الموضوعية الثورية لم تتحول الى واقع فعلي ، على صعيد رفع درجة ومستوى وعي الطبقة العاملة لوضعها الجديد وقوتها المضطردة التقدم ، وللاستغلال الواقع عليها ، وللدور المطلوب ان تضطلع به في النضال الطليعي ، المطلبي والسياسي ، وتنظيمها في النقابات العمالية واستنهاض نضالاتها .

ويعود ذلك ، بشكل رئيسي ، لعدم اقتران هذه الأمكانيات الموضوعية الثورية بالعوامل الذاتية ، حيث بقيت العديد من القوى الوطنية والقيادات العمالية في المناطق المحتلة متخلفة عن هذه التطورات وبقيت أسيرة أفكار وتقاليد قديمة منسجمة مع وضع الطبقة العاملة في عهد النظام الأردني، ولم تضطلع ، بالتالي ، بتحمل مهماتها في تنظيم وتوحيد وتوعية هذه الطبقة ، وخاصة جسمها الرئيسي والذي تشكله فئة العمال العاملين في المشاريع والمؤسسات والمصانع الاسرائيلية .

كما يرجع ، أيضا **للمعضلات والثغرات، التي ما زالت تعاني منها الحركة النقابية في المناطق المحتلة** ، والناتجة عن عزلتها عن جماهير الطبقة العاملة (**فهي** لا تضم في صفوفها ، حتى الآن ، أكثر من ٧ بالمئة من العمال) وخاصة عن جسمها

* هذه الدراسة تلخص كتابا سيصدر للكاتبض، في أواخر تموز الحالي ، بعنوان « الطبقة العاملة والحركة النقابية في الضفة الغربية وقطاع غزة » .

الرئيسي الذي يمثله العمال العاملون في المشاريع الاسرائيلية ، وعن الخلل الكامن في تكوينها الداخلي .

وأمام هذا الوضع ، ومن أجل تطوير الحركة النقابية ، وتخليصها من معضلاتها ، وتصحيح مسارها ، ودفعها للحاق بركب التطورات الحديثة ، التي طرأت على حجم وتكوين الطبقة العاملة ، وتحويل النقابات الى مركز استقطاب ، واداة توحيد لجموع العمال وقيادة لنضالاتهم ، وبالتالي تعزيز التمثيل والنفوذ الاجتماعي والسياسي للحركة النقابية ، وتطوير مشاركتها في معارك النضال الوطنية ، تناضل القوى والاتجاهات العمالية الجذرية والتقدمية داخل النقابات من أجل تصحيح هذه الثغرات البارزة في تكوين الحركة النقابية وفي نشاطات النقابات واهتماماتها .

وقد أثمرت هذه النضالات بالاضافة للاوضاع المعيشية السيئة والمتدهورة التي تعاني منها الطبقة العاملة والتي ما فتئت تزداد سوءا تلو الاخر ، اثمرت في تحقيق العديد من **المنجزات الهامة والتطورات** الايجابية التي عرفتها الحركة النقابية بشكل خاص منذ مطلع عام ١٩٧٨ والتي تجسدت في زيادة الاقبال على الانخراط في النقابات العمالية وفي الانفتاح من جانب العديد من هذه النقابات امام القاعدة العمالية وفي احداث تصحيح نسبي في التكوين الداخلي للنقابات وتنشيط حياتها الداخلية وافشال المحاولات اليمينية للتخريب على وحدة الحركة النقابية التي تعززت من خلال انخراط نقابات جديدة في اطار الاتحاد العام لنقابات العمال في الضفة الغربية الذي مقره مدينة نابلس بصفته مركزا واطارا لوحدة الحركة النقابية واحياء عدد من النقابات المجمدة وتأسيس نقابات جديدة ، الامر الذي ساهم في زيادة التأثير والنفوذ الاجتماعي والسياسي للنقابات وفي قدرتها على لعب دور متعاظم في معارك المجابهة الوطنية مع الاحتلال وسياساته واجراءاته .

وقبل ان نشير الى ذلك بالتفصيل سنلقي اولا نظرة سريعة على الطبقة العاملة في المناطق المحتلة لرؤية التغيرات التي طرأت على تكوينها الداخلي .

اولا : ـ التطورات التي طرأت على حجم وتكوين الطبقة العاملة .

التطورات التي عرفتها الطبقة العاملة الفلسطينية في المناطق المحتلة تفند مجموع « الوصفات الجاهزة » والافكار المسبقة التي تلجأ اليها بعض القوى لتبرير عجزها وعزلتها الواسعة النطاق عن جماهير العمال وخاصة عن العمال المضطرين للعمل في المصانع والورشات الاسرائيلية مدعية بان الطبقة العاملة ما زالت نامية وغير متبلورة وغير قابلة للتنظيم حيث تؤكد هذه المعطيات ايضا انه **مع استمرار الاحتلال ومع تسارع عملية التحول الراسمالي** القائم على اساس تدمير اسس الاقتصاد الوطني للمناطق المحتلة لصالح الاحتلال والتي هي مستمرة بدون توقف ، **تستمر الطبقة العاملة في النمو** ، وفي اكتساب المزايا التي تمكنها من التحول فعلا الى قوة طليعية لجموع الحركة الوطنية المناهضة للاحتلال .

فحاجة الاحتلال المستمرة لاستغلال الموارد التي تتمتع بها المناطق المحتلة وعلى رأسها تأتي اليد العاملة بأجر من جهة وعملية الدمج الاقتصادي الكولونيالية وما ينتج عنها من افقار متزايد للبرجوازية الصغيرة في المدن والريف واجبار الاعداد المتزايدة منها على دخول سوق العمل المأجور في المشاريع الاسرائيلية من جهة اخرى ، ادت الى توسع صفوف الطبقة العاملة ونمو حجمها وزيادة نسبتها الى مجموع السكان والى مجموع القوة البشرية في سن العمل ، وقد جاءت هذه الزيادة على حساب الطبقات والشرائح الاجتماعية الاخرى .

ويمكن استنتاج ذلك من بعض الاحصائيات الاسرائيلية التي تقدر العدد الاجمالي المشاركين في الانتاج بحوالي ٢٠٥ الاف عام ١٩٧٦ ، علما بان هذا الرقم لم يكن يتجاوز الـ ١٧٣ الف عام ١٩٧٠ والـ ١٤٦ عام ١٩٦٨ . وقد بلغ الحجم الفعلي للطبقة العاملة وفقا لهذه الاحصائيات حوالي ١٢٥ الف عام ١٩٧٦ ، اي حوالي ٥٨٪ من مجموع المشاركين في الانتاج و٢٦٪ من مجموع السكان في سن العمل ، بينما ترتفع هذه النسبة لدى الذكور اكثر من ٦٢٪ حيث ان الغالبية العظمى من النساء القادرات على العمل يمارس العمل في المنزل ولا يشاركن الا بنسبة ضئيلة في العمل المأجور .

وهذه نسبة عالية جدا بالنسبة للبلدان النامية والمستعمرة وتؤكد بانه قد ينتج عن النمو في الحجم

المطلق للطبقة العاملة تغيير جذري في نسبة القوى الاجتماعية بين السكان لصالح الطبقة العاملة ، التي تتجاوز نسبتها الـ ٦٢ في المائة من مجموع السكان في سن العمل . في الوقت الذي شكلت فيه الطبقات الاخرى بما في ذلك البرجوازية الصغيرة اقل من ٣٨ في المئة ، بحيث يمكننا القول بان الطبقة العاملة تشكل الاغلبية بين مجموع الطبقات .

وترافق مع هذا النمو في حجم الطبقة العاملة وزيادة نسبتها الى مجموع السكان في سن العمل **تحسنا في مزاياها** من حيث زيادة نسبتها الى مجموع السكان في سن العمل ، ومن حيث **زيادة عمال الانتاج بين صفوفها ومن حيث الثبات في العمل والمهارة والتمركز والثقافة والوعي ...** وهذا يساعد على اكساب الطبقة العاملة درجة عالية من التماسك والتمركز ويسهل عملية تنظيمها والعمل السياسي بين صفوفها .

فقد شكل عمال الانتاج في مجالات الصناعة والبناء والمواصلات (الذين يخضعون لشروط مشابهة للعمال الصناعيين) الغالبية العظمى من الطبقة العاملة بحيث تجاوزت نسبتهم الـ ٥٦٪ من مجموع الطبقةالعاملة عام ١٩٧٦ .كما يتصف عمل العمال العاملين في قطاعات الصناعة **والبناء والى حد كبير عمال الزراعة والخدمات بالتمركز** . اما نسبة العمال **المهرة** من بين مجموع عمال الانتاج فقد بلغت حوالي ٥٥٪ عام ٧٦ ، وكذلك العمال الذين يتصف **عملهم بالديمومة** ، فان نسبتهم عالية جدا بالاضافة لذلك فقد مضى على عمل حوالي ٨٠٪ من العمال اكثر من خمس سنوات في عملهم .

وعلى ضوء هذا التحول في وضع الطبقة العاملة اصبحت هذه الطبقة تمتلك الاسس الموضوعية التي تسهل عملية تنظيمها كطبقة وعملية تحويلها الى طليعة سياسية لجموع الحركة الوطنية المناهضة للاحتلال .

اضافة لذلك فان الطبقة العاملة تعاني من استغلال مكثف ومزدوج بمعنى **قومي وطبقي** ، يرسي الأساس الموضوعي لانتفاع فئات واسعة من الطبقة العاملة لتشكيل قاعدة هامة للنضال السياسي المناهض للاحتلال كما سنرى .

غير ان هذا التغيير في نسبة القوى الاجتماعية الموضوعية لصالح الطبقة العاملة التي تعاني من الاستغلال المكثف والمزدوج لم ينتج عنه تغيير في نسبة القوى السياسية ما بين الطبقات **داخل الحركة الوطنية لصالح الطبقة العاملة** ، ويعود ذلك لعدم اقتران هذه الامكانيات الموضوعية بالعوامل الذاتية عوامل **الوعي والتنظيم والتسييس حيث ما** زالت بعض النقابات العمالية والعديد من القوى الوطنية في المناطق المحتلة بعيدة عن هذه التطورات التي عرفتها الطبقة العاملة الفلسطينية وبقيت اسيرة الافكار والتقاليد الحرفية والضيقة **ولم تتحمل بالتالي مهامها التاريخية** في تنظيم هذه الطبقة وخاصة منها في المشاريع الاسرائيلية او ما تسمى « بعمال ماوراء الخط الأخضر » .

وقبل ان نرى اسباب ذلك سنرى اولا التطورات التي عرفتها فئة العاملين في المشاريع الاسرائيلية ومشكلاتهم .

ثانيا : ـ العمال العاملون في المشاريع الاسرائيلية/ اوضاعهم ومشكلاتهم

يشكل العمال العاملون في المشاريع الاسرائيلية او ما يسمى بعمال ماوراء « الخط الأخضر » الجسم الرئيسي من عمال المناطق المحتلة ونواتها **الاكثر تقدما ووعيا بسبب مزاياها وصلابة تكوينها** من جهة واشكال الاستغلال القومي والطبقي الذي تتعرض له وبورها المتعاظم التأثير في الاقتصاد الاسرائيلي .

١ ـ فهذه الفئة من الطبقة العاملة في المناطق المحتلة تساهم في تصليب التكوين الداخلي لجموع الطبقة العاملة بسبب حجمها المتنامي وصفاتها المتقدمة . فقد ارتفع عددها من ٢٠,٦٠٠ عام ١٩٧٠ الى ٦٤,٨٠٠ عام ١٩٧٦ اي بنسبة ٥ و٢١٤٪ الى اكثر من ٧٠ الف في اوائل ١٩٧٩ . وارتفعت نسبة العاملين في المشاريع الاسرائيلية الى مجموع الطبقة العاملة في المناطق المحتلة الى ما يزيد الى ٥٨٪ عام ١٩٧٨

والغالبية العظمى من العمال العاملين في المشاريع الاسرائيلية هم من **عمال الصناعة والبناء** حيث بلغت نسبتهم حوالي ٧٠٪ من مجموع عمال المناطق المحتلة العاملين في المشاريع الاسرائيلية . ويزداد عدد العمال الصناعيين سنويا على حساب العاملين في

الزراعة والخدمات والبناء بحيث اصبحوا يمثلوا في مطلع عام ١٩٧٩حوالي ٢٨٪من مجموع العاملين في المشاريع الاسرائيلية رغم ان هذه النسبة لم تكن تتجاوز الـ ١١,٦٪ عام ٧٠ و١٩,٧ عام ١٩٧٦ . كما ارتفع عدد النساء العاملات في المشاريع الاسرائيلية بحيث بلغ عددهن ٢٣٤٠ امرأة في شباط ٧٩ ، علما بان هذا العدد لم يكن يتجاوز عدة مئات عام ١٩٧٦ .

ويتسم عمل العمال من ابناء المناطق المحتلة العاملين في المشاريع **الاسرائيلية في الغالب بالثبات والاستقرار .**

٢ ـ يعاني عمال ما وراء « الخط الأخضر » اضافة للاستغلال غير المباشر الناتج عن استغلال المناطق المحتلة باعتبارها سوق ملحقة بالاقتصاد الاسرائيلي وخاضعة لكافة مصاعب وازمات هذا الاقتصاد الذي يعاني من مظاهر التضخم الرأسمالي يعانون أيضاً الناتج عن استخلاص فائض القيمة من عمل هؤلاء العمال لصالح ارباب العمل الاسرائيليين وتتجلى أهم مظاهر هذا الاستغلال المزدوج والمكثف في الأمور التالية : ـ

سياسة الدمج الاقتصادي والحاق اقتصاد المناطق المحتلة بالاقتصاد الاسرائيلي الذي يعاني من ازمة متفاقمة حيث عرفت هذه السياسة تعميقا في تطبيقها في الشهور الاخيرة مع الاجراءات الاقتصادية الاخيرة لحكومة « الليكود » والتي **شملت بنطبيقها المناطق الفلسطينية المحتلة .**

واذا كانت هذه السياسة والتي فرضت رفعا للاسعار ونسبة الضرائب بشكل جنوني قد زادت من صعوبة معيشية غالبية طبقات الشعب في المناطق المحتلة غير ان المتضرر الرئيسي منها هو الطبقة العاملة بفئتيها عمال ما وراء « الخط الاخضر » والعمال العاملين داخل المناطق المحتلة . ليس فقط لانها تمثل اغلبية السكان النتجين وانما ايضا **لكونها محرومة من اي ضمان اجتماعي او صحي ، ومن اية زيادة في الاجور يتناسب مع الغلاء .**

ـ العمل الأسود او العمل بـ « التهريب » حيث يلجأ ارباب العمل الاسرائيليين الى استخدام عمال المناطق المحتلة خارج ما يسمى بـ « الرقابة الاسمية » حيث يضمنون من خلال نلك استغلالا اكبر لقوة عملهم الرخيصة ، بالاضافة لما يتعرض له هؤلاء العمال من نهب على يد « السماسرة » بين اصحاب العمل والعمال ، وما زال اكثر من ربع العمال العاملين في المشاريع الاسرائيلية يعملون من خلال « **سوق العمل السوداء** » في ظل سكوت سلطات الاحتلال .

ـ**التمييز العنصري** والذي يتجلى ليس فقط في توزيع عمال المناطق المحتلة في مجالات العمل المختلفة وتركزهم في الاعمال الشاقة والدرجات الدنيا من العمل ، وانما ايضا بالعديد من الوقائع العنصرية اليومية .

ـ**ظروف وشروط العمل السيئة** والتي تزيد في اصابات العمل وتؤدي في كثير من الاحيان الى وفاة العامل .

ـ **يوم العمل** الذي يكاد يبلغ ضعف يوم العمل بالنسبة للعامل اليهودي بسبب بعد اماكن عمل عمال المناطق المحتلة عن اماكن سكنهم .

ـ اما العمال الذين يضطرون للمبيت في اماكن العمل تجنبا لمشكلات السفر فانهم يضطرون نظرا لعدم توفر اماكن مبيت مناسبة وبسبب رفض اليهود تأجير غرفة للعمال ، يضطرون للنوم في اكواخ من تنك او بنايات لم تكتمل .. الامر الذي نتج عنه قتل العشرات منهم بسبب قساوة هذه الظروف .

·**التمييز في الأجور** والاستقطاعات والحرمان من الضمانات .

الفصل التعسفي الذي اول ضحاياه العمال من ابناء المناطق المحتلة .

تشغيل الاحداث الذين لا تتعدى اعمارهم الـ ١٤ سنة في ظروف غير انسانية .

ـ وأضيف لهذه الأشكال شكل جديد في عهد الاستسلام الساداتي ، من خلال تهديد أرباب العمال اليهود ، العمال العرب المطالبين بتحسين شروط عملهم ورفع أجورهم باستبدالهم بعمال مصريين !!

٣ ـ ان هذه الفئة من عمال المناطق المحتلة تشكل **قوة اساسية في مجالات هامة من الاقتصاد الاسرائيلي** خاصة في قطاعات البناء والزراعة والصناعة والخدمات وهي **قادرة بالتالي اذا ما توحدت وتنظمت ان تملي على ارباب العمل الاسرائيليين الاستجابة لمطالبهم المباشرة كما انها قادرة على ان تلحق اضرارا واسعة اقتصادية وسياسية بالاحتلال في الظروف المناسبة .**

ويهذا الصدد اعرب مدير قسم الخدمات في وزارة العمل الاسرائيلية عن قلق المسؤلين الاسرائيليين من زيادة عدد عمال المناطق المحتلة في اسرائيل ومما سماه « سيطرتهم » على عدد من مجالات العمل . وأعلن حقلائي ان عدد هؤلاء العمال في اسرائيل بلغ في آب ١٩٧٨ اكثر من ٦٠ الف عامل شكلوا نسبة ٥,٤٪ من مجموع العمال في اسرائيل واضاف أن نسبة هؤلاء العمال من عمال البناء في اسرائيل تبلغ ٣٠٪ ومن عمال الزراعة ٢٥٪ ومن عمال النظافة والخدمات والنقل ٢٠٪ و٧٪ من مجموع العاملين في المشاريع الصناعية وقال أن نسبة هؤلاء العمال في هذه الفروع تبلغ ١٦٪ .

٤ ـ إن كافة هذه المعطيات تبين لنا بشكل واضح بأن صلابة التكوين الداخلي للطبقة العاملة في المناطق المحتلة وتصاعد درجة تمركزها وثباتها تأتي **بشكل رئيسي من الأهمية المتزايدة التي يلعبها عمال ما وراء « الخط الأخضر » في تكوينها** وأشكال الاضطهاد المزدوج والمكثف الذي يتعرضون لها ودورهم المتعاظم في الاقتصاد الاسرائيلي ، غير أن هذا الجزء الرئيسي من جسم الطبقة العاملة في التنظيم النقابي الأمر الذي يشكل عائقاً كبيراً امام قدرة الطبقة العاملة في المناطق المحتلة **على لعب دور يستفذ امكانياتها في النضال المناهض للاحتلال .**

ويعود سبب تقصير الحركة النقابية في المناطق المحتلة عن الاضطلاع بهذه المسؤولية التاريخية الى هيمنة الافكار والاتجاهات الاصلاحية والبيروقراطية لدى اوساط متنفذة في قيادة هذه الحركة والتي لم تستوعب التطورات الهامة التي طرات على جسم الطبقة العاملة في الوقت الذي واصلت فيه تمسكها بحرصها على « احترام الشرعية » وعدم القيام بأية خطوة جدية لتنظيم العمال العاملين في المشاريع الاسرائيلية ما ما دامت القوانين الاسرائيلية تحرم هؤلاء العمال من حقهم بالتنظيم .

أن النتيجة العملية المباشرة لمثل هذه السياسة القاصرة والعاجزة عن اللحاق بركب التطورات التي حصلت في حجم وتكوين الطبقة العاملة الفلسطينية في المناطق المحتلة هو ترك هذا الجزءالرئيسي من الطبقة العاملة **مبعثرا مجزءا في وجه جشع ارباب العمل الاسرائيليين الذين لا يدخرون** فرصة من أجل تكثيف امتصاص دم العمال العرب في محاولة لحرمانهم من لعب اي دور وطني في النضال ضد الاحتلال .

ثالثا : ـ تنامي الحركة المطلبية للطبقة العاملة : ـ

شهدت المناطق المحتلة في السنة الاخيرة تناميا كبيرا للحركة المطلبية للطبقة العاملة عبرت عن نفسها بموجة الاضرابات وعرائض ومنكرات الاحتجاج للمطالبة بتحسين شروط العمل ورفع الاجور بسبب ارتفاع تكاليف المعيشة من جراء السياسة الاقتصادية للحكومة الاسرائيلية والتي ادت الى رفع الاسعار وزيادة نسبة الضرائب وبالتالي الى نقص القدرة الشرائية لدى جماهير العمال .

وقد تصاعدت هذه الحركة في الفترة الاخيرة خاصة امام ان رفض أصحاب العمل رفع الاجور بما يتناسب مع الارتفاع في الاسعار بينما زاد بعضهم في هجومه على مكاسب العمال واستغلوا من أجل نلك كل سلبيات قانون العمل الاردني .

فالاجراءات الاقتصادية التي اتخذتها الحكومة الاسرائيلية وخاصة منذ صعود **الليكود** الى السلطة والتي فرضت رفعا للاسعار ونسبة الضرائب بشكل جنوني وشملت بتطبيقها المناطق المحتلة تعميقا لنهج الحاق اقتصاد هذه المناطق بعجلة الاقتصاد الاسرائيلي الذي يعاني من مظاهر التضخم الرأسمالي وجعله بالتالي خاضعا لكافة مصاعب وازمات هذه الاقتصاد ، وزادت من صعوبة معيشة غالبية طبقات الشعب وكان اول المتضررين منها سكان المناطق الفلسطينية المحتلة ونلك ليس بسبب كونها تتم على حساب اصحاب الدخول المحدودة والعائلات الكبيرة العدد وهي حالة الغالبية العظمى من الفلسطنيين وحسب وانما ايضا بسبب التفاوت الكبير بين مستوى دخل الفرد في اسرائيل ودخل المواطن في المناطق المحتلة اضافة لحرمان مواطني

هذه المناطق من منح علاوات غلاء المعيشة التي تتناسب مع غلاء المواد الاساسية لحياتهم .

والمتضرر الرئيسي من هذه الاجراءات في **المناطق المحتلة هو الطبقة العاملة الفلسطينية التي تشكل أغلبية السكان المنتجين** . فهي التي تتحمل ثقل هذه الاجراءات وهي التي يزداد تدهور مستوى معيشتها خاصة وانها محرومة من اي ضمان وتعمل بأجور منخفضة .

وزاد في احوال الطبقة العاملة سوءا الهجمة والاعتداءات التي تعرضت لها حقوق ومكاسب العمال على يد بعض ارباب العمل العرب والرأسمالية العربية ورفض البعض الاخر رفع اجور العمال بما يتناسب مع الارتفاع في الاسعار محولين بذلك عمليا وحدة طبقات الشعب الوطنية في مواجهة الاحتلال الى سلام يشهرونه في وجه الطبقة العاملة .

وقد جوبهت اجراءات من السلطات الاحتلال الاقتصادي التي تشكل خطرا بهدد مصالح مجموع طبقات الشعب الوطنية في موجة من السخط الذي عم المناطق المحتلة تجلى في عرائض منكرات وبرقيات الاستنكار التي وجهتها الهيئات التمثيلية في هذه المناطق لسلطات الاحتلال والتي اعلنت فيها شجبها لهذه الاجراءات ورفضها لها كما قامت وفود عديدة تمثل تجار مدن المناطق المحتلة بمقابلة المجالس المحلية للبلديات طالبت التدخل والطلب من سلطات الاحتلال الاسرائيلي التوقف عن جباية الضرائب واعادة النظر في المبالغ المطلوبة منهم واعرب رؤساء المجالس البلدية عن احتجاجهم الشديد على فرض الضرائب المتزايدة التي تفرض على كاهل المواطنين العرب على الاساليب التي تتبع في تقدير قيمة الضرائب وتحصيلها .

غير ان مواجهة ناجحة لهذه الاجراءات وللسياسة الاقتصادية الاسرائيلية ازاء المناطق المحتلة تتطلب من الهيئات الوطنية والتمثيلية رص صفوفها وتوحيد جهودها ومشاركة اوسع القطاعات الجماهيرية المتضررة منها في تنظيم مواجهة فعلية ضدها .

وتأتي في مقدمة هذه المؤسسات النقابات العمالية التي تقع على عاتقها دور رئيسي في تنظيم اشكال المواجهة الفعالة وذلك من خلال اقدامها على ممارسة برنامج عمل فعلي للدفاع عن مصالح وحقوق العمال الذين تعرضهم هذه الاجراءات الى مزيد من السحق والتضرر .

ولا يمكن للنقابات الاضطلاع بهذا الدور الا من خلال تنظيم الطبقة العاملة الفلسطينية وتوحيدها وتنظيم اشكال التعاون فيما بينها – تعميم التعاونيات الاستهلاكية والاشكال التعاونية الاخرى وانهاض نضالها المطلبي والسياسي وبهذا كله يمكن ان تشكل الطبقة العاملة ونضالاتها قاعدة صلبة لوحدة مجموع الطبقات المناهضة للاحتلال ولسياسته الاقتصادية من خلال تشكيل لجان مكافحة الغلاء وتنظيم اشكال المقاطعة الاقتصادية ورفض دفع الضرائب وغيرها من اشكال المواجهة الممكنة .

ومن جهة اخرى عرفت الحركة المطلبية للطبقة العاملة في المناطق المحتلة نموا كبيرا خلال السنتين الاخيرتين من أجل تحسين شروط عمل العمال ورفع اجورهم بما يتناسب مع الارتفاع في مستوى المعيشة والدفاع عن مكتسبات الطبقة العاملة التي تعرضت في الفترة الاخيرة لهجمة على يد بعض ارباب العمل والرأسماليين المحليين .

فقد نجح عمال شركة سجاير القدس في قرية أبو ديس في اوائل ٧٨ فرض زيادة ٢٠ بالمئة على رواتبهم الاساسية بعد سلسلة من المفاوضات مع رب العمل الذي اضطر الى الرضوخ لمطالبهم .

وفي محاولة للالتفاف على هذا النجاح بادر القائمون على الشركة بفصل ثلاثة عمال ممن يعملون في الشركة منذ خمس سنوات بحجة التحريض على الاضراب ودعوة العمال الى الانتساب للنقابة حيث شهدت الشركة حركة احتجاج واسعة في صفوف العمال تطالب باعادة المفصولين الى عملهم ووقف الاعمال التعسفية .

وفي صيف ١٩٧٨ طالب عمال شركة الزيوت النباتية في نابلس برفع مرتباتهم وزيادة غلاء المعيشة زيادة تتناسب والظروف الاقتصادية التي يعيشها العمال .

كما طالب العمال ادارة الشركة بتعديل بدل العلاج الذي تدفعه الشركة لهم والبالغ خمسة دنانير اردنية سنويا ليصبح متناسبا مع الظروف الراهنة .

وحققت عمال شركة الغاز في الرام – رام الله زيادة قدرها ٤٠٠ ليرة اسرائيلية شهريا على راتب كل منهم بعد اضراب عن العمل والجدير ذكره ان هذه الشركة ذات راس مال مشترك اسرائيلي – محلي كما حققت عاملات مصنع الالبسة الجاهزة في رام الله من خلال نضالهم واعلانهن الاضراب التباطيء زيادة في الاجور وتحسين ظروف العمل وحقق عمال وعاملات الأدوية وعمال المطبعة المركزية في رام الله مجموعة من المكاسب فيما يتعلق برفع الاجور والعطل المدفوعة في الاعياد ذو المناسبات العمالية .

وفي مطلع عام ١٩٧٩ قام الالاف من العمال العاملين في القدس المحتلة باضراب شامل احتجاجا على تدني اجورهم وعدم تاثير الظروف الملائمة لعملهم وصرح ممثلوهم انهم لا يتساوون في الحقوق مع العمال اليهود العاملين معهم في نفس المشاريع وخاصة في الفنادق والمطاعم .

ولعل ابرز مثال على هذه التحركات ، اضراب « عمال مطعم امية » في القدس المحتلة في حزيران ١٩٧٨ . والذي دام ستة أيام استطاع عمال المطعم بعده تحقيق مطالبهم العادلة التي تضمنتها العريضة التي تقدم بها عمال المطعم الى الادارة وفي مقدمتها زيادة الاجور بمعدل ٣٢٪ لكل العمال والاقلاع عن سياسة الفصل التعسفي من العمل ووضع حد للمعاملة اللاانسانية علاقة الادارة وأصحاب المطعم بالعمال .

وبالرغم من صغر المرفق الذي تم فيه هذا الاضراب الا أنه قد جاء ليشير بشكل واضح الى تصاعد الحركة المطلبية للطبقة العاملة وتنامي حسها الطبقي التضامني وليطرح الحاجة الماسة لتنظيم عمال الفنادق والمطاعم والمقاهي – لم تكن نقابة عمال الفنادق والمطاعم والمقاهي قد اسست بعد وقد سرع هذا التحرك في عملية احيائها – في نقابة خاصة بهم كما اكد على ضرورة اضطلاع النقابات العمالية والاتحاد العام لنقابات العمال بدورها في الدفاع عن مصالح الطبقة العاملة وتوحيدها وتنظيمها من اجل انتصار مطالبها .

ففي الكثير من الاحيان ، وقفت بعض القيادات النقابية موقفا محايدا واحيانا متحفظا من التحركات المطلبية للعمال العاملين في المشاريع العربية بحجة الحفاظ على وحدة كافة الطبقات الوطنية ومنها البرجوازية في مجابهة الاحتلال متناسين بان وحدة الجبهة الوطنية ضد الاحتلال لا يمكن ان تقوم على قاعدة تجويع العمال وانما على اساس مشاركة جميع الطبقات في تحمل عبء السياسات الاحتلالية . والنضال ضدها .

وقد نظمت معظم هذه التحركات من قبل العمال مباشرة بسبب احجام بعض القيادات النقابية عن الاضطلاع بدورها في تنظيم وقيادة نضالات العمال وكانت النقابات تتدخل هذا اذا ما تدخلت في وقت لاحق ليس من اجل دعم تحرك العمال وتأطيره وتوفير شروط انتصاره وانما من خلال محاولة « اقناع » ارباب العمل بالتوصل الى حل وسط مع العمال المضربين احيانا والاستفادة من بعض العناصر المساندة للعمل النقابي لتحقيق بعض المكاسب من جهة اخرى .. وفي الكثير من الاحيان لعبت القادات النقابية دور الوسيط (!) بين العمال وارباب العمل .

ان هذا الوضع يطرح على راس جدول اعمال الحركة الوطنية في المناطق المحتلة وقواها التقدمية النضال من اجل تطوير الحركة النقابية حتى تصبح – كما ينبغي ان تكون سلاحا حقيقيا للطبقة العاملة في المناطق المحتلة واطارا موحدا ومنظما لنضالاتها .

وقبل ان نرى الشروط التي لابد منها من اجل تطوير الحركة النقابية وتصحيح مسارها سنلقي نظرة سريعة على الوضع الراهن للحركة النقابية ومعضلات هذه الحركة .

رابعاً : من اجل تطوير الحركة النقابية وخلاصها من معضلاتها ..

وامام هذا الوضع ومن اجل تطوير الحركة النقابية وتخليصها من معضلاتها وتصحيح مسارها ودفعها للحاق السريع بركب التطورات الحديثة التي حصلت في حجم وتكوين الطبقة العاملة وتحويل النقابات الى مركز استقطاب وأداة توحيد لمجموع العمال وقيادة لنضالاتهم وبالتالي تعزيز التمثيل والنفوذ الاجتماعي والسياسي للحركة النقابية وتطوير مشاركتها في معارك النضال الوطنية ، ودورها في قيادة الطبقات الوطنية المناهضة للاحتلال تناضل منظمة الجبهة الديمقراطية في المناطق المحتلة وعدد من القوى العمالية النقدمية الاخرى والعمال الطليعيين من اجل تصحيح الثغرات البارزة في تكوين الحركة النقابية وفي نشاطاتها واهتماماتها .

* **توسيع القاعدة العمالية** :ـ بالرغم من زيادة عدد العمال المنخرطين في النقابات العمالية وتواري سياسة تطفيش العمال نسبيا والتمسك بسلبيات اللوائح الداخلية من اجل وضع العراقيل امام انتساب العمال للنقابات الا ان هذه النقابات مازالت معزولة عن الطبقة العاملة ولا تكاد تضم في صفوفها اكثر من ٧ بالمئة من مجموع الطبقة العاملة لم تكن هذه النسبة تتجاوز الـ ٤ بالمئة في اوائل عام ١٩٧٨.

ومن اجل المساهمة في فك العزلة عن النقابات وتوسيع قاعدتهاالعمالية تناضل القوى والاتجاهات الجذرية والتقدمية داخل النقابات من اجل **اعادة النظر باللوائح الداخلية وشروط العضوية بما يمكن من اتاحة المجال لتنسيب كل عامل راغب في** الانتساب للنقابة وكذلك تشكيل لجان التنسيب المتعددة على صعيد المناطق والمهن وموقع العمل والسكن ومنح العمال النقابيين حق امتلاك دفاتر التنسيب للنقابة ... الخ .

ولا ينفصل عن هذا كله دفع النقابات للمبادرة بتشكيل الفروع النقابية في القرى والمدن التي لا نقابات فيها خاصة وان جزءا رئيسيا من الطبقة العاملة انما يتكون من ابناء هذه القرى والمدن . حيث يحول بعد مقر النقابات عنها دون مشاركة عمالها في نشاطات النقابات او الانتساب اليها .

وبهذا يمكن تنظيم الالوف من ابناء الطبقة العاملة في النقابات الامر سيؤدي الى تقوية هذه النقابات وزيادة طاقاتها النضالية من اجل الدفاع عن حقوق العمال ومطالبهم .

* **استكمال تصحيح التكوين الداخلي للنقابات وتعزيز الديمقراطية النقابية** : ـ كما ان تصحيح الخلل الكامن في التكوين الداخلي للنقابات واختيار الشكل القادر على المساهمة في تعبئة شرائح وفئات اوسع من العمال في صفوف النقابة وفي اشاعة الديمقراطية داخل النقابة سيساهم بدوره في توسيع القاعدة العمالية لهذه النقابات وزيادة ثقلها .

فالبنية الداخلية الحالية للنقابات العمالية في الضفة الغربية تتلاءم مع مرحلة سابقة من مراحل تطوير الطبقة العاملة في الضفة قبل ان تؤدي سياسة الدمج الاقتصادية الكولونيالية التي مارستها سلطات الاحتلال الاسرائيلي الى زيادة حجم الجمهور العمالي بشكل ، **وماطرا** على هؤلاء العمال من تطورات **وما اكتسبوه** من مزايا جديدة ولم تعد قادرة بالتالي على التلاؤم مع هذه التطورات الجديدة .

وتناضل القوى التقدمية والجذرية داخل النقابات من اجل تكييف، بنيانها الداخلي مع التطورات الجذرية في تكوين قاعدتها الجماهيرية الجديدة وذلك بتشكيل الفروع النقابية المتعددة في اطار كل مهنة من مهن العمال المختلفة وخاصة نقابات عمال المؤسسات العامة التي تتميز بكونها مختلطة ومتعددة مهنياً وتحويل هذه الفروع الى فروع مستقلة نسبيا في مهماتها ونشاطاتها المباشرة.كما تناضل هذه القوى لتطوير اللجان النقابية التي اقدمت عدد من الهيئات الادارية للنقابات على تشكيلها حتى تتحول الى اطار تنظيم صفوف العمال انطلاق من المهنة الواحدة وظروف العمل الواحد ومشكلاته المشتركة .

ولا يمكن فصل مسالة توسيع القاعدة العمالية للنقابات وتصحيح تكوينها الداخلي عن تعزيز **الديمقراطية النقابية** بما يمكن المشاركة الفعلية من قبل العمال في صنع سياسة نقابتهم والانخراط في نشاطاتها ونضالاتها ومغادرة نهج الاستئثار والفئوية واقرار حق الاتجاهات النقابية السياسية المتعارضة في التعبير عن نفسها والتمثل في الهيئات القيادية للنقابات والاتحاد العام وفق وزنها ونفوذها الفعليين .

وتناضل القوى الجذرية والتقدمية في النقابات لتطوير الانجازات التي شهدتها هذه النقابات في هذا المجال من خلال اقدام الهيئات الادارية للنقابات على تقديم تقارير لهيئاتها العمومية وظاهرة اللوائح الانتخابية المتعددة من خلال اقرار نظام جديد للانتخابات ان يستند الى قاعدة التمثيل النسبي في الهيئات القيادية للنقابات العمالية على اساس حجم الاصوات لكل قائمة من القوائم المتصارعة .

* **التسريع في عملية زج النقابات في الدفاع عن مصالح الطبقة العاملة** من اجل الحد من الاستغلال الواقع عليها وتحسين شروط عملها والزيادة في اجورها بما يتناسب مع الارتفاع في الاسعار وذلك بتطوير ما تم انجازه على امتداد العام الماضي في هذا المجال واقدام النقابات على ممارسة

برامج عمل فعلية للدفاع عن المصالح العمال والقضايا والمشاكل التي يعانون منها والنضال لتحسين شروط العمل ورفع اجور العمال العاملين في المشاريع والمؤسسات الوطنية من خلال ايجاد حل وطني لهذه المسألة يوفق بين حقوق العمال من جهة وقدرة الصناعة الوطنية على الصمود وفق معدلات ربح معقولة من جهة اخرى بان تبادر النقابات باسم الطبقة العاملة الى الدعوة لتشكيل لجان في كل منطقة وعلى المستوى الوطني تضم ممثلي النقابات وممثلي البلديات والغرف الصناعية والتجارية من اجل النظر بوسائل توزيع عبء الغلاء والتضخم بصورة معقولة حتى تدفع الطبقة العاملة وحدها ثمن ضرورة وحدة طبقات الشعب الوطنية من مواجهة الاحتلال .

وقد تبلورت المطالب العمالية من خلال التحركات النضالية التي شهدتها المناطق المحتلة على امتداد العام الماضي في حرية الانتماء والنشاط النقابي وزيادة الاجور يتناسب مع الارتفاع في الاسعار وتحسين شروط العمل ووضع حد للفصل التعسفي وتحديد ساعات العمل بما لا يتجاوز الـ ـ ٨ ساعات واعتبار عطلة الاول من ايار لجميع العمال والـ ـ ٨ من اذار للنساء العاملات عطلة مدفوعة الاجر ومنح الاجازات السنوية والمرضية المدفوعة واقرار مبدأ الاجر الواحد للعمل الواحد بين النساء والرجال ... الخ .

وعلى النقابات تثبيت هذه المطالب في برامجها والنضال من اجل انتصارها .

* **انتزاع حق تمثيل وتنظيم العمال العاملين في المشاريع والمؤسسات الاسرائيلية والدفاع عن حقوقهم** وقيام النقابات بمعزل عن عشرات الالوف من العمال العاملين في المشاريع الاسرائيلية والذين يشكلون الجزء الرئيسي من مجموع الطبقة العاملة في المناطق المحتلة ونواتها الاكثر وعيا وتقدما .

وحتى الان فما زال هذا الجزء الهام من الطبقة العاملة مبعثرا مجزءا في وجه جشع ارباب العمل الاسرائيلين الذين لا يدخرون فرصة من اجل تكثيف امتصاص دم العمال العرب في محاولة لحرمانهم من لعب اي دور وطني في النضال ضد الاحتلال .

وتناضل القوى الجذرية والتقدمية داخل النقابات من اجل زج النقابات في الدفاع عن حقوق عمال « ماوراء الخط الاخضر » من خلال الاهتمام بمشكلات هذا الجزء الحيوي من الطبقة العاملة والتي ابرزها :

ـ المساواة الكاملة في الاجور والحقوق وشروط العمل .

ـ ضمان التمتع الفعلي بالتأمينات الاجتماعية والصحية مقابل الحسومات العالية العاليه

ـ الغاء خضوع العمال العرب لسريان الرسوم والضرائب الاسرائيلية المجحفة .

ـ وضع حد لكافة اشكال مظاهر التمييز العنصري ضدهم .

ـ تحسين ظروف وشروط عملهم ونقلهم وسكنهم .

ـ وضع حد للفصل التعسفي والطرد من العمل والتعويض عن اصابات العمل .

ـ وضع حد للاستغلال البشع للاحداث من ابناء المناطق المحتلة .

ـ حقهم في الانتماء والتنظيم النقابي الوطني المستقبل عن « الهستدروت » .

وقد اصبح اقدام الاتحاد العام والنقابات العمالية على انجاز هذه المهمات التي على راسها تنظيم عمال ماوراء « الخط الاخضر » ومغادرة مواقفها الانتظارية ازائهم اصبح يكتسي ضرورة ملحة **حتى يكسب الاتحاد وتكسب النقابات قوة مادية مضاعفة تمكنها من الاضطلاع بدورها من مركز اكثر قوة وفعالية .**

* **حماية حقوق المراة العاملة** خاصة امام ازدياد عدد النساء العاملات باجر بشكل ملحوظ في السنوات الاخيرة حيث تتعرض المراة العاملة بالاضافة لكافة مظاهر الاستغلال التي يتعرض لها جيش الاجراء تتعرض في ظل غياب اي قانون يحمي حقوقها الى استغلال اضافي .

وعلى النقابات العمالية الاضطلاع بدور ملموس من اجل حماية حقوق النساء العاملات ومصالحهن وذلك بتحقيق مجموعة من المهمات والخطوات الضرورية بتشكيل اللجان لحماية حقوق المراة العاملة في نقابة تضم عناصر نسائية واقرار الاجر المتساوي و ٨ اذار العيد العالمي للمراة ـ عطلة رسمية مدفوعة الاجر واجازة ولادة مدفوعة الاجر وتطوير كافة الاشكال المساعدة لعمل الامهات

العاملات خارج العمل وتنظيم دورات ومراكز التدريب المهني وبهذا يمكن المساهمة عمليا في الدفاع عن حقوق المرأة العاملة وحماية مصالحها .

* **استكمال خطوات توحيد الحركة النقابية واحياء النقابات المجمدة وتأسيس نقابات جديدة** وذلك بضم النقابات التي مازالت خارج الاتحاد العام للاتحاد بصفته مركزاً لوحدة الحركة النقابية وهي نقابات القدس (عمال شركة كهرباء القدس ونقابة مستشفى المطلع ونقابة عمال موظفي المقاصد ونقابة عمال الفنادق والمطاعم والمقاهي التي تأسست مؤخرا) المنضوية حاليا في اطار العضوية المؤازرة ونقابات الخليل التي انضم جزء منها للاتحاد في مطلع عام ٧٩ (الغزل والنسيج وصانعي الاحذية وعمال التجارة) بينما لا يزال جزء منها (عمال الخياطة وسائقي السيارات خارج الاتحاد) .

ومن اجل تعزيز وحدة الحركة النقابية فان على الاتحاد العام والنقابات العمالية والاتجاهات الجذرية فيها المبادرة لدعم كافة الجهود الرامية لاحياء النقابات المجمدة (وفي القدس والخليل واريحا .....) والتعاون مع نشطاء العمال والمجالس البلدية الوطنية لتشكيل نقابات عمالية في المدن التي لا يتواجد فيها نقابات (قلقيلية – بيت ساحور – بيت جالا – حلحول ..) وكذلك دعم الجهود الرامية الى تنشيط فرع الاتحاد العام لعمال فلسطين في غزة والذي أعيد احيائه في الأول من ايار ١٩٧٩ .

خامساً : تطورات هامة ... ومظاهر ايجابية بارزة :

شهدت المناطق الفلسطينية المحتلة على امتداد العام الماضي تطورات هامة ومظاهر ايجابية بارزة شكلت علامات اولى على طريق انتقال الطبقة العاملة وتجسيداتها المنظمة الى مواقع القوة المؤثرة الرئيسية في التحالف الوطني **ضد الاحتلال وسياساته واجراءاته .**

وتجسدت هذه التطورات في تصاعد واتساع النضالات المطلبية وزيادة الاقبال على الانخراط في صفوف النقابات العمالية ، وفشل المحاولات اليمينية للتخريب على وحدة الحركة النقابية التي تعززت من خلال انخراط نقابات جديدة في اطار الاتحاد العام لنقابات العمال في الضفة الغربية واحياء عدد من النقابات المجمدة وتأسيس نقابات جديدة ، الامر الذي ساهم في زيادة التأثير والنفوذ الاجتماعي والسياسي للنقابات وفي قدرتها على لعب دور متعاظم في معارك المجابهة الوطنية مع الاحتلال والتي شهدتها المناطق المحتلة على امتداد العام الماضي .

وقد ساهم في احداث هذه التطورات بشكل أساسي ، **الأوضاع المعيشية السيئة التي تعاني منها الطبقة العاملة التي زادت سوءاً في السنة الاخيرة بالاضافة للنضال الذي خاضته القوى العمالية الجذرية والتقدمية داخل النقابات العمالية** والتي مارست مسؤولياتها في نقد المعضلات التي تعاني منها الحركة النقابية والسياسية الخاطئة للعديد من القيادات النقابية وناضلت من خلال النقابات لتصحيح مسارها وتخليصها من معضلاتها .

١ – زيادة الاقبال على الانخراط في النقابات وتصاعد النضالات المطلبية :

شهدت النقابات العمالية في الضفة الغربية المحتلة **اقبالا متزايدا على الانتساب اليها وانفتاحا من جانب العديد منها امام القاعدة العمالية ، وتراجعت سياسة وضع العراقيل امام طالبي الانتساب من العمال .**

وقد ارتفع عدد العمال المتقدمين بطلبات انتساب للنقابات بشكل كبير ، بحيث بلغ عدد المتقدمين بطلبات انتساب لنقابة عمال البناء والمؤسسات العامة في رام الله والبيرة وحدها خلال عام ١٩٧٨ ، بلغ ٦٥٢ عاملا ، علما بان عدد الهيئة العمومية لهذه النقابة لم يكن يتجاوز الـ ٣٠٠ عامل في اواخر عام ١٩٧٧ .

وادى ذلك الى تكريس تقاليد عمالية جديدة تجسدت في فتح ابواب النقابات امام العمال الراغبين في الانتساب للنقابة ومبادرة عدد من الهيئات الادارية للنقابات لتشجيع العمال على الانتساب للنقابات وتسهيل ذلك ، والى وضع هذه النقابات على الطريق الصحيح للخروج من واقع التقوقع والتحول الى نقابات جماهيرية واسعة التمثيل ، حيث ساهمت

هذه الظاهرة في مضاعفة حجم وعدد بعض النقابات .

وجاءت هذه الظاهرة لتشير الى مدى تطور وعي الطبقة العاملة في المناطق المحتلة ، وادراكها لاهمية العمل النقابي وضرورة التوحد والتنظيم في النقابات ، كما جاءت لتعكس التدني الذي طرأ على مستوى معيشة الطبقة العاملة وحاجتها للنضال عبر النقابات من اجل رفع اجورها بما يتناسب مع الغلاء وتحسين شروط عملها .

فقد ادت الاجراءات الاقتصادية التي اتخذتها السلطات الاسرائيلية والتي شملت بتطبيقها المناطق المحتلة الى انخفاض القدرة الشرائية لدى العمال بسبب ارتفاع الاسعار بحيث بلغ رفع جدول الاسعار بالنسبة للمستهلك في عام ١٩٧٨ وحده بحوالي ٦٠ بالمئة في الوقت الذي يتوقع ان تبلغ هذه النسبة ٦٦ بالمئة سنويا خلال عام ١٩٧٩ وذلك نتيجة ارتفاع نسبة التضخم في اسرائيل والتي بلغت ٦٠ بالمئة من عام ١٩٧٩ ، وسقوط قيمة العملة الاسرائيلية حتى اصبح الدينار الاردني يساوي اكثر من ٧٠ ليرة اسرائيلية في مطلع عام ١٩٧٨ علما بانه لم يكن يساوي اكثر من ١٠ ليرات عام ١٩٧٠ .

وقد ادى هذا التدني في مستوى المعيشة والذي ترافق مع رفض العديد من اصحاب العمل العرب رفع الاجور بما يتناسب مع الارتفاع في الاسعار ، ادى الى تنامي وتوسع النضالات المطلبية للطبقة العاملة التي تجسدت في سلسلة الاضرابات وعرائض ومذكرات الاحتجاج والتحركات التي شهدتها المناطق المحتلة على امتداد الماضي ، والتي استهدفت رفع اجور العمال وتحسين شروط عملهم والدفاع عن حقوقهم ومكتسباتهم .

وقد تمكنت هذه التحركات التي اثبتت ان الطريق الوحيد امام العمال من اجل تحقيق مطالبهم هو طريق وحدتهم وتضامنهم ، تمكنت من تحقيق العديد من المكتسبات والانتصارات لصالح العمال وحقوقهم .

ولوحظ خلال هذه التحركات ، ان عددا من **النقابات العمالية قد بدا بمغادرة مواقعه الحيادية ازاء مطالب العمال ونضالاتهم حيث بادرت هذه النقابات الى دعم التحركات العمالية ، بينما قامت نقابات اخرى بتنظيم النضال من اجل انتصار المطالب العمالية** ، حيث ساهمت عملية الانتساب للنقابات العمالية في تقريب القيادات العمالية من العمال ومشاكلهم وزج هذه النقابات بالتالي في الدفاع عن مصالح العمال .

٢ – تصحيح نسبي في التكوين الداخلي وتنشيط الحياة الداخلية

زيادة الاقبال على الانخراط في الحركة النقابية والنضالات التي خاضتها القوى العمالية الجذرية والتقدمية من اجل تشكيل اللجان والفروع النقابية في اطار كل مهنة كفروع منظمة وموحدة في اطار النقابة ، اثمرت في تشكيل العديد من اللجان النقابية سواء من قبل النقابات او بمبادرات قاعدية ، والتي ساهمت في احداث **تصحيح نسبي للتكوين الداخلي للنقابات وفي توسيع القاعدة العمالية للنقابات وتقريب قياداتها من القاعدة العمالية .**

وقد شكلت هذه التطورات خطوات اولية على طريق تقسيم الهيئات العمومية المختلفة المهن الى فروع نقابية على اساس المهنة الواحدة بصفتها الشكل الاكثر تقدما وقدرة على التجارب مع التطورات الحديثة التي طرأت على الطبقة العاملة في المناطق المحتلة .

من جهة اخرى شهدت مؤتمرات الهيئات العمومية للنقابات على امتداد العام الماضي ، شهدت تكريس ظاهرة جديدة من خلال قيام الهيئات الادارية للنقابات بتقديم التقارير السنوية للهيئات العمومية حول نشاطاتها وانجازاتها حتى يتم محاسبتها عليها .

كما اتسمت هذه الانتخابات **بتواري نهج الفوز بالتزكية وبظهور اللوائح الانتخابية المتعددة** في معظم النقابات وكان لذلك لدخول الصراع السياسي الى النقابات ولنضال القوى الجذرية داخلها من اجل تعزيز الديمقراطية النقابية بما يمكن المشاركة الفعلية من قبل العمال في منع سياسة نقاباتهم والانخراط في نشاطاتها ونضالاتها وانهاء التسلط والبيروقراطية فيها كان لذلك دورا هاما في احداث هذا التطور الذي يزيد في التصاق النقابة بقاعدتها الجماهيرية .

ولكي يتحول هذا التطور الى مدخل لتعزيز

الديمقراطية الداخلية للنقابات وحتى لاتتكرس من خلاله ظاهرة العضوية التنظيمية والفئوية ، فان التيارات والقوى العمالية الجذرية والتقدمية تناضل لتطويره باقرار نظام للانتخابات يستند الى قاعدة التمثيل النسبي في قيادة النقابات .

٣ ـ احياء عدد من النقابات ... وتعزيز وحدة الحركة النقابية :

شهد العام الماضي اعادة احياء عدد من النقابات المجمدة بالاضافة لتأسيس نقابات عمالية جديدة ومن ابرز هذه النقابات نقابة عمال الفنادق والمطاعم في القدس . نقابة عمال الغزل والنسيج في الخليل ونقابة عمال الادوية في رام الله وقد تشكلت هذه النقابات او اعيد احياؤها في الثلث الاخير من عام ١٩٧٨ .

وتتواصل الجهود من اجل احياء عدد اخر من النقابات المسجلة في عهد النظام الاردني والتي مازالت بحكم المجمدة والتي يتجاوز ، عددها الـ ١٨ نقابة بالاضافة لتأسيس نقابات جديدة وخاصة في المهن والمدن التي لايوجد فيها نقابات .

كما شهد قطاع غزة نشاطات واسعة بدأت في النصف التالي من عام ١٩٧٨ . بهدف اعادة احياء فرع الاتحاد العام لعمال فلسطين الذي تم حله مع احتلال القطاع عام ١٩٦٧ اثمرت في اعاة احياء الفرع وقد شكل ذلك خطوة هامة على طريق توحيد الحركة النقابية في الضفة الغربية وقطاع غزة .

وقد ساهمت هذه النقابات الجديدة في تعزيز وحدة الحركة النقابية في الضفة في اطار الاتحاد العام لنقابات العمال في الضفة الغربية والذي مقره مدينة نابلس ، حيث انضمت بالاضافة الى نقابة صانعي الاحذية في الخليل الى الاتحاد العام الذي ارتفع عدد النقابات المنضوية في اطاره خلال السنة الاخيرة من ١٢ الى ١٦ نقابة عمالية بالاضافة الى اربع نقابات في القدس منخرطة في الاتحاد تحت اسم العضوية المؤازرة .

وقد احتلت مسألة وحدة الحركة النقابية في المناطق المحتلة مكانا بارزا في اهتمامات النقابات العمالية وقواعدها العمالية حيث تم في المؤتمرات والمناسبات العمالية المختلفة التركيز ، على ضرورة رص الصفوف وتكريس الوحدة النقابية في اطار الاتحاد العام في الوقت الذي شنت فيه الاتجاهات التقدمية والجذرية داخل النقابات حملة فضح للاتجاهات الانشقاقية . بينما شنت قواعد النقابات التي تقودها هذه الاتجاهات حملة ضد هيئاتها الادارية بهدف ارغامها على التراجع عن خطواتها الانشقاقية .

وقد اجبرت كافة هذه النضالات قيادات النقابات التي انشقت عن الاتحاد العام في ايار ١٩٧٧ وتسترت تحت غطاء ما سمي بـ « لجنة التخطيط والعمل النقابي » اجبرتها على حل هذه اللجنة والعودة لاطار الاتحاد . وعلى امتداد العام الماضي تكرس الاتحاد العام لنقابات مركزا واطارا موحدا لجموع النقابات العمالية في الضفة الغربية وتجسدت من خلال وحدة الحركة النقابية في الضفة .

٤ ـ تعاظم النفوذ السياسي والاجتماعي للحركة النقابية :

كان من الطبيعي ان تؤدي مجمل هذه **التطورات الهامة الى تعاظم النفوذ الاجتماعي والسياسي للحركة النقابية والى التعجيل في عملية انخراط الطبقة العاملة وزجها بنقلها الاجتماعي المنظم عبر نقاباتها العمالية في التحركات الشعبية ضد سلطات الاحتلال** وسياستها واجراءاتها الالحاقية والقمعية والتعسفية .

وكان لهذا الانخراط تأثيرا مباشرا ودورا هاما في تصليب مواقف الطبقات والشرائح الاجتماعية الوطنية الاخرى من خلال **الدور الهام الذي لعبته الطبقة العاملة** من خلال نقاباتها العمالية وقواها الوطنية والتقدمية في التحركات الجماهيرية التي شهدتها المناطق المحتلة على امتداد العام الماضي استنكارا لمؤامرة كامب ديفيد واتفاقية الصفقة الاستسلامية المنفردة ومشروع الادارة الذاتية التصفوي من خلال **المساهمة الفعالة في توحيد وتصليب وترسيخ الموقف الوطني** ضد هذه المؤامرات والتصدي لمحاولة اختراقه والالتفاف عليه .

فقد عقد الاتحاد العام والعديد من النقابات العمالية مؤتمرات عمالية ناقشت فيها الوضع

السياسي في المناطق المحتلة والمهمات الملقاة على عاتق الطبقة العاملة والحركة النقابية من اجل التصدي لاتفاقية الصفقة المنفردة ومشروع الادارة الذاتية التصفوي كما اصدرت البيانات التي اكدت فيها باسم الطبقة العاملة الفلسطينية رفضها لاتفاقيات كامب ديفيد ومشروع الادارة الذاتية التصفوي وللاحتلال بكافة اشكاله والتفافها حول منظمة التحرير الفلسطينية ووحدة الشعب الفلسطيني في الداخل والخارج من اجل انتصار حقوقه وفي مقدمتها اقامة دولته الوطنية المستقلة وحيث هذه البيانات جبهة الصمود والتصدي العربية واكدت على ضرورة تعزيز تحالفها مع البلدان المعسكر الاشتراكي وعلى راسها الاتحاد السوفياتي .

كما تم تاكيد هذه المواقف في المؤتمر العمالي النقابي العام الذي عقد في الثالث من تشرين الثاني عام ١٩٧٨ . وفي المؤتمر السنوي الذي عقدته الهيئات الادارية لنقابات العمال في الضفة الغربية يوم ٧٩/٣/٢٢ في قاعة الاتحاد العام لنقابات العمال في نابلس حيث قرر المؤتمرون رفض الدور الامبريالي الاميركي في فرض الحلول الاستسلامية التصفوية ورفض اتفاقات كامب ديفيد وملحقاتها وخصوصا مشروع الحكم الذاتي واتفاقية التسوية المنفردة واكدوا ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني وعلى حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره والعودة الى دياره واقامة دولته المستقلة .

كما طالب المؤتمرون بوضع قرارات الدورة الرابعة عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني موضع التنفيذ وطالبوا دول جبهة الصمود والتصدي بتنفيذ مقررات مؤتمراتها والـ دول العربية بتنفيذ مقررات بغداد ضد نظام السادات واكد المؤتمرون على ضرورة تعزيز علاقات الصداقة والتعاون ورفعها الى مستوى التحالف الاستراتيجي مع حركات التحرر الوطني وحركة الطبقة العاملة العالمية ودول المنظومة الاشتراكية وفي طليعتها الاتحاد السوفياتي .

وبفعل هذا الدور المتعاظم للطبقة العاملة وحركتها النقابية في النضال الوطني هذا الاحتلال ، تحولت الأعياد العمالية الى مناسبات وطنية في الوقت الذي اخذت فيه مشاكل قضايا الطبقة العاملة تستأثر باهتمام الهيئات والمؤسسات التمثيلية والصحافية الوطنية في المناطق المحتلة فتحول الاحتفال بالأول من ايار الى تقليد جديد تشارك فيه مع النقابات العمالية وكافة الهيئات الوطنية والمؤسسات الاجتماعية . وتدخلت هذه الهيئات والمؤسسات لصالح مطالب الطبقة العاملة ونضالاتها في الخلافات التي نشأت مع ارباب العمل العرب بما ينسجم مع الحفاظ على وحدة القوى والطبقات الوطنية ضد الاحتلال .

ان كافة هذه التطورات تشكل خطوات ايجابية هامة على طريق استنفاذ الامكانيات الهائلة للطبقة العاملة في المناطق المحتلة في النضال الوطني ضد الاحتلال ولعب هذه الطبقة وتجسيداتها المنظمة دوراً متعاظما في معارك المجابهة الوطنية ضد الاحتلال وسياساته واجراءاته .

المضمون السياسي وراء التقسيم الطبقي الفلسطيني

دون بيريز
ترجمة : نبيلة ملحم

تنشر « الكاتب الفلسطيني » مقال **دون بيريز** ، البرفسور في العلوم السياسية بجامعة نيويورك ، حتى تضع اغلب ما ينشر عن الحياة الاجتماعية والسياسية لشعبنا بين يدي القارىء .

على أن هذا لا يعني اننا نوافق الكاتب في ما توصل إليه من استنتاجات ، بل أننا ننشر له مقاله هذا ، مع كل تحفظاتنا عليه . وتبقى القيمة الأساسية لهذا المقال محصورة في رؤيته الشمولية ، الى حد بعيد ، وفي ما تضمنه من إحصائيات ومعلومات على جانب كبير من الأهمية .

المترجمة

خلال الفترة الواقعة بين ١٩٤٧ ، ٤٨ ـ ١٩٦٧ ، لم ينكر إلا القليل حول الشعب الفلسطيني ، كوحدة سياسية واجتماعية . والصورة التي كانت موجودة عن هذا الشعب ، لم تكن إلا صورة مجموعة لاجئة ومشردة . ولكن منذ ١٩٦٧ ، اعيد بعث الشخصية الوطنية الفلسطينية ، وطرحت فكرة الدولة الفلسطينية وضرورة وجودها .

وبالرغم من أن هذه الفكرة ، وجدت التأييد ، ليس فقط من جانب الدول العربية ، او دول العالم الثالث ، وانما من قبل بعض الاسرائيليين وحلفائهم ، إلا ان الحديث عن دولة فلسطينية ، يأخذ بعداً تجريدياً ، فيما إذا تجاهلنا طرح الحقائق الملموسه لهذه الدولة. فالقضايا النظرية المطروحة بشأن هذه الدولة مثل : هل ستكون ديمقراطية ام ديكتاتورية ، علمانية أم اسلامية ، ماركسية ام برجوازية ـ إن هذه القضايا تناقش اكثر من البحث في تركيبة هذا المجتمع وطبيعة شعبه .

وعلى الرغم من أن التركيبة الاجتماعية والأصول الاجتماعية والاقتصادية لهذا الشعب هي التي ستقرر شكل الدولة ، فاننا لا نجد ، حتى الآن ، إلا القليل من الأدبيات التي قد تمكننا من رؤية نوعية المجتمع الذي قد ينشأ ، إذا ما أقيمت هذه الدولة ، من هذه الأبيات ، بعض الدراسات المسيحية التي اجريت من قبل فلسطينيين وغيرهم ، وتناولت عينات من المجتمع الفلسطيني ، او تناولت بعض النواحي الهامة في موضوع اقامة الدولة ، كالدراسة المسحية للأيدي العاملة التي قامت بها م. ت. ف .. ويوجد ايضاً ـ في هذا الموضوع ، بعض التحليلات الاقتصادية المختلفة .

وتهدف هذه الدراسة الى تقديم بعض الملاحظات الشخصية حول بعض الجوانب الهامة للمجتمع * الفلسطيني ، والتي تهدف الى تكوين صورة متكاملة عن هذا الشعب ، كوحدة قومية » .

* Peretez, Don; *Palestine Social Sartification: The Political Implications*, Journal of Palestine Studies, No. 25, p.p. 48-74.

غالباً ما ينظر إلى الفلسطينيين ، كوحدة متماسكة ، ذات حيوية متميزة ، وخصائص مشتركة ، أدت إلى خلق عاطفة وطنية قوية لدى هذا الشعب . ولكن ، على الرغم من ان التجربة المشتركة خلال النصف قرن الماضي ، ساعدت على صياغة ردود فعل ورؤى مشتركة فأنه يبقى لدى الفلسطينيين فوارق طبقية واضحة . وفي فترات التوتر السياسي ، مثل ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ، أو فترة ما بعد ١٩٦٧ ، فان ثمة اتجاها يرمي إلى التغاضي عن هذه الفوارق ، الأمر الذي يظهر للآخرين وكأن هذا المجتمع ، قد انصهر في بوتقة سياسية واحدة .

كما انه في فترة الصراع بين الفلسطينيين واسرائيل ، وبين الفلسطينيين ودول عربية مختلفة ، ينظر البعض للفلسطينيين وكأنهم مجموعة موحدة نوعاً ما ، ومحاصرة ، وتحاول أن تحصل على هويتها . والسؤال الآن هو ، فيما إذا تم الوصول لهذا الهدف ، هل سيصبح التقسيم الطبقي ، الذي كان ومازال من صفات المجتمع الفلسطيني ، أمر ذو أهمية سياسية ؟؟

وبالتالي ، كيف ستؤثر الفوارق الطبقية ، والاقليمية ، والدينية داخل المجتمع الفلسطيني ، على تكوين ، ومؤسسات الوحدة الفلسطينية ؟

قبل هجرة ١٩٤٨ ، لم يكن المجتمع الفلسطيني ، وحدة متجانسة ، بل كان مقسماً طبقيا ، عمودياً وافقيا ، وكان طابع التفرقة الأقليمية : بين الشماليين والجنوبيين ، بين سكان السهول والجبال ، المدن ، والقرى ، المسلمين والمسيحيين ، وقد كان لهذه التقسيمات الطبقية اهمية سياسية واقتصادية واجتماعية .

وبالرغم من ان المجتمع الفلسطيني قد تمت تجزئته مع حرب ١٩٤٨ ، إلا ان هناك الكثير من التقسيمات الطبقية التي اتسم بها المجتمع الفلسطيني خلال فترة الانتداب البريطاني ، قد استمرت على مدى ربع قرن من الشتات .

وسأقدم هنا وصفاً مختصراً للمجتمع الفلسطيني ، خلال فترة الانتداب البريطاني(٢) .

ـ التركيبة الاجتماعية للمجتمع الفلسطيني قبل الهجرة :(٣) .

حسب تقديرات السلطات الانتدابية البريطانية كان المجتمع الفلسطيني ، إلى درجة ما ، مجتمعاً اقطاعياً(٤). فقد كانت الارستقراطية المسلمة ، او طبقة الأفندية ، التي خدمت السلطات العثمانية ، **هي الطبقة** الحاكمة والسائدة في المجتمع ، وكثيرون من أفراد هذه الطبقة ، كانوا ، اغنياء ، متعلمون ، ومكتسبون حنكة غربية ، من خلال علاقاتهم المتينة مع اوروبا . إلا ان التنافس التقليدي بين العائلات المتزعمة ، عرقل مسألة تماسكهم كطبقة سياسية ، وابرز هذه العائلات واكثرها تأثيراً هما **عائلة الحسيني ، وعائلة النشاشيبي** .

وقد تولى بعض أفراد هذه العائلات زعامة الشعب الفلسطيني ، منذ الحكم العثماني ، واستمروا في تلك خلال فترة الانتداب البريطاني . وكثير من هؤلاء استمروا في السيطرة على القرى التي أتوا منها ، حتى بعد ان سكنوا المدن . وبالرغم من أن زعامة العائلات ، اصبحت مدينية ، إلا ان التنافس الذي صبغ الفروقات الاقليمية استمر في القرى . كما ازداد حجم التنافس السياسي بين العائلتين السيطرتين ـ **الحسيني والنشاشيبي** ـ وازدادت قوة كل منهما ، الأمر الذي جعلهم يسيطرون على الساحة السياسية . مع ان الحسينيين كانوا أقوى كثيراً من النشاشيبيين ، وذلك لانهم زادوا من تأثيرهم بواسطة سيطرتهم على **المجلس الاسلامي الاعلى** .

اما العائلات الاقل قوة ، فقد كانت مرتبطة ، بشكل او بآخر باحدى العائلتين . وخلال فترة الانتداب البريطاني ، كانت الطبقة العليا مقسمة أفقياً إلى مجموعات اقليمية ، حيث كان العداء والتوتر بينها اقوى منه بين الطبقات المختلفة . وغالباً ما كان يعبر عن الخلافات الاقليمية ، بالانتماء إلى احدى العائلات المتزعمة .

وكانت مراكز المعارضة للحسينيين المتمركزين في القدس ، هي الخليل ، غزة ، والشمال . اضافة الى أن هناك بعض الحالات التي ظهرت لدى شيوخ القرى حيث اعلن هؤلاء معارضتهم لزعامة المدن في قيادتهم للحركة المعادية للصهيونية ، ويعود هذا الى النزاع التقليدي بين القرى والمدن . ومن ابرز الأمثلة على ذلك ، العريضة التي وقعها شيوخ القرى في مناطق جبال القدس ، والجنوب ، والرملة ، ويافا ، والتي ذكروا فيها أن المؤسسات السياسية المدينية ، لا روابط لها خارج المدن . وقالوا « إننا بالنيابة عن القرى ، نعارض نشاطاتهم التخريبية ، التي تعيق امن المجتمع »(٥) .

وبالرغم من التأييد العام في فلسطين ، لثورة ١٩٣٦ ـ

١٩٣٩ ، المعادية لبريطانيا الا ان الخلافات الداخلية ، والصراعات ، اوقعت خسائر بالعرب انفسهم تفوق خسائر البريطانيون واليهود .

والطبقة الثانية التي تلت طبقة ملاك الأراضي ، في التأثير ، هي الطبقة الوسطى . وكانت هذه الطبقة ، مدينية ، ومؤلفة من رجال الاعمال والمهنيين .

سيطرت هذه الطبقة ، على الصناعات الصغيرة القليلة ، مثل مصانع الصابون النابلسي ، والبعض الآخر ، كان يدير الصحف المحلية ، ولكنهم كانوا يتعاونون بشكل او باخر ، مع احدى العائلتين ... وفي بعض الاحيان كانوا يجمعون المال ، ويشترون الاراضي ، كانوا يعززون اواصر علاقاتهم الاجتماعية مع الطبقة العليا ، من خلال الزواج ومع نهاية القرن الماضي ، بدأ ابناء الطبقة (العليا) ، بممارسة المهن المدينية ، والتجارة ، وكان عدد لا بأس به من المهنيين في الطبقة الوسطى ـ اطباء ، محامون ، معلمون ، موظفون حكوميون ـ من المسيحيين . ونجد ان المسافة التقليدية بين المسيحيين والمسلمين ، قد تقلصت ، بسبب المعارضة المشتركة للبريطانيين وللحركة الصهيونية في آن .

* * *

كانت الأغلبية الساحقة للشعب الفلسطيني ، من الفلاحين ، بعضهم كان يملك المزارع الصغيرة ، إلا ان الاغلبية منهم كانت تعمل في الأرض ، كمستخدمين عندالطبقة العليا ، أما أدنى مرتبة اجتماعية فقد كانت البدو الصحراويين،وقدر عدد هؤلاء ، في عام ١٩٢٢ ، بـ ١٠٠ ألف نسمة .

خلال فترة الانتداب البريطاني ، فان ثلثي إلى ثلاثة أرباع السكان العرب المسلمين كانوا من الفلاحين الذين يعملون بالزراعة ، وبالمقابل كان ثلاثة أرباع السكان العرب : مدينين . وكان الفقر السمه البارزة للطبقة الفلاحيةفي تلك الفترة،وذلك حسب تقرير **اللجنة الملكية البريطانية** ، عام ١٩٣٦ . **واللجنة الأنغلو ـ امريكية** ، في عام ١٩٤٦ .

ويعود فقر الفلاحين ، لأسباب كثيرة ، منها : جفاف التربة ، واستخدام الوسائل والادوات الزراعية القديمة ؛ وانعدام الأمن ، .. وفي تقرير **جونسون كروسبي** ، في عام ١٩٣٠ ، يظهر أن ٣٠٪ من العائلات الفلاحية ، لا تملك أية قطعة أرض ، واكثر من ثلث السكان الفلاحين ، يملكون أقل مما يحتاجونه للبقاء ، بينما هناك عدة عائلات كانت تملك مابين ٣٠ ـ ٦٠ ألف دونم ، وفي فلسطين ، بأسرها ، كانت هناك ٢٥٠ عائلة مالكة كبيرة ، تملك نفس المساحة التي تزرع من قبل ٦٠ ألف فلاح .

وكان النقص في الاراضي قاسياً جداً . وفي منطقة القدس كانت ٧٧٪ من العائلات الفلاحية تملك أقل من ٥٠ دونماً ، بينما في منطقة نابلس نجد أن ٦٣٪ من العائلات الفلاحية كانت تملك نفس المساحة [٥٠ دونم] . وفي حين كانت ثروة ملاك الأراضي والتجار تتضاعف ، فان اعدادا كبيرة من الفلاحين الصغار ، والفلاحين الاجراء[غير المالكين] كانت تهاجر إلى المدينة : بحثاً عن العمل . وكنتيجة لعملية الانتقال إلى المدينة ، تزايد عدد سكان المدن العربية بنسبة ٨٥٪ ، في الفترة بين ١٩٣١ ـ ١٩٤٤ ، بينما تزايد عدد سكان القرى ، في نفس الفترة ، بنسبة ٤٠٪ . والطبقة التي شحنت التحرك السياسي في تلك الفترة هي من عمال المدن العاطلين عن العمل ، والعمال الذين ينالون حداً أدنى من الأجور .

وعلى الرغم من الفارق الطبقي الكبير بين المسلمين والمسيحيين الفلاحين وعمال المدن ، إلا أن تطوراً ملحوظاً ظهر في اواخر عهد الانتداب البريطاني ، في المناطق القروية ، فلقد ساهمت حكومة الانتداب في رفع المستوى الصحي لدى العرب : بمكافحة الملاريا التي كانت قد أودت بحياة الكثيرين ، خلال فترة الحكم العثماني ، وبتوسيع وتطوير شبكة المواصلات ، وبأنشاء مستشفيات حكومية ، ومراكز وعيادات للعناية بالطفل ، وبنشر التعليم في المناطق القروية . والملاحظة الواضحة في تطور التعليم في عهد الانتداب ، كانت في ادخال التعليم الزراعي إلى مدارس القرى ، وتحول هذه المدارس إلى مراكز حيوية للنشاطات الجماعية والسياسية وكنتيجة لتحسن الظروف الصحية ، والتخلص من التجنيد العسكري الاجباري الذي كان مفروضاً على الفلسطينيين ، فترة الحكم التركي ، تضاعفت نسبة السكان العرب في فلسطين ، في الفترة بين ١٩٢٠ ـ ١٩٤٠ . وعلى الرغم من التراجعات الاقتصادية

العديدة ، فاننا نجد أن الدخل الفردي للفلسطيني ، كان يشكل أعلى نسبة في العالم العربي .

ففي سنة ١٩٣٧ كان دخل الفرد الفلسطيني ٢٧ جنيها استرلينيا ، مقابل ١٢ جنيهاً في مصر ، ١٦ جنيها في سوريا ولبنان ، و١٠ جنيهات في العراق . وكانت اكثر الطبقات استفادة من التطور الاقتصادي في فلسطين ، هي الطبقة الوسطى والصناعيين .

وانعكس التحسن الجزئي في وضع الفلاحين على الظروف الاجتماعية ، وأدى إلى تغييرها ، ففي نهاية الانتداب ، باع عدد كبير من الملاكين الكبار أراضيهم ، ليس لليهود فحسب ، بل للسكان العرب ايضاً ، وبالرغم من أن نحو ثلث المزارعين ظلوا بدون أراضي ، الا ان اغلبية الاراضي كانت ملكاً لصغار الفلاحين . وفي كثير من الحالات ، كانت ارض القرية ، ككل ، ملكاً للجميع ، حيث يتعاقب الفلاحون على العمل في اجزائها بين سنة واخرى ، وكانت هذه الممارسة تقلل من انتاجية الأرض .

وتشير احصائيات ١٩٢٢ ـ ١٩٣١ إلى نقص عدد السكان البدو إلى الثلث تقريبا . حيث اصبح تعدادهم ٦٦ ألفا تقريباً ، بينما ازدادت نسبة السكان ، بشكل عام ، الى الثلث تقريباً .

وكانت نسبة الوفيات عند الأطفال ، في بداية فترة الانقلاب ، خاصة عند الأطفال المسلمين ، عالية جداً ، ولكن في نهاية الأربعينيات ، طرأ تحسن ملحوظ في هذه الناحية ، حيث انخفضت النسبة إلى ٣٩٪ عند المسلمين[كانت٤١٢ طفل لكل ألف ، أصبحت ٢٥١ لكل ألف] وهذا النقص كان أكبر في المدن منه في القرى ، أما عند الفلسطينيين المسيحيين فقد انخفضت النسبةالى ٥١٪ [٢٣٢ طفل لك الف إلى ١٣٨ طفل لكل ألف][6] .

وبالنسبة للتعليم الابتدائي ، الذي انعش من قبل السلطات البريطانية ،فقد حدد، الأمر الذي خلف نسبة عالية من السكان الأميين . ومع نهاية الانتداب البريطاني كانت هناك ٥٠٠مدرسة حكومية ، تستوعب ٦٥ ألف طالب ابتدائي ، منهم ٣٧ ألف طالب من مناطق قروية [٧٪ منهم إناث] و٢٦ ألف طالب من المدن [٤٢٪ منهم إناث] . ولم يكن يوجد في أكثر من نصف القرى مدارس ابتدائية ، و٩٥٪ منها لم يكن فيها مدارس للبنات . أما الدراسة الثانوية فقد كانت محدودة جداً ، ومتوفرة في المدن فقط . وكان هذا الوضع أفضل من الوضع التعليمي في عام ١٩١١ : حيث كان أقل من ربع الطلاب فقط في سن التعليم يدخلون المدارس . وفي عام ١٩٤٦ دخل المدارس حوالي ثلث الطلاب ، ولكن بقيت المناطق الفلاحية ، غير محظوظة : لأن ٨٥٪ من هذه النسبة كانت من المدن ، و٢٠٪ فقط من القرى[7] .

كانت نسبة عالية من تعليم العرب ، تتم في المدارس الخاصة ، وفي فترة الأربعينيات كان هناك ٤٠٪ من الـ ١٠٠ ألف طالب عربي ، يدرسون في معاهد خاصة ، بعضها مدار من قبل العرب ، والبعض الآخر من قبل مجموعات دينية أجنبية ، وتركز التعليم الثانوي في القدس : حيث كان فيها ١١ مدرسة حكومية ، وسبع مدارس عربية خاصة ، و٤٠ معهداً أجنبا . وحتى نهاية الانتداب البريطاني ، لم يتوفر تعليم عالي للفلسطينيين . حيث أن الجامعات اليهودية اتبعت في تعليمها اللغة العبرية ، مما شكل عائقا امام قبول الطلاب العرب . أما الطلبة المهتمين بمواصلة تعليمهم الجامعي ، فقد كانوا يضطرون لمغادرة البلد والدراسة في الخارج .

وفي نهاية فترة الانتداب كان عرب فلسطين ينتقلون من مجتمع شرق اوسطي تقليدي إلى مجتمع حضاري ، وقد بدأ هذا الانتقال مع نهاية حكم الامبراطورية العثمانية ، بعد الحرب العالمية الأولى ، إلا أن ظواهر التمدن وازدياد التعليم بدأت مع نهاية القرن التاسع عشر .

بالنسبة للزعامة السياسية ، بقيت تسيطر عليها العائلات التقليدية ، مع أنها ضمت أفراداً من الطبقة الوسطى والمهنيين . وعلى الرغم من أن السياسة ، بشكل عام ، كانت محتكرة من قبل النخبة الارستقراطية ، إلا أننا نلاحظ أنها بدأت تيثر اهتمام أعداداً كبيرة من السكان الفلسطينيين وخاصة سكان المدن . وحتى في المناطق القروية ، فقد استيقظ عند الفلاحين الاهتمام بالسياسة ، رغم كون هذا الاهتمام هامشياً .

ومع ازدياد التعليم ، ومحو الأمية ، تطورت الصحافة العربية ، ونتيجة لمحاولات الزعامات التقليدية ، كسب قاعدة شعبية لمجموعاتهم السياسية ، اصبح من الضروري أن يوسعوا مناطق نفوذهم ومطالبهم السياسية .

إن تجزئة فلسطين بين الطبقة الحاكمة البريطانية ، واليشوف اليهودي ، والمجتمع العربي غير المنظم ،

اضافة إلى أن كل فئة كانت منعزلة عن الاخرى ثقافياً ، تعليمياً ، واقتصادياً كل هذا ، جعل من الصعب على القيادة العربية أن توجد مجتمعاً منصهراً في نضاله ضد الحكم البريطاني ، والخطر الصهيوني .

هناك عدد من الدراسات الذي يبحث في وضع المجتمع العربي ، خلال فترة الانتداب ، ويبحث ، أيضاً ، نضال هذا المجتمع خلال أزمة ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ ، لقد اكدت هذه الدراسات على حالة التقسيم والضعف الداخلي ، وعلى الدرجة التي لاتزال معها فكرة الوحدة الوطنية السياسية مجرد وهم ، واكدت إلى أي مدى كانت هذه الفكرة غير ناضجة ، على الرغم من أن المجتمع الفلسطيني كان يمر في مرحلة انتقالية بين المجتمع التقليدي ، والمجتمع الحضاري .

وشكلت ظاهرة التقسيم الطبقي الأفقي والعمودي ، عاملا حاسماً في عدم الانسجام، خلال حرب ١٩٤٨ . كما أدت العمليات الأرهابية الصهيونية ـ مثل **مذبحة دير ياسين** ـ إلى انتشار الخوف بين السكان العرب . وتسبب انهيار المؤسسات الجماعية إلى دمار أكبر : ادى إلى هجرة ٨٠٪ من السكان العرب .

لقد عكست عملية اللجوء ، التقسيم الطبقي في المجتمع ، فقد ترك البلد عدد كبير من الزعامة السياسية ، خاصة أولئك النشيطين في مجموعة **الحسيني** ، وذلك قبل اندلاع الحرب ين العرب واليهود ، وبعضهم كان قد ابعد من قبل السلطات البريطانية ، منذ الثلاثينات . وفي نهاية ١٩٤٧ ، ترك حوالي ٣٠ الف فلسطيني البلاد ، معظمهم من العائلات الغنية ، ومن الطبقة الوسطى ، وفي فترات الضغط السياسي والانتفاضات ، كان من الطبيعي أن تلجأ عائلات الطبقة الوسطى إلى المناطق المجاورة .

وعندما بدأت الحرب وجدت التجمعات الفلسطينية نفسها من غير قيادة ، وعندم سحب البريطانيون إدارتهم ، وخدماتهم ، من البلد ، كان اكثر المتأثرين هم العرب ، حيث كانت أغلبية الدوائرالحكومية في المناطق العربية ، تدار من قبل الانجليز ، وعندما انسحبوا بقيت خالية ، ولم تكن هناك هيئة عربية منظمة يمكن أن تحل محلها ، وتقدم الخدمات الحكومية الضرورية لتوطيد الاستقرار في البلد .

ونتيجة لغياب المؤسسات الحكومية الضرورية من اجل الحفاظ على القانون ، ولتأمين الحاجات الضرورية الأساسيه ، كالمياه ، والكهرباء والبريد ، والبوليس ، والتعليم . كما أن الخدمات الصحية أثرت على معنويات الأرهاب . ولم تكن هناك سلطة تمنح الشعب الشعور بالثقة ، وتمنعه من الهروب ، مما ادى إلى ترك معظم الفلسطينيين لبلادهم .

الفلسطينيون يتحولون إلى لاجئين :

بعد انتهاء الحرب عام ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ ، انقسم سكان فلسطين إلى اربعة مجموعات :

ـ حوالي ١٦٠ألف بقوا في فلسطين .

ـ ٣٥٠ ألف خضعوا للادارة الاردنية في الضفة الغربية .

ـ من ٧٠ ـ ١٠٠ ألف خضعوا للادارة المصرية في غزة .

ـ ٧٥٠ ألف لاجىء توزعوا على المناطق السابقة ، وفي لبنان ، وسوريا ، وشرق الاردن .

واندمج الفلسطينيون في مؤسسات وطنية مختلفة ، واشتد التوتر بين اللاجئين وغير اللاجئين ، بالرغم من كون الأخيرين فلسطينيين . وكان كل من الطرفين يضع اللوم على الآخر في سبب الهزيمة ، والاخطاء العسكرية ، وزالت الثقة ، بشكل عام ، في الزعامة السابقة ، ودخل الشعب الفلسطيني ، فترة عقدين من القمع السياسي والتقسيمات الطبقية .

في فترة العشرين سنة ، كونت كل شريحة من الشعب الفلسطيني ، اشكالا متميزة من المنظمات الاجتماعية والسياسية ، والاقتصادية ، وحدث هذا حتى في تجمعات اللاجئين المختلفة ، بالرغم من تبلور صفات معينة ، ميزت اللاجئين عن غير اللاجئين . ويعود ذلك إلى ادارة **وكالة الغوث** لكل اللاجئين .

بعد الهجرة بجيل واحد ، تضاعف عدد الفلسطينيين ، حتى وصل إلى نحو ٣ ملايين نسمة ، إلا انه من الصعب الحصول على أرقام دقيقة ، بالنسبة لعدد السكان ، لأن آخر احصائية سكانية للفلسطينيين ، أجريت في الثلاثينيات . ولم تجر وكلة الغوث ولا الدول العربية ، احصائيات سكانية كاملة للفلسطينيين . وبالنسبة إلى العرب في اسرائيل وأولئك الذين تحت الاحتلال في الضفة الغربية ، وقطاع غزة ، فقد ضموا الى

الاحصائيات الاسرائيلية . وأغلب التقديرات حول عدد الفلسطينيين ، مستندة الى آخر إحصائية انتدابية في عام ١٩٣١ .

في نهاية ١٩٧٥ ، كان نحو نصف الثلاثة ملايين فلسطيني ، الموزعين على مختلف بلدان الشرق الاوسط ، مسجلين **بوكالة الغوث** كلاجئين . كما كان اكثر من ثلث الفلسطينيين المسجلين رسمياً في **وكالة الغوث** كلاجئين ، يعيشون في المخيمات . ٦٠٪ منهم في قطاع غزة ، ٢٥,٣٪ منهم في الضفة الغربية ، وحتى من بين هؤلاء الـ ٤٠٩ ألف لاجىء ، هناك عدد غير محدد انتقل للعيش في القرى والمدن ، ولم يخبروا عن هذا الانتقال .

وهذه الأرقام ، لاتتضمن اللاجئين الذين كانوا معتمدين على مؤسسات **هيئة الأمم الأخرى** ، وبالاضافة إلى الـ ٥٣ مخيماً الموجودين في شرق الاردن ، الضفة الغربية ، قطاع غزة ، سوريا ، ولبنان ، هناك حوالي ١٤٠ ألف فلسطيني يقيمون في ١٠ مخيمات « طارئة » أو «مؤقتة» ، اقيمت في عام ١٩٦٧ ، ٦ منها في الأردن ، و٤ في سوريا .

وحوالي ٩٩ ألف من سكان هذه المخيمات ، كانوا لاجئين في الأصل ، ومسجلين في **وكالة الغوث** » والباقين كانوا من مشردي حرب ١٩٦٧ ، والقتال المتواصل في وادي الأردن في بداية ١٩٦٨ »[٨] .

وقد قسمت **وكالة الغوث** اللاجئين إلى فئات مختلفة ، مستندة إلى الدخل ، وعلى فترة تسجيلهم كلاجئين . وهذه الفئات كانت تتراوح بين أولئك الذين يتلقون إعانات وحصص كاملة من الوكالة : مثل السكن ، الخدمات الصحية ، التعليم ، وإعانات أخرى وبين اللاجئين المسجلين في الوكالة ، إلا انهم لم يتسلموا منها أية إعانة ، نتيجة لارتفاع مستوى داخلهم . ففي المخيمات ثمة اشخاص من ذوي الدخل الثابت : إما عن طريق العمل ، أو عن طريق تلقي اعانات مالية من الخارج .

انتفاء الطابع الفلاحي عند اللاجئين :

إن التغيير الكبير الذي طرأ على اللاجئين ، أثر على التقسيم الطبقي لكل الفلسطينيين . ذلك لأن اللاجئين يشكلون نصف الفلسطينيين : وهذا التغيير برز في انتفاء الطابع الفلاحي عنهم (DEPEASANTIZATION) ونستعمل هذا التعبير ، وليس تعبير البلترة ، أو التمدن لأن عملية التحول كانت سلبية ، حيث فقد فيها اللاجئون مهاراتهم وأعمالهم كفلاحين . وفي الوقت ذاته ، لم ينخرطوا في المدن المجاورة لمخيماتهم ، ولم يكتسبوا مهارات وظيفية غير زراعية . فاستيلاء الاسرائيليين على الأرض ، وانتقال الفلاحين [غير المالكين للأرض] من مناطقهم القروية ، أحدث ابتعاداً كبيراً عن الزراعة .

حيث أنه ، في الفترة الأخيرة للانتداب البريطاني ، كان نحو ثلثي الفلسطينيين مزارعين . أما الآن ، فلا توجدلدينا ارقام كاملة عن التوزيع المهني للفلسطينيين ، إلا اننا نورد هنا بعض الأرقام المتوفرة ، والتي يمكن أن تعطينا فكرة عامة عن العمل بالزراعة :

يشكل الفلسطينيون الذين يعيشون تحت الحكم الاسرائيلي ٤٠٪ من مجموعهم الكلي ونسبة قليلة منهم تعمل بالزراعة . ففي عام ١٩٧٤ كان ٣٠٪ فقط من لاجئي قطاع غزة ، ٢١,٦٪ من غير اللاجئين يعملون في الزراعة . وقد أجرت اسرائيل مسحاً للاجئين ، أظهر أن اقل من ٢٠٪ من الرجال البالغين (فوق سن ١٥) كانوا يشتغلون في الزراعة قبل عام ١٩٦٧ ، اضافة إلى ٣٨,٩٪ من غير اللاجئين[٩] . وهناك مسح مماثل لمخيمات لبنان ، نشر عام ١٩٧٥ ، أظهر أن ٢١,١٪ فقط من اللاجئين يعملون بالزراعة .

إن انتفاء الطابع الفلاحي عن اللاجئين ، له مؤشرات سلبية وايجابية في المستقبل . فمن ناحية ، كان الفلسطينيون ، قبل عام ١٩٤٨ ، من أمهر المزارعين العرب وأكثرهم انتاجية ، بالرغم من الفقر المدقع الذي كانوا يعانون منه ، وكان الفلاح الفلسطيني يأتي في المرتبة الثانية بعد الفلاح المصري ، ومع كل العوائق التي تعترض سبيل مهارة الفلاح الفلسطيني [الوسائل القديمة المستعملة ، وغير ذلك] فقد وصلت الأرض الزراعية العربية في فلسطين ، نقطة التشبع في نهاية فترة الانتداب ، وذلك بحسب تقديرات متعددة . ولم يكن التوسع الزراعي هو الاساس أو الوسيلة ، لتطور اقتصادي مستقبلي في فلسطين . وبالتأكيد فأن اعادة تكوين دولة فلسطينية في الضفة الغربية لا يمكن أن يستند على الزراعة لوحدها ، كانتاج أساسي للبلد ، إن نسبة كبيرة من الفلسطينيين الموجودين الآن في مخيمات اللاجئين ، ستضطر ، في حال عودتها إلى فلسطين

الجديدة ، أن تجد لنفسها أعمالا اخرى غير الزراعة .

من ناحية اخرى ، فقد انتعش وضع العديد من الفلسطينيين الموجودين في الاقطار العربية منذ ١٩٤٨ ، ويعملون في مجالات مختلفة . وهكذا ، لا يزال التشكيل الاجتماعي للفلسطينيين هرمياً وفي اسفل هذا الهرم يقع اللاجئون ، سكان المخيمات .

إن عدداً كبيراً من المخيمات الـ ٦٣ (٥٣ أساسية ، ١٠ طارئة) يقع على مقربة من المراكز المدينية ، أو يعتبر جزءاً منها . وقد أدى هذا إلى إحداث تمدن جزئي عند سكان المخيمات ، ولكنهم في أسفل السلم الاجتماعي ، والقليل منهم يتمتع بوظائف دائمة ، كما أن هناك عائلات كثيرة ، تمكنت من أن تستكمل احتياجاتها ، عن طريق وظائف محدودة الدخل ، أوعن طريق مساعدات تأتي إما عن طريق افراد الاسرة المقيمين في الخارج ، واما عن طريق مساعدات **وكالة الغوث** . أمـا في المخيمات الواقعة في مناطق زراعية ، مثل مخيمات أريحا ، والمخيمات الواقعة على الضفة الشرقية لنهر الأردن ، فقد استطاع اللاجئون أن يجدوا لأنفسهم أعمالا زراعية مؤقتة [موسمية] . وخلال المواسم ، كانت العائلات تضطر لترك المخيم لمدة ثلاثة أشهر ، لتعود بمحاصيل زراعية ، تساعدها على سد بعض احتياجاتها . وفي منطقة نابلس ، كان اللاجئون يعملون في مواسم قطف الزيتون ، وفي غزة ، في الحمضيات ، أما في المناطق غير الزراعية ، مثل مخيمات الجلزون [قرب رام الله] ، ومخيمات مناطق بيروت وعمان ، ودمشق ، والقدس ، فقد وجد اللاجئون لأنفسهم أعمالا مؤقتة في مجال البناء ، الخدمات ، والصناعة الخفيفة .

وبالنسبة لأسرائيل ، فأنه منذ عام ١٩٦٧ ، ازداد عددالعرب العاملين في اسرائيل ، وذلك نتيجة تدفق عمال غزة والضفة إلى سوق العمل الاسرائيلية ، وقد جاء ، حسب بعض التقديرات الاقتصادية الاسرائيلية ، أن الأيدي العاملة العربية ، تشكل ربع القوى العاملة في المصانع الانتاجية في اسرائيل (نصف هذه الأيدي من المناطق المحتلة عام ١٩٦٧) . ويشكل العرب ، أيضاً ، نصف القوى الاسرائيلية العاملة في مجالي الزراعة والبناء ، و١٠٪ من العاملين في الصناعة . كما أن العرب يشكلون نصف العمال غير المهرة ، وهؤلاء متواجدين في أعمال الخدمات : مثل الفنادق ، والورش المختلفة . وفي عام ١٩٧٤ صار حوالي ٤٥٪ من اولئك الذين يعملون في الضفة الغربية ، واكثر من ٥٠٪ من الذين يعملون في غزة ، يعملون في اسرائيل . من هذا الرقم الاجمالي ٦٨,٧٠٠ عامل، عمل نحو ١٩,١٪ منهم في مجال الزراعة، ١٧,٥٪ في الصناعة ، ٥٢,٥٪ في مجال البناء[١٠] . وفي فترات التوسع والازدهار الاقتصادي في الأقطار العربية المضيفة ـ مثل الاردن ، سوريا ، ولبنان ـ كان يطرأ على وضع اللاجئين بعض التحسن . أما في فترات الانحسار الاقتصادي . فقد كان اللاجئون هم أول من يفصل من العمل . وعلى الرغم من تأسيس **الاتحاد العام لعمال فلسطين** التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية . إلا ان هذا الاتحاد لم يستطع أن يقدم للعمال الفلسطينيين نفس الخدمات التي تقدمها ، عادة ، نقابات العمال الاخرى لعمالها . وذلك بسبب عدم اعتراف أصحاب الاعمال في الدول المضيفة بهذا الاتحاد .

الفروقات الاقليمية

الأردن : إن الاردن ، هو وحده ، الذي منح على الفور الفلسطينيين ، بما في ذلك اللاجئين منهم ، الجنسية الاردنية . وقد أتاح هذا الحق القليل من الصلاحيات ـ إن وجدت ـ للأغلبية ، مثل التمتع بالتصويت في الانتخابات التي كانت معظمها مرتبة من قبل الحكومة ، ومثل منح جوازات السفر الاردنية ، وقد استطاع عدد من الفلسطينيين أن يرتقي في السلم الطبقي من خلال العمل في الجيش ، والشرطه ، ومؤسسات الدولة الأوروبية المختلفة ، كما حصل بعض الفلسطينيين على مراكز عالية في الحكومة ، مثل عضوية البرلمان ، أو مجلس الاعيان . إلا أن غالبية الفلسطينيين ، لم يتمكنوا من تحقيق أي مكسب من خلال الجنسية الأردنية .

إن أغلب الفلسطينيين ، الذين استفادوا من الجنسية الاردنية ، كانوا من سكان الضفة الغربية الأصليين . فبعد الانضمام الرسمي للمملكة الاردنية ، عام ١٩٥٠ ، ازداد عدد الفلسطينيين في الضفة الغربية ، وقد تسلم بعض هؤلاء ، وظائف حكومية عالية . كما انهم تسلموا في أعقاب الانضمام مناصب وزارية شملت رئاسة الوزراء ، ووزارة الخارجية ، ووزارة الدفاع .

وقد رسمت السياسة الأردنية ، منذ ذلك الحين ، على أساس تشكيل نصف الحكومة ، ونصف البرلمان ، من الفلسطينيين . إلا ان هذا التشكيل لم يكن إلا تشكيلا مصطنعاً وزائفاً ، إذ يمكن تغييره في أية لحظة يريدها الملك . أما بالنسبة للادارات المحلية ، [البلديات ، المجالس القروية والمحلية] . في قرى ومدن الضفة الغربية ، فتلك كانت نابعة من الشعب الفلسطيني بصورة اكبر من المراكز السابقة . حيث استمرا في أدارة شؤونهم كما في السابق .

لبنان : في لبنان ، وبسبب الصعوبات التي كان الفلسطينيون يواجهونها في الحصول على الوظائف ، فانهم غدوا عمالا للسوق السوداء ، ويتلقون أجوراً أقل من الحد الأدنى المقرر من الدولة ، واضطروا الى منافسة ذوي الأجور الضئيلة الآخرين : مثل السوريين من منطقة حوران والأكراد ، الذين كانوا يعملون دائماً ، في الأعمال الهامشية ومحدودة الدخل . وصار الفلسطينيون، نتيجة لعدم قدرتهم على الانتساب إلى نقابات العمال اللبنانية ، بؤرة التوتر السياسي . كما كان وضع الفلسطينيين معقداً : لأن ٩٠٪ منهم مسلمون ، فلو أن الحكومة اللبنانية ، عملت على جعل اقامتهم الدائمة رسمية ، لاثر ذلك على التوازن الحساس بين المسلمين والمسيحيين : الامر الذي يخل بالنظام السياسي القائم . بيد أن جزءا صغيراً من الفلسطينيين المسيحيين ، تمكنوا من الحصول على الجنسية اللبنانية ، وذلك عن طريق وسائل احتيالية مختلفة : مثل اخراج شهادات ميلاد مزورة ، أو عن طريق الانتماء إلى أحدى العائلات اللبنانية .

وقد تمكن عدد من الفلسطينيين من الارتقاء الى قمة السلم الاجتماعي : مثل المحامين والأطباء ، والاكاديميين ، ورجال الأعمال والمصرفيين .

وحتى عام ١٩٦٧ ، لم تكن هناك أية علاقة بين هؤلاء وبين الفلسطينيين الذين يعيشون في المخيمات . ولم تنشأ هذه العلاقة إلا بعد ظهور المقاومة الفلسطينية في اعقاب حرب سنة ١٩٦٧ .

إن أحد أكبر المؤسسات المالية في لبنان ـ بنك إنترا ـ اسس وادير من قبل الفلسطينيين . وكان مصير هذا البنك الأفلاس ، في عام ١٩٦٦ ، واستنادا الى الجهات المسؤولة عن البنك ، فان التفرقة الاجتماعية ، وعدم تعاون المؤسسات البنكية اللبنانية معه ، هما السبب في عجزه وإفلاسه .

سوريا : كان عدد الفلسطينيين في سوريا، سنة ١٩٧٥ ، ١٩٠ ألف نسمة ، ١٨٥ ألف منهم كانوا مسجلين كلاجئين ، ونحو ٥٠ ألف يعيشون في المخيمات . وبعكس الوضع في لبنان ، حيث يوجد انفتاح اقتصادي واجتماعي ساعد على صعود الفلسطينيين في السلم الاجتماعي فان العوائق الحكومية في سوريا التي كانت تعترض سبيل استيراد وتصدير رأس المال ، والتي كانت تفرض على المشاريع الخاصة : بسبب طبيعة النظام الاقتصادي السائد في القطر ، إن هذه العوائق جعلت من الصعب على الفلسطينيين ذوي العقول الرأسمالية أن يأخذوا طريقهم نحو الثراء . وبذلك ، فان الفارق الاجتماعي بين الفلسطينيين والسوريين لم يكن كبيراً . وبذلت الحكومة السورية ، من خلال **مؤسسة اللاجئين الفلسطينيين** ، الجهود لمساعدة الفلسطينيين ، سياسياً واقتصادياً ، وحاولت هذه المؤسسة أن توجد للفلسطينيين أعمالا ، بأجور مساوية لأجور السوريين ، وبالتالي استطاعت أن تنظم أوضاع الفلسطينيين بطريقة مفيدة للسياسة السورية . وقد كانت سوريا هي اول دولة عربية ، ساعدت المنظمات الفدائية الفلسطينية ، بعد عام ١٩٤٨ . على الرغم من أن السلطات العسكرية والامنية كانت تمارس عملية ضبط شديدة على المجموعات الفلسطينية المتواجدة ضمن حدودها ، وكان أحد أشكال هذا الضبط ، من خلال المساعدة في التنظيم والتمويل ، والتدريب العسكري وشبه العسكري ، للمجموعات الفلسطينية مثل **جيش التحرير الفلسطيني ، والصاعقة** . كما قام النظام السوري السابق على نظام البعث بتعيين **أحمد الشقيري** ، ممثلا لسوريا في هيئة الامم ، وبعد ذلك أعطته السعودية منصباً سياسياً رفيعاً .

غزة والضفة الغربية : عاش الفلسطينيون ـ اللاجئون وغير اللاجئين ـ في قطاع غزة ، في عزلة دولية منذ عام ١٩٤٨ ، فقد ادير قطاع غزة من قبل مصر ، عام ١٩٤٨ ، ولكنه لم يضم اليها ، وانما بقيت المنطقة تحكم بقوانين ، ومن قبل فلسطينيين محليين خاضعين للمراقبة المصرية ، وبقي هذا الوضع الى ان احتل القطاع من قبل الاسرائيليين سنة ١٩٦٧ . (كان القطاع قد احتل من قبل الاسرائيليين بفترة قصيرة سنة ١٩٥٦ ...

ظاهرياً ، كان قطاع غزة محكوماً من قبل مسؤولين محليين . وقد واصل هؤلاء تطبيق القوانين الانتدابية

عليه ، فالحكام في محاكم المدن خضعت اللفلسطينيين ، والقرى أديرت بواسطة الفلسطينيين . إلا انه في معظم الحالات – عمليا – كانت التعيينات تأتي من قبل سلطات الحكم العسكري المصري .

وقد عاش سكان غزة في عزلة سياسية ، وظروف اقتصادية متدهورة اكثر من التجمعات الفلسطينية في المناطق الأخرى . وكانوا منعزلين عن مصر ، بسبب كثرة عدد سكان البلد ، وكثرة مشاكلها الاقتصادية ، كما أن سكان غزة لم يتمكنوا من دخول مصر ، إلا بواسطة تصريح خاص . وكمساهمة في حل مشكلة اللاجئين هناك ، عملت السلطات المصرية ، على تدريب بضعة آلاف من الشبان الفلسطينيين . وسمحت للقليل منهم بالبقاء في مصر ، كما كان هناك بضعة فلسطينيين يمثلون القطاع في **الاتحاد القومي** .

بعد حرب ١٩٦٧ ، اتبعت سلطات الاحتلال سياسة مشابهة،مع فارق وجود صراعات اساسية ، بين السلطات الاسرائيلية ، وفلسطينيي غزة ، حول التعبير عن الانتماء القومي الفلسطيني . ففي حين كانت السلطات المصرية تشجع اهالي القطاع على الاعراب عن عدائهم لاسرائيل ، ورغبتهم في العودة إلى اراضيهم وبيوتهم – شرط أن يكون هذا خاضعا لضبط السلطات المصرية – فاننا نجد سلطات الاحتلال الاسرائيلي ، تمنعهم من التعبير عن انتمائهم القومي ، بالعنف ، وعملت على انتزاع جذور المعارضة للحكم العسكري الاسرائيلي .

إن الوضع الطبقي العمودي في قطاع غزة ، قد استمر في فترتي الاحتلال ، المصري والاسرائيلي ، فنجد أن مراكز القضاء ، ورئاسة البلديات والمراكز الاخرى بقيت بأيدي العائلات الكبيرة نفسها ، إضافة إلى ان زراعة الحمضيات والصناعة المرتبطة بها ، كانت مقتصرة على العائلات الغنية . في حين وفر اللاجئون لهذه العائلات ، أيد عاملة رخيصة ، مع أن أجور العمال ، ارتفعت نسبياً ، بسبب منافسة المصانع الاسرائيلية في طلبها للأيدي العاملة .

حصل ، في ظل الاحتلال ، تغير اجتماعي عند اللاجئين في كل من الضفة الغربية وقطاع غزة ، وذلك بسبب النقص في الايدي العاملة الاسرائيلية ، وبسبب التطور الاقتصادي السريع ، وتدفق رؤوس الأموال الأجنبية .

واتخذت السلطات الاسرائيلية ، قراراً مدروساً ، عندما شرعت في تشغيل الايدي العاملة في المناطق المحتلة ، حيث أن العمل العربي المؤقت في اسرائيل ، كان يسد احتيجات قطاعات حيوية في الاقتصاد الاسرائيلي ، رغم انه وفر ٦٪ فقط من القوى العاملة الاسرائيلية . اننا لا نجد في المناطق المحتلة ، تقسيما للعمال العرب العاملين في اسرائيل ، بين لاجئين وغير لاجئين . ولكن من الممكن الافتراض ان اكثريتهم من اللاجئين ، ذلك لانهم اقل ارتباطا بالاعمال الدائمة ، واكثر استعداداً للاعمال المؤقتة والموسمية .

بلغت نسبة الاجر اليومي في الضفة الغربية وقطاع غزة ، أعلى مما كانت عليه قبل الاحتلال . مع أن هذا الاجر تلاشى ، بسبب التضخم المالي الكبير الذي تسرب من اسرائيل إلى المناطق المحتلة . وفي حين تحسن وضع العمال الاجتماعي ، فان الطبقة الوسطى ، والأغنياء ، عانوا من تدهور وضعهم الاقتصادي . كما أصبح مزارعو الضفة والقطاع ، مضطرين لدفع أجور عالية للعمال : بسبب المنافسة الأسرائيلية ، بعدما كانوا يجدون في اللاجئين أيد عاملة رخيصة ومتوفرة للأعمال الموسمية . ففي السنوات الأخيرة عانى القطاع الزراعي في المناطق المحتلة ، من نقص شديد في الأيدي العاملة : بسبب الأجور العالية التي تدفع للعمال في إسرائيل وبسبب قيام اسرائيل باستيعاب العمال العاطلين عن العمل .

في سنة ١٩٧٤ ، وصل التضخم المالي في اسرائيل حده الأعلى ، حيث بلغ ٤٠٪ ، وتأثرت المناطق المحتلة بذلك ، وهذه الظاهرة ، هددت وضع الطبقة الوسطى الموظفة من قبل **وكالة الغوث** ، والتي تشكل نسبة كبيرة من زعامات اللاجئين ، حيث أن معظم موظفي الوكالة ، الذين يبلغ عددهم ١٥,٥٠٠ موظفاً ، هم من اللاجئين الفلسطينيين ، وأكثر من نصفهم يعملون مدرسين في مدارس الوكالة ، أو **اليونسكو** . (في نهاية عام ١٩٧٤ ، كان هناك ١٢٦ موظفاً اجنبياً فقط يعلمون في **وكالة الغوث**) .

اسرائيل : لم يبق التقسيم الطبقي ، للمجتمع العربي الذي بقي في فلسطين بعد الهجرة ، على حاله ، بل أصبح مختلفاً تماماً . فنسبة المدنين والمسيحيين الذين ظلوا في فلسطين صارت ضعف النسبة السابقة ، وأغلب المجموعات المسيحية بقيت في فلسطين،بسبب بقاء عدد أكبر من زعاماتها . وهناك مدن عربية ، مثل الناصرة

ومدن اخرى في الجليل ، بقيت بأكملها ، وذلك لأن الاحداث استبقتهم ، وبذلك اتعظوا من مصير اللاجئين .

بين الفئات الثلاثة من العرب الفلسطينيين ، الذين يعيشون تحت الحكم الاسرائيلي (عرب ١٩٤٨ ،وسكان الضفة ، وسكان قطاع غزة) يوجد تمايز ، بالرغم من توفر صفات معينة مشتركة . ذلك ان المستوى المعيشي ، المادي اذا ما قيس بواسطة الدخل وملكية البيوت ، يظهر ان الفلسطينيين الذين يحملون الجنسية الاسرائيلية يتمتعون بمستوى اعلى من المستوى الموجود في الضفة ، والقطاع . علما بان وضعهم هو ادنى بكثير من المستوى المتوفر للاسرائيليين .

من الناحية الأخرى ، فأن نسبة الأيدي العاملة الفنية والمهنية في الضفة والقطاع ،اعلى منها عند العرب في اسرائيل في مناطق ١٩٤٨ . وهناك نقطة اخرى ، وهي ، وجود تمايز بين لاجئي القطاع من جهة ، وفلسطينيي الضفة واسرائيل من جهة ثانية . ولأن أغلبية القطاع من اللاجئين ، الذين ما زالوا يسكنون المخيمات ، لذا هناك ما يميزهم عن أغلبية سكان الضفة ، وعرب اسرائيل .

إن لكل من هذه المجموعات الثلاثة ، مؤسساتها الاجتماعية ، وجذورها السياسية المتميزة . وعلى الرغم من أن المجموعات الثلاث تقع ،الان تحت نفس الحكم السياسي ، إلا ان العشرين سنة من الانفصال تحت الحكم المصري ، والأردني ، والأسرائيلي ، انتجت أساليب مختلفة في العمل الاداري اليومي ، ونظرة مختلفة الى العالم .

بالنسبة للضفة ، فانه حتى الآن ما زال القانون الأردني مطبقاً ، ومازالت العملة الأردنية متداولة ، بينما في غزة ، حافظ المصريون ، وبعدهم الاسرائيليون على الآثار المتبقية من الانتداب البريطاني . إلا أن الاسرائيليين عملوا على الغاء الاجراءات التي ادخلها النظام المصري : ففرضوا العملة الاسرائيلية بدلا من العملة المصرية .

تعليم جيل جديد

منذ نشأت **وكالة الغوث** ، قامت بتطوير شبكة الخدمات الاجتماعية : كالصحة ، والتعليم ومؤسسات التدريب المهني ، التي خلقت فرصاً أفضل نوعياً وكمياً ، من تلك التي كانت موجود في عهد الانتداب البريطاني في فلسطين ، او تلك الفرص الموجودة لدى الدول المضيفة للفلسطينيين ، في مجالات عديدة وعملت **وكالة الغوث** ، كمؤسسات وكافراد ، على تقديم النموذج للحكومات العربية وكما ساعدت تلك الحكومات على تطوير اوضاعهم .

يشكل الشباب الفلسطيني في مخيمات اللاجئين نسبة عالية في المدارس الابتدائية والثانوية ، حوالي ٩٥٪ منهم تتراوح أعمارهم بين ٦ – ١١ سنة و٧٠٠,٠٠٠ لكل مليون ممن تتراوح عمارهم بين ٦ – ١٨ سنة يشغلون صفوف ما قبل الجامعة .

في السنة الدراسية ٧٤/ ٧٥ كان عدد الطلاب في مدارس **وكالة الغوث** في لبنان ، سوريا ، شرق وغرب الاردن وقطاع غزة ٢٧٥,٠٠٠ طالب ، موزعين على ٥٧٧ مدرسة ، اضافة الى ذلك فان ٦٧,٠٠٠ طالب فلسطيني التحقوا بمدارس الحكومة والمدارس الخاصة ، الابتدائية ، والاعدادية ، والثانوية . وزودت الوكالة هذه الشبكة التصليحية بـ ٨,٠٠٠ معلم ، معظمهم من الفلسطينيين[11] .

اضافة الى اولئك الطلاب الذين يدرسون في مدارس **الامم المتحدة** ، هناك تقديرات تشير الى ان هناك عددا مماثلا على الاقل ، من الاطفال الفلسطينيين في مدارس الحكومة في الاردن ، سوريا ، بنان ، الكويت ، مصر ، السعودية ، وقطر . وهذه تشكل زيادة ٩,٢٪ من عدد الفلسطينيين الكلي في المدارس في عهد الانتداب الى نسبة ٢٠٪ الآن ، وبحسب هذه التقديرات ، فان هذه النسبة يجب ان تكون ٤٠٪ لو أن كافة الشباب في سن التعليم (من ١٥ – ١٨سنة) موجودين في المدارس[12] .

وتشير التقديرات الى ان عدد الفلسطينيين في الجامعات تراوح بين ٣٣,٠٠٠ في عام ١٩٧٠ الى ٧٠,٠٠٠ في عام ١٩٧٤ ، وهذه النتيجة جاءت اعتماداً على استمرار نفس النسبة في الزيادة .

يبلغ عدد الطلبة الفلسطينين الذي يصلون الى مراحل التعليم العالي تقريبا نفس العدد الذي عند الاسرائيليين ، الذين يبلغ عددهم ٣ ملايين يهودي .

وتشكل نسبة الطلبة الفلسطينيين في الجامعات أعلى نسبة في الوطن العربي ، وهي ٢١,١٠٠٠ . (٢,١٪) ، وتبلغ نسبة الخريجين الجامعيين من الفلسطينيين الى الخريجين العرب ١٠٪ بالرغم من ان

نسبة السكان الفلسطينيين الى كافة السكان العرب هي ٢,٢٪ .

والدليل على التوجه القوي للتحرك نحو الافضل لدى الفلسطينيين يبرز في الاعداد المتزايدة من الاخصائيين والعمال الفنيين الموجودين في العالم العربي والعمال المهرة الذين استوطنوا في الغرب منذ عام ١٩٤٨ .

والأغلبية الساحقة من الفلسطينيين في الكويت (١٤٠,٠٠٠) ، السعودية (٢٠,٠٠٠) ، الخليج (١٥,٠٠٠) ، والولايات المتحدة (٢٥,٠٠٠) ، هم من الاخصائيين والتقنيين الذين بامكانهم أن يلعبوا دوراً أساسيا في اعادة بناء وتأسيس اقتصاد فلسطين غير زراعي . بالرغم مما وصلوا اليه اقتصاديا ، الا ان هذه الفئة باستثناء الكثيرين في الولايات المتحدة لم تندمج اجتماعيا اوسياسيا في المحيط الذي تعيش فيه فالاندماج صعب ، ان لم يكن مستحيلا بسبب صعوبة الحصول على جنسية ، بالاضافة الى شعورهم الداخلي كفلسطينيين ، والى كونهم مرفوضين من قبل الشعوب المضيفة التي يعيشون بينها .

بالرغم من ان هؤلاء الـ ٢٠٠,٠٠٠ فلسطيني ليسوا لاجئين وليسوا معرفين ضمن **وكالة الغوث** ، ولا يستفيدون من خدمات الوكالة الا انهم يحملون في أعماقهم شعور الانسان المنفي والمقيم مؤقتاً في مكان تواجده ، سواء في الشرق الاوسط او في اميركا .

في حين ان التحصيل العلمي عند الفلسطينيين قورن ايجابياً مع المستوى عند طلبة العالم العربي ، الا ان كثيرين من المثقفين العرب طرحوا سؤالا حول نوعية هذا التحصيل بالمقارنة مع الدول الغربية واسرائيل ، وفي مقال حول تعليم الفلسطينيين نشر في **مجلة دراسات فلسطينية** اشار **ابراهيم ابو لغد** الى التالي :

التحصيل العلمي الضعيف المستوى في مراحل تعليم معينة يؤثر على الطلبة الفلسطينيين نفس تأثيره على الطلبة العرب الذين يدرسون في نفس المدارس . وان التحاق الطلبة الفلسطينيين باعداد كبيرة في كليات الاداب والعلوم الانسانية في المستوى الجامعي هو ، في الحقيقة ، لا يختلف عما هو قائم بالنسبة للطلبة العرب اجمالا ، وهذا الأمر لا يعكس بالضرورة خيارات الطلاب الحقيقية ، لانه كثيراً ما يكون هذا ناجماً عن الشروط الصعبة التي تفرضها كليات العلوم الطبيعية ، والفيزيائية ، في جامعات الشرق الاوسط ، كما أن سياسة قبول الطلاب تعتمد · الى درجة كبيرة ، على وجود أو عدم وجود أماكن شاغرة في كليات العلوم الفيزيائية والطبيعية ، اضافة إلى ان مستوى التعليم (المنخفض) في الجامعات العربية ، حيث يدرس الطلبة الفلسطينيين ، ينتج عنه ، بالضرورة ، خريجين ذوي كفاءات محدودة وضعيفة[١٤] .

وفي دارسة أخرى عن الهوة التكنولوجية والعلمية بين اسرائيل والدول العربية ، حاول الدكتور **انطون زحلان** ، أن يدرس الفارق النوعي بين الطرفين : معتمداً عدد المطبوعات المدرسية كمؤشر رئيسي لدراسته ، وقد لاحظ **زحلان** أن انتاج اسرائيل بعدد سكانها الـ ٣ ملايين يبلغ ٢,٤ مرة أكثر من ١٣ دولة عربية ، بسكانها ال ١٢٦ مليون نسمة . وأن الزيادة في انتاج اسرائيل خلال ٤ سنوات من ١٩٦٧ ــ ١٩٧١ ، كانت تقريباً ، مساوية لانتاج العالم العربي السنوي .

وعند مقارنة مجالات علمية أخرى ، لاحظ **زحلان** هوة عميقة في التطور في مجالات الصناعة الكهربائية ، وفي تطوير القطاع الزراعي ، وفي الاختراعات التكنولوجية العسكرية ، وفي الفيزياء النووية والهندسة النووية . حيث وجد انه لن تصل دولة عربية واحدة في مجال البحوث العلمية ، الى المستوى الذي تنوي القيام به اسرائيل من مشاريع . ففي الدول العربية الواقعة شرق السويس كانت نفقات الابحاث العلمية ، قد بلغت ، سنة ١٩٧٠ ، أقل بـ ٠.٠٦٪ من مجموع الدخل القومي ، وذلك بالمقارنة مع ١٪ من مجمل الناتج القومي في اسرائيل[١٥] .

وهناك ظاهرة اخرى هامة بين اللاجئين ، وهي تزايد أعداد الاناث اللواتي يتلقين تعليمهن ، الآن في المدارس الاعدادية والثانوية . ففي عهد الانتداب ، كان عدد الذكور ، يفوق عدد الأناث اضاف المرات . إلا أن هذه الفجوة أخذت تضيق ، شيئاً فشيئاً . ففي المستوى التعليمي الأعدادي لعام ١٩٧٥ ، كان هناك ١٠١,٠٠٠ طالبة ، مقابل ١١٠,٠٠٠ طالب في مدراس الغوث ، وفي المرحلة الابتدائية ،بلغ عدد الطالبات ٢٨,٠٠٠ طالبة ، مقابل حوالي ٣٥,٠٠٠ طالب . أما في الجامعات ، فما زال هناكعدم تجانس ، على الرغم من أن النسبة خفت ، عما كانت عليه في السابق .

بروز قيادة جديدة

مع تشتت الشعب الفلسطيني في منطقة الشرق الاوسط ، اختلت التنظيمات السياسية التقليدية ، والزعامات السياسية ، ولم تعد المجموعات والأحزاب العائلية هي المسيطرة سياسياً ، وظهرت قيادة جديدة من الطبقة الوسطى والمهنيين ، في الجيل الاول بعد الهجرة ، لتنافس ومن ثم لتطغى على قيادات سابقة مثل الحسينيين والنشاشبيين الذين هزت الهزمة مكانتهم . وحتى منتصف الستينات ، لم تكن هناك منظمة أوقيادة فلسطينية معينة ، تمكنت من أن تكسب ولاء المجموعات اللاجئة المختلفة . والزعيم الوحيد الذي حظي بهذا الولاء هو الزعيم المصري **جمال عبد الناصر** . وبشكل عام ، توزع النشاط السياسي للفلسطينيين بحسب مكان أقامتهم . ففي سوريا انتمى النشيطون سياسياً إلى **حزب البعث** ، وفي لبنان ، إلى **حركة القوميين العرب** ، وفي مصر ، **للاخوان المسلمين** ، وفي الاردن انخرطوا في العمل ، إما مع أو ضد النظام الأردني ، أو في **الحزب الشيوعي الاردني** .

وبالنسبة لحياة اللاجئين ، وخاصة الموجودين منهم في المخيمات ، فقد استمرت على حالها التقليدي ، ونظمت الحياة حسب الطريقة التي كانت سائدة في القرى التي أتوا منها . واستمر وجود العائلة الممتدة ، كأساس للحياة الاجتماعية . « ويعود استمرار الاشكال المختلفة ، للعلاقات الاجتماعية والتنظيمية ، التي كانت موجودة قبل ١٩٤٨ ، والتي حوفظ عليها بشكل جيد ، الى الشعور بالانتماء الفلسطيني ، وهو شعور قوي جداً « اليوم » ،. وهذا الشعور (بالتضامن) تبلور ، إلى حد ما ، نتيجة الظروف الاجتماعية المتردية في المخيم ، حيث الخصوصية شيء غير مألوف ، ومن غير الممكن تجاهل (الجيران) إن هذا الوضع انتج مجموعة متماسكة وواعية لوضعها »[١٦] .

لقد تمكن عدد من الزعامات التقليدية من اعادة احترامهم بالرغم من انهم عاشوا في المدن ، وبعيداً عن المخيمات والقرى ، واستطاعت شبكة زعماء العائلات الممتدة ، أن تسيطر على الحياة في القرية ، واسترجع المخاتير والشيوخ السابقين مكانتهم كوسطاء بين الشعب والحكومات المضيفة او مسؤولي **وكالة الغوث** . واستمرت في قرى ومدن الضفة الغربية وغزة الطبقات العليا المحلية في السيطرة على الامور ، من خلال البلديات والمجالس القروية ، مقدمة ولاءها للسلطات الحاكمة في المراكز السياسية ، مثل القدس وعمان والقاهرة .

وبعد ١٩٦٧ ، ومع ظهور منظمات المقاومة الفلسطينية ، برزت قيادة فلسطينية وطنية في **المجلس الوطني الفلسطيني ، وبالرغم من الصعوبات الناجمة عن التشتت ، وعن معارضة الدول المضيفة لوجود منظمات فلسطينية مؤثرة . ومن اجل اجراء انتخابات خارج حدود الدولة الواحدة ، بانه يتضح** لأي مطلع ان م . ت . ف . ، وبالتحديد ، **المجلس الوطني الفلسطيني ، هو المجموعة الوحيدة المنظمة التي لها الحق في تمثيل الشعب الفلسطيني ، بشكل عام ، وفي جميع المناطق .**

في كثير من النواحي ، يعكس **المجلس الوطني الفلسطيني** ، التكوينات السياسية والاجتماعية للمجتمع ما قبل ١٩٤٨ . ففي حين أن النزاعات الاقليمية والعائلية قد طمست ، فإننا نجد أن نقاط ضعف أخرى قد ظهرت . وكثيرا ما تحدث عنها النقاد ، وتبرز في الخلافات بين المنظمات المختلفة[١٧] . منها التركيز الشديد بين زعماء المنظمات على العروبة ، والتركيز على احياء العلاقات العائلية والقبلية ، والنزوع إلى المبالغة ، أو التقليل من قيمة الانجازات . كل هذا يؤثر على الجهود من أحل العمل الجماعي المتجانس .

وعلى الرغم من وجود نقاط الضعف هذه ، فإن المنظمات الوطنية الفلسطينية بعد عام ١٩٤٨ ، تعكس صعود الطبقة الوسطى ، والمهنيين الى الزعامة السياسية . ولعل أهم صفة تميزها ، هو كونها من الطبقة الوسطى ، حيث أن هناك عدداً لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة من الطبقة التي كانت مسيطرة قبل الانتداب ، موجود الآن في **المجلس الوطني الفلسطيني** ، وهناك عدد اقل منه في **اللجنة التنفيذة** .

إن هذا التوزيع الطبقي ، ينطبق على المؤسسات البيروقراطية التابعة لـ م.ت.ف مثل **الصندوق القومي الفلسطيني ، وجمعية الهلال الاحمر ، ومركزالتخطيط** . إن هذه المراكز ، مسيطر عليها من قبل الطبقة الوسطى ، كما تشير دائرة **المنظامات الشعبية** إلى أن الهيكل التنظيمي لحركة المقاومة ، يعكس أصولا طبقية وسطى ، ومن بين الاتحادات العشرة التابعة للمنظمة (**الطلاب ، العمال** ،

الفلاحين ، المرأة ، الكتاب والصحافيين ، الاطباء ، الفنانين ، المهندسين والمحامين ..) لا يوجد الا اتحادات العمال والفلاحين فقط ، اللذان يمكن اعتبارهما ممثلين لطبقات غير عليا ، وحتى هؤلاء فإن عملية انتخاب ممثليهم غير واضحة(١٨) .

أما بالنسبة للمصطلحات السياسية ، والشعارات لفترة ما بعد ١٩٦٧ ، التي طرحتها المجموعات الفلسطينية ، فإنها تشير الى الابتعاد عن الزعامة السياسية التقليدية ، في حين بقيت السفارات السابقة ، واستمرت مثل : دعم الثورة الفلسطينية ومساندتها ، الانتماء للعروبة ، العداء للصهيونية . واستعملت هذه الشعارات كما في السابق ، مع وجود اهتمام جديد للتشكيل الطبقي الفلسطيني ، وهو طرح مسألة خيانة الطبقة البرجوازية ، ودخول ايديولوجيات ماركسية جديدة ، مثل **فرانس فانون ، تشي غيفارا** ، وثوريين يساريين آخرين .

في فترة الانتداب ، كانت هناك عناصر يسارية نشيطة ، إلا ان هذه العناصر لم تكن ذات تأثير في المجالس العليا للحركة الوطنية ، بينما تلعب العناصر اليسارية في الوقت الحاضر ، دوراً مهماً في **المجلس الوطني واللجنة التنفيذية لـ م.ت.ف**(١٩) .

منذ عام ١٩٤٨ ، ارتقى الفلسطينيون المسيحيون الى مراكز حساسة بينما ركزن العقيدة الاسلامية علىالجماهير الشعبية .

وركزت المنظمات اليسارية العسكرية وبالتحديد – **الجبهة الشعبية ، والجبهة الديمقراطية** – على العلمانية ، والصراع الطبقي ، وهناك عدد من قيادات هذه المنظمات من المسيحيين المنتمين للطبقة الوسطى ، الذين شددوا على علمانية الحركة الوطنية ، كماتبوأ عدد من الفلسطينيين مراكز حساسة أخرى ، مثل الدكتور **يوسف الصايغ ، وكمال ناصر** ، عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير(١٠) .

وبالنسبة للمرأة فنجد ان المرأة الفلسطينية لم تصل الى اي مركز قيادي في **منظمة التحرير** ، واقتصر وجودها على **اتحاد المرأة** ، ومع ذلك فقد لعب النساء دوراً فعالا ، أكثر من الدور الذي لعبته المرأة قبل ١٩٤٨ ، وذلك من خلال عضويتهن في المنظمات الفدائية . وتلقيهن التدريب العسكري في كثير من المخيمات(٢١) .

إن تأثير الزعامات الجديدة ، في مخيمات اللاجئين ،ز قد طغى على الزعامات التقليدية « بالرغم من أن زعماء العائلات ، مازالوا يحتفظون ببعض التأثير في مجالاتهم . فالحقيقة هي جن الفدائيين قد استولوا على مخيلة وحماسة الشباب الفلسطيني في المخيمات ، حيث أعى هؤلاء كل ولائهم .. لحركة المقاومة »(٢٢) .

وانتقل تأثير الزعامة الجديدة ، وانتشر ايضا في الضفة الغربية حيث بدأ الفلسطينيون هناك باستبدال التقليديين الذين احتكروا إدارة الشؤون المحلية منذ الانتداب وقد ظهر ذلك ، بوضوح ، في الانتخابات البلدية التي جرت في الضفة ، في نيسان (ابريل) ١٩٧٦ ، في اربع وعشرين مدينة في الضفة وبالاغم من أن الانتخابات قد جرت في ظل الاحتلال الاسرائيلي ، إلا ان شخصيات تقليدية ، مثل **الجعبري** ، قد عزلت ، وفاز مؤيدو **منظمة التحرير** في مدن الضفة الرئيسية مثل نابلس ، الخليل ، ورام الله . وقد كتب مراقب الانتخابات في جريدة **جيروزليم بوست** قائلا إن الانتخابات « قد كشفت تأييد زعماء وشعب الضفة **لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وللخط الوطني الذي تمثله المنظمات** ... »(٢٣) .

وفي دراسة اجراها **معهد شيلوح** التابع **لجامعة تل ابيب** ، حول الكفاءات العلمية في الضفة الغربية فيمدن نابلس ، جنين ، طولكرم ، **ظهر فيها** مدى التغير الطارىء في اتجاهات الطبقة الوسطي ، وجل هذه الاتجاهات آخذة في النمو . وكانت نسبة الذي أجريت معهم مقابلات من الطبقة العليا ، بين ١٥ – ٢٠٪ وأشارت الدارسة ان نصف الاخصائيين المتعلمين ، هم من الطبقة الوسطى . وفي اختيار آخر ظهر أن نصفهم من اصول طبقية كادحة .

لذلك ، يجب عدم اعتبار النخبة من الأخصائيين متجانسة طبقياً، فقطاع منها مرتبط بنخبة التقليديين ، والقطاع الآخلا « **هو** نتاج للتغير الاجتماعي الذي حصل . وهو عبارة عن أفراد شقوا طريقهم بأنفسهم ، بواسطة التعليم وتبوؤا وظائف محترمة » .

ففي حين كان النظام السياسي مبني على التركيب العائلي التقليدي « المحسوبية » *
فان الآن امثلة على استخدام الخدمات المهنية ، لكسب دعم جماهيري عريض ، من اجل التخلص من المحسوبية العائلية ، وكسب مركز مستقل (٢٤) .

إن النظرة الاسلامية ، ما زالت مسيطرة « وتعمل

كرابط موحد للمجتمع ككل » .

ولكن الانطباع سلبي ، اما بالنسبة للمجددين ،(MODERNISTS) **فقد كانوا اكثر** « العناصر المؤثرة في المجموعة التي اجريت عليها الدراسة ... من بين الاخصائيين المهنيين ، وخاصة الاطباء ، والمهندسين ، ويلاحظ ان هناك توجهاً اسلاميا تقليديا سائدا بين غير الاخصائيين وبالتحديد في صفوف الموظفين الكبار والمعلمين ، وذلك بحكم اتصال النمط الاول بالثقافات الاخرى ، ولاتقانهم اللغات الاوروبية بينما النمط الثاني يقتصر على التعاليم الدينية واستعمالهم للغات الاجنبية محدود(٢٥) .

في اسرائيل ، أيضاً ، اصبح من الممكن قياس التغير الحاصل في اتجاهات السكان العرب . كانت الحياة السياسية في المجتمع العربي ، نشيطة ، إلا انها متأثرة بالطرق التي كانت موجودة في فترة الانتداب ، وحتى عام ١٩٦٧ لم يكن هناك نشاط سياسي واضح عند العرب في اسرائيل . فعلى الصعيد المحلي ، في القرى والشؤون البلدية ، استمر وجود نظام « الحمائل* » التقليدي ، ومارست الأحزاب اليهودية تأثيرها ونفوذها على الزعماء المحليين من أجل كسب الدعم في انتخابات **الكنيست** . وعبر العرب عن معارضتهم للنظام من خلال التصويت **للحزب الشيوعي** ، في الانتخابات العامة ، والمحلية(٢٦) .

إن التغيير في النظرة السياسية والاجتماعية اصبح واضحاً عند العرب الاسرائيليين ، كما عند باقي المجموعات الفلسطينية الأخرى ، وتأكلت القيم التقليدية وعبر عن هذا التآكل في ازدياد الدعم للحزب الشيوعي ، وتطور عند العرب الاحساس بالهوية القومية ، كعرب وكفلسطينيين ، في آن . ومع انتشار التعليم ونشوء جيل من الشباب الواعي سياسياً ، تقلص تأثير الزعامات التقليدية المتعاملة مع الدولة الاسرائيلية . وقد ازداد هذا التوجه بعد عام ١٩٦٧ ، وذلك في أعقاب عودة الاتصالات بين العرب في اسرائيل ، والعالم العربي .

ومنذ عام ١٩٧٣ ازداد حجم **الحزب الشيوعي (راكاح)** ، كعامل سياسي بين العرب في اسرائيل ، وازداد الشعور بالتقارب مع فلسطينيي الضفةالغربية، وقطاع غزة(٢٧) .

الخلاصة

إن الظواهر الاساسية في التقسيم الطبقي الاجتماعي للشعب الفلسطيني في الجيل السابق ، كانت في الابتعاد عن الزراعة ، وازدياد عدد قاطني المدن ، والنقص في العوائق الاجتماعية بين الطبقات ، وزيادة الفاعلية ، والتركيز الأكثر على أهمية التعليم لكل من الرجل والمرأة ، والاكثار من كسر الحواجز الطبقية كنتيجة للتعليم ، وازاحة الفروقات الاقليمية .

بينما نجد أن ظواهر ، مثل علاقة الرجل بالمرأة ، الفروقات بين الأجيال ، الانتماء المسيحي والاسلامي ، والروابط العائلية المرتكزة على مؤسسات تقليدية،لا تزال مهمة وذات تأثير .

إن حالة النهوض السياسي ، والحاجة الى اعادة الشروط الاقتصادية الطبيعية ، قللت من أهمية تلك الظواهر ، وخففت من الحدة التي طبعت أسلوب الحياة الاجتماعية ، في فترة ما قبل عام ١٩٤٨ .

على اساس هذه الملاحظات ، اود أن اطرح عدة اسئلة من القيام بدارسات في المستقبل .

– إلى اي حد تعكس المنظمات الفلسطينية المختلفة التركيب الاجتماعي ؟ وبالتالي ، إلى اي مدى تعكس التغير في هذا التركيب ؟

– هل الفوارق الاجتماعية والاقتصادية بين الفلسطينيين تنعكس في المنظمات السياسية الموجودة حالياً ، وفي النخبة السياسية التي تتزعمها ؟

– وهل هي واضحة في الايديولوجيات السياسية لهذه المجموعات ؟

– في حالة وجود دولة فلسطينية هل ستوجد احزاب سياسية مختلفة ، تمثل الطبقات المختلفة في المجتمع؟

– ما هي تأثيرات التقسيم الطبقي الفلسطيني في المجتمع الفلسطيني ، على التحول من حركة فدائية إلى دولة ؟

– إذا افترضنا أن الدولة ستضم قطاع غزة والضفة الغربية ، حيث نصف السكان تقريبا يعيشون في ظروف اقتصادية واجتماعية حيوية ، هل ستتلاشى هذه الظروف وبالتالي تتراجع النخبة المسيطرة ، لتفسح المجال أمام المنظمات وقياداتها التي عاشت خارج البلد لسنوات عديدة ، أم هل سيوجد نوع من التوازن بين الفلسطينيين الذين يسكنون في بلدهم ، وبين الفلسطينيين العائدين ، الذين قد يختاروا ان يعودوا مجدداً ، على ضوء قانون فلسطيني جديد هو « قانون العودة » ؟

هوامش

(١) مثالا على ذلك انظر مقال نبيل شعث «Palestinian High Level Man Power» في مجلة **دراسات فلسطينية** ، مجلد ١ ، عدد ٢ ، شتاء ١٩٧٢ ، ص ٨٠ ـ ٩٥ . ودراسة حول التركيب الاقتصادي وامكانيات التطور في الضفة الغربية وغزة ، للكتاب بن شاهار ، بيرغلاس ، مندلاك وسادان (Santa Monica, Rand Corporation 1971) وقد نشر احصاء مطول من قبل الحكومة الاسرائيلية (CBS) حول سكان الضفة والقطاع في سنة ١٩٦٧ و ١٩٦٨ ، حوى احصائيات كاملة للظروف السكنية ، محتويات البيوت ، المساعدات المعيشية والزراعية ، القوة العاملة ، وبعض الصفات الديمغرافية .

(٢) افضل مرجع في هذا الصدد هو *(The Arabs of Palestine)* أو *Arevi Eretz Israel* ليعقوب شيموني (Tel Aviv, 1974) . وهناك دراسة منهجية عن ٤,٥٨٠ موضوع ، لوليد الخالدي وجيل خضوري ، (محررين) ، **فلسطين والصراع العربي الاسرائيلي** (بيروت : مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧٤) تحتوي على مئات الموضوعات حول الفلسطينيين قبل ١٩٤٨ .

(٣) معظم المواد في هذا الفصل من كتاب *A Palestine Entity?* دوك بيريز ، ايفان ويلسون وريتشارد وارد . (Washington, D.C. : Middle East Institute, 1970).

(٤) Cmd. 5479, *Palestine Royal Commission Report* (London, 1937), p. 44.

(٥) Y. Porath, *The Emergence of the Palestinian - Arab National Movement*, 1918-1929 (London: Frank Cass, 1974). P. 228.

(٦) زحلان *«Palestines Arab Population»* مجلة **دراسات فلسطينية** ، مجلد ، ٣ ، عدد ٤ ، صيف ١٩٧٤ ، ص ٤١ .

(٧) **المرجع السابق** ، ص ٤٤ ـ ٤٩ ، مقال عدنان ابو غزاله «Arab Cultural Natinonalism in Palestine During the British Mandate» مجلة **دراسات فلسطينية** ، مجلد ١ ، عدد ٣ ، ربيع ١٩٧٢ .

(٨) تقرير الجمعية العمومية للأمم المتحدة ، **تقرير المفوض العام لوكالة اغاثة اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الادنى** ، 1 July 1974-30 June 1975, 30th Session, Supplement No. 13 (A-10013).

(٩) **الكتاب السنوي للاحصاء الصادر عن دائرة الاحصاء المركزية** ، للحكومة الاسرائيلية ، ١٩٧٥ ، رقم ٢٦ ، ص ٧٠٢ ـ ٧٠٣ . بالاضافة الى *«Some Sociological and Economic Aspects of Refugee Camps in the West Bank»*.

بن بوراث وايمانيول ماركس *(Santa Monica: Rand Corporation 1971)* ، ص ٣٩ ـ ٤٤ .

(١٠) بالنسبة للايدي العاملة العربية في اسرائيل راجع مقال موشي اتر (Retired «Zionis Israel», Economic Editor Jerusalem Post) *Jerusalem Post Weekly* ، عدد ٨٢٠ ، ٢٠ تموز ، ١٩٧٦ ، ص ٧ . بالاضافة الى **الكتاب السنوي الاحصائي الاسرائيلي** ، ١٩٧٥ ص ٧٠٧ .

(١١) هيئة الأمم *Op., Cit.*, ص ٧٠ ـ ٧٥ ، بالاضافة الى زحلان «Educating a Nation in Exile» **الغارديان** ، ١٥ ايار ١٩٧٦ .

(١٢) زحلان *Op., Cit.*, «Palestine's Arab Population» ، ص ٦٥ .

(١٣) زحلان ، **الغارديان** ، ١٥ ايار ١٩٧٦ .

(١٤) ابراهيم ابو لغد ، «Educating a Community in Exile: The Palestinian Experience», مجلة **دراسات فلسطينية** ، مجلد ٢ ، عدد ٣ (ربيع ١٩٧٣ ، ص ١١٠ وفي مقالة زحلان المصدر نفسه ، يشير الى ان معظم الطلاب الفلسطينيين « خاصة الذين يدرسون في جامعات غربية مسجلين في مواد ذات نوعية سيئة ، واكثر من ٣٠ ٪ منهم لا يحضرون المحاضرات ، فقط يأتون للامتحانات . أقل من ٤٠٪ مسجلين في مواد علمية ، مثل موضوعات الطب والهندسة . » .

(١٦) باسم سرحان «Palestinian Refugee Camp Life in Lebanon», ، مجلة **دراسات فلسطينية** ، مجلد ٤ ، عدد ٢ ، شتاء ١٩٧٥ ، ص ١٠٢ .

(١٧) الجيل الأول من هذا النوع من النقد الذاتي ، ظهر في كتاب قسطنطين زريق « **معنى النكبة** » الذي يناقش الهزيمة العربية في حرب ٤٧ ـ ٤٨ ، ترجم الكتاب بايلي ويندر ، وطبع في مطابع الحياة ، بيروت ، ١٩٥٦ .

بعد ١٩٦٧ تمثل النقد الذاتي الحديث عند صادق جلال العظم ، في « **النقد الذاتي بعد الهزيمة** » نشر دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٨ ، وانتهى لويس سكور من ترجمته . وقدمه ضمن رسالة الماجستير التي اعدها في الجامعة الاميركية ببيروت ، عام ١٩٧١ .

(١٨) لمناقشة التنظيم في منظمة التحرير الفلسطينية ، انظر « ماهي منظمة التحرير » لرشيد حامد ، المجلد الرابع ، العدد (٤) و «Political and Military Dimesions of Contemporary Palestinian Nationalism» ويليم قنت ، فؤاد جابر وآن موسيلي ليش ، سياسة القومية الفلسطينية (Univ. of California Press, 1973) .

(١٩) انظر مقال «Yasumasa Kwroda» في مجلة *«Middle East Journal»* المجلد ٢٦ ، العدد ٣ ، ١٩٧٢ وهي بعنوان «Young Palestinian Commandos in Political Socialization Perspective».

ومقال لـ « محمد مصلح » في مجلة *«Middle East Journal»* ، المجلد ٣٠ ، العدد ٢ ، ١٩٧٦ بعنوان «Mederates and *Rejectionists* within the Palestinian Liberation Organization». **المقاومة الفلسطينية** ، بقلم جيرار غاليان ، (لندن ، بينغوين ، ١٩٧٢) تأييد البرجوازيين الفلسطينيين لحركة فتح اكثر من تأييدهم لمجموعات اكثر تطرفا ، مثل : **الجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين** بحثه كل من باميلا آن سميث في Aspects of Class Structure in Palestinian Society, 1948-1967» في اسرائيل والفلسطينيين ، اوري ديفيس اندو ماك وبيرا يوفال ـ ديفيس ، (London: Ithaca Press, 1975) وفي بحث لشلباند حول المجلس الوطني الفلسطيني السادس المنعقد في القاهرة عام ١٩٦٧ يشدد على « الاختلاف الواضح بين مواقف (الاقلية) الثورية وبين المجموعات الاكثر محافظة » . فالفئة الثانية رفضت بحث مسائل معينة : مثل دفع رواتب مرتفعة للاداريين في منظمة التحرير ، رفضت قرار ادانة الرجعيين الفلسطينيين ، رفضت ادانة الانظمة الرجعية العربية ، واعترضت على استعمال كلمة « الرجعية » (see Chaliand, *Op., Cit.*, pp. 94-95) وحسب اعتقاد الناقد الصديق لمنظمة التحرير ، Mirko E. Aksentizevic « فان الفراغ المتعمد في مبادىء البرنامج السياسي يشير الى مجاله دمج سياسة للخلافات اكثر من محاولة تأسيس مبادىء حركة ثورية » ، مجلة **دراسات فلسطينية مجلد ٢** ، **عدد ١** (خريف ١٩٧٢) .

(٢٠) Pamela Ann Smith ، *Op., Cit.*, ، تناقش موضوع المعاملة المتميزة التي تلقاها الفلسطينيون المسيحيون في لبنان ، الأمر الذي مكنهم من جمع ثروة محدودة ، والانخراط في الأعمال التجارية ، غالبية البرجوازية الصغيرة في لبنان مسيحية . وهي متركزة في مناطق بيروت الجديدة ، حيث يمتلك الفلسطينيون الكثير من المطاعم ، والمقاهي ، ومحلات الأزياء ودكاكين البقالة وغيرها ... ، ص ١٠٩ .

(٢١) في دراسة من اعداد مركز شلواح حول النخبة في الضفة الغربية (انظر الهامش ٢٤) تبين ان ٨ ، فقط من ، أصل ٢٧١ فرداً من ذوي الاختصاصات العالية هم من النساء .

(٢٢) باسم سرحان ، *Op., Cit.*، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ .

(٢٣) يوسف جوئيل «A Different Breed» في *Jerusalem Post Weekly* ، العدد ١٠ ، ايار ١١ ، ١٩٧٦ ، ص ٩ .

(٢٤) S. Shamir, R. Shapira, E. Rekhess, S. Tibon I. Stockman.

« **النخبة من الاختصاصيين في السامرة** » تلخيص لنتائج الدراسة المسحية التي أعدها مركز شلواح ، جامعة تل ابيب ، آذار ١٩٧٦ ، الصفحات ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢٥) *Ibid.*, ، الصفحات ٢٨ ـ ٣٢ .

(٢٦) لمناقشة الآثار التقليدية للممارسات السياسية الاسرائيلية العربية ، انظر دراسة « **القرى الحدودية العربية في اسرائيل** » بقلم أبنير كوهين ، دراسة حول الاستمرارية والتغير في التنظيم الاجتماعي ، إصدار جامعة مانشستر ، ١٩٦٥ . ودراسة « **العرب في اسرائيل** » ، بقلم جاكوب لانداو ، دراسة سياسية صادرة في لندن ، جامعة أكسفورد ، ١٩٦٩ . والدراسة المخطوطة « **العرب في الدولة اليهودية** » ، بقلم Ian Instick ، وهي حول قمع الاقليات القومية ، أعدها مؤلفها لتكون رسالة دكتوراة في جامعة كاليفورنيا ، ١٩٧٦ .

(٢٧) الأثر المتزايد لحزب **راكاح** بين عرب اسرائيل يمكن متابعته من التالي : في انتخابات الكنيست لسنة ١٩٦٥ ، نال **راكاح** ٢٣,٦٪ من أصوات العرب ، وفي انتخابات ١٩٦٩ نال ٢٩,٦٪ ، وفي انتخابات ١٩٧٣ نال ٣٧٪ .

جـذور الاطـماع الاستعمارية الصهيونية في فلسطين

علي حسين خلف

عبرت الحركة الصهيونية ، منذ نشأتها المنظمة في **مؤتمر بال** ، عن أيديولوجية البرجوازية اليهودية الكبيرة ، وعكست مصالحها وسلوكها الرجعي على النطاق الدولي . وفي استنادها الى التوراة وتعاليم الحاخامات ، استمدت الصهيونية ، كحركة سياسية للبرجوازية ، المقومات العنصرية البدائية والتفسير المثالي للتاريخ . فمن جهة ، جردت اليهودي من الظروف الاجتماعية ـ الاقتصادية ، التي عاش بها على مر العصور ، ونظرت اليه كقوة خارج التاريخ والواقع. ومن جهة أخرى ، استخدمت تعابير (**الحق الألهي**) و (**شعب الله المختار**) ، كجسر عبور الى (**الوطن القومي**) و(**العنصرية**) . فتصبح (**العودة إلى أرض الميعاد**) مشيئة الهية ، وكذلك خصوصية تفوق (**اليهود**) عن غيرهم من سكان العالم . وساعتئذ ، فالرب هو الذي يقر أن اليهود (**شعب**) ، تنقصه الارض ، حتى تتفتح خصائصه القومية !! وبذلك يتساوى (**الله**) مع (**رأس المال**) في المحتوى الرجعي للحركه الصهيونية

ان ارتباط الصهيونية ، منذ النشأة ، بالبرجوازية الاوروبية أفقدها طابع (**الاستقلالية**) ، وحولها الى أداة مكشوفة بيد هذه البرجوازية ، الساعية الى تحقيق اطماعها الاستعمارية في الشرق . وليس صدفة أن تسعى كل دولة امبريالية أوروبية ، الى استخدام الصهيونية عند التلويح باطماعها للسيطرة على مواد خام الشرق ، وطرق مواصلاته الاستراتيجية ، عسكرياً واقتصاديا . ويزول الهامش الاستقلالي ، تماماً ، في نشاط الصهيونية الاوروبية ، في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وخاصة النشاط الاستعماري البريطاني ، الذي لم تسهم به أي تجمعات يهودية ، الا في وقت متأخر جداً . ولذا ، يصعب القول ان تاريخ الحركة الصهيونية هو تاريخ الاطماع الاستعمارية الصهيونية في فلسطين ، لأن الاطماع الاستعمارية الصهيونية تكرست على يد الصهيونية الأوروبية ، وباتجاه فلسطين ، قبل ظهور الصهيونية كحركة سياسيه للبرجوازية اليهودية ، في **مؤتمر بال** ، ١٨٩٧ .

الثورة البرجوازية والعجز المزدوج

ولكن لماذا لم تتمكن الثورة البرجوازية في أوروبا الغربية والوسطى ، من ان تحل المسألة اليهودية على قاعدتي المساواة والاندماج ؟!

ان الثورة البرجوازية في أوروبا الغربية والوسطى ، وهي تدمر البنى الأقطاعية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، كانت تحطم ، بذات الوقت ، الدور اليهودي المميز منذ القرون الوسطى . ورغم رفع شعار المساواة والحقوق المدنية لليهود ، في هذه الأقطار ، فأن بمقدور فئتين فقط من اليهود الاندماج الكامل في النظام الجديد ، وهما البرجوازية والبروليتاريا . البرجوازية باندماجها بالسلطة السياسية والاقتصادية ، والبروليتاريا باندماجها بحركة حفار قبر

البرجوازية ووريثها التاريخي . بينما تنحدر أغلبية التجمعات اليهودية من البرجوازية الصغيرة والمتوسطة .

وبنظرة سريعة على المهن التي تعرضت الى اهتزاز شامل ، تبرز لنا الاعداد الكبيرة التي فضلت الهجرة الى روسيا القيصرية وبولونيا ، على الاندماج والمساواة . إذ توزعت أغلبية المهن على وكلاء إقطاع وسماسرة جبي الضرائب لصالحهم وصالح الدولة ، أصحاب حانات وبقالين ، بائعين متجولين ، صاغة ، مرابين ، حرفيين في الحدادة والنجارة والزخرفة .

إن هذه الفئات من البرجوازية الصغيرة والمتوسطة ، فضلت البحث عن مكان تمارس فيه وظائفها التقليدية ، ودورها الاقتصادي المميز ، بعيداً عن الاستثمارات الرأسمالية في الصناعة ، والزراعة ، والتجارة ، وعن سلطة رأس المال . وحلت الاقسام الواسعة منها أزمتها : بالهجرة ، حتى غدت روسيا القيصرية في القرن التاسع عشر ، تستوعب أكبر تجمع يهودي في العالم (بما يزيد على النصف) .

ومن جهة أخرى ، فأن الثورة البرجوازية ، وهي تحقق ديمقراطية مالكي وسائل الانتاج (الأقلية) ، لم يكن بمقدورها، نظراً لمحتواها الأيديولوجي ، أن تقدم الديمقراطية الحقة ، والمساواة الحقة ، للمواطنين ، وأن تحل ، حلا جذرياً ، المشكلات الطائفية والقومية . وبدلا من النضال من أجل اسقاط البرجوازية ، حاولت البرجوازية الصغيرة والمتوسطة اليهودية ان تحل مشكلتها بالهروب ، وان تسعى لأطالة أمد مواجهة ازمتها ، التي تكشف عن أن تكون خاصة ، عندما تنصهر في بوتقة ازمة المجتمع الذي تنتمي اليه ، وطرق حلها .

الانفجار في روسيا القيصرية

وفي روسيا القيصرية ، حظي الدور الاقتصادي لليهود بكراهية مثلثة ، من الفلاحين والبرجوازية ا لصاعدة والحكم القيصري ، في آن . فبالنسبة للفلاح ، كان دور الوسيط للأقطاعي او لسلطة القمع ، ودور المرابي والتاجر والبقال وبائع الخمور ، يعني أن (اليهودي) هو رمز الاستغلال والقمع والاحتيال المباشر . وهذا الدور بالنسبة للبرجوازية الصاعدة ، يعرقل خطوات رأسملة المجتمع . وهو بالنسبة للحكم القيصري دور الاداة المكروهة .

إن هذا كله ، يفسر لماذا اندلعت المذابح ضد اليهود ، لمجرد اشتراك فتاة يهودية في عملية اغتيال القيصر ، عام ١٨٨١ ، وكيف أن هذه المذابح أسهم بها الفلاحون بالدرجة الأولى ، تحت سمع وبصر السلطة ، ورضا البرجوازية .

لقد أثر هذا الحادث على مجرى عملية الاستنارة اليهودية (**الهاسكالا**) ، والتي دعت الى تطوير الدين على أساس الحضارة الغربية . فارتدت ، وبشكل حاد ، الى الانعزال مرة أخرى ، ورفض الاندماج ، والدعوة الى الهجرة من خلال تحويل **الهاسكالا** الى **جمعية أحباء صهيون** .

وعندما نشطت حركة الهجرة الى الخارج ، حظر على اليهود التواطن في بولندا ، ورفع ٣٠٠ الف ألماني عريضة الى **بسمارك** ، يطالبونه فيها بمنع دخول اليهود الى ألمانيا ، بعد مضي عشر سنوات على منح اليهود حقوق المساواة في ألمانيا (مهد حركة الاستنارة اليهودية) .

الطريق المسدود

وجدت الحركة الصهيونية ، في الانفجارات المتعاقبة ضد اليهود ، تربة خصبة للأدعاء بصحة خطوطها العامة . فعالمية المسألة اليهودية تعني تحويل تجمعات اليهود الى (أقليات) قومية في أقطارها وبين شعوبها . وبذلك يتحول اليهودي الى لاجىء في وطنه ، والى غريب . وهذه الغربة ليست بنت القرن التاسع عشر ، إنها غربة أبدية لليهودي ، منذ النفي الأول في بابل . وبذلك ربطت الصهيونية بين (عالمية) المسألة اليهودية وتاريخيتها .

ونتيجة لهذين الادعاءين ، أصبح الحل ، هو إيجاد وطن قومي يكون وطن كل يهود العالم ، سواء هاجروا اليه أم حافظوا على مواقعهم في بلدانهم .

إن هذه الاختيارات الصهيونية ، كانت تعمق ارتباط الصهيونية بالبرجوازية الأوروبية ، وتؤهلها للعب دور الأداة في تحقيق أطماعها الاستعمارية في الشرق ، وفي ضرب وقمع البروليتاريا في الدول الصناعية . وهي المهد الحقيقي لاستخدام الصهيونية في العمل الرجعي الدولي ضد الاحزاب الشيوعية وأيديولوجية الاشتراكية العلمية، ولاحقا ضد الثورة البلشفية .

وحتى لا تناقش الصهيونية وكأنها هبطت من (السماء) فجأة ، او انبثقت من (الارض) دون تمهيد ، فأن الدور الأوروبي في خلقها وبلورتها في **مؤتمر بال** ، تزامل مع مرحلتين من العمل اليهودي المميز من خلال **الهاسكالا واحباء صهيون** .

الهاسكالا

ظهرت **الهاسكالا** « حركة الاستنارة» ، كرد فعل على الطقوس الدينية اليهودية المحافظة ، واستجابة للمفاهيم الحضارية العصرية ، التي تضمنتها الثورة البرجوازية ضد الاقطاع في أوروبا . ولذا دعت الى تطوير الدين اليهودي : ليتلاءم مع هذه الحضارة ، وللتخلص من اليديشية المتخلفة . **فهي** دعوة مباشرة للخروج من الغيتو الى الاندماج ، على قاعدة دراسة اللغة العبرية ، وتطويرها .

ويعتبر **موسى مندلسون** (١٧٢٩ ـ ١٧٨٦) ، الأب الروحي لهذه الحركة ، ورائدها المؤسس . وقام **مندلسون** بترجمة **التوراة** الى الالمانية ، مستبعداً منها الكثير من الهرطقات الدينية ، مما أثار حفيظة الحاخاميين ، وانتقادات الفرق التصوفيه ، وخاصة **الحاصدية** ، التي اتهمت انصار هذه الحركة بالخروج على الدين .

وانطلق **مندلسون** من ضرورة تطوير الدين ، كأساس لدمج اليهودي في ثقافة البلد الذي ينتمي إليه ، والتأقلم فيه . كما دعا الى التخلص من اليديشية والاتجاه نحو اللغات الاوروبية الحية ، وخاصة الألمانية ، الفرنسية ، والانجليزية .

ومن بين العناصر البارزة التي تبنت **الهاسكالا** في روسيا القيصرية ، الكاتب الصهيوني **اثر تسفي غنيز برغ** (١٨٥٦ ـ ١٩٢٧) ، المعروف باسم « **احاد هاعام** » . **فهي** بنظره حركة تحديث للغيتو ، وعصرنة لليهودية ، ووسيلة لتعلم العبرية . ورغم الاتجاه الاصلاحي الذي مثله **هاعام** ، فانه فشل في التوفيق بين **الهاسكالا والحاصديه والحاخاميه** . واصدرت الفئات المتدينة ، الصوفية وغيرها ، فتوى تكفر من يتبع حركة الاستنارة اويعتقد بها : لأنها بنظرهم ، خارجة عن الدين اليهودي ومتناقضة معه . ومع ذلك ظلت **الهاسكالا** ، تجاور الفرق الدينية الأخرى ، حتى جاءت مذابح ١٨٨١ ، فوضعت حداً فاصلا ونهائيا لمفهوم الاستنارة في روسيا القيصريه .

ان المجرى الخاطىء الذي سارت به المذابح قدم خدمة كبرى للقيصرية . فمن جهة تسلحت ردات فعل الفلاحين بأن اليهود هم سبب البلاء ، وان التخلص منهم كفيل بتحسين الأوضاع . ومن جهة اخرى ، تعززت القناعة لدى اليهود ، بأن الاندماج هو سبب البلاء وأن الانعزال كفيل بتحسين أوضاعهم . إن نيران الفلاحين وجماهير اليهود ، بدلا من ان تتوجه الى صدر القيصرية ، اساس كل بلاء ، توجهت الى صدور الضحايا من الطرفين ، فانتصرت الحكومة القيصرية بشكل رخيص .فالحوادث جرت تحت سمع وبصر ومسؤولية السلطة ، التي لم تحرك ساكنا لتعزز الوهم الفلاحي الساذج بأن اليهود هم أساس كل بلاء ، وشجعت السلطة النزعات القومية اليهودية بهدف التخلص من الفئات الشعبية ، حتى لا تشكل رصيداً للحركة الثورية .

وبسقوط **الهاسكالا** ، اخذت تنمو حركة جديدة ، على اسس وقواعد جديدة .

احباء صهيون

نشأت الجمعية في أحضان الفئات البرجوازية اليهودية الصاعدة في روسيا القيصرية ، رداً على مذابح ١٨٨١ ضد اليهود وحتى تنجح في دعوتها حاولت اغلاق كافة نوافذ الاندماج على النحو التالي :

حركة الاستنارة فشلت في القضاء على (غربة) اليهودي . الأنظمة الاقطاعية تطارد (اليهودي) وتنتقم منه ، وتبقيه غريبا . الحقوق المدنية في الأنظمة الراسمالية لم تحل الغربة . وحتى يتخلص اليهودي من غربته عليه ان يعيش غريبا !! ان يقتنع بانه يعيش (كضيف) مؤقت في المجتمعات التي ينتمي اليها ، وان ينتظر فرصة الرحيل ، الى مكان يصبح وطنه وحده !

لذا كان طبيعياً أن تتكون نواة الجمعية في **مؤتمر كاتوفيتش** (١٨٨٤) ، من الجمعيات المنادية بالهجرة ، والتي اتحدت تحت اسم **مزكيرت موشي** .

وانطلقت الهجرة بالفعل . وعلى امتداد اعوام ١٨٨١ إلى ١٩١٤ ، هاجر من روسيا القيصرية مليونان وستمائة وخمسون الف يهودي ، الى الاماكن التالية :

المكان	العدد
الولايات المتحدةالامريكية	٢٠٠٠٠٠٠
اوروبا الغربية	٠٣٥٠٠٠٠
اماكن متفرقة	٠٢٥٠٠٠٠
فلسطين	٠٠٥٠٠٠٠

ويتضح من هذا الجدول ان الرغبة في تحسين الأوضاع المعيشية أهم وأعمق من النزعة القومية ، أو الرغبة الدينية ، في التوجه نحو فلسطين ، مما يعكس الأزمة الحقيقية .. إلى أين ؟

ان **مزكيرت موشي** حسمت اتجاه الهجرة ورفضت الاندماج ، ولكنها افتتحت معركة في الرد على السؤال : الى اين ؟

● الطبيب الروسي اليهودي **د . يهودا ليف** ، المعروف باسم **ليو بنسكر** (١٨٢١ ـ ١٨٩١) ، واحد اقطاب الجمعية البارزين ، نشر كراساً باللغة الالمانية تحت اسم « **التحرير الذاتي** » ، عام ١٨٨٢ ، وحدد فيه موقفه من الهجرة بالقول : « علينا الا نحلم ببعث بلاد يهودا القديمة ، وعلينا ان نتطلع الى بلاد لنا » .

وأثارت اراء **بنسكر** موجة من النقاش المحتدم في صفوف تجمعات اليهود ، خاصة لانه لم يحدد فلسطين كمكان رئيسي للهجرة .

ورغم المعارضة تابع **بنسكر** نشاطه ، فأسس جمعية « **زوروا بابل** » في اوديسه ، وتراس « **جمعية تاييد المزارعين واصحاب الحرف البدوية اليهود** » في كل من سوريا وفلسطين ، منذ تأسيسها عام ١٨٨٧ .

وعندما اقترب من تأييد فكرة الهجرة الى فلسطين ، نظر اليها بعيداً عن « التوراة » ، وكقطعة ارض ، شأنها شأن أي بلد آخر ، يمكن ان تصلح للاستعمار اليهودي .

● والى جانب آراء **بنسكر** ، فأن الاوساط اليهودية كانت ما تزال تتناقل آراء الحاخامات الثلاثة **القالي ـ كاليشر ـ هس** ، اذ يرى المؤرخون ان الحاخام **يهودا القالي** (١٧٩٨ ـ ١٨٧٨) ، هو اول من دعا الى وطن لليهود على شكل دولة ، وان اتباعه هم الذين اسسوا أول مستعمرة يهودية في فلسطين ، « **بيتح تكفا** » . اما الحاخام **موشي هس** ، الذي يلقب ، زورا ، **بالحاخام الأحمر** (١٨١٢ ـ ١٨٧٥) ،فقد اصدر كتابا بالالمانية بعنوان « **روما والقدس** » ، دعا فيه الى العودة لفلسطين . وقام الحاخام **تسفي هيرش كاليشر** (١٧٩٥ ـ ١٨٧٤) بتطوير آراء القالي في كتابه دريشات تسيون « **البحث عن صهيون** » ، الصادر عام ١٨٦٢ .

موشي هس وكاليشر اشتركا ، مباشرة ، في تحقيق مشروع المدرسة الزراعية قرب يافا المسماه « **ميكفه**

يسرائيل » ، عام ١٨٦٠ .وانخرط كاليشر في جمعية لرعاية الاستيطان اليهودي في فلسطين ، بذات العام ، واصبح قائد الجمعية في فرانكفورت . وتطورت الجمعية ، بعد موته ، الى شركة الاستيطان اليهودية « يكا » ، التي اسهمت في الاستيطان اليهودي بفلسطين ، وعنيت بشؤون المهاجرين الروس بعد مذابح ١٨٨١ ، وتوطينهم في الارجنتين .

● رغم تأييد البارون روتشيلد (١٨٤٥ _ ١٩٣٤) للمستعمرات اليهودية في فلسطين . بعد تحويلها الى ملكيته الخاصة ، فانه أيد ، وبحماس ، نشاط جمعية « يكا » في اعادة تهجير النازحين اليهود من روسيا القيصرية الى الولايات المتحدة الاميركية . وبذل جهداً كبيراً من أجل منع استيطانهم في أوروبا الغربية ، حتى لا يؤثروا على مكانة اليهود (البرجوازية اليهودية) . وللتدليل على هذه الرغبة ، ومعارضة المشروع الصهيوني في مراحله الأولى ، حول روتشيلد جميع مستعمراته الى شركة يكا ، عام ١٩٠٠ ، ورفض فكرة الوطن القومي (ثم عاد وتبنى الفكرة ، واليه وجه بلفور وعده الشهير) .

● في مواجهة ليو بنسكر وقف الحاخاميون والمسكيليم الروس اليهود . ودعا بيرتس سمو لينسكي (١٨٤٢ _ ١٨٨٥) الى استيطان فلسطين ، وقال ان « حب اللغة لا يحل مكان حب الوطن » . بينما دعا موشي ليف ليلينبوم (١٨٤٣ _ ١٩١٠) الى مأوى « في بلادنا التاريخية مثل باقي الشعوب » ، واكد ان اليهود « غرباء في روسيا » ، وآن الهجرة الى أمريكا لن تحل المشكلة . ونادى اليعيزر بن يهودا (١٨٥٧ _ ١٩٢٢) :«دعونا ننقل الفائض من أبناء شعبنا في دول عديدة الى ارض اسرائيل » . وتبنى دوف بير بوروشوف (١٨٨١ _ ١٩١٧) فكرة « الصهيونية البروليتارية » ، واكد اهمية تحويل الهجرة الى استعمار ، اي « حل المسألة اليهودية في ايجاد ارض لها » .

وهكذا ، وجد الصراع مقوماته الحديثة والقديمة في الجمعية الجديدة . وفي سنة اصدار كتاب بنسكر ، أوفدت الجمعية زلمان دافيد ليفو نتين الى فلسطين ، واسس هناك « لجنة طلائعيي يسود هامعله » : لتنسيق عمليات الاستيطان . ويسود هامعله « اساس الصعود» ، قامت على انقاض قرية (عيون قارا) الفلسطينية ، التي عرضتها السلطات العثمانية للبيع ، نتيجة عجز الفلاحين عن دفع الضرائب .

ورغم معارضة والي القدس ، رؤوف باشا (١٨٧٦ _ ١٨٨٨) ، لعملية البيع ، تدخل نائب قنصل بريطانيا في يافا الحاخام حاييم افر يليغ ، وتمكن من شراء الارض باسمه (٣٣,٤٠٠ دونماً) ، مقابل ١٥ فرنكا للدونم الواحد ، ثم قام لاحقاً بتحويلها الى المهاجرين اليهود .

وبعد ثلاثة عشرة سنة (عام ١٨٩٥) ، جاء الى فلسطين يجيئيل بينس (١٨٤٢ _ ١٩١٢) ، والذي رفض فكرة (الأمة العلمانية) مؤكدا ان اليهود (امه ترتكز قوميتها على الدين) ، راعه وضع اليهود في مستعمرات روتشيلد ، الذين يفكرون بجمع الاموال نقداً من اجل الهجرة الى امريكا .

ان الصراع الفكري والسياسي في الجمعية لم يكن على حساب الاستيطان اليهودي في فلسطين ، بل على العكس من ذلك ، إذ في المؤتمر الثاني في دروسكينيك ، عام ١٨٨٧ ، تم تغيير اسم مزكيرت موشي الى جمعية احباء صهيون ، فتعدد خط سير المهاجرين ، ومحطة الاستقرار . وجرى تقليم اظافر بنسكر ، عندما نجح المتدينون في انتخاب ثلاثة حاخاميين في اللجنة المركزية ، بينهم الحاخام صموئيل موهيليفر (١٨٢٤ _ ١٨٩٨) .

وفي المؤتمر الثالث في فيلنا (آب ١٨٨٩) ، انتخبت قيادة جديدة ، أبرز رجالاتها الحاخام موهيليفر ، فتعزز اتجاه الاستيطان اليهودي في فلسطين .

لقد نالت جمعية احباء صهيون الاعتراف الرسمي من الحكومة القيصرية عام ١٨٩٠ . وفي شباط ١٨٩١ باشرت الحكومة القيصرية بطرد اليهود من موسكو، وقال وزير الداخلية القيصرية « حدود روسيا الغربية مفتوحة أمام اليهود » ، في دعوة واضحة لحض التجمعات الشعبية اليهودية على الهجرة .

مؤتمر بال والحركة الصهيونية

جسد مؤتمر بال الوجود التنظيمي والسياسي للحركة الصهيونية على المستوى الدولي . واستقطب كافة جمعيات

أحباء صهيون ، في روسيا القيصرية وخارجها .

حضر المؤتمر ٨٤٨ مندوباً ، يمثلون ١١٧ جمعية صهيونية ، في اوروبا وامريكا ، ويجسدون التجمعات البرجوازية اليهودية ، وسائر التيارات والكتل الدينية .

وعلى امتداد الأيام الثلاثة ، من ٢٩ _ ٣١ آب ١٨٩٧ ، احتدمت المناقشات بين تيارين . التيار الأول يمثل الصهيونية السياسية ، ويدعو الى تركيز الجهود من أجل نيل اعتراف الدول الكبرى بالصهيونية اولا ، ثم توجيه الاهتمام نحو الاستيطان في فلسطين ، التيار الثاني يمثل الصهيونية العملية ويدعو الى متابعة الاستيطان في فلسطين بأقصى سرعة ممكنة ، وبذل الجهد من أجل نيل الاعتراف ، على ان يسير الهدفان معاً .

وتلخصت أبرز نتائج المؤتمر بالاتي :

(١) اقرار (برنامج بال) ، الذي وضع مسودته الدكتور ماكس نورداو (١٨١٩ _ ١٩٢٣) ، الصديق الحميم لتيودور هرتزل ، والكاتب الصهيوني البارز في اوروبا آنذاك . ورغم صرخة نورداو « انني احتج بعنف ضد اية محاولة لربط الصهيونية مع المستوطنات القائمة في ارض اسرائيل » ، فأن البرنامج بقي ساري المفعول ، حتى عدله المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرون (القدس ١٩٥١) ، بعد مضي ٥٤ سنة على المؤتمر .

(٢) اقرار صيغة (المنظمة الصهيونية العالمية)، التي وضع مسودة اطارها التنظيمي الدكتور ماكس بودنهايمر (١٨٦٥ _ ١٩٤٠) .

(٣) تأسيس شركة الكيرن كايميت يسرائيل (الصندوق القومي اليهودي) ، باقتراح من البروفيسور هرمان شابيرا .

(٤) السعي من اجل اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، والعمل على استصدار موافقة الدول المؤثرة في المنطقة على هذا الوطن ، على ان يضمنه القانون العام .

(٥) تنمية الروح القومية لدى اليهود ، وعرقلة الاندماج ، والسعي للتوسع في اقامة المنظمات الصهيونية المحلية .

(٦) تكثيف وتشجيع الهجرة الى فلسطين ومساندة المستعمرات الزراعية فيها .

هرتزل واوغندا

منذ المؤتمر الصهيوني الأول (بال ٢٩ _ ٣١ آب ١٨٩٧) ، وحتى المؤتمر الصهيوني السادس (بال ٢٣ _ ٢٨ آب ١٩٠٣) ، وتيودور هرتزل يتراس المنظمة الصهيونية العالمية . وخلال هذه الفترة ، بذل هرتزل نشاطا مكثفا وواسعاً ، من اجل الحصول على تأييد علني من قبل الدولة الرأسمالية المختلفة والامبراطوريات الاقطاعية . ولذلك أجرى الاتصالات المباشرة أو عبر الرسائل ، ببريطانيا وفرنسا والمانيا والنمسا وايطاليا وروسيا القيصرية والامبراطورية العثمانية . وقام بزيارة فلسطين ، عام ١٨٩٨ ، لمقابلة الامبراطور الالماني ، غليوم . وفي كل المقابلات ، كان هرتزل يعرض مساندة التجمعات اليهودية في شتى أرجاء العالم للدولة المعنية ، مقابل تأييدها وتسهيل الهجرة والاستيطان في فلسطين . وهذا النشاط يتفق مع نظرة هرتزل منذ مؤتمر بال الأول ، حيث تزعم اتجاه الصهيونية السياسية .

ورغم تنامي حركة الاحتجاج على فردية هرتزل ، وديكتاتوريته ، فأن العاصفة الحقيقية التي هبت على المؤتمر الصهيوني السادس ، وكادت تهدد الحركة الصهيونية بالانشقاق ، عكست حدة الصراع بين العمليين والسياسيين . فمنذ أن أبلغت بريطانيا الحركة الصهيونية عن استعدادها لتوطين اليهود في أوغندا ، تلقف هرتزل العرض ، واعتبره ثمرة من ثمرات كفاحه السياسي .

صارع هرتزل المؤتمر السادس من أجل إقرار المشروع . ووقف الى جانبه د . ماكس نورداو ، الذي سمى اوغندا (بالملجأ الليلي الفريد من نوعه) ، وتبنى اليعازر بن يهوذا (١٨٥٨ _ ١٩٢٣) ، مشروع استعمار اوغندا ، كحل في

اليد بدلا من انتظار الحلول المجهولة .

ونظرا للمعارضة الواسعة والشديدة ، لجأ **هرتزل** الى المساومة ، من اجل الوصول الى حل وسط . **فقال ان أوغندا** « ليست صهيون ، ولن تكون » ، ولكن « **هذا الاقتراح** سيساهم في تحسين أوضاع اليهود ، وتخفيف ضائقتهم ، دون تنازل عن شيء من المبادىء الكبيرة » . ورغم فشله في استصدار موافقة اكثرية المؤتمرين ، فانه نجح في انتزاع الموافقة على إيفاد بعثة رسمية لدراسة الموضوع على الطبيعة ، وتجميد رفض أو قبول المشروع ، ريثما تقدم البعثة تقريرها في المؤتمر اللاحق .

وعندما قدمت اللجنة تقريرها في **المؤتمر الصهيوني السابع** (بال ٢٧ تموز ـ ٢ آب ١٩٠٥) ، كان **هرتزل** قد غادر الحياة ، فرفضه المؤتمر ، استجابة ، بالدرجة الأولى ، للضغط الواسع الذي اتهم **هرتزل ونوردار** بالخيانة ومخالفة قرارات **مؤتمر بال الأول** .

الهجرة اليهودية الى فلسطين

دحر التطور الرأسمالي الصناعي في أوروبا الغربية ، الوظيفة التقليدية الشائعة للمرابي اليهودي ، كبنك تسليف بدائي ، استمد مقوماته من نظام الاقطاع وتعاليم الكنيسة ، التي حرمت على المسيحي القيام بهذه الوظيفة . وبذات الوقت حطم هذا التطور وظائف جباة الضرائب والوكلاء والسماسرة . والأعمال الحرفية التي سادت في أحياء الغيتو الأوروبي .

ان النزوح اليهودي من أوروبا الغربية الى روسيا القيصرية وبولونيا وبعض الاقطار الآسيوية والأفريقية لم يكن حلا للمعضلة (اليهودية) : والذين اندمجوا في التطور الجديد ، وشكلوا الحل الحقيقي للمشكلة ، كانوا إما رأسمال ربوي وتجاري ، اندمج مع النظام الجديد ، وشكل نواة البرجوازية اليهودية ، أو فلاحين مسحوقين وبروليتاريا رثة أخذت دور العامل البروليتاري والشغيل في المعامل والورش والمصانع الكبيرة .

وفي أوروبا الشرقية ، حملت الوظائف اليهودية الراحلة بذور الاصطدامات والكراهية ، مرة أخرى . وعبرت مذابح ١٨٨١ ، رغم تفاهة أسبابها (اشتراك يهودية في مجموعة قامت باغتيال القيصر) ، عن حقيقة هذا المأزق . فالدور

(اليهودي) في روسيا القيصرية ، كان ـ وبنظر الفلاحين ـ أداة قمع واستغلال وبنظر البورجوازية أداة تعطيل للتحديث ، والعصرنة ، والتصنيع ، وبنظر السادة عميل يخدم بفائدة .

ودرج المؤرخون على تقسيم سنوات الهجرة الى فلسطين ، بالقياس الى الهجرات اليهودية الى اماكن أخرى ، الى مرحلتين اساسيتين . الأولى من ١٨٨٢ ـ ١٩٠٠ ، والثانية من ١٩٠٤ ـ ١٩٠٧ . وتسهيلا للبحث يمكن تقسيم موجات الهجرة الى المراحل الاربعة التالية :

- المرحلة الأولى ١٨٣٩ ـ ١٨٨١ .
- المرحلة الثانية ١٨٨٢ ـ ١٩٠٠ .
- المرحلة الثالثة ١٩٠١ ـ ١٩٠٧ .
- المرحلة الرابعة ١٩٠٨ ـ ١٩١٨ .

المرحلة الاولى ١٨٣٩ ـ ١٨٨١

اكد **ماركس** في احدى مقالاته ، ان عدد اليهود في فلسطين ، عام ١٨٢٧ ، يزيد قليلا عن الف نسمة ، وانهم ليسوا من سكان البلاد الأصليين ، وإنما مهاجرين من الخارج . ويتفق قول **ماركس** مع ما اثبتته الحقائق التاريخية ، حيث لعبت الحوافز الدينية الدور الرئيسي في الهجرة اليهودية الى فلسطين في القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع

عشر . وكانت الاقلية اليهودية تعيش على هامش الحياة الاقتصادية ، وتكتفي بالهبات والصدقات التي تصلها من الخارج ، وتعيش بجوار الاماكن المقدسة في القدس ، وصفد ، وطبريا ، والخليل ، وهؤلاء هم نواة « **اليشوف** » الفلسطيني . والجدول التالي يبين العدد التقريبي لليهود ، دون التدقيق في مجالات الهجرة المعاكسة .

المكان	١٨٣٩ ـ ١٨٤٠	١٨٥٦ ـ ١٨٦٠	١٨٧٦ ـ ١٨٨١
سنجق عكا	٢٤٦٠	٥١٢٠	٧٨٩٠
سنجق نابلس	٢٠٠	١٠٠	٦٠
متصرفية القدس	٧٧٦٠	٩٢٠٠	١٤٤٠٠
المجموع	١٠٤٢٠	١٤٤٢٠	٢٢٣٥٠

ومن الصعب مناقشة الهجرة ، في هذه المرحلة ، دون معرفة القوانين العثمانية التي تمت في ظلها . **فخط شريف كولخانه** (١٨٣٩) على عكس ما يزعم البعض ، ليس له أي أثر على فلسطين ، التي كانت خاضعة ،آنذاك ، للاحتلال المصري وحتى سنة ١٨٤٠ . ولذا لا يجوز استخدامه كفاتحة ضبط وتقنين الوجود اليهودي .

ان خط التنظيمات الخيرية ، المسمى **بالخط الهمايوني** (١٨ شباط ١٨٥٦) ، **وقانون الطابو** (١٨٦١) ، والسماح بنظام حماية الطوائف هي القوانين الاساسية التي حكمت الوجود اليهودي في فلسطين . **فالخط الهمايوني** بعهد **السلطان عبد المجيد** ، كفل المساواة وحقوق الطوائف غير الاسلامية . إذ اقر القانون امتيازات الطوائف غير الاسلامية ، وسمح لها بممارسة شعائرها وبناء معابدها ، واشرك رؤساءها في مناقشات المجلس العالي المتعلقة بشؤونهم ، وسمح للأجانب التملك في الدولة العثمانية ، واقر المساواة .

إن هذا القانون اعطى الشرعية لنواة الوجود اليهودي في فلسطين ، ومكن الدول الاستعمارية من بسط حمايتها على الطوائف المسيحية ، فحمت فرنسا الكاثوليك ، وروسيا الأرثوذكس ، وبريطانيا البروتستانت . وانتقلت قنصليات الدول الأجنبية خطوة اخرى في تطوير الحماية ، حتى شملت اليهود الذين يحملون جوازات سفر الدول المعنية . وهكذا أصبح الوجود اليهودي يحظى بشرعية القانون ، وينال حماية الدول الأجنبية ، ويتمكن من الاستيطان بحكم السماح للأجانب بالتملك .

وجاء **قانون الطابو** ليكمل ما نقص في **الخط الهمايوني** . ففي ١٨٥٩ صدرت لائحة تعليمات بشأن الأرض ، وسرعان ما بدأت عملية التطويب ووضع اليد في عام ١٨٦٠ ، حتى غدا لقب افندي مرادفا مباشرا للقب صاحب مقاطعة . وبصدور القانون ، في عام ١٨٦١ ، عمت الكارثة الفلاحين الفلسطينيين ، واصبحوا في مأزق حاد . إذ فرض القانون على المالك ٥٪ من قيمة الأرض ، وثلاثة قروش كثمن لسند الطابو . ولم يكن بمقدورهم الوفاء بهذا المبلغ من أجل تسجيل ارضهم بأسمهم . فلجأوا الى الأفندية والوجهاء وأحيانا الأجانب ، من أجل بسط نفوذهم على الأرض ، مقابل استمرارهم فيها ، وتقديم ثلث أو ربع المحصول الى (المالك) الجديد : **المالك المزور** .

ومن أجل ضبط هيمنة الأجانب أصدرت الدولة العثمانية **قانون تملك الأجانب** ، عام ١٨٦٩ ، بعد أن أسندت الى **تمبلدور** ، القنصل البريطاني اليهودي في القدس ، عملية مسح الأراضي .

تحت هذه القوانين والوقائع تمت الخطوات الاستيطانية التالية في هذه المرحلة :

● يرجع تاريخ أول محاولة للاستيطان اليهودي الى عام ١٨٥٩ ، حين اقيم اول حي يهودي خارج سور القدس وسمي « **يمين موشي** » . وكان **السير موشي مونتيفوري** ، الثري البريطاني اليهودي ، قد حصل على فرمان عثماني ، عام ١٨٥٥ ، بشراء الأرض واقامة مستشفى عليها . وحولها ، عام ١٨٥٩ ، الى مساكن شعبية لليهود ، واصبحت نواة الحي اليهودي في القدس ، خارج سور البلدة القديمة .

● وضع **شلومو يحزكيئيل يهودا** (من سكان القدس) يده على جزء من اراضي قرية قالونيا ، بالقرب من القدس ، عام ١٨٦٠ . بمساعدة القنصل البريطاني فين . ولاحقا (١٨٩٤) اقيمت عليها مستعمرة **موتسا** .

● وفي نفس العام (١٨٦٠) ، وضع البرتغالي اليهودي **دون جوزيف فازي** يده على قطعة ارض في طبريا ، اقام عليها مزرعة للتوت . ونجحت **جمعية الاليانس** الفرنسية في الحصول على فرمان عثماني بتأجيرها ٢٦ الف دونم من الاراضي التي كان يفلحها ابناء قرية يازور الفلسطينية ، وذلك لاقامة مدرسة **ميكيفه يسرائيل** (رجاء اسرائيل) الزراعية ، والتي حصلت على تمويل **روتشيلد** ، وبدأ تشييدها ، فعليا ، في سنة ١٨٧٠ .

● تمكن **يوئيل موشي سلومون** (رئيس تحرير اول صحيفة عبرية صدرت في القدس ، عام ١٨٦٣) من شراء ٣٣٧٥ دونما من اراضي قرية **ملبس** الفلسطينية سنة ١٨٧٨ ، وكانت ملكا للتاجر اليافاوي ، **قصار** . وجرى عقد الشـراء امام قنصل النمسا في القدس ، حيث كان **سلومون** محميا من القنصلية . وبنفس العام اشترى **سلومون** قطعة ارض اخرى مساحتها عشرة آلاف دونم ، وقريب من القطعة الاولى ، من التاجر اليافاوي **طيان** . وعلى القطعتين تأسست مستعمرة **بيتح تكفا** (باب الرجاء) ، عام ١٨٧٨ .

المرحلة الثانية ١٨٨٢ ــ ١٩٠٠

تراجعت الحكومة العثمانية عن قانون ١٨٨٢ ، الذي يحد من الهجرة اليهودية ، نتيجة الضغوط البريطانية والفرنسية ، وسمحت لليهود بالهجرة وانشاء المستعمرات الزراعية والمؤسسات الدينية والخيرية والعلمية . وتقاسمت عملية الاستيطان والهجرة ، في هذه المرحلة ، الجهات الاربع التالية : **جمعية احباء صهيون** ، **وكلاء روتشيلد** ، شركة الاستيطان اليهودية (**يكا**) ، **جمعية بني موشي** . وتمكنت هذه الجهات من تأسيس ١٨ مستعمرة جديدة ، فشل الاستيطان في ثلاث منها ، **هي بئير طوفيا** ، **غان شموئيل** ، **المطله** ، واعيد استيطانها ، لاحقا ، في السنوات ١٩٢٠ ، ١٩٣١ ، ١٩٣٩ ، على التوالي .

والجدول التالي يوضح عدد المستعمرات ، وتاريخ انشائها ، وموقعها ، ومساحتها ، وفقا لتسلسلها الزمني :

ضاعفت نسبة المهاجرين ، في هذه المرحلة عدد اليهود في فلسطين ثلاث مرات ، ورفعت عدد المستعمرات من مستعمرة واحدة الى تسع عشرة مستعمرة ، واحدثت تبديلا جذريا في الوجود اليهودي في فلسطين . ورغم هذه الحقائق ، فأن اكثرية المهاجرين لم يصلوا بدوافع قومية ، وانما ــ وبالاساس ــ إما هربا من الاضطهاد والمجازر في روسيا القيصريه ، أو بدوافع دينيه محضة . ومع ذلك ، فأن هذه الهجرة عززت الدعوة الصهيونية الى جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود في **مؤتمر بال** ، وعززت مكانة المنادين برفض الاندماج .

المستعمرات اليهودية في فلسطين ١٨٨٢ ــ ١٩٠٠

الرقم	اسم المستعمرة	الموقع	التاريخ	المساحة	ملاحظات
(١)	ريشون لتسيون	قضاء الرملة	١٨٨٢/٨/١	٠٦٦٠٠	اشترى الارض نائب قنصل بريطانيا في يافا من
(٢)	روش بينا	قضاء صفد	١٨٨٢/١٠	٠٦٠٠٠	على ارض قرية الجاعونة قرب صفد
(٣)	زخرون يعقوب	قضاء حيفا	١٨٨٢/١١	١٦٠٠٠	في قرية زمارين جنوب حيفا ، واسمها تخليداً لذكرى والدروتشيلد .
(٤)	يسود هامعله	قضاء صفد	١٨٨٣	٢٢٥٠٠	باع الارض يعقوب عبو ، قنصل فرنسا في عكا ، والمستعمرة قرب بحيرة الحولة .
(٥)	نسن تسيونة	قضاء الرملة	١٨٨٣	٠٤٠٩٠	بادلها مالك الماني بقطعة ارض في **اوديسا** والمستعمرة على بعد ٤ **كم** من ريشون لتسيون .
(٦)	مزكيرت باتيه (عكرون)	قضاء الرملة	١٨٨٣	٠٤٠٩٠	جنوب الرملة ، تخليدا لذكرة والدة روتشيلد .
(٧)	**عديره**	قضاء الرملة	١٨٨٤	٠٣٠٠٠	باعها ابن نائب قنصل فرنسا في يافا/ من اراضي قرية قطره
(٨)	بئير طوفيا	قضاء غزة	١٨٨٦	٠٥٦٠٠	تتبع قرية **قطينة** قرب غزة ، فشل الاستيطان بها واعيد عام ١٩٣٠
(٩)	بات شلومو	قضاء حيفا	١٨٩١		من ضواحي زخرون يعقوب
(١٠)	مئير شافيه	قضاء حيفا	١٨٩١		من ضواحي زخرون يعقوب
(١١)	رحوفوت	قضاء الرملة	١٨٩٠	١٠٥٠٠	
(١٢)	**حديراه**	قضاء حيفا	١٨٩٠	٢٩٠٠٠	بين يافا وحيفا/وهي على انقاض قرية الخضيرة
(١٣)	مشمار هايرون	قضاء صفد	١٨٩٠	٠٢٦٠٠	**قرب جسر بنات يعقوب على نهر الاردن**
(١٤)	موتسا	لواء القدس	١٨٩٤	٠٠٤٠٠	جزء من ارض قريه قالونيا قرب القدس
(١٥)	غان شموئيل	قضاء حيفا	١٨٩٦	٣٠٠٠	شمال الخضيرة ، فشلت واعيد استيطانها عام ١٩١٣
(١٦)	المطلة	قضاء صفد	١٨٩٦	١٢٠٠٠	باعتها السلطات العثمانية **بعد** ان اجبروا سكانها على الرحيل .
(١٧)	محانايم		١٨٩٩		فشلت واعيد استيطانها عام ١٩٣٩
(١٨)	يفنيئيل	قضاء طبرية	١٩٠٠		

المرحلة الثالثة ١٩٠١ ـ ١٩٠٧

ضمت هذه المرحلة موجة الهجرة الثانية (١٩٠٤ ـ ١٩٠٧) والتي شملت ما بين ٣٥ ـ ٤٠ الف مهاجر يهودي ، معظمهم من التجمعات العمالية في روسيا القيصريه . ولعب في هذه الهجرة عاملان اساسيان :الاول : القمع الرسمي القيصري ، في عام ١٩٠٢ ، **ومذبحة كيشينيف** (٦ ـ ٨ نيسان ١٩٠٣) وحوادث العنف المتقطعة حتى عام ١٩٠٥ ، الثاني : النشاط الصهيوني لمختلف الجمعيات والهيئات التي تتبع **المنظمة الصهيونية العالمية** .

لقد شكلت هذه الفترة مرحلة اختبار لشعارات الصهيونية في « **العمل العبري** »و« انقاذ البلاد من الخراب » . اذ تفترض « الشعارات » تزويد فلسطين بمزارعين يهود ، يشيدون المستعمرات الزراعية النموذجية ، ويستقرون في الارياف . وكان تقرير **ليو موتسكين** (١٨٦٧ ـ ١٩٣٣) اول صدمة لشعارات الصهيونية هذه . فقد زار **موتسكين** فلسطين ، بناء على توصية منْ **مؤتمر بال الاول** ، للاطلاع على اوضاع اليهود ، وقدم تقريره في **مؤتمر بال الثاني** (١٨٩٨) .

واعترف التقرير أن عدد اليهود في فلسطين ٤٩٥١٩ نسمة ، يملكون ٢٦٨٢٧٨ دونماً من الاراضي ، منهم ٤٥١٦٩ نسمة يعيشون في المدن ، و٤٣٥٠ نسمة فقط يعيشون في المستعمرات . وقدم موتسكين جدولا بـ ٤٢٨٧٨ نسمة يعيشون في المدن الفلسطينية ، على النحو التالي :

القدس ٢٨٢٥٤
صفد ٢٦٢٠
يافا ٣٠٠٠
طبريا ٢٢٠٠
الخليل ١٤٢٩
حيفا ١٣٧٥

ان التمركز في المدن ، كما يعترف التقرير ، يفضح زيف الادعاء الصهيوني بخراب الأرض ، والرغبة بنقل رواد زراعة متقدمة . كما يفضح فشل الصهيونية في استيراد الفلاحين من اوروبا .

وعلى ضآلة الأرقام التي استقرت في المستعمرات ، فانها ، **هي الاخرى** ، كانت تعيش مشكلة مزدوجة . فمن جهة فشل استيراد الفلاحين في حل مشكلة **العمل العبري** في الزراعة ، ومن جهة أخرى بقي الفلاحون الفلسطينيون القوة الرئيسية في العمل الزراعي للمستعمرات ، بما في ذلك زراعة العنب في **ريشون لتسيون وبيتح تكفا وزخرون يعقوب** .

ان هذه الحقيقة شكلت صدمة لغلاة الصهيونية ، الذين تخيلوا انه يمكنهم ، خلال ربع قرن ، باقامة المستعمرات ، السيطرة على الزراعة الفلسطينية ، بكل فروعها . وحتى عام ١٩٢٢ ، بقي التمركز في المدن وحزامها ، هو السمة الأساسية للهجرة ، حيث اكد احصاء ، في العالم ذاته ، ما يلي :

● ٧٠٪ من اصل مجموع السكان اليهود في المنطقة الشمالية (١٩٦٧٢) كانوا من سكان المدن . اقام منهم ستة الاف في حيفا ، واربعة آلاف واربعمائة في طبريا ، وثلاثة آلاف في صفد .

● قطن في ضاحية القدس ٣٤٤٣١ يهودي ، من اصل ٨٣٧٩٤ نسمة من اليهود .

● اقام خمسة عشر الف يهودي قرب يافا ، وبنوا تل ابيب ، وخمسة آلاف في يافا ، واربعة الاف في الضواحي .

أي ما لا يقل عن ثلاثة ارباع مجموع السكان اليهود في البلاد تمركزوا في حزام المدن الوسطى في فلسطين .

والصفة الثانية جاءت بتقرير الكاتب الصهيوني **اشر تسفي غنيزبرغ** (١٨٥٦ ـ ١٩٢٧) ، المعروف باسم « **احاد هاعام** » (أي احد العوام ، الاسم الذي كان يوقع به مقالاته) . اذ اعترف **هاعام** « ابو الصهيونية الثقافية » ، امام **المؤتمر الصهيوني السابع** ، عام ١٩٠٥ ، بما يلي :

« حان الوقت لاقتلاع الراي الخاطىء بأن أرض ـ اسرائيل غير مفلوحة بسبب نقص في الأيدي العاملة او كل السكان . فنحن عندما نشتري قطعة أرض نبعد مزارعيها السابقين تماماً . فنحرم بهذا أشخاصاً بائسين من ممتلكاتهم الضئيلة ، ونسلب لقمة عيشهم . ولا يزال ، حتى اليوم ، يرن في اذني نحيب النساء العربيات عندما تركت عائلاتهن قرية الجاعونه[حيث اقيمت مستعمرة روش بينا عام ١٨٨٢] وانتقلت للسكن في حوران، شرقي نهر الأردن . فقد ركب الرجال على الحمير ومشت النساء وراءهم باكيات ، يملأ السهل نحيبهن ، وللحظات وقفوا وقبلوا الحجارة والتراب » .

واعتراف **أحاد هاعام** وثيقة بارزة عن تمسك الفلاح الفلسطيني بأرضه ، واشارة ضمنية الى كيفية سلب هذه الاراضي . فمنذ اقامة اول حي يهودي في القدس ، ١٨٥٩ ، وحتى نهاية هذه المرحلة ، لم تستطع الحركة الصهيونية وسائر المؤسسات اليهودية من شراء دونم واحد من الفلاحين الفلسطينيين . وتوزعت مصادر البيع خلال هذه المرحلة **بين الباب العالي** والملاك الاجانب والاقطاعيين العرب ، باستثناء حالة واحدة باع فيها اقطاعيان فلسطينيان من يافا ، جزءا من ممتلكات الفلاحين الفلسطينيين في **قرية ملبس** ، حيث شيدت مستعمرة **بيتح تكفا** .

ان نظام الحماية ، بالنسبة لليهود في فلسطين كان يعني حماية امتيازاتهم عن طريق قناصل الدول الغربية باعتراف القانون العثماني . بينما الحماية بالنسبة للفلاح الفلسطيني العاجز عن دفع الضريبة والهارب من التزاماتها ، كانت تعني تحويل أرضه الى اسم أحد الاقطاعيين المتنفذين ، مقابل ان يستمر الفلاح في العمل على أرضه . وهذا يفسر التمايز الذي اعترف به **أحاد هاعام** بين مالك الأرض والبائع .

واعترف **بن غوريون** ان الملاك اليهود اعتمدوا على العمال الفلسطينيين ، حيث شخص ، في منكراته ، عام ١٩٠٦ ، لحظة وصوله الى فلسطين ، حالة اليهود بالآتي :

● يهود ولدوا بفلسطين ، وهم متدينون جداً ، ومتفاهمون مع العرب والأتراك ، الى حد بعيد .

● يهود مهاجرون من شرق أوروبا ولم يمارسوا العمل بأنفسهم ، بل كانوا ملاكا يعتمدون على العمال العرب .

واكد **يتسحاق بن تسفي** (١٨٨٤ ـ ١٩٦٣) بأن أصحاب العمل اليهود يفضلون العمال العرب ، فيما قدم الدكتور **ارثور روبين** (١٨٧٦ ـ ١٩٤٣) تقريراً عن اوضاع اليهود الاجتماعية في فلسطين عام ١٩٠٧ ، حيث كان يعيش ٨٠ الف يهودي يملكون ٤٠٠ الف دونم موزعة على النحو التالي :

● في وسط فلسطين قطن ٥٤٣٠٠ يهودي في المدن الرئيسية ، فيما عاش في المستعمرات ٣٨٠٠ يهودي فقط .

● في شمال شرق فلسطين قطن ١٥٤٠٠ يهودي ، معظمهم في صفد وطبريا ، وعاش في المستعمرات منهم ١٣٥٠ يهوديا فقط .

المرحلة الرابعة ١٩٠٨ ـ ١٩١٨

شكل انقلاب **تركيا الفتاة** فاتحة تسهيلات جديدة الى الهجرة اليهودية ، فمنذ ١٩٠٨ وحتى بداية الحرب العالمية الأولى ، تمكنت الصهيونية من اقامة احدى عشرة مستعمرة جديدة في فلسطين . وأصبح عدد اليهود حوالي ٨٥ الف نسمة .

لقد استفادت الحركة الصهيونية من محاكمة **مندل بيليس** ، للضغط على التجمعات اليهودية في روسيا القيصرية من اجل الهجرة ورفض الاندماج . **ففي** ١٩١١ اتهم الشاب الروسي اليهودي ، **مندل بيليس** ، بقتل فتى روسي لاستعمال دمه في طقوس دينية يهودية ، واستمرت المحاكمة حتى خريف ١٩١٣ . ومثلما أثارت محاكمة الضابط الفرنسي اليهودي ، **درايفوس** ، ١٨٩٤ ، موجه من السخط ضد اليهود ، فأن **بيليس هو درايفوس** روسيا القيصرية ، الذي ظهرت براءته بعد فوات الأوان ، إذ انتشرت المذابح ضد اليهود ، واتسعت حركة الهجرة ، واقل القليل هو الذي وصل الى فلسطين .

وخلال سنوات الحرب في فلسطين (١٩١٤ ـ ١٩١٧) انتكست الهجرة اليهودية ، وبدأت الهجرة المعاكسة ، وعلى نطاق واسع . **ففي** ١١/٩/١٩١٤ **ألغت تركيا نظام الحماية** ، الذي استثمره اليهود منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر ، لتعزيز وجودهم والدفاع عن امتيازاتهم . وخوفا من البطش الرسمي والشعبي ، أخذت أمواج المهاجرين تتدفق الى الخارج بمساعدة امريكا . وفي اواخر سنة ١٩١٥ ، وحدها نقلت الباخرة الامريكية **نورت كارولينا** ١١ ألف مستوطن يهودي من فلسطين الى الاسكندرية . وظلت الباخرة تنقل المؤن الى اليهود وفي العودة تحمل المهاجرين . ووصل عدد الذين غادروا فلسطين ما بين ٣٥ ـ ٤٠ الف يهودي خلال سنوات الحرب .

قبل الحرب ، وفي اواخر ١٩١٣ ، بلغ عدد المستعمرات ٥٩ مستعمرة ، يعمل ويعيش بها ١٢ ألف نسمة ، معظمهم من الفلسطينيين . وذكر **بن ـ تسفي** ان عمال المستعمرات هذه توزعوا بين :

١,٢٠٠ ـ ١,٣٠٠ عامل يهودي بينهم ٤٠٠ يمني :

٨,٠٠٠ ـ ١٠,٠٠٠ عامل عربي .

مما اضطر **يفنيئيلي** الى القول ان الهجرة اليمنية لم تحل مسألة **العمل العبري** لانهم لم يتغلغلوا في فروع العمل الزراعي الأكثر أهمية .

وبعد دخول القوات البريطانية ، واحتلالها فلسطين ، شهد عام ١٩١٨ ثلاث حوادث مهمة على صعيد الاستيطان هي :

□ **تأسيس مدينة تل أبيب** (تل الربيع) على ٧٩٢ دونما ، اشترتها ستون عائلة من التجار والمدرسين والأكاديميين في يافا ، تحت اسم شركة « **أحوزات بايت** » . واسم الشركة هو اسم نواة المستعمرة التي اقيمت عام ١٩٠٩ . ويقال ان اسم تل الربيع يعود الى رواية **تيودور هرتزل** . ففي ١٩٠٢ نشر **هرتزل** بالالمانية رواية « **التنويلاند** » أي الأرض القديمة ـ الجديدة ، وقام **ناحوم سوكولوف** بترجمتها الى العبرية ، بعنوان تل أبيب ، وهي اول مدينة يهودية في فلسطين .

□ **تأسيس الجامعة العبرية** ، على ١٩٢ دونماً ، فوق **جبل سكوبس** في القدس . اشترت الأرض **شركة تطوير أراضي فلسطين** من لورد انجليزي وبطريرك يوناني ، كانا يقيمان في المدينة .

□ تكثيف السكن اليهودي في حيفا . إذ اشترت **شركة تطوير اراضي فلسطين** ٢٥٣٦ دونما من الأراضي في أماكن متفرقة من المدينة ، كانت معظمها ملكاً للألمان .

شهدت هذه المرحلة غير المتجانسة ما تسميه الحركة الصهيونية تأسيس **الفيلق اليهودي** ، والذي تنسب له ، زوراً ، المشاركة في احتلال فلسطين ، عام ١٩١٧ ، والحقيقة ان كتيبة البغالة اليهودية ، التي تأسست في اوائل عام ١٩١٥ ، والتي قادها **الكولونيل بيترسون** ، لم تشترك الا بنقل المؤن والذخائر في منطقة غاليبولي ، ثم حلت في اواخر العام نفسه . **وعندما** تأسس **الفيلق اليهودي** ، في آب ١٩١٧ ، نتيجة جهود **فلاديمير جابو تنسكي ويوسف ترمبلدور والكولونيل بيترسون** ، فأنه لم يقم بأية مهام قتالية ، كما لم تعهد اليه اية مهام قتالية ، وسار في ذيل **قوات اللنبي** . وسرعان ما حل هذا الفيلق ، الذي كانت نواته ١٥٠ رجلا من الذين انضموا الى الجيش البريطاني بعد حل كتيبة البغالة .

المقاومة الفلسطينية المبكرة

وعى الفلسطينيون ، وبوقت مبكر ، المخاطر التي تحملها المستعمرات الزراعية اليهودية وعموم الهجرة الى البلاد ، على أرضهم ومستقبل وطنهم . وفي ظل الظروف التي كانت سائدة آنذاك ، **بقي هذا الوعي** محدود التأثير والفاعلية ، ومع ذلك فقد شكل النواة الأولى المجيدة لكفاح الشعب الفلسطيني .

ويسجل للفلاحين الفلسطينيين ريادتهم لشن كفاح مباشر ضد المستعمرات اليهودية الأولى ، معتبرين حتى الفؤوس والعصي والحجارة أدوات قتالية في محاولة لاسترداد أراضيهم المغتصبة . ومنذ ١٨٨٣ وحتى ١٩٠١ ، قام الفلاحون بست هجمات مباشرة ضد مستعمرات **روش بينا** (١٨٨٣) **وبيتح تكفا** (١٨٨٦) **وغديرة** (١٨٨٨) **ورحوفوت** (١٨٩٣) **وبئير طوفيا** (١٨٩٦) **والخضيرة** (١٩٠١) .

ولكن الموازين المحلية والعربية والدولية ، التي كانت تسير بالاتجاه المعاكس لحركة الفلاحين ، دفعتهم مرغمين الى العمل في المستعمرات لقاء أجر بخس ، حتى يظلوا على التصاق بأراضيهم المنهوبة . وعلى أكتافهم جرت فلاحة الأرض التي طالما تغنى الصهاينة بأنها ثمرة من ثمرات **العمل العبري** في المستوطنات .

ودفعت هذه الحوادث السلطات العثمانية الى تقنين عملية الهجرة ، منعاً للانفجار الشامل . وأبرق أعيان القدس (٢٤/٦/١٨٩١) الى **الصدر الأعظم** ، وطالبوه باصدار « فرمان يمنع اليهود من دخول فلسطين وشراء الارض فيها » . وفي آذار ١٩١١ وجه ١٥٠ وجيهاً من قضاء الناصرة برقية احتجاج مماثلة الى **الباب العالي** .

وفيما سجلت التقارير البريطانية الشعور بالعداء الذي يضمره الفلاحون الى ملاكي الأرض العرب والاجانب ، لعبت صحف **الكرمل ، وفلسطين ، والمنتدى** ، ادواراً ، متباينة الحجم والتأثير ، في فضح الحركة الصهيونية . كما ساهمت الكتابات المبكرة في السياسة والأدب في فضح حقيقة الاهداف الصهيونية من جراء توالي الهجرة والاستيطان .

ونظراً لوقوع **المؤتمر العربي الأول** في باريس (حزيران ١٩١٣) في مصيدة وهم التنسيق العربي ـ الصهيوني ، وفي مصيدة التنسيق مع **جمعية الاتحاد والترقي** التي حضر سكرتيرها ، **مدحت باشا** ، المؤتمر ، انعقد ، في نابلس ، في الفترة ذاتها ، مؤتمر معاكس حضره **نجيب خوري نصار** ، مسؤول صحيفة الكرمل ، وعضو مؤسس في « **جمعية مكافحة الصهيونية** » حيث ناقش المؤتمر الخطر الصهيوني على فلسطين وطرق مجابهته .

المراجع

(١) مصطفى مراد الدباغ **بلادنا فلسطين** الجزء الأول ـ القسم الأول ، بيروت ، دار الطليعة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٣ .
(٢) الدكتور ابراهيم أبولغد (اعداد وتحرير) تهويد فلسطين بيروت ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، شباط ١٩٧٢ .
(٣) الدكتور صادق جلال العظم **الصهيونية والصراع الطبقي** . بيروت ، دار العودة ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٥ .
(٤) الدكتور انيس **صايغ** (اشراف) الفكرة الصهيونية « النصوص الاساسية » ، بيروت ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، حزيران ١٩٧٠ .
(٥) صبري جريس **تاريخ الصهيونية ١٨٦٢ ـ ١٩١٧** ، مركز الابحاث ، ١٩٧٧ .
(٦) الياس سعد : **الهجرة اليهودية الى فلسطين المحتلة** مركز الابحاث ، تشرين ثاني ١٩٦٩
(٧) تهاني هلسه : **دافيد بن جوريون** مركز الابحاث ، تشرين ثاني ١٩٦٨
(٨) اكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي : **الصهيونية ايدولوجية الامبريالية** ، تعريب اكرم الرافعي ، دار الفارابي ، تشرين ثاني ١٩٧٣
(٩) اسعد عبد الرحمن : **المنظمة الصهيونية العالمية ، تنظيمها واعمالها ١٨٩٧ ـ ١٩٤٨** ، مركز الابحاث ، تموز ١٩٦٧ .

(١٠) اسحق دوتيشر : **اليهودي اللايهودي** ، ترجمة ماهر كيالي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، شباط ١٩٧١ .
(١١) ج . هــ .جانسن **الصهيونية واسرائيل وآسيا** ، ترجمة راشد حميد ، مركز الابحاث ايلول ١٩٧٢ .
(١٢) يوري ايفانوف **احذروا الصهيونية** ، دار التقدم ــ موسكو ، ١٩٦٩ .
(١٣) عزيز العظمة : **اليسار الصهيوني** ، مركز الابحاث ، كانون الثاني ١٩٦٩ .
(١٤) ابراهام ليون **المفهوم المادي للمسألة اليهودية** ، ترجمة عماد نويهض ، بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٧٧
(١٥) كارل ماركس **المسألة اليهودية** ، ترجمة دار مكتبة الجيل ،
(١٦) عبد القادر ياسين **كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨** ، مركز الابحاث ١٩٧٥
(١٧) ناجي علوش : **الماركسية والمسألة اليهودية ١٨٤٤ ــ ١٩٦٨** ، بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٦٩ .
(١٨) محمد حافظ يعقوب **نظرة جديدة الى تاريخ القضية الفلسطينية ، بيروت ، دار الطليعة ، ايلول ١٩٧٣ .**
(١٩) **د . اميل توما جذور القضية الفلسطينية** ، مركز الابحاث ، حزيران ١٩٧٣ .
(٢٠) عبد الوهاب الكيالي تاريخ فلسطين الحديث المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٠

مُلاحظات حول "الاورو"

عبد الله خالد

شهد العالم ، في خضم الحرب العالمية الثانية ، إحدى التطورات الهامة التي تركت آثارها عميقا ، ولعدة عقود منذ ذاك ، في مسار الحركة الشيوعية والديمقراطية في جميع انحاء المعمورة ، الا وهــي حل الاممية الشيوعية ، الكومنترن ، نلك الصرح البارز في تاريخ الحركة العمالية العالمية ، والذي شكل ، على الرغم من سلبيات عديدة[١] ، قاعدة لوحدة تحركاتها ، وضمانه لتقدمها وفاعلية نشاطها .

شكل نلك المركز الهام ، أحد العناصر الأساسية من نجاح الحركة الثورية ، بجناحها الشيوعي ، وخاصة في أعقاب الارتداد التاريخي الذي إرتكبه يمين الاشتراكية الديمقراطية ، والذي تفاقمت آثاره من خلال التشوش الذي تميز به يسار الاشتراكية الديمقراطية ، وإنتهازية بعض أطرافه وميلها المتزايد نحو التعامل الفوقي مع الجماهير .

كانت أهمية **الكومنترن** أكثر بروزا خلال فتــرة الكساد العالمية ، وفي أعقابها ، وهي تلك الفترة التي شهدت ليس فقط تعاظم الدور النضالي للطبقة العاملة ، وعلى الأخص في أعظــم إنجازاتهــا ، من الاتحــاد السوفياتي ، حيث بدأ الشيوعيون صناعة تاريخ جديد للبشرية ، بل وأيضا نموا متعاظما لقوى الفاشية التي وجدت أقسى تعابيرها في حرب الابادة التي شنتهــا راسمالية ألمانيا وإيطاليا واليابان على شعوب العالم ، وفي مقدمتها الشعوب الاوروبية . هذه الحرب التي بلغت أعلى درجاتها وحشية في الحملة العسكرية ضد الاتحاد السوفياتي ، الــذي قدمــت شعوبــه بصمودهــا في **ستالينغراد** وغيرها ، ملاحما نضالية ألهبت حماس شعوب العالم .

كما أثبت هذا الصمود عجز الفاشية البنيوي ، بصفتها أحدى التعابير الأكثر سوداويــة لحـكم البورجوازية . واثبت الاتحاد السوفياتي ، بتمكنه من تغيير مسار الحرب ، ومن ثم إنتصاره ، ودخوله برلين ذاتها ، حيوية النظام العالمي الجديد ، النظام الاشتراكي الذي تبنيه سواعد العمال والفلاحين ، وإنه يعبر عن مسار جديد ، وبديل ، إتخذته حركة التاريخ .

مع إن حل الكومنترن من ١٩٤٣ ، أدى إلى عودة الاتجاهات الانحرافية ، والتصفوية إلى البروز ، منادية عمليا (كما **براودي**) بحل التنظيمات الشيوعية ، أو بتحولها إلى ما يشابه في أحسن الاحوال ، نواد فكرية أو حلقات نقاش . إلا إن الخط العام الذي إنتهجته الاحزاب الشيوعية حتى بعد أن أصبح حل المركز حقيقة نهائية ، من الناحيتين العملية والنظرية ، ظل هو ذاته ، دونما تغيير جوهري ، وخاصة فيما يتعلق بتأكيد هوية الحزب وإستقلاليتها **على الرغم من عدم وجود المركز**[٢] .

فعندما حل الكومنترن ، كانت الاحزاب الشيوعية ، في البلدان الاوروبية ، قد إستطاعت ، وعبر النضال الذي خاضته ضد الفاشية منذ نهاية العشرينيات ، أن تطور الافكار الديميتروفيه حول الجبهة الوطنية . ولقد ولدت الأسس الأولى لاستراتيجية الجبهة ، كما هو معلوم ، على يد المؤتمر السابع للكومنتــرن ذاتــه ، كاستراتيجية دفاعية في مواجهة الخطر الفاشي المحدق . وفي مراحلها الأولى كانت تنطلق من حقيقة إن الارهاب البورجوازي ، لم يكن يواجه عداء الطبقة العاملــة فحسب ، بل كان ، بشكله الفاشي ، يواجه عداء فئات تزداد إتساعا من البورجوازيــة ذاتهــا ، علاوة على

(١٠) اسحق دوتيشر : **اليهودي اللايهودي** ، ترجمة ماهر كيالي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، شباط ١٩٧١ .
(١١) ج . هـ .جانسن **الصهيونية واسرائيل وآسيا** ، ترجمة راشد حميد ، مركز الابحاث ايلول ١٩٧٢ .
(١٢) يوري ايفانوف **احذروا الصهيونية** ، دار التقدم ـ موسكو ، ١٩٦٩ .
(١٣) عزيز العظمة : **اليسار الصهيوني** ، مركز الابحاث ، كانون الثاني ١٩٦٩ .
(١٤) ابراهام ليون **المفهوم المادي للمسألة اليهودية** ، ترجمة عماد نويهض ، بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٧٧
(١٥) .كارل ماركس **المسألة اليهودية** ، ترجمة دار مكتبة الجيل ،
(١٦) عبد القادر ياسين **كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨** ، مركز الابحاث ١٩٧٥
(١٧) ناجي علوش : **الماركسية والمسألة اليهودية ١٨٤٤ ـ ١٩٦٨** ، بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٦٩ .
(١٨) محمد حافظ يعقوب **نظرة جديدة الى تاريخ القضية الفلسطينية ، بيروت ، دار الطليعة ، ايلول ١٩٧٣ .**
(١٩) **د . اميل توما جذور القضية الفلسطينية** ، مركز الابحاث ، حزيران ١٩٧٣ .
(٢٠) عبد الوهاب الكيالي تاريخ فلسطين الحديث المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٠

مُلاحظات حَول "الاورو"

عبد الله خالد

شهد العالم ، في خضم الحرب العالمية الثانية ، إحدى التطورات الهامة التي تركت آثارها عميقاً ، ولعدة عقود منذ ذاك ، في مسار الحركة الشيوعية والديمقراطية في جميع أنحاء المعمورة ، ألا وهـي حل الاممية الشيوعية ، الكومنترن ، ذلك الصرح البارز في تاريخ الحركة العمالية العالمية ، والذي شكل ، على الرغم من سلبيات عديدة(١) ، قاعدة لوحدة تحركاتها ، وضمانه لتقدمها وفاعلية نشاطها .

شكل ذلك المركز الهام ، أحد العناصر الأساسية من نجاح الحركة الثورية ، بجناحها الشيوعي ، وخاصة في أعقاب الارتداد التاريخي الذي إرتكبه يمين الاشتراكية الديمقراطية ، والذي تفاقمت آثاره من خلال التشوش الذي تميز به يسار الاشتراكية الديمقراطية ، وإنتهازية بعض أطرافه وميلها المتزايد نحو التعامل الفوقي مع الجماهير .

كانت أهمية **الكومنترن** أكثر بروزاً خلال فتـرة الكساد العالمية ، وفي أعقابها ، وهي تلك الفترة التي شهدت ليس فقط تعاظم الدور النضالي للطبقة العاملة ، وعلى الأخص في أعظـم إنجازاتهـا ، من الاتحـاد السوفياتي ، حيث بدأ الشيوعيون صناعة تاريخ جديد للبشرية ، بل وأيضاً نمواً متعاظماً لقوى الفاشية التي وجدت أقسى تعابيرها في حرب الابادة التي شنتهـا راسمالية المانيا وإيطاليا واليابان على شعوب العالم ، وفي مقدمتها الشعوب الاوروبية . هذه الحرب التي بلغت أعلى درجاتها وحشية في الحملة العسكرية ضد الاتحاد السوفياتي ، الـذي قدمـت شعوبـه بصمودهـا في **ستالينغراد** وغيرها ، ملاحماً نضالية الهبت حماس شعوب العالم .

كما اثبت هذا الصمود عجز الفاشية البنيوي ، بصفتها احدى التعابير الأكثر سوداويـة لحكم البورجوازية . واثبت الاتحاد السوفياتي ، بتمكنه من تغيير مسار الحرب ، ومن ثم إنتصاره ، ودخوله برلين ذاتها ، حيوية النظام العالمي الجديد ، النظام الاشتراكي الذي تبنيه سواعد العمال والفلاحين ، وإنه يعبر عن مسار جديد ، وبديل ، إتخذته حركة التاريخ .

مع إن حل الكومنترن من ١٩٤٣ ، أدى إلى عودة الاتجاهات الانحرافية ، والتصفوية إلى البروز ، منادية عملياً (كما براودي) بحل التنظيمات الشيوعية ، أو بتحولها إلى ما يشابه في أحسن الاحوال ، نواد فكرية أو حلقات نقاش . إلا إن الخط العام الذي إنتهجته الاحزاب الشيوعية حتى بعد أن أصبح حل المركز حقيقة نهائية ، من الناحيتين العملية والنظرية ، ظل هو ذاته ، دونما تغيير جوهري ، وخاصة فيما يتعلق بتأكيد هوية الحزب وإستقلاليتها **على الرغم من عدم وجود المركز**(٢) .

فعندما حل الكومنترن ، كانت الاحزاب الشيوعية ، في البلدان الاوروبية ، قد إستطاعت ، وعبر النضال الذي خاضته ضد الفاشية منذ نهاية العشرينيات ، أن **تطور** الافكار الديميتروفيه حول الجبهة الوطنية . ولقد ولدت الأسس الأولى لاستراتيجية الجبهة ، كما هو معلوم ، على يد المؤتمر السابع للكومنتـرن ذاتـه ، كاستراتيجية دفاعية في مواجهة الخطر الفاشي المحدق . وفي مراحلها الأولى كانت تنطلق من حقيقة إن الارهاب البورجوازي ، لم يكن يواجه عداء الطبقة العاملـة فحسب ، بل كان ، بشكله الفاشي ، يواجه عداء فئات تزداد إتساعاً من البورجوازيـة ذاتهـا ، علاوة على

البورجوازية الصغيرة وأقسام من الشرائح الوسطى .

وإنعكست هذه الحقيقة في إن التشكيلات المختلفة للجبهة الوطنية (حيثما إتخذت أشكالا تنظيمية محددة) ، وفرق الانصار والمقاومة الشعبية التي تصدرت النضال في أكثر سنوات الحرب سواداً ووحشية ، كانت مفتوحة أمام كافة القوى الاجتماعية المعادية للفاشية .

إلا إن أهمية هذه التوجهات الجبهوية سرعان ما الرأسمال من جديد ، من خلال تزايد إحكام قبضة الراأسمال الاحتكاري على أوروبا الغربية وبقية البلدان الرأسمالية المتقدمة ، والضرورة التاريخية لتحشيد كافة القوى الاجتماعية المعادية للرأسمال الاحتكاري في معركة مواجهته ، بعد انتهاء الحرب ، وعودة الامور إلى مجراها القديم . ولم تنحصر الدعوة إلى قيام الجبهات الوطنية ، في ضوء قرارات المؤتمر السابع للكومنترن ، على المنطقة الاوروبية بل تعدتها إلى مناطق أخرى من العالم حيث تخوض الاحزاب الشيوعية ، جنباً إلى جنب مع الاحزاب الوطنية والثورية ، نضالها في سبيل التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي . « **وقد جاء في قرار ممثلي الأحزاب العربية** ، الاعضاء في الكومنترن ، الذي جرى في العام ١٩٣٦ ، : « ينبغي على الاحزاب الشيوعية في البلدان العربية أن تدرك إن النضال ضد النير الامبريالي وفي سبيل الاستقلال الوطني يشكل مسألة رئيسية في كل نشاطها ودليلا على وزنها السياسي في البلاد ، وإن مصير الأحزاب الشيوعية ذاتها في البلدان العربية يتعلق بالموقف الصحيح من هذه المسألة وبالنشاط في النضال لأجل الاستقلال الوطني . ..../ وينبغي على الاحزاب الشيوعية أن تغير جذرياً موقفها من المنظمات والأحزاب الوطنية الثورية ، وتكتيكها وموقفها من القوميين الاصلاحيين . وينبغي على شيوعي البلدان العربية أن يضمنوا تعاوناً وثيقاً مع القوميين الثوريين ويخوضوا نضالات مشتركة مع المنظمات القومية الاصلاحية ، ويدعموا مطالب **هذه المنظمات الموجهة ضد مواقع الامبريالية** ... »[٣]

وكما كان ضرورياً أثناء وجود المركز/ الكومنترن ، ضمان **نقاء** فكر البروليتاريا **وإستمرار وصلابة** تنظيماتها ، هاتان المهمتان اللتان لم يدخر الكومنترن وسيلة للقيام بهما ، بفاعلية ، وإن بانعكاسات سلبية في بعض الاحيان ، فانهما اكتسبتا أهمية أكبر في غيابه وخاصة في ظل إستراتيجية الجبهة المتحدة وتوجهاتها . فبالرغم من التشويش الحاصل على الكثير من المفاهيم ، علاوة على الانتشار المتزايد التي تحظى به الافكار الماركسية اللينينية ، فان حقيقة تبقى ثابتة ، وهي إن **هوية الحزب الشيوعي** ، طليعة الطبقة العاملة ، تختلف **نوعياً** عن هوية الاحزاب الراديكالية للبورجوازية والبورجوازية الصغيرة . بل وحتى عن هوية تلك الاحزاب التي تتمتع بتأييد ، يتفاوت إتساعه ، ولكن هام مع ذلك ، في صفوف الطبقة العاملة ، وربما شرائحها الصناعية . كما هو الحال في الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية في البلدان الاسكندنافية ، وحزب العمال في بريطانيا ، والاحزاب الاشتراكية في فرنسا وإسبانيا والبرتغال والنمسا والتشيلي وإستراليا وغيرها .

إن **تمايز هوية** الحزب الشيوعي ، حتى ضمن الجبهة الوطنية المتحدة ، عن هويات الاحزاب الأخرى الأعضاء في الجبهة ، وبالرغم من إنغمارها جميعاً في نضال مشترك ، تتفاوت حدته ومساهمات كل منهما فيه من بلد إلى آخر ، كما تتفاوت من ظرف تاريخي إلى آخر ، إنعكاساته التنظيمية ، إنما يستند إلى الخبرة اللينينية ، التي كرسها الكومنترن حول إنه وبدون تحديد وتمييز الخط الفاصل ما بين الشيوعيين وبين يسار الاشتراكيين الديمقراطيين ، وغيرهم من أحزاب المعارضة الديمقراطية أو الثورية ، إنطلاقاً من تمايز قواعدها الطبقية وجذرية توجهات نضالها ، **فان ما هو مهدد ليس إستقلال هذه الاحزاب السياسي ، بل إستقلالها الطبقي** ، ناهيك عن إمكانية تطوير نضالها وتقدمه . وخاصة إن إنتهازية وتذبذب قيادات بعض الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية قد أديتا إلى تحويلها إلى إمتدادات للبورجوازية في أوساط الطبقة العاملة . وأضحت هذه الأحزاب ، وفي أثرها قواعدها الاجتماعية ، ضحية الهوس البرلماني ، نتيجة **لعزلها** النضال الديمقراطي عن النضال في سبيل الاشتراكية .

تشير تجارب الاحزاب الشيوعية في البلدان الرأسمالية المتقدمة ، وخاصة في الفترة ما بعد حل الكومنترن ، وهي فترة تميزت باشتداد النضالات الجماهيرية ، إلى إنها كانت على إدراك تام لأهمية إستقلالها كتنظيمات ، وكسياسات ، بالنسبة لنضال الطبقة العاملة ، وإتجاهات تطوره. وتتزايد الاهمية التاريخية لهذه الاستقلالية ، مع تزايد وضوح حقيقة إن

المهام التي يطرحها النضال ضد الرأسمال الاحتكاري (كما كان الامر بالنسبة للنضال ضد الفاشية) ، يتطلب تحشيد **جهود كافة القوى الاجتماعية** ، وتعبيراتها التنظيمية السياسية . ولهذا كان من المنطقي ، بالنسبة لهكذا إستراتيجية تنطلق من الاعتراف بهاتين الحقيقتين ، أن تتخلى عن تصور ضرورة ، أو إمكانية ، « سحق » البورجوازية الصغيرة ، كشرط من شروط تقدم حزب البروليتاريا وإنتصار ثورتها .

وتبدو أهمية إسهام الاحزاب الشيوعية في البلدان الراسمالية المتقدمة ، من زاوية توجهاتها الجبهوية ، واضحة في مجالين (مع التأكيد على إن توجهات هذه الاحزاب تتفاوت ، كما هو مفترض ، فيما بينها) . فهي ، من جهة ، إستطاعت أن تناضل ضمن حركة واسعة لفئات إجتماعية عديدة ، وبذلك تمكنت من الافلات من فخ العصبوية ، والانكفاء النرجسي على الذات ، دون أن تسقط ، من الجهة الأخرى ، في فخ التسيب التنظيمي والتشوش الفكري ، أو أن تصبح **مجرد جناح** يساري للحركة الجماهيرية (الجبهة) .

* * *

ومثلما شهد العالم ، إبان الحرب العالمية الثانية، وفي أعقابها ، تشديداً على أهمية النضال الجبهوي ، ليس مع أحزاب البورجوازية الصغيرة فحسب ، بل وأيضاً مع كافة القوى الاجتماعية ، المناهضة للفاشية ، وفي فترة لاحقة ، المناهضة للرأسمال الاحتكاري وجبروت التركيبة الصناعية العسكرية ، فانه من جهة أخرى ، شهد تطورات جوهرية عدة ، عمقت النتائج الاستراتيجية المترتبة عن حل الكومنترن ، وعلى الاخص بالنسبة للأحزاب الشيوعية في البلدان الرأسمالية المتقدمة .

جاء إنهزام الفاشية مترافقاً مع عدد من الأحداث ذات الآثار التاريخية البعيدة . ويبرز من بينها بشكل خاص صمود الاتحاد السوفياتي وإنتصاره ، وتمكنه من كسر جدار العزلة الذي فرضته البلدان الرأسمالية حوله . فلم يعد الاتحاد السوفياتي الدولة الاشتراكية الوحيدة ، فسرعان ما أخذ الجزء الاشتراكي من العالم في الاتساع والتنامي ليشمل تسع دول أخرى ، تغطي أجزاء هامة من أوروبا ذاتها ، علاوة على ، الصين الشعبية وكوريا الديمقراطية الشعبية وفيتنام الديمقراطية[٤]. كما إستطاعت حركة التحرر الوطني في عدد متزايد من بلدان العالم المستعمر أن تنتزع إستقلالها ، كالهند واندونيسيا ، أو أن يتعمق إرتباط الصراع الاجتماعي كما حدث في مصر وسوريا وبلدان المغرب العربي وسيلان والهند الصينية[٥] .

وفي العالم الرأسمالي إشتدت هيمنة الرأسمالية ، وتغلبت ، ضمنها ، شرائحها الاحتكارية . وبالاضافة ، ونتيجة لتنامي قوة الاحتكارات الرأسمالية الامريكية والضعف النسبي الذي بدأت تعاني منه الرساميل الاوروبية ، التي استنزفتها الحرب العالمية الثانية ، بدأ في الظهور وضع جديد تميز بتبعية الرساميل الاوروبية ، بنيوياً ، للاحتكارات الامريكية . وتكرس الطابع البنيوي لهذه التبعية التي بدأت بمشروع **مارشال** إقتصادياً ومبدأ **ترومان** عسكريا وسياسياً ، من خلال السياسة الاقتصادية لحكومات ما بعد الحرب في هذا الجزء من العالم .

تجدر الاشارة إلى تأكيد الشيوعيين في البلدان الرأسمالية المتقدمة ، على إن نشاط الولايات المتحدة المبكر والفعال في سبيل فرض هيمنتها لم ينحصر في الجانب العسكري المباشر (عبر حلف الناتو والقواعد العسكرية والاتفاقات العسكرية الثنائية) ، أو الجانب العسكري غير المباشر (برامج المعونة العسكرية ، والصناعات العسكرية المشتركة ، والتحكم في التقنية العسكرية ، علاوة على إحتمالات التدخل) ، ولا الجانب الاقتصادي (مشروع مارشال وتدفق الاستثمارات الاميركية) ، بل تعدتها لتشمل كافة مجالات السياسية . فبجانب تدخلها المباشر ، والفعال ، لضرب القوى الثورية في اليونان وإعادة الملك إلى الحكم بمعونة اليمين اليوناني ، وتمويلها الانشقاقات ومحاولات التخريب داخل الاتحادات والنقابات العمالية الاوروبية[٦] ، وتدخلها في ألمانيا الغربية لفرض القيود على نشاط الحركة العمالية ، بل وحظر نشاط بعض أقسامها ، وعلى وجه الخصوص الحزب الشيوعي الألماني ، ومنظماته الجماهيرية في كافة المناطق التابعة للاحتلال الغربي ، وقيام السلطات العسكرية الاميركية بفرض الفيتو على قرارات التأميم التي إتخذتها البرلمانات المحلية في ألمانيا الغربية في ١٩٤٦ . ناهيك عن نجاحها في فرض طرد الشيوعيين من حكومات ما بعد الحرب في عدد

من بلدان أوروبا كشرط مسبق للحصول على المعونة الاميركية .

أدى هذا التوجه المبكر ، والنشط ، للقوة الجديدة ، في نفس الوقت الذي كانت فيه القوى الاستعمارية القديمة كبريطانيا وفرنسا تفقد أجزاء رئيسية من مستعمراتها بفعل نضال حركة التحرر الوطني في تلك المناطق ، إلى خلق ظرف عالمي جديد تميز باعادة ترتيب القوى ضمن المعسكر الامبريالي ، بحيث يتأمن للولايات المتحدة موقعها المهيمن، في ذات الوقت الذي تحافظ فيه الطبقات الحاكمة من البلدان الرأسمالية المتقدمة على سيطرتها ضمن بلدانها .

إتضحت ، عشية اندلاع الحرب الباردة ، سمات الوضع العالمي ، بتناقضات رئيسية ثلاث . فهناك كان التناقض ما بين النظام الاشتراكي والنظام الرأسمالي ، وتناقض الامبريالية مع قوى التحرر الوطني ، وتناقض الطبقة العاملة وحلفائها مع الرأسمال الاحتكاري وهيمنة البورجوازية في البلدان الرأسمالية المتقدمة .

ولقد برزت ، بالتالي ، ثلاث قوى سياسية شكلت **الاطراف الاساسية** للحركة الثورية العالمية : المنظومة الاشتراكية وحركة التحرر الوطني في البلدان الرأسمالية التابعة ، والحركة الشيوعية والعمالية في البلدان الرأسمالية المتقدمة .

وشكلت هذه الاطراف ، **بتمايزها** ، قوى **متكاملة** ، تلتقي موضوعياً وتاريخياً في صراعها ضد الامبريالية وضد الرأسمال الاحتكاري ، وفي سبيل بناء المجتمع الاشتراكي والديمقراطي ، وتكريس منجزاته .

وحيث إن نضال الحركة الثورية ، سواء على الصعيد المحلي أم العالمي ، لم يكن ، خطأ مستقيماً ومتصاعداً من الانتصارات والانجازات المتلاحقة ، بل ولأنه تكثيف للصراع الطبقي الدائر على مختلف الاصعدة وفي مختلف المجتمعات البشرية ، التي تتباين موازين القوى الداخلية فيها ، فان مسار النضال يتعرج صعوداً عبر الانتصارات المتباينة الأهمية التي حققها هذا الطرف ، أو قسم من أحد الأطراف ، وانحداراً بسبب « هزائم » أو « إخفاقات » لحقت بهذا الطرف أو ذاك ، أو بقسم منه . « **وتبين الممارسة الثورية المعاصرة إن نجاحات النضال في أي قطاع من قطاعات الجبهة الثورية العالمية لا تكفي لحل المشاكل القائمة في قطاعات أخرى حلا أوتوماتيكياً ، وإن العملية الثورية العالمية هي** مجموع النشاطات المتفق عليها بين جميع القوى الثورية . وكلما إزداد الوضع تعقيداً كلما إزدادت أهمية تنسيق عملها ومسئولية كل قوة من هذه القوى عن وضع الستراتيجية المشتركة للنضال ضد الرجعية الامبريالية »[٧] .

إن **الطابع الدينامي** لحركة الصراع ، محلياً وعالمياً وكذلك **العلاقة التكاملية** القائمة ، بشكل موضوعي وتاريخي ، ما بين أطراف الحركة الثورية ، يشكلان القاعدة التي يمكن بالاستناد عليها القول بأن قوتها كحركة ممتدة على صعيد العالم ، لا تكمن في كونها تجميعاً حسابياً لقوى أطرافها المتمايزة ، بل ، في كونها إضافة قائمة **بذاتها** لقوة كل طرف فيها .[٨] وعلى هذا يستمر تعاظم قوة الحركة الثورية على صعيد العالم ، في صراعها المتعدد الجبهات ، وبالرغم من تعرجات مسار نضال أطرافها ، و « إخفاقاتها » وهذه الخاصية هي أساس تفوقها التاريخي ، ككل ، وأساس صحة القول **بأن عصرنا هو عصر الانتقال نحو الاشتراكية .** بالرغم من إن شعوب عدد من البلدان الرأسمالية التابعة ما زالت تخوض غمار النضال من أجل استكمال إستقلالها الوطني[٩] . مهما يكن الأمر ، وبالرغم من ثبات إن سمة عصرنا هو الانتقال نحو الاشتراكية ، فان **التطور الظرفي** في بلدان لنظومة الاشتراكية هو بالتأكيد غير نلك الذي تمر به البلدان الرأسمالية المتقدمة . ويختلف التطور الظرفي في هذه البلدان ، بدورها ، عنه في البلدان الرأسمالية التابعة . وعلى هذا ، وفي الاطار العام للحركة الثورية العالمية ، فان المهام التي تتصدى لها أي من الاطراف الثلاثة تختلف نوعيا ، وبشكل واضح ، عما تتصدى له الاطراف الأخرى .

فمن حيث إن هذه المهام في بلدان المنظومة الاشتراكية تتمثل ، بشكل عام ، في العمل على تكريس الاشتراكية القائمة والسعي لبناء القواعد المادية والايديولوجية لبناء الشيوعية ، فهي ، لنلك ، تختلف عن مهام النضال الذي تخوضه الطبقة العاملة وحلفائها في البلدان الرأسمالية التابعة من أجل تكريس (بل وأحياناً إستكمال) إستقلالها الاقتصادي والسياسي الفعلي ، وفرض تحولات إجتماعية وإقتصادية على طريق الثورة الوطنية الديمقراطية[١٠] . وتأخذ هذه المهام في البلدان

الرأسمالية المتقدمة ، أشكالا أخرى ، لا يمكن وصفها بأنها أقل أو أكثر تعقيداً ، ولكنها على أية حال ، **مختلفة** ، ومتميزة عن غيرها . ولعل أبرز ما يميز هذه الأخيرة ، هو تصديها للنضال في وجه أكثر أشكال الرأسمالية تقدماً ، ألا وهو الرأسمال الاحتكاري .

* * *

تبلور هذا التمايز الذي تتصف به المهمات التاريخية لنضال كل طرف من أطراف الحركة الثورية ، وبشكل خاص ، في العقد الاخير . هذا التمايز الذي شددت عليه ، **وإن بدرجات مختلفة** ، كافة الاحزاب الشيوعية والعمالية في مؤتمرها المنعقد في موسكو ١٩٦٩[١١]. وفي سعيها لتشديد فاعلية نضالها ، كان على الأحزاب الشيوعية والعمالية في البلدان الرأسمالية المتقدمة ، أن تنطلق من هذا التمايز المستند على خصوصية الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في بلدانها ، وعلى خصوصية الطابع الذي يتخذه شكل ومحتوى حكم الرأسمالية فيها . كما كان عليها أن تنطلق من تمايز آخر ، جوهري هو أيضاً ، متمثل في كون مصداقيتها كأحزاب مناضلة وصلبة في الدفاع عن مصالح الطبقة العاملة ومواقعها ، كانت قد تكرست ، وعمدت بالدم ، عبر إنخراطها في النضال الوطني ضد الفاشية ، **ومن اجل الديمقراطية** ، منذ الثلاثينيات وحتى يومنا . مروراً بالحرب الأهلية الاسبانية ، والجبهات الشعبية المتحدة ، وفصائل الانصار والمقاومة والحركة الجماهيرية ضد خطر الحرب وفي سبيل السلم ، الخ .

إن تفاني هذه الأحزاب ، ونضالها ضمن جماهير بلدانها ، ضد الارهاب البورجوازي في أشد درجات سوداويته والمتمثل في الفاشية ، لم يكرس مواقعها كقائدة طليعة للطبقة العاملة في بلدانها فحسب ، بل وأكد أيضاً حقيقة هامة هي إن **الديمقراطية ، والنضال في سبيلها وفي سبيل الدفاع عنها ، هي احد اهم اسلحة الشيوعيين** ، وخاصة إنهم ، والطبقة العاملة في بلدانهم ، قد إختبروا ، وبأكثر أشكال الاختبار وحشية ، مدى الفرق ما بين الشكل الفاشي لحكم البورجوازية ، وشكله الديمقراطي والبرلماني .

كتب ، من جهة أخرى ، رئيس الحزب الشيوعي النرويجي ، كنوتسن ، قائلا : « ليس ثمة مبالغة في القول بأن تشكيل كتلة واسعة من القوى الملتفة حول النواة البروليتارية أصبح في الظروف الراهنة شرطاً حاسماً للنجاح في النضال المعادي للاحتكار في عدد من البلدان . أليس هذا أحد الدروس الرئيسية من مأساة الثورة التشيلية ؟ نلكم هو الاستنتاج الذي استخلصه رفاقنا التشيليون من تحليل أسباب سقوط حكومة الوحدة الشعبية في عام ١٩٧٣ . فقد قال دينيه كاستيلو ، عضو قيادة الحزب الشيوعي التشيلي ، « لقد هزمنا لأن الطبقة العاملة كانت معزولة عن حلفائها ففي الظروف التي كانت سائدة في بلادنا كان من الضروري أيضاً توحيد الفئات الوسطى الواسعة حول الطبقة العاملة ، وكسب مختلف الفئات البورجوازية غير الاحتكارية بهذا الشكل أو ذاك ، لا سيما البورجوازية المتوسطة والبورجوازية الصغيرة » . وقال لويس كورفلان السكرتير العام للحزب الشيوعي التشيلي في بداية ١٩٧٧ : « كان علينا أن نكسب إلى حد كبير تأييد القطاع المتوسط ، وأن نأخذ هذه الحقيقة بعين الاعتبار إلى حد كبير من عملنا »[١٢].

أخذت هذه التوجهات المتميزة ، منذ بدء السبعينات ، أشكالا برنامجية وسياسية محددة ، في أغلب بلدان العالم الرأسمالي المتقدم . وفي مؤتمر الاحزاب الشيوعية والعمالية الاوروبية المنعقد في برلين ، ألمانيا الديمقراطية ، في ١٩٧٦ ، أثبتت الحركة الشيوعية قدرتها على **الانطلاق من تمايز مواقع أطرافها** ، ومهماتها المختلفة نحو تقدم أكبر وفاعلية أشد ، عبر ما يحمل الكثير من سمات ما سماه **توليتاتي** قبل نلك بنحو عشرين عاماً ، « بالبوليسنترزم . » ، أو المركزية المتعددة . وإذا ما أخذت هذه الحقيقة بعين الاعتبار ، مضافة إلى الانجازات التي يحرزها الطرفان الآخران في الحركة الثورية العالمية ، فانها تصبح معاً ، تأكيداً على إن « المرحلة المعاصرة **هي مرحلة إزدياد فعالية الاحزاب الشيوعية في سير التاريخ العالمي ، مرحلة قيادة أعمال الطبقة العاملة النشيطة والهجومية ، مرحلة التطوير النوعي والكمي للحركة الشيوعية في كافة الاتجاهات . ويشهد على ذلك إزدياد عدد الاحزاب الشيوعية الموجودة في السلطة (وهي الآن ١٥ حزباً) والنمو السريع لعدد الشيوعيين في الدول الاشتراكية وفي الدول الرأسمالية ، إذ أصبحت الاحزاب الشيوعية في العديد من الدول (ايطاليا ، فرنسا ، فنلندا ، اليابان ، إسبانيا ، البرتغال ،**

الارجنتين ، الهند وغيرها) أحزاباً جماهيرية . ويتغير نوعياً طابع الدور القيادي للأحزاب الشيوعية . ففي بعض الدول تحولت الاحزاب الشيوعية التي تقود النضال السياسي الجماهيري النشيط للشغيلة ، إلى قوى سياسية وطنية شاملة . وفي بعض البلدان تجري ظهور الأحزاب الشيوعية على حلبة النشاط الوطني العامل ، وقد أصبحت هذه الأحزاب عنصراً هاماً في توزيع القوى السياسية في الدول الرأسمالية ...(١٣) .

إلا إن هذه التطبيقات البرنامجية المستندة على خصوصيات بلدانها وتركيباتها الاجتماعية وتوازن القوى الظرفي فيها ، سرعان ما أضحت جزء من الحرب الايديولوجية السياسية ، أو « **حرب الاستنزاف** » التي تشنها البورجوازية ضد الحركة الثورية العالمية على مختلف الجبهات . مؤكدة ، هذه المرة كما مرات أخرى عديدة قبلها ، وفي هذا المجال ، « إنقسام » الحركة الشيوعية النهائي ، بل « إنهيارها » ، و « إنهيار » وحدة الحركة الثورية ككل . كما تم تصوير هذه التطويرات الهامة التي ادخلها النضال السياسي والايديولوجي للأحزاب الشيوعية في البلدان الرأسمالية المتقدمة في العقد الاخير على وجه الخصوص ، على إنها بداية الانشقاق النهائي ، بل الخاتمة التاريخية ، لفاعلية الحركة الشيوعية ، لا في هذه البلدان فحسب ، بل وعلى صعيد العالم(١٤).

في جانب آخر ، صورت بعض أجهزة الأعلام البورجوازية ، وعلى الأخص في أوروبا ، هذه التطويرات على إنها تغيير تكتيكي ، بل بالأحرى « لعبة إنتخابية » هدفها خداع الناخبين ، أو إنها ، في أحسن الأحوال لا تتعدى أن تكون خطة هدفها « جر » الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية ، والاحزاب الجماهيرية ذات الطابع الديمقراطي الاخرى ، إلى التعاون مع الشيوعيين(١٥).

وفي منطقتنا ، تلقفت ا لامتدادات الاعلامية المحلية للاعلام الغربي ، هذه التفسيرات ، لتضيفها إلى القسم الأفضل من ترسانة أسلحتها ضد الحركة التقدمية ، والشيوعية بشكل خاص . وفي أوج إشتداد إنعكاس الحملة في منطقتنا ، بضجيجها المتزايد ، ضاعت أصوات عديدة محذرة من « حرب الاستنزاف » هذه ، إنطلاقاً من إن كافة التفسيرات التي قدمها الاعلام البورجوازي لا يمكن أن توصف بأقل من كونها تفسيرات معادية للحركة التقدمية ، وإنها في أحسن أحوالها ، ليست إلا تفاسير لا طبقية ، لا تاريخية من جهة ، وتخفيضية وإختزالية من جهة أخرى .

وفي خضم معركة الاستنزاف ، في شكلها العربي ، تم تناسي إن حتى أكثر الناس حماساً ، وأشدهم تطرفاً ، في أوروبا ، لم يستخدم إصطلاح « الاورو » أو « الشيوعية الاوروبية » إلا بوضعها بين قوسين تأكيداً على طابعها الصحافي ، من جهة ، و إعترافاً بعدم دقة التعبير من جهة أخرى(١٦).

فكما رأينا ، لم تكن التوجهات الجديدة للأحزاب الشيوعية في البلدان الرأسمالية المتقدمة بدعة جديدة تبتدعها ، لسبب أو لآخر ، هذه القيادة أو تلك . كما لم تكن « خدعة » إنتخابية ، تتلائم مع إسلوب التآمر الظلامي . بل كانت تتويجاً لحوار متفاوت الحرارة ، والحدة ، والعمق إمتد لسنوات في مختلف البلدان الرأسمالية المتقدمة ، كاستجابة موضوعية لتغييرات بنيوية طرأت على مجتمعاتها منذ الخمسينات ، وتكرست كحقائق تاريخية طوال العقدين الماضيين . إن الحقيقة الجوهرية في المرحلة الراهنة كما يقول كنوتسن « هي إنه في عدد من البلدان الرأسمالية لا يوجد حزب واحد ، إنما يوجد حزبان أو عدة أحزاب تتألف قاعدتها من البروليتاريا ، وبالتالي فان المهمة الرئيسية في النضال من أجل توحيد جهود البروليتاريا تتمثل ، في رأينا ، في إقامة وتوسيع الصلات بين الشيوعيين وهذه الاحزاب . ولا سيما الاحزاب الاشتراكية ـ الديمقراطية ، والاشتراكية ، والتغلب على الحواجز المعرقلة للتعاون معها ، وإجتذابها للتحالف المعادي للاحتكار »(١٧).

لا حاجة لنا هنا ، للتأكيد على إن هذه ليست بالمهمة المستحيلة أو الشديدة السهولة . فهي تشكل أحدى أكثر التحديات ، التي تواجه الشيوعيين في البلدان الرأسمالية المتقدمة ، تعقيداً ، وخاصة إن احدى الاهداف المعلنة لبعض أجنحة الاشتراكية الديمقراطية(١٨) ، علاوة على مختلف أشكال الشلل اليسارية ، هو إنهاء وجود الحزب الشيوعي ، أو تقليص تأثيره ، أو في أحسن الاحوال ، الحلول في مكانه كطليعة مناضلة للطبقة العاملة .

وإذا تنكرنا إن هذه هي أهداف البورجوازية ذاتها ،

وإن لأغراض تختلف ، لأتضح لنا مدى أهمية السعي للحفاظ على الذات وعلى إستقلال الهوية والسياسة بالنسبة لحزب شيوعي ، في ممارساته الجبهوية .

* * *

كان شعار « التسوية التاريخية » ، محاولة للاستجابة لتغيرات موضوعية في إيطاليا ، كان أبرز إنعكاساتها ، مقدرة الحزب الديمقراطي المسيحي ، بتوجهاته الكاثوليكية ، على الاستمرار كحزب جماهيري ، يندرج تحت لوائه ، ليس الفئات التي تحتل عادة المراكز العليا والوسطى في الهرم الاجتماعي ، بل وأيضاً ، فئات واسعة من العمال والفلاحين والبروليتاريا الرثة والبورجوازيين الصغار . ومثلما أثبت تطور الاحداث ، على المسرح الايطالي ، منذ بدء التطبيق العملي للسياسات المستندة على « التسوية التاريخية » صحة الكثير مما طرحه الشيوعيون الايطاليون على أنفسهم من مهمات ، فانها أوضحت أيضاً صعوبة ، وأحياناً عدم واقعية ، مهمات أخرى يطرحها النضال الجبهوي ، **في ظل راسمالية إحتكارية** ، ومع أحزاب البورجوازية الصغيرة والمتوسطة التي تخضع ، وبدرجات متفاوتة ، لتأثير مراكز القوى الرأسمالية . وتشير ، في هذا الصدد ، المعلومات المتوافرة عن المؤتمر الخامس عشر للحزب الشيوعي الايطالي ، إلى إعادة النظر في عدة جوانب تكتيكية من هذه السياسة ، مما يؤكد ، مرة أخرى ، مرونة هذا الحزب وقدرته على عدم الارتباط الضمني بالمواقف ، وخاصة تلك التي تأكدت ، عبر الممارسة ، عدم ملائمتها للمتغيرات المستجدة .

وكما لم تكن « التسوية التاريخية » ، « خدعة تكتيكية ماكرة » لجلب المزيد من المقترعين لصالح الحزب الشيوعي الايطالي ، فانها وبالقدر نفسه ربما ، لم تكن خطة « اوحى بها هاتف سماوي » ، أو « ابداع » نظري بعيد عن الواقع الايطالي كما هو في نهاية الستينيات وبدء السبعينيات . كانت هذه السياسة ، جزء من سلسلة مترابطة من سياسات ، بعضها ذي طابع دفاعي ، كان على الشيوعيين ، ومن خلال التنسيق وتوحيد الجهود مع كافة القوى الديمقراطية انتهاجها في وجه الخطر المحدق بايطاليا آنذاك بسبب تنامي الاتجاهات الفاشية والعسكرية .

وتجد « التسوية التاريخية » ، من جهة اخرى ، جذورها العملية والنظرية ، عميقا في تاريخ الحزب وتراثه . اما الجذور العملية ، فانها تعود الى السنوات الاولى لتأسيس الحزب ، والى سنوات النضال ضد الفاشية ، وكذلك ، ومنذ دمر الفاشية ، بدء من مشاركة الشيوعيين الايطاليين الفعلية في وضع دستور بلادهم ، الى مواقفهم المبدئية والحازمة دفاعا عن الديمقراطية في وجه كافة أشكال التطرف اليساري او الفاشي .

ولقد انعكست المصداقية الديمقراطية للشيوعيين الايطاليين ، بميزانها الانتخابي ، في ارتفاع نسبة الاصوات التي يحصل عليها الحزب من ١٨,٩٪ في عام ١٩٤٨الى ٣٠,١٪ في عام١٩٧٩(بينما انخفضت بالمقابل نسبة اصوات المسيحيين الديمقراطيين في الفترة ذاتها من ٤٨,٥٪ الى ٣٨,٣٪).كما انعكست هذه السياسةمن ناحية تجنيد الاعضاء الجدد في الحزب . ارتفعت عضوية الحزب خلال العشر سنوات الماضية باضطراد لتصل في عام ١٩٧٨ الى ١,٧٦٧,٠٠٠ وكان تجنيد الاعضاء الجدد كالتالي :

السنة	المشتركين الجدد
١٩٦٩	١٠١,٢٠٦
١٩٧٠	١٠٥,٨٦٧
١٩٧١	١١٢,٦٢٧
١٩٧٢	١٥١,١١٨
١٩٧٣	١٣٧,١٩٨
١٩٧٤	١٣٢,٧٧٤
١٩٧٥	١٥٥,٨٥٤
١٩٧٦	١٧٠,٩٦٦
١٩٧٧	١٢٩,٣٥١
١٩٧٨	١٠١,٠٠٠

أما من الناحية النظرية ، فانها تجد جذورها ، (أو على الاقل الكثير منها) ، في إطروحات مؤسس الحزب ، **انطونيو غرامشي** ، حول ضرورة عدم جعل نشاط حزب الطبقة العاملة محصورا داخل إطار حدودها الطبقية ، بل إن عليه أيضا ، أن يسعى على الدوام لتأكيد تأثيره ، في كافة جوانب الحياة خارج ذلك الاطار . فالحزب الشيوعي ، كما يعلم غرامشي ، لن يتمكن من أن يبدو في أعين الجماهير كقائد لحضارة جديدة ، وبديلة ، إذا هو لم يستطع اقناعها ، لا بقدرته على ان يحكم فقط ، بل

وأهليته لذلك[١٩]. بمعنى ان يبدو من خلال ممارساته ، في نظر الجماهير ، ضمن الطبقة العاملة وخارجها ، في مستوى المسئولية ببرامجه وسياساته وقياداته ، سواء على المدى القصير أم البعيد .

* * *

بالرغم من ضجيج الاعلام البورجوازي ، فان هذه التوجهات لقيت تفهما ودعما من الاحزاب الشيوعية خارج نطاق البلدان الرأسمالية المتقدمة وعلى الاخص من طرف الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، حتى قبل مؤتمر برلين من ١٩٧٦ . ففي الندوة العالمية التي عقدت في برلين (أبريل ١٩٧٥) بمناسبة الذكرى الاربعين لانعقاد المؤتمر السابع للكومنترن ، وهو المؤتمر الذي ارتبط ، كما هو معروف ، باستراتيجية الجبهة الشعبية المتحدة ، ألقى **سوسلوف** خطابا دعا فيه الاحزاب الشيوعية الى زيادة جهودها للاستفادة من المصاعب التي يعاني منها النظام الرأسمالي ، **والتي تتشابه في الكثير من جوانبها ، كما أكد سوسلوف ، مع الازمة التي عانت الرأسمالية منها ما بين ١٩٢٩ و ١٩٣٢**[٢٠]. هذه الفكرة ذاتها عرضها **لنداء مؤتمر الاحزاب الشيوعية والعمالية الاوروبية** ، المنعقد في برلين من ١٩٧٦ ، حين أكد على إن واجب الشيوعيين هو السعي كي « **تصبح سياستهم ومثل العدالة التي يدافعون عنها ، قوة متعاظمة تسهل قيام اوسع وحدة للشغيلة وجماهير الشعب** »[٢١].

وكما هو الحال بالنسبة « للتسوية التاريخية » في ايطاليا ، فان النضال من أجل برنامج موحد لليسار في فرنسا ، وإقامة « الطغمة الديمقراطية » في إسبانيا وغيرها من الأشكال البرنامجية الاخرى التي يتخذها نضال الشيوعيين من البلدان الرأسمالية المتقدمة ، يهدف الى إزالة هيمنة الرأسمال الاحتكاري . وهي ، جميعا ، تشكل تعبيرا عن انطلاقهم من الخصائص الموضوعية ، والظرفية ، لبلدانهم وللطبقة العاملة فيها . ولهذا **فهي** تشكل اضافات غنية ، وأصيله ، لخبرة الحركة الثورية ونضالها على صعيد العالم ، سواء في بلدان المنظومة الاشتراكية ام في البلدان الرأسمالية التابعة . وخاصة إنها لم تكن ممكنة ، اصلا ، لولا الوحدة الموضوعية لنضال كافة اطراف الحركة الثورية. فكما ساهمت إنجازات حركة التحرر الوطني في دفع الازمة الاقتصادية في البلدان الرأسمالية المتقدمة الى الاشتداد ، « فان وجود النظام الاشتراكي العالمي قد أضعف بشكل جدي إمكانية الامبريالية الى تصدير ثورة الردة تصديراً سافرا ، الامر الذي يسمح للطبقة العاملة وحلفائها بالتوجه نحو الوسائل السلمية كذلك لنيل السلطة ، نحو تفادي حرب اهلية ، وإستخدام الاشكال المتوفرة للديمقراطية البورجوازية ، بما في ذلك البرلمان »[٢٢].

هوامش

(١) يشير ي . كرازن في كتبه **ديالكتيك العملية الثورية** ، ترجمه د . نديم النحوي ، مكتبة ميسلون ، دمشق ، ١٩٧٥. ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ الى « كان لانتهاك قواعد اللينينية في عمل الكومنترن ، الذي جرى في الثلاثينيات ، والاعمال التي لا تستند الى اساس ، والمتخذة ضد بعض قادة الحركة ، بما في ذلك حل الاحزاب الشيوعية من بولندة ولاتفيا، كل ذلك قد جرى ، بتعارض تام مع القيم التي تحكم نشاط الكومنترن ، الأمر الذي يدل على الحاجة الملحة لتحسين العمل التنظيمي . ويدل على ان التنوع في ظروف الاحزاب ، كان يزيد باستمرار من مصاعب عمل جهاز مركزي واحد ، لادارة وتقرير المهام الخاصة التي يجب إتباعها . وترتب على الدرجة العالية من المركزية خنق روح المبادرة ، وتقليل الفعالية العملية للأحزاب الشيوعية . هذا في الوقت الذي كانت فيه الاحزاب الشيوعية ، تزداد قوة وإتساعا وأصبح بمقدورها ان تقوم بمهماتها بشكل مستقل . وعلى ضوء ذلك اتخذ المؤتمر السابع للكومنترن قراره بنقل مركز الثقل للعمل السياسي إلى القطاعات » .

(٢) يشير **بوريس بوتاماريف** الى إنه « من الواضح بالنسبة لجميع من لا يريدون تعقيد الامور ، ان وجود مركز للحركة الشيوعية قد مضى زمانه . فبالرغم من كل الاحترام للماضي ومع اجلال دور الاممية الشيوعية ذي المرتبة الاولى من ترسيخ القوى الثورية من العصر الراهن ، ليس هناك اي ماركسي ـ لينيني يقترح بعث الحياة في ذلك الماضي بشكل أو بآخر » . في **الطريق الاشتراكية** ، العدد الخامس ، ١٩٧٨ ، دمشق . ص ٣٤

(٣) **بوناماريف**، ب . ، **النظرية الثورية العالمية ومهماتها الراهنة** ، نوفوستي ، ١٩٧٢ ، ص ٧٠

(٤) قبل ما يزيد عن خمسة عشر عاما ، قيم م . أ . **سوسلوف** وضع الحركة الشيوعية آنذاك ، في خطاب له أمام الاجتماع الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي ، المنعقد في ١٩٦٤/٢/١٥ ، بقوله : « إن حركة الشيوعية العالمية قد

أصبحت قوة سياسية ذات تأثير اليوم . ولقد قامت بشن الهجوم ضد الرجعية الامبريالية ومن أجل مصالح الطبقة العاملة وكل الشعب العامل ، ومن أجل السلام والديمقراطية والاستقلال الوطني والاشتراكية ، فأحرزت تقدما كبيرا ، وزادت عدد أعضائها بدرجة كبيرة ، وأحرزت إنتصارات بارزة . ولقد شاهدت الفترة التي تلت الحرب ظهور عشرات من الاحزاب الاشتراكية الجديدة ، وليس هناك ركن من اركان العالم اليوم الا ويقوم الشيوعيون فيه بنشر مبادىء الماركسية ـ اللينينية العظمى بين الناس . ولقد كان العقد الاخير ملىء بصفة خاصة بأحداث حركة الشيوعية العالمية . ففي هذا العقد أصبحت الحركة ، بازالتها للآثار الضارة لعبادة الشخصية ، أكثر فاعلية في تفكيرها الخلاق وعملها ، التي جعلته اقرب ما يكون الى الواقع ، والى احتياجات وآمال الشعب » .
« **كفاح الحزب الشيوعي السوفياتي من أجل وحدة الحركة الشيوعية العالمية** » قرار الاجتماع الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي ، منشورات نوفو ستي ، ١٩٦٤ . ص ٩٥ .

(٥) حول الظروف التاريخية التي أحاطت بالثورات الوطنية في تلك البلدان ، وحول انعكاس انتصاراتها على اوضاع البلدان الاشتراكية ، والقوى الثورية الاخرى ، إنظر سوسلوف ، م . أ .، **المصدر نفسه** ، ص. ٥٦ ـ ٥٧

(٦) حول استخدام الواجهات « النقابية » لتخريب الحركة النقابية من عدد من البدان ، بما فيها اوروبا ، يمكن مراجعة مختلف التقارير الصحيفية التي نشرت إبان فضيحة السي آي إيه في ١٩٦٦ و١٩٦٧ . والتي جمع الكثير منها في

Hearings before the Committee on Foreign Relations, U. S. Senate, 91 st Congress 1 session with George Meany, AFL-CIO, August. 1, 1969, G. P. O., Washigton D. C.

وكذلك

Radosh, R., **American Labor ard United States Foreign Policy, The Cold War in the Unions From** Gompers to Lovestone, **Randon** House, N. Y. 1969

(٧) تسيد نبال ، يومجاغين ، « وحدة القوى الثورية المعاصرة تتوطد » **الطريق الى الاشتراكية** ، العدد الخامس ، ١٩٧٨ ، ص ٩٤

(٨) يشير مهدي عامل الى « ان الحركة الثورية ، في هذا الاطار من انتقال التاريخ من الرأسمالية الى الاشتراكية ، تتصدى لمشكلات عملية ونظرية تختلف في البلدان الامبريالية عنها في المجتمعات الكولونيالية او في المجتمعات الاشتراكية . وما هذا الاختلاف سوى الشروط الموضوعية لعملية الانتقال هذه اي نتيجة لتفاوت تطور الحركة الثورية نفسها ، لا شك في ان وحدة هذه الحركة تظل قائمة برغم وجود ذلك الاختلاف ، او قل بسبب منه ، لأنها وحدة معقدة تترابط فيها حقولها بالشكل الذي يتفاوت فيه تطورها ، اي بالشكل الذي تتحد فيه ماديا كنقض لمختلف الأشكال التاريخية المتميزة من وجود الرأسمالية » . **مقدمات نظرية** ، دار الفارابي ، الطبعة الثانية ص ٢٥١

(٩) انظر بوناماريف، « النظرية الثورية ... » . مصدر سابق . ص ٦٢ ـ ٦٣

(١٠) انظر اوليا نوفسكي ، ر . ، « طريق الديمقراطية الوطنية » ، **الطريق الى الاشتراكية** . العدد الثامن ، ١٩٧٨ ، دمشق ، ص ٨٤ ـ ٨٥

(١١) يتم ، عادة ، استعراض كافة وجهات النظر ، على إختلافها ، في كافة المؤتمرات العالمية ، او الاقليمية ، التي تعقدها الاحزاب الشيوعية والعمالية العالمية ، وابرزها مؤتمرها العالمي المنعقد في موسكو في ١٩٦٠ ، والذي تمت فيه صياغة المعايير الرفاقية للعلاقات المتبادلة بين الاحزاب الشقيقة ، وبالتطابق مع ظروف الوضع الراهن ومعطياته . ولقد جاء مؤتمرها العالمي المنعقد في موسكو ، ايضا ، في ١٩٦٩ ليؤكد المبادىء التي وضعها مؤتمر ١٩٦٠ وأهمها التنسيق الطوعي والرفاقي بين الاحزاب الشقيقة . وجاء في التصريح الختامي للمؤتمر : « حيث إنه لا يوجد مركز قائد للحركة الشيوعية العالمية ، فان التنسيق الطوعي لاعمال الاحزاب من أجل إنجاز المهام المطروحة امامهم بفاعلية ، يكتسب اهمية متزايدة » ي . كرازن ، مصدر سابق ، ص ٢٤٣ .

(١٢) **الوقت** ، العدد ١١ ، ١٩٧٨ ، بيروت ، ص كما أكد هذا الاتجاه نفسه الفاروكونيال ، سكرتير عام الحزب الشيوعي البرتغالي بقوله لا تستطيع اي قوة سياسية او اجتماعية في البرتغال ان تدافع هي وحدها عن الحرية في النضال ضد الرجعية ، وان تضمن بناء برتغال جديدة وديمقراطية .. إن الانقسام في صفوف القوى الديمقراطية والشعبية لا يمكن الا ان يفيد الرجعية . ويواصل الحزب الشيوعي البرتغالي دعوته بحزم من أجل سياسة وحدة كل القوى التي تريد أن تناضل من أجل برتغال ديمقراطية تتقدم على طريق الاشتراكية » . انظر : **الوقت** ، العدد ١ ، ١٩٧٩ .
كما يؤكد كرازن ، **مصدر سابق** ، ص ٢١ ـ ٢٢ « كان لينين يهزأ من الافكار النظرية التجريدية غير العملية حول الثورة البروليتارية المحضة ، والافكار التي ترى إن هذه الثورة لا تشكل الا طبقتين فقط ـ البروليتاريا من جانب والبورجوازية من الجانب الآخر ـ وقد اصطفت كل منها بالمجابهة الاخرى . تترعرع الثورة الاشتراكية العالمية في بيئة غير متجانسة ، في عالم واقعي مليء بالفوارق العميقة ، التي تتضاعف بحكم تطور الرأسمالية غير السوي والمتفاوت »

(١٣) سوبوليف ، الكسانلر ، « العملية الثورية العالمية اليوم : ملامح وإتجاهات » ، **الطريق الى الاشتراكية** ، العدد ٧ ، ١٩٧٨

(١٤) لاحظ بوريس بوناماريف في التقرير المقدم الى المؤتمر النظري والعلمي العالمي « اكتوبر العظيم والعصر الراهن » ، موسكو ، نوفمبر ١٩٧٧ ، « لا شك إنه لم تمر في تاريخ الحركة الشيوعية مرحلة اطلقت فيها الدعاية البورجوازية هذا القدر من السهام على الاحزاب الشقيقة كما تطلق اليوم . .. والمقصود هو زعزعة وحدة الحركة الشيوعية وإثارة الاحزاب الشيوعية بعضها ضد البعض الآخر ، وفي الدرجة الاولى دق إسفين بين الاحزاب الشيوعية في البلدان الراسمالية والاحزاب الماركسية اللينينية الحاكمة . ويحاول الخصم الطبقي ان يستفيد لمصلحته من واقع هو طبيعي في حد ذاته ، ونعني به كون الفروق الحسية بين الظروف التي تعمل فيها الاحزاب الشقيقة ، وتنوع إمكانياتها السياسية الحالية ومهماتها واهدافها المباشرة ، تولد فروقا في معالجة هذه المسألة او تلك . فالتدخل في هذه المناقشات حول هذه المسائل ، ومحاولة العمل بشكل يجعل هذه الفروق تولد خلافات في الرأي ، وهذه الخلافات تولد انشقاقا ، هذا هو هدف الحملات الحالية ضد الشيوعية ، وبوجه خاص هذه الدعاية الصاخبة حول « الشيوعية الاوروبية » ، هذا المفهوم الذي اختلقته البورجوازية » ، **الطريق الى الاشتراكية** ، العدد ٥ ، ١٩٧٨ ، ص ٢٨ ـ٢٩

(١٥) راجع ، من بين آخرين ، تقرير كتبه ستانلي سلون ، لحساب الكونغرس الاميركي بعنوان « الاحزاب الشيوعية في أوروبا الغربية ١٩٧٧ » ، واشنطن ، ١٩٧٨ . قام بترجمته معهد الانماء العربي ، فرع لبنان . ويكتسب هذا التقرير أهميته بسبب نشره بعد مراجعة مسودته من قبل « مجموعة من الادارة والكونغرس وخبراء اكاديميون ورسميون من جماعة واشنطن » .

(١٦) أحد أبرز الامثلة على ذلك إن حتى كتاب سانتياغو كاريو « الشيوعية الاوروبية » والدولـة » ، قد ترجم ، في ترجمتين كما نعرف ، لم تشذا عن هذا الاتجاه . كما ان مترجمة الكتاب في العراق ، (يونية ١٩٧٨) ، د . سعاد محمد خضر ، ذات اهتمام خاص بعرض افكار الشيوعيين في اوروبا على قراء مجلة « الثقافة » التي تقوم بعمل سكرتيرة تحريرها، إذ حظي الموضوع باهتمام المجلة طوال ١٩٧٨ . مع ان هذه المجلة ليست أسوأ مثال لدينا ، الا انها المجلة الوحيدة التي حاولت ان تجيب على التساؤل حول دوافع اهتامها « بالاورو شيوُعية » . ففي العدد التاسع . ١٩٧٨ . ص ١٢ ـ ١٦ كتبت المجلة « إن اهتمامنا بهذا الموضوع ينطلق من اعتبارات عديدة ، ربما كان أهمها : اولا : الحرص على المعرفة والاطـــلاع [كذا] ...ثانيـــا : إن التزام مجلة « **الثقافة** » بالفكر العلمي التقدمي قد جعلها تعنى بمختلف التجارب الاشتراكية الثورية في العالم .. ثالثا : ان الاورو شيوعية انما ظهرت لاسجابات العصر ، عصر التقدم العلمي والتكنولوجي ، عصر الاحتكارات العالمية الكبرى [كذا] ..رابعا : لقد عانت الاحزاب الشيوعية في السابق ، سواء منها تلك التي وصلت الى السلطة ، أم تلك التي لا تزال بعيدة عنها ، من مشاكل حادة سببت لها ازمات خانقة في كثير من الاحيان .. خامسا : يمر قطرنا في الوقت الحاضر بتجربة ثورية رائدة ، تحاول ان تجد طريقها الاصيل ضمن الحركات الثورية الكبرى في العالم .. » . (١٧) **الوقت** ، العدد ١١ ، ١٩٧٨

(١٨) لقد رأينا فرانسوا ميتران ، مثلا ، يؤكد بعد ايام قليلة من توقيع برنامج اليسار المشترك في ١٩٧٢ وذلك في خطاب له أمام المؤتمر الرابع عشر للأممية الاشتراكية : « إن الهدف الأساسي هو بناء حزب اشتراكي على الأرضية التي يحتلها الحزب الشيوعي ذاتها » . **لوموند** ١٩٧٢/٦/٣٠ .

(١٩) رغم سوء الترجمة ، يمكن مراجعة مقالتي غرامشي «مظاهر صراع الطبقات في ايطاليا » و « تشكل المفكرين » ، في **فكر غرامشي** ، **مختارات** ، الجزء الثاني ، الفارابي ، ١٩٧٨ .

(٢٠) **كومونيست** ، العدد ١١ ، موسكو، ١٩٧٥ .

(٢١) في إشارة ذات اهمية لوثيقة برلين ، يقول بوناماريف« إن الوثيقة التي اقرها مؤتمر برلين عام ١٩٧٦ توفر أساسا جيدا لمثل هذه الأعمال . ويبدو إن المطلوب الآن هو استخدام الافكار والمقترحات ، التي صاغتها فيها الاحزاب الشقيقة بصورة مشتركة ، استخداما اوسع حزما في النضال العملي . فبرنامج برلين ، كما هو معلوم ، قد تم وضعه مع النظر إنه مع مرور الزمن ستزداد قوة الرابطة الديالكتيكية بين النضال في سبيل توطيد السلام والكفاح من أجل التقدم الاجتماعي ، بين النضال في سبيل السلام والتعاون الأممي بين الشيوعيين من جميع البلدان . وقد برهنت هذه المسيرة منذ المؤتمر انها صحيحة . ويتوقف من جوانب كثيرة ، على التضامن بين الاحزاب الشقيقة كون الحركة الشيوعية قادرة على التأثير في مجرى الاحداث الدولية ، وعلى ضمان التفوق المتزايد لقوى السلام على قوى الحرب » . **الطريق الى الاشتراكية**، العدد ٤ ، ١٩٧٨ .

(٢٢) **الوقت** ، العدد ٢ ، فبراير ١٩٧٩ ، ص ١٤

قضايا الحريات الديمقراطية في الوطن العربي

٤ ـ الاردن

الحريات الديمقراطية في الاردن

١ ـ الصحافة

ميشيل النمري

نظرا للاهمية الخاصة للوضع الارىني في مجرى النضال الوطني العربي التحرري ، ونظراً لما للاردن من تأثير بالغ على المسألة الفلسطينية ، آثرنا أن نتناول قضية الحريات الديمقراطية في الاردن بشيء من التفصيل والاستفاضة ، وبما يسمح به المجال هنا . ومن أجل ذلك فقد « قسمنا » موضوع الحريات الديمقراطية في الاردن الى ثلاثة عناوين رئيسية :

١ ـ الحريات الصحفية .
٢ ـ الحياة البرلمانية .
٣ ـ الأحزاب والمنظمات النقابية والمهنية .

وفي هذا العدد سنكتفي بتناول موضوع الحريـات الصحفيـة ، بشيء من الاستفاضة ، على أمل تناول « العناوين » الأخرى في اعدادنا القادمة .

في السادس عشر من أيار عام ١٩٤٨ نشر في العدد (٩٤٥) من الجريدة الرسمية . « **نظـام مراقبـة المطبوعات** » في شرق الاردن ، في **عهد الأمير عبد الله** . ورئيس وزرائه ، وزير الدفاع ، **توفيق ابو الهدى** . وكان هذا القانون ، الذي سمي ، انذاك ، بالنظام ، هو اول قانون للمطبوعات والنشر في الأردن .

وبحجم الأمارة آنذاك ، مساحة ، وعدد سكان ، ودولة وأجهزة ، جاء النظام بصفحتين وأقل من نصف ، لكنه كان كافيا لنسف الحريات النسبيـة السائـدة (قانونيا) ، في ظل عدم وجود نصوص قانونية .

وهذا النظام السيء ، تم بموجبه استحداث وظيفة تدعى **مراقب المطبوعات** . وبالتـالي كان لا بد من استحداث دائرة لمراقب المطبوعات ، حتى يستقيم الأمر وتستقيم المراقبة .

ومنذ ذلك التاريخ دخلت إمارة شرق الاردن ، ولاحقاً المملكة الاردنية الهاشمية ، عهد مصادرة الحريـات الديمقراطية ، والحريات الصحافية بموجـب قوانـين وأنظمة تبرمج هذا القمـع ، وتنظمـه ، على اسس « شرعية » !!

وقد اعطيت ، بموجب هذا القانون ، صلاحيـات

(١٤) لاحظ بوريس بوناماريف في التقرير المقدم الى المؤتمر النظري والعلمي العالمي « اكتوبر العظيم والعصر الراهن » ، موسكو ، نوفمبر ١٩٧٧ ، « لا شك إنه لم تمر في تاريخ الحركة الشيوعية مرحلة اطلقت فيها الدعاية البورجوازية هذا القدر من السهام على الاحزاب الشقيقة كما تطلق اليوم . .. والمقصود هو زعزعة وحدة الحركة الشيوعية وإثارة الاحزاب الشيوعية بعضها ضد البعض الآخر ، وفي الدرجة الاولى دق إسفين بين الاحزاب الشيوعية في البلدان الراسمالية والاحزاب الماركسية اللينينية الحاكمة . ويحاول الخصم الطبقي ان يستفيد لمصلحته من واقع هو طبيعي في حد ذاته ، ونعني به كون الفروق الحسية بين الظروف التي تعمل فيها الاحزاب الشقيقة ، وتنوع إمكانياتها السياسية الحالية ومهماتها واهدافها المباشرة ، تولد فروقا في معالجة هذه المسألة او تلك . فالتدخل في هذه المناقشات حول هذه المسائل ، ومحاولة العمل بشكل يجعل هذه الفروق تولد خلافات في الرأي ، وهذه الخلافات تولد انشقاقا ، هذا هو هدف الحملات الحالية ضد الشيوعية ، وبوجه خاص هذه الدعاية الصاخبة حول « الشيوعية الاوروبية » . هذا المفهوم الذي اختلقته البورجوازية » ، **الطريق الى الاشتراكية** ، العدد ٥ ، ١٩٧٨ ، ص ٢٨ ـ ٢٩

(١٥) راجع ، من بين آخرين ، تقرير كتبه ستانلي سلون ، لحساب الكونغرس الاميركي بعنوان « الاحزاب الشيوعية في أوروبا الغربية ١٩٧٧ » ، واشنطن ، ١٩٧٨ . قام بترجمته معهد الانماء العربي ، فرع لبنان . ويكتسب هذا التقرير أهميته بسبب نشره بعد مراجعة مسودته من قبل « مجموعة من الادارة والكونغرس وخبراء اكاديميون ورسميون من جماعة واشنطن » .

(١٦) أحد أبرز الامثلة على ذلك إن حتى كتاب سانتياغو كاريو « الشيوعية الاوروبية » والدولـة » ، قد ترجم ، في ترجمتين ، كما نعرف ، لم تشذا عن هذا الاتجاه . كما ان مترجمة الكتاب في العراق ، (يونية ١٩٧٨) ، د . سعاد محمد خضر ، ذات اهتمام خاص بعرض افكار الشيوعيين في اوروبا على قراء مجلة « الثقافة » التي تقوم بعمل سكرتيرة تحريرها، إذ حظي الموضوع باهتمام المجلة طوال ١٩٧٨ . مع ان هذه المجلة ليست أسوأ مثال لدينا ، الا انها المجلة الوحيدة التي حاولت ان تجيب على التساؤل حول دوافع اهتمامها « بالاورو شيوعية » . ففي العدد التاسع . ١٩٧٨ . ص ١٣ ـ ١٦ كتبت المجلة « إن اهتمامنا بهذا الموضوع ينطلق من اعتبارات عديدة ، ربما كان أهمها : اولا : الحرص على المعرفة والاطـــلاع [كذا] ...ثانيـــا : إن التزام مجلة « **الثقافة** » بالفكر العلمي التقدمي قد جعلها تعنى بمختلف التجارب الاشتراكية الثورية في العالم .. ثالثا : ان الاورو شيوعية انما ظهرت لاستجابات العصر ، عصر التقدم العلمي والتكنولوجي ، عصر الاحتكارات العالمية الكبرى [كذا] ..رابعا : لقد عانت الاحزاب الشيوعية في السابق ، سواء منها تلك التي وصلت الى السلطة ، أم تلك التي لا تزال بعيدة عنها ، من مشاكل حادة سببت لها ازمات خانقة في كثير من الاحيان .. خامسا : يمر قطرنا في الوقت الحاضر بتجربة ثورية رائدة ، تحاول ان تجد طريقها الاصيل ضمن الحركات الثورية الكبرى في العالم .. » .

(١٧) **الوقت** ، العدد ١١ ، ١٩٧٨

(١٨) لقد رأينا فرانسوا ميتران ، مثلا ، يؤكد بعد ايام قليلة من توقيع برنامج اليسار المشترك في ١٩٧٢ وذلك في خطاب له أمام المؤتمر الرابع عشر للأممية الاشتراكية : « إن الهدف الأساسي هو بناء حزب اشتراكي على الأرضية التي يحتلها الحزب الشيوعي ذاتها » . **لوموند** ١٩٧٢/٦/٣٠ .

(١٩) رغم سوء الترجمة ، يمكن مراجعة مقالتي غرامشي «مظاهر صراع الطبقات في ايطاليا » و « تشكل المفكرين » ، في **فكر غرامشي** ، **مختارات** ، الجزء الثاني ، الفارابي ، ١٩٧٨ .

(٢٠) **كومونيست** ، العدد ١١ ، موسكو، ١٩٧٥ .

(٢١) في إشارة ذات اهمية لوثيقة برلين ، يقول بوناماريف« إن الوثيقة التي اقرها مؤتمر برلين عام ١٩٧٦ توفر أساسا جيدا لمثل هذه الأعمال . ويبدو إن المطلوب الآن هو استخدام الافكار والمقترحات ، التي صاغتها فيها الاحزاب الشقيقة بصورة مشتركة ، استخداما اوسع حزما في النضال العملي . فبرنامج برلين ، كما هو معلوم ، قد تم وضعه مع النظر إنه مع مرور الزمن ستزداد قوة الرابطة الديالكتيكية بين النضال في سبيل توطيد السلام والكفاح من أجل التقدم الاجتماعي ، بين النضال في سبيل السلام والتعاون الأممي بين الشيوعيين من جميع البلدان . وقد برهنت هذه المسيرة منذ المؤتمر انها صحيحة . ويتوقف من جوانب كثيرة ، على التضامن بين الاحزاب الشقيقة كون الحركة الشيوعية قادرة على التأثير في مجرى الاحداث الدولية ، وعلى ضمان التفوق المتزايد لقوى السلام على قوى الحرب » . **الطريق الى الاشتراكية**، العدد ٤ ، ١٩٧٨ .

(٢٢) **الوقت** ، العدد ٢ ، فبراير ١٩٧٩ ، ص ١٤

الحريات الديمقراطية في الاردن

١ ـ الصحافة

ميشيل النمري

نظرا للاهمية الخاصة للوضع الاردني في مجرى النضال الوطني العربي التحرري ، ونظراً لما للاردن من تأثير بالغ على المسألة الفلسطينية ، آثرنا أن نتناول قضية الحريات الديمقراطية في الاردن بشيء من التفصيل والاستفاضة ، وبما يسمح به المجال هنا . ومن أجل ذلك فقد « قسمنا » موضوع الحريات الديمقراطية في الاردن الى ثلاثة عناوين رئيسية :

١ ـ الحريات الصحفية .
٢ ـ الحياة البرلمانية .
٣ ـ الأحزاب والمنظمات النقابية والمهنية .

وفي هذا العدد سنكتفي بتناول موضوع الحريات الصحفية ، بشيء من الاستفاضة ، على أمل تناول « العناوين » الأخرى في اعدادنا القادمة .

في السادس عشر من أيار عام ١٩٤٨ نشر في العدد (٩٤٥) من الجريدة الرسمية . « **نظام مراقبة المطبوعات** » في شرق الاردن ، في **عهد الأمير عبد الله** . ورئيس وزرائه ، وزير الدفاع ، **توفيق أبو الهدى** . وكان هذا القانون ، الذي سمي ، انذاك ، بالنظام ، هو أول قانون للمطبوعات والنشر في الأردن .

وبحجم الأمارة آنذاك ، مساحة ، وعدد سكان ، ودولة وأجهزة ، جاء النظام بصفحتين وأقل من نصف ، لكنه كان كافياً لنسف الحريات النسبية السائدة (قانونيا) ، في ظل عدم وجود نصوص قانونية .

وهذا النظام السيء ، تم بموجبه استحداث وظيفة تدعى **مراقب المطبوعات** . وبالتالي كان لا بد من استحداث دائرة لمراقب المطبوعات ، حتى يستقيم الأمر وتستقيم المراقبة .

ومنذ ذلك التاريخ دخلت إمارة شرق الاردن ، ولاحقاً المملكة الاردنية الهاشمية ، عهد مصادرة الحريات الديمقراطية ، والحريات الصحافية بموجب قوانين وأنظمة تبرمج هذا القمع ، وتنظمه ، على اسس « شرعية » !!

وقد اعطيت ، بموجب هذا القانون ، صلاحيات

لمراقب المطبوعات . تتعدى حدود مراقبة الصحف والنشرات الصادرة في الامارة أو القادمة اليها من الخارج . فتحت شعار مراقبة المطبوعات ، أصبح من حق المراقب أن يطلع على جميع المراسلات الواردة أو الصادرة من والى المواطنين . فقد نصت المادة الثالثة من هذا القانون العجيب على ما يلي :

« لمراقب المطبوعات الصلاحية في أن يحجز ، ويفتح ، ويفحص ، أو يأمر بحجز ، وفتح ، وفحص :

أ ـ جميع المراسلات أو بعضها :

ب ـ جميع البرقيات أو بعضها :

ج ـ جميع الطرود والمواد والأشياء المشتبه بأنها تحتوي على أية مادة مطبوعة أو مكتوبة ، وله أن يمسك عن توزيع هذه المراسلات ، أو البرقيات ، أو أية مادة مطبوعة ، أو مكتوبة يجدها ، إذا ظهر له انها تتضمن أي شيء يدعى أن نشره يضر ، أو **يحتمل** ان يضر ، أو **يصبح** مضراً بالطمائنينة العامة ، او بالدفاع عن شرق الأردن . ويجوز له ، بالاشتراك مع سلطات البريد والبرق والجمرك ، أن يتخذ جميع التدابير الضرورية للغايات المذكورة .

وقد اكتفى هذا القانون . وهو كما قلنا اول قانون للمطبوعات والنشر ، بسرد سلسلة المحرمات والممنوعات ، دون أن يأتي على أي ذكر لتنظيم الصحافة ، وإصدارها . فبقي إصدار الصحف حقاً مطلقاً لأي مواطن ، دون حاجة للحصول على امتياز خاص ، ودون أن يتطلب ذلك توفر شروط معينة ، كما هو الحال الآن . لكن القانون ركز على الممنوعات ، ومنح صلاحيات لمراقب المطبوعات بمصادرة او منع اي مطبوعة من التوزيع ، تصدر في الامارة ، او تأتي من الخارج . فقد نصت الفقرة (١) من المادة الرابعة من القانون على ما يلي :

« لمراقب المطبوعات أن يصدر أمراً تحريرياً ، يمنع فيه طبع أو نشر أي خبر أو مادة مطبوعة أو مكتوبة ، يرى أنها تضر ، أو يحتمل ان تضر ، أو تصبح مضرة ، بالطمأنينة العامة أو بالدفاع عن شرق الأردن ، في أية جريدة أو مجلة أو نشرة موقوته ، أو أية نشرة أخرى ، إما منعاً خاصاً ، أو عاماً ، وأن يصادر ، أو يأمر بمصادرة ، جميع النشرات من هذا القبيل ، التي تطبع أو تنشر خلافاً الأمر الذي يصدره » .

لكن هذا القانون ، على علاته وعيوبه ، يعتبر أرقى من القوانين المعدلة ، التي صدرت فيما بعد .

فعلى سبيل المثال ، وبالاضافة الى حق اصدار الصحف بدون أية قيود ، فاننا لا نجد اي نص في القانون يمنع صحيفة من الصدور بصورة قطعية . أو يمنع نشرة أو مطبوعة من دخول البلاد بصورة قطعية .

لكن الدولة سرعان ما تنبهت لهذه الثغرة ، مع بداية تحول الامارة الى « مملكة اردنية هاشمية » فأصدرت ، عام ١٩٥١ ، مادة مكررة ، اضيفت الى هذا القانون ، بموجب النظام رقم (٤) لسنة ١٩٥١ ، ونشرت هذه المادة المكررة في العدد ١٠٦٣ من الجريدة الرسمية ، الصادرة بتاريخ أول ايار ١٩٥١ .

وقد نصت المادة المكررة على ما يلي :

« اذا رأى مراقب المطبوعات أن المصلحة العامة تقضي بمنع صدور ونشر اية جريدة ، أو نشرة موقوتة ، أو كتاب ، أو مادة مطبوعة في المملكة الاردنية الهاشمية ، أو بمنع إدخالها الى المملكة الاردنية الهاشمية ، فيجوز له أن يصدر أمراً خطياً ، يوجه الى الشخص المختص ، أو ينشر في الجريدة الرسمية ، يمنع فيه صدور ونشر تلك الجريدة ، أو النشرة الموقوتة ، أو الكتاب ، أو المادة المطبوعة ، في المملكة الاردنية الهاشمية ، أو دخولها اليها ، للمدة التي يراها مناسبة » .

وهكذا ، نلاحظ أنه مع التطور الذي شهدته البلاد ، سواء كان على الصعيد التنظيمي للدولة وأجهزتها ، أو على صعيد التطور السياسي والاقتصادي ، تراجعت الحريات إلى الوراء . وبشكل خاص الحريات الصحافية ، التي لا يمكن عزلها ، بطبيعة الحال ، عن مجمل الحريات الديمقراطية في البلاد . وهكذا يمكننا القول أن المؤشر البياني للحريات أخذ يتناسب عكسياً مع « تطور » المجتمع و« تطور » أجهزة القمع ، المعبر عنها بالدولة ومؤسساتها .

بقي أن نشير هنا إلى أن القانون الأول للمطبوعات والنشر قد صدر بأمر من **الأمير عبدالله بن الحسين** ، استناداً إلى المادة الرابعة من **قانون الدفاع عن شرف الاردن** لسنة ١٩٣٥ . وكان وزير الدفاع آنذاك ، هو نفسه رئيس الوزراء ، **توفيق أبو الهدى** . ولم تكن البلاد ، في تلك الفترة ، تعرف ما يسمى بوزارة الأعلام . والأهم من ذلك أن قانون المطبوعات والنشر قد تطلب

إحداث دائرة جديدة في الدولة ، تعرف باسم **دائرة المطبوعات** . وقد صدر نظام مراقبة المطبوعات دون ان يترافق معه إصدار نظام لدائرة المطبوعات ، يحدد وضعها القانوني ، ضمن إطار مؤسسات الدولة وأجهزتها القانونية . وهو الأمر الذي تنبهت له وزارة **فوزي الملقي** ، عام ١٩٥٣ ، عندما قررت ، في اجتماع لها بتاريخ ١٧/١٨/١٩٥٣ ، إصدار نظام عرف باسم « **نظام دائرة المطبوعات رقم ٦ لسنة ١٩٥٣** » .

وقد صدر النظام بارادة ملكية ، بمقتضى المادة ١٢٠ من الدستور ، ونشر في العدد ١١٥٦ من الجريدة الرسمية ، بتاريخ ١/٩/١٩٥٣ . وبناء على هذا النظام ، ربطت هذه الدائرة برئاسة الوزراء حيث نصت المادة الثانية من هذا النظام على ما يلي :

« تستحدث في المملكة دائرة للمطبوعات والنشر ، يشرف على ادارة شؤونها موظف مسؤول يدعى مدير المطبوعات » . ونصت المادة الثالثة على أن « تربط دائرة المطبوعات ومديرها برئاسة الوزراء وتكون تابعة لها »

وكان قد سبق نشر هذا النظام ، إصدار « **قانون نقابة الصحفيين في الاردن** » ، بموجب القانون رقم (١٧) لعام ١٩٥٣ . وقد صدر القانون باسم مجلس الوصاية ، بالنيابة عن **الملك حسين** ، **الذي لم يكن قد تسلم ، بعد ، مهماته الدستورية** .

وقد جاء في المادة (٤١) من قانون النقابة ، انه اذا خالف مجلس النقابة الغايات التي من اجلها ألفت النقابة ، يجوز لوزير الداخلية أن يرفع الأمر إلى مجلس الوزراء ، والدعوة إلى انتخابات جديدة . وبذلك وضعت النقابة ، منذ اليوم الاول لتأسيسها ، تحت رحمة وزير الداخلية ، ولاحقاً تحت إمرة وزير الاعلام .

قانون شامل
لكنه رجعي

وفي عام ١٩٥٣ ، اي في نفس العام الذي صدر فيه قانون نقابة الصحافيين ونظام دائرة المطبوعات أعيد النظر في نظام المطبوعات ، وصدر قانون جديد بارادة ملكية ، وبمقتضى المادة (٣١) من الدستور ، والواقع انه بصدور قانون المطبوعات رقم (٧٩) لسنة ١٩٥٣ ، لم يجد العاملون في هذا الحقل غير الترحم على القانون السابق ، الذي صدر في **عهد الأمير عبدالله** . واستكمالا لنهج التضييق على الحريات الصحافية ، بالتدريج وبصورة تتناسب مع نمو وتطور آلية القمع للدولة ، وبسط هيمنتها ونفوذها ، أعيد النظر ، من جديد ، بقانون المطبوعات والنشر ، وصدر قانون جديد .. هو **قانون المطبوعات رقم ٦ لسنة ١٩٥٥** ، في عهد وزير الداخلية ، **رياض المفلح** ، ورئيس الوزراء توفيق أبو الهدى .

وعلى الرغم من شمولية هذا القانون ، وتحديده لشروط إصدار الصحف ، ونشرها ، وتوزيعها ، وتحديده لنظام العقوبات وربطها بالقضاء . بحيث يمكن القول بأن القانون الجديد جاء أكثر « عصرية » من حيث الشكل ، إلا أن هذا القانون جاء ليضيف عبئاً جديداً على الصحافة وحرياتها ، من حيث الجوهر والمضمون . صحيح أن المادة (٢) من القانون نصت على أن « الصحافة ، والمكتبة ، والمطبعة ، حرة ، ولكل شخص الحق في حرية التعبير من رأيه وفي اذاعة الآراء والأنباء الصحيحة ، بمختلف وسائل النشر ، ولا تقيد هذه الحرية الا في نطاق القانون » . وصحيح ، أيضاً ، أنه قد تم تحديد العقوبات بشكل واضح ، ومعقول ، ومرتبط بالقضاء ، للمخالفات التي يمكن أن تقع فيها الصحف ، لكن كل هذه « الأيجابيات » قد نسفت ، عملياً ، من خلال الاجراءات التالية :

١ ـ تم تقييد إصدار الصحف ، بالحصول على موافقة وزير الداخلية ومجلس الوزراء ، الذي من حقه أن يرفض منح رخصة إصدار صحيفة فقد جاء في المادة الثامنة من القانون ، ما نصه : « على وزير الداخلية ، عندما يكون طلب الرخصة مستوفياً جميع الشروط القانونية ، أن يرفع الطلب إلى مجلس الوزراء الذي له الحق إما أن يمنح الرخصة وإما أن يرفض الطلب ، دون ان يكون قراره تابعاً لأي طريق من طرق المراجعة » .

ونلاحظ هنا إلى أي مدى يتم التلاعب بالنصوص القانونية . ففي حين يتم التأكيد في المادة الثانية من القانون ، على أنه لكل شخص الحق في حرية التعبير « من رأيه ... بمختلف وسائل النشر » ، يعود القانون نفسه فيربط هذا الحق بموافقة مجلس الوزراء ، الذي يملك ان يرفض منح رخصة لمواطن تتوفر فيه كافة الشروط ، دون أن يكون لهذا المواطن ، حتى مجرد حق الطعن في قرار

مجلس الوزراء أمام القضاء .

سنناقش هذه القضية بمزيد من الاستفاضة والتحليل في مجال لاحق .

٢ ــ وعلى الرغم من تحديد القانون لسلسلة من العقوبات لأصحاب الصحف ، الذين يرتكبون مخالفات بنشرهم مواداً تتعارض مع القانون ، إلا أن القانون نفسه يلغي كل هذه التحديدات المنطقية والمقبولة بمنحه مجلس الوزراء « حقاً إلهيا » غير قابل للنقض او المراجعة ، دون اي تفسير ، بالغاء اية رخصة او مطبوعة ، بحجة أن المصلحة تتطلب ذلك . فقد نصت المادة (٦٢) من القانون على انه « لمجلس الوزراء أن يلغي رخصة أية مطبوعة ، او يعطلها ، للمدة التي يراها مناسبة ، إذا دعت المصلحة العامة لذلك ، ويكون قراره قطعيا : غير قابل للطعن لدى أي مرجع » .

وزارة اعلام وقوانين جديدة

وفي عام ١٩٦٦ تم تكليف **وصفي التل** بتشكيل وزارة جديدة . وقد عرف وصفي التل بحزمه الاداري من جهة ، وبرجعيته وموقفه المعادي السافر للحركة الوطنية في البلاد وفي المنطقة العربية . وهو ، انسجاماً مع مفاهيمه ومواقفه السياسية والادارية ، أعاد تشكيل الأجهزة الادارية ، وتنظيمها ، واستحدث وزارات وأجهزة أخرى . وقد استطاع ، بحزمه الاداري ، أن ينشط عمل الادارات ، وبشكل خاص تلك التي لها علاقة مباشرة مع الجمهور ، مما اكسبه سمعة طيبة في الأوساط الشعبية ، ومما مكنه بالتالي ، من توجيه ضربة قاسية للحركة الوطنية والتقدمية في الاردن ، دون أن تثير حملة القمع والارهاب هذه ردود فعل جدية بين الجماهير الاردنية .

وفي بداية عهد هذه الوزارة الجديدة ، تم ، ولأول مرة في تاريخ الاردن ، استحداث وزارة خاصة بالاعلام . وفي التاسع من اذار ١٩٦٦ ، تم بموجب ارادة ملكية وبناء على ما قرره مجلس الوزراء ، اقرار « **نظام تنظيم وادارة وزارة الاعلام** » ، بموجب المادة (١٢٠) من الدستور الأردني . وقد عهد آنذاك ، بهذه الوزارة إلى **عبد الحميد شرف** ، وزير البلاط الحالي ، والمعروف بانتمائه السابق **لحركة القوميين العرب** ، وبأفكاره الليبرالية في تلك الفترة خاصة اذا ما قورن بزملائه الوزراء الآخرين في تلك الوزارة .

ونستطيع ان نتلمس منطق **عبد الحميد شرف** ، وافكاره ، من خلال قراءة اهداف وزارة الاعلام ، كما تم تحديدها في نظام الوزارة . فقد نصت المادة الثالثة من هذا النظام على ما يلي :

« غايات وزارة الاعلام هي تخطيط ، وتنفيذ عملية التوعية الاعلامية والثقافية والفكرية والفنية المناطة بالدولة في الاردن ، وتنظيم وتوجيه النشاط الأعلامي والثقافي والفكري والفني الذي تقوم به المؤسسات الأهلية المختصة في المملكة وذلك على أساس الالتزام بالحقيقة ، ومخاطبة العقل والتأكيد على القيم الديمقراطية ، والايمان بكرامة الفرد وحريته ، والاخلاص للعروبة ولرسالة الأمة العربية في الوحدة والتحرر الكامل والتقدم الشامل ، وتنمية الحس الوطني والخلقي والذوقي لدى المواطن الأردني والعربي ، والدفاع عن مثل العدالة والمساواة بشكل مطلق » .

ونلاحظ هنا ، ومن خلال هذا البند ، النفس العروبي لدى وزارة **وصفي التل** .. هذا من حيث الشكل ، لكن هذا البند ، في الواقع ، يعكس اكثر ما يعكس طموحات **وصفي التل** ببناء دولة سوريا الكبرى . وهي الطموحات التي دفعته الى تبني مجموعة **سليم حاطوم** العسكرية ، التي حاولت الانقلاب على السلطة في سوريا ، عام ١٩٦٦ ، ولما فشلت فرت الى الأردن ، وبدأ **وصفي التل** يوفر لها الدعم المادي ، ويبني لها المعسكرات في أطراف مدينة الدرق ، على أمل تهيئتها واعدادها « لغزو » سوريا ، والاستيلاء على السلطة فيها ، وإعادة توحيد سوريا والاردن ، تمهيداً لوحدة اكبر . لكن هزيمة حزيران ، وإلقاء القبض على **سليم حاطوم** ، واعدامه ، أثناء محاولة تسلله الى دمشق ، أحبط طموحات وصفي التل .

الى ذلك نشير الى النفس الليبرالي الذي صيغت به اهداف وزارة الأعلام . لكن هذا النفس الليبرالي، من حيث الشكل ، كان يخفي عداء حقيقياً للحريات الديمقراطية ، وبالتالي للحريات الصحافية . ففي تلك المرحلة عانت الصحافة حالة قمع مترافقة مع قمع الحركة الوطنية ، ولم تجد نفعاً كل التأكيدات على « الالتزام بالحقيقة » ، و« مخاطبة العقل والتأكيد على الديمقراطية » . وبدلا من تنمية روح « الايمان بكرامة الفرد وحريته » تم انتهاكهما ، وبدلا من الاخلاص

« للعروبة ولرسالة الامة العربية في الوحدة والتحرر الكامل والتقدم الشامل » كان مجرد الاستماع لاذاعة « **صوت العرب** » الناصرية ، كافيا لأدانة المستمع بالتآمر على سلامة الدولة وأمنها . والدفاع عن مثل العدالة و المساواة بشكل مطلق ترجم ، على أرض الواقع ، الى مثل للقمع والاستغلال .

وكان من الطبيعي أن ينعكس هذا الجو على الصحافة ، وعلى الحريات الصحافية ، وكان من الطبيعي ايضا ، أن ينعكس كل هذا على قانون المطبوعات والنشر الجديد ، الذي تم إقراره في نفس الفترة التي اقر فيها قانون تنظيم وزارة الاعلام .

القانون الحالي وانتهاك الحريات الصحافية

وكما قلنا ، فقد ظل المؤشر البياني للحريات الصحافية يسير من سيء الى أسوأ ، وبصورة عكسية مع تطور الصحافة الأردنية،من حيث شكلها وحجمها، إلى أن تم إقرار قانون جديد للمطبوعات والنشر عام ١٩٧٣ ، وهو الاسوأ في تاريخ الأردن ، منذ عهد امارة **عبدالله** . وهو القانون الذي لا يزال يعمل به حتى الآن .

وقبل أن نتعرض لهذا القانون بالمناقشة والتحليل ، من الضروري أن نشير هنا إلى إن هذا القانون قد صدر بعد سنتين من ضرب آخر معاقل الوجود العلني للثورة الفلسطينية ، في جرش وأحراش عجلون . وبعد ان تمكنت السلطة من إعادة « لملمة » نفسها ، وضبط أوضاعها و « تطهير » أجهزة الدولة من العناصر الوطنية المعروفة .

وثمة إشارة ثانيـة ، لا بد من ذكرها والتنويه بها ، وهي أن الصحافة الاردنية كانت تشهد ، من حين الى آخر ، حالات نهوض على صعيدي الشكل والمضمون ايضا . وكانت تفتح في بعض الأحيان صفحاتها لبعض الصحافيين وأصحاب الأقلام الشرفاء ، بمعزل عن طبيعة القوانين المنظمة لصدورها ، وهي القوانين التي تحد من حريتها . وهذا الحرية النسبية التي كانت تتمتع بها ، من حين الى آخر ، هي من نتاج التفاعلات في المجتمع وموازين القوى المحلية والعربية ، بين القوى الوطنية والتقدمية والمعسكر المعادي للتطور والتقدم .. وهي ، على أي حال غالبا ما تكون أشبه بالهبات المؤقتة ، حيث تضطر فيها السلطة الى التراجع والانكفاء النسبي بصورة مؤقتة ، دون أن يعني ذلك أن زمام السلطة قد افلت من يدها : حيث لا تلبث أن تعود بقبضتها البوليسية ، فارضة جواً من القمع والأرهاب ، ورقابة بوليسية محكمة غير مباشرة على الصحافة . وبالتالي ، فاننا ، في معالجتنا هنا لموضوع الحريات الصحافية ، إنما ننطلق من موقع التعامل مع القوانين التي تنظم الصحافة ، وليس من خلال بعض المظاهر التي قد تطفو قليلا على سطح الصحف ، في أحيان قليلة .

الأعيان والنواب مع .. وضد !!

في شهر أيار عام ١٩٧٣ دار ، في **مجلس الأعيان** ، نقاش حاد ، حول مشروع قانون المطبوعات والنشر الذي تقدمت به الحكومة (السلطة التنفيذية) الى **مجلس الأمة**(١) . وكان قد سبق مناقشته في **مجلس الأعيان** نقاش مماثل في **مجلس النواب** ، لم يكن أقل حرارة مما دار في **مجلس الأعيان** . ولم يقتصر النقاش حول مشروع القانون ــ موضع الحديث ــ على مجلس الامة فحسب ، بل كان ، أيضا ، موضع حديث قطاعات واسعة من أبناء الشعب الاردني ، لاسيما في الأوساط المهتمة بقضايا الصحافة والفكر والثقافة ، وفي الأوساط السياسية المهتمة بقضايا الحريات الديمقراطية .

ولفت انتباهي ، وانا استعيد وقائع جلسات مجلسي النواب والأعيان المخصصة لنقاش قانون المطبوعات والنشر كما نشرت في الجريدة الرسمية ، ذلك التناقض بين النتائج التي أسفر عنها التصويت على القانون ، وبين الخطب النارية التي القاها بعض اعضاء المجلسين ضد هذا القانون ، باعتباره ينتقص من الحريات الصحافية . بل أكثر من ذلك ، فان بعض الذين ساهموا في النقاش بمداخلات أعربوا فيها عن معارضتهم لمشروع القانون ، ما لبثوا ، عند التصويت ، ان صوتوا الى جانب المشروع : مما يؤكد تعرضهم لضغوط من قبل السلطة ، لحملهم على الموافقة على المشروع ، بنصه ، وكما تقدمت به الحكومة دون أي تعديل .

في منح رخص إصدار الصحف

حدد قانون المطبوعات والنشر ، رقم (٣٣) لسنة

١٩٧٣ ، المعمول به حاليا ، شروط منح رخص أصدار الصحف اليومية ، بالمواد التالية :

المادة ١١ ـ لا تمنح رخصة لاصدار مطبوعة صحفية الا :

أ ـ للصحفي ، المعرف بموجب هذا القانون :
ب ـ للحائز على شهادة جامعية .
ج ـ للشركة الصحفية ، التي أسست ، وسجلت لغايات إصدار المطبوعات الصحفية ، بشرط أن يكون أحد الشركاء فيها صحفيا .

المادة ١٤ ـ يراعى ، في منح الرخصة ، الشروط التالية :

أ ـ بالنسبة للمطبوعة الدورية (الصحيفة اليومية) يشترط أن لا يقل رأسمالها عن عشرة آلاف دينار أردني نقدا ، أو آلات طباعة أو كليهما ، بموجب شهادات يقنع بها الوزير ، وتضمن إصدار المطبوعة كفالة بنكية .

ب ـ على صاحب المطبوعة الصحفية تقديم ضمانة نقدية ، أو كفالة مصرفية ، باسم الحكومة ، وذلك لضمان ما قد يترتب عليه في هذا القانون من غرامات أو تعويضات ، أو رسوم ، ويكون مقدار هذه الضمانة :
١ ـ ألف دينار للمطبوعة الدورية ـ (أي الصحيفة اليومية) .

هذه هي الشروط التي يحددها قانون المطبوعات والنشر ، لمنح رخص إصدار الصحف اليومية . وقد تبدو هذه الشروط مقبولة ، نسبيا ، في بلد يحكمه نظام كالذي يقوم في الأردن . لكن السؤال الان ، هل كل من تتوفر فيه هذه الشروط يستطيع الحصول على رخصة لاصدار صحيفة يومية على سبيل المثال . قانون المطبوعات والنشر يجيب على هذا السؤال بالفقرة (أ) من المادة (١٦) ، حيث تنص على ما يلي :

« إن لمجلس الوزراء صلاحية منح الرخصة أو عدمها » . أي أن القانون خول لمجلس الوزراء صلاحية منح رخصة لشخص ما ، أولشركة ما ، لكنه ، في الوقت نفسه ، منح حق رفض منح رخصة لشخص او لشركة ما ، حتى لو توفرت الشروط التي يجب توفرها في صاحب طلب الرخصة ، حسب ما هو وارد في المادة (١١) ، والمادة (١٤) من القانون .

والأدهى من ذلك ، أن القانون يؤكد أن قرارات مجلس الوزراء ، في هذا المجال ، قطعية ، وغير خاضعة للطعن امام اية جهة كانت . وهو ما أكده البند (ب) من المادة (١٦) ، بالقول أن « قرار مجلس الوزراء قطعي ، وغير خاضع للطعن امام اية جهة كانت » .

والقانون ، من هذه الزاوية ، بالاضافة الى انه يشكل عائقا أمام تطور الصحافة وتقدمها ، فانه ، من وجهة نظر قانونية ، يتعارض مع نصوص وبنود دستور « المملكة الاردنية الهاشمية » ، وهو ما سنبنيه هنا ، منبهين الى بديهية قانونية دولية ، من أن القوانين التي تشرع يجب أن لا تتعارض أو تلغى أيا من بنود الدستور . ونحن ، بذلك نحاكم قانون المطبوعات ، ليس من وجهة نظر جذرية ، وإنما من خلال دستور المملكة نفسه .

لقد أكد الدستور في الفقرة (١) من المادة السادسة على أن الاردنيين أمام القانون سواء ، لا تمييز بينهم في الحقوق والواجبات ، وإن اختلفوا في العرق ، أو اللغة ، أو الدين . وواضح الى اي مدى يتعارض قانون المطبوعات والنشر مع الدستور ، في مجال منح رخص إصدار الصحف ، لقد أكد الدستور على أن الاردنيين سواء أمام القانون ، فلا يجوز ، والحالة هذه ، للقانون أن يميز بين المواطنين الذين يتمتعون بنفس المواصفات ، من خلال إعطاء مجلس الوزراء صلاحية حق منح رخص إصدار صحف لبعض الاشخاص ، في نفس الوقت الذي يحق له أن يحرم أشخاص آخرين ، يتمتعون بنفس المواصفات ، دون أن يحق حتى مجرد الطعن في مثل هذا القرار . وهذا البند من قانون المطبوعات والنشر يتعارض ، ايضا ، مع البند الثاني من المادة السادسة من الدستور ، القائل بأن « الدولة تكفل العمل والتعليم ، ضمن حدود امكانياتها ، وتكفل الطمأنينة وتكافؤ الفرص لجميع الأردنيين » .

إن إصدار صحيفة في ظل الأنظمة الراسمالية ، والأنظمة التي تدور في فلكها هو ، بالاضافة الى اهدافه السياسية ، مشروع تجاري ، يقصد به (الربح) . وعليه ، فان الالتزام بالدستور ، الذي يكفل تكافؤ الفرص لجميع المواطنين ، يعني انه لا يحق لمجلس الوزراء أن يحرم مواطنا من حقه في إصدار صحيفة،طالما انه يتمتع بالشروط القانونية . ويعني ، ايضا ، أن هذا القانون يتناقض مع مبدأ الاقتصاد الحر المعمول به في الاردن ، ويتعارض مع مبدأ تكافؤ الفرص .

وبعيدا عن الجوانب القانونية في هذا المجال لا بد من

التأكيد على أنه لا حريات صحافية ولا حريات ديمقراطية بدون إطلاق حرية إصدار الصحف ، واشاعة هذا الحق ، لا أن يكون حكرا على فئة دون أخرى .

ولسنا بحاجة هنا الى التأكيد على الطابع السياسي لهذا القانون ، وأن الذي يقرر أهلية هذه الجهة أو تلك ، أو هذا الشخص أو ذاك ، للحصول على حق إصدار صحيفة انما هو جهاز المخابرات العامة الذي يملك « حقا مقدسا » لتقرير أهلية من يطلب الترخيص له باصدار صحيفة .

حرية التعبير عن الرأي

تعتبر حرية الرأي والتعبير ، بالقول ، والكتابة ، والتصوير ، وسائر وسائل التعبير الاخرى ، حقا عالميا مقدسا ، من حقوق الانسان التي على جميع الدول والأنظمة ان تكفله لمواطنيها ، وهو ما أكدته لائحة حقوق الانسان .

وفي الاردن أكد الدستور الأردني على ذلك في البند الاول من المادة (١٥) ، التي تقول :

« تكفل الدولة حرية الرأي ، ولكل أردني ان يعبر بحرية عن رايه بالقول والكتابة والتصوير ، وسائر وسائل التعبير الأخرى ، بشرط أن لا يتجاوز حدود القانون » .

طبعا الشرط الذي وضع في نهاية « المادة » هو الذي يحدد طبيعة هذه الحرية وحدودها . ومع ذلك لا بد لنا من التساؤل عن المدى الذي تنسجم فيه القوانين مع روح الدستور . وبشكل خاص قانون المطبوعات والنشر . في الواقع إن علامة استفهام كبيرة يمكن أن نرسمها ، دون أن نحمل ضميرنا وزر إدعاء غير مثبت قانونيا ومنطقيا .

لنلاحظ المثال الملموس التالي :

حدد الدستور الحالات التي يجوز فيها فرض الرقابة على الصحف ووسائل الاعلام في البند الرابع من المادة (١٥) ، بما نصه : « يجوز ، أن يفرض القانون على الصحف والنشرات والمؤلفات والاذاعة رقابة محدودة ، في الأمور التي تتصل بالسلامة العامة وأغراض الدفاع الوطني » .

ومن هذه المادة نخلص الى أن الدستور قد منع ، بنص واضح وصريح ، فرض رقابة شاملة على الصحافة ووسائل الاعلام ، مهما كانت الظروف والمبررات في حين سنكتشف ، من مطالعة لأحدى مواد قانون المطبوعات والنشر ، كيف تم فرض رقابة شاملة دائمة ، في مطلق الاحوال والظروف على الصحافة الاردنية .

تنص المادة (٢٦) من قانون المطبوعات والنشر ، على مايلي : « على محرر المطبوعة الصحفية المسؤول أن يرسل من كل عدد ، حال صدوره ، خمس نسخ الى الوزارة ـ دائرة المطبوعات والنشر ـ للسماح بتوزيعه من قبل المدير ، أو من ينيبه » !!

إن هذا الشكل من الرقابة ، فضلا عن تعارضه مع الدستور ، وتعطيله التام للحريات الصحافية ، من شأنه أن يلحق ضررا ماديا بالغا بأصحاب الصحف ، في حالة عدم إجازة توزيع المطبوعة لأي سبب من الأسباب ، بحيث تصبح الرقابة المباشرة من قبل رقيب معتمد ، كما كان الحال لفترة قصيرة خلت ، أقل ضررا من هذه الرقابة البشعة والمكلفة ، في آن .

لقد كفل الدستور الأردني حرية الصحافة ، وحرية الرأي ، كما سبق وأشرنا ، ودور القانون هنا الذي ورد التأكيد عليه « الصحافة والطباعة حرتان ، ضمن حدود القانون » هو ، فقط ، لتنظيم الحرية ، لا أن يكون وسيلة لالغائها ، كما فعل قانون المطبوعات والنشر . ولا يجوز ، كما هو معروف قانونيا ، أن يهدر القانون ما كفله الدستور .

تعطيل الصحف والغاء الامتيازات

ولعل أكثر بنود قانون المطبوعات والنشر رجعية ، ومصادرة للحريات الصحفية ، وارهابا لأصحاب الصحف والعاملين فيها ، تلك المتعلقة بتعطيل الصحف ، مؤقتا ، أو الغاء امتيازها .

لقد أعطى قانون المطبوعات والنشر لمجلس الوزراء ، بناء على تنسيب من وزير الاعلام ، حقا قطعيا في تعطيل أية مطبوعة ، تعطيلا مؤقتا ، أو سحب امتيازها بصورة نهائية ، دون إلزام المجلس بتفسير قراره ، أو السماح لصاحب المطبوعة بالطعن في قرارات مجلس الوزراء ، أمام أية جهة كانت .

وهنا لن نناقش ، ايضاً ، مبدأ تعطيل الصحيفة او سحب امتيازها ، كمبدأ رجعي إرهابي عفى عليه الزمن ، في البلاد التي تحكمها انظمة متحضرة ، ولا نقول متقدمة . وسنكتفي ، فقط ، بفضح لاشرعية هذا القانون .

● إن النظريات العلمية القانونية ، المسلم بها ، تؤكد على أن ما أنشاه الدستور ، وقرره ، وكفله وهو القانون الأعلى – لا يجوز أن يهدره القانون ، وهو الأداة الأدنى .

● ولكن ، بالرغم من هذه الحقيقة ، فأن قانون المطبوعات والنشر قد اهدر فعلا حرية الصحافة ، واهدر حقها بالتقاضي ، عندما نص بالفقرة الخامسة من المادة (١٦) والفقرة (ب) من المادة (٣) ، على أن قرارات مجلس الوزراء قطعية ، وغير خاضعة للطعن امام اية جهة كانت ، وذلك فيما يتعلق بمنح امتياز اصدار الصحف ، أو بسحب أو بالغاء رخصة المطبوعة أو تعطيلها . وهذا القانون غير دستوري ، لانه بدلا من أن ينظم حرية الصحافة والطباعة ، كما يقضي الدستور ، فانه الغى هذه الحرية ، والأخطر من ذلك انه الغى حرية التقاضي . ولقد كفل الدستور حق التقاضي بالفصلين الثاني والسادس على التوالي ، من فصوله .

وبالرجوع لأحكام الدستور ، يتبين أن لحق التقاضي ، فيه أصلين دستوريين :

١ – ما نصت عليه المادة (١٠٠) من الدستور ، وهو المتعلق بتعيين أنواع المحاكم واختصاصاتها بقانون خاص .

٢ – ما نصت عليه الفقرة الأولى من المادة (١٠١) وهو « المحاكم مفتوحة للجميع ... الخ » . اما الأصل الأول فهو يجيز للسلطة المشرعة أن تعين اختصاص المحاكم بقانون خاص بها (قانون تشكيل المحاكم النظامية رقم ٢٦ لسنة ١٩٥٢ ، وتعديلاته ، وما سيطرأ عليه من تعديلات) وليس لها ، بنص الدستور ، تعيين هذه الاختصاصات ... اختصاصات المحاكم ، وتحديد دوائرها بالتوسيع او التضييق ، بالقوانين العادية الأخرى ، فاذا فعلت ذلك ، كما حدث في قانون المطبوعات والنشر ، يكون التشريع غير دستوري : لانه خالف نصا دستوريا قائما ، وخرج على روحه ومقتضاه .

واما الأصل الثاني ، فالمقصود به عدم حرمان الناس ، كافة ، من الالتجاء الى القضاء ، ويبني عليه وعلى الاصل الأول الدستوريين انه لا يجوز ، من الناحية الدستورية ، مصادرة حق التقاضي لدى محكمة العدل العليا ، مهما كانت الظروف والمبررات ، إذ أن مثل هذه المصادرة تعطيل لوظيفة محقة ، انشأها وقررها الدستور لتمارس وظيفتها في اداء العدالة ، وبشكل مستقل عن السلطات الأخرى ، لأن ما انشاه ، وقرره ، وكفله الدستور – مرة أخرى – لا يجوز أن يهدره القانون .

● وأخيراً فأن الدساتير التي تنص على أن التضامن الاجتماعي أساس المجتمع ، وعلى إلزام الدولة بكفالة الحرية والأمن والطمأنينة ، وتكافؤ الفرص لجميع المواطنين ، لا يجوز معها صدور تشريعات تحرم طوائف بعينها من المواطنين من حق التقاضي ، بكافة صوره ، وهو ما اهدره قانون المطبوعات والنشر .

في الترجمة العملية لقانون المطبوعات

والسؤال الآن كيف تمارس هذه القوانين ؟

سنعرض هنا بعض الوقائع التي من شأنها ان تلقي بعض الضوء على وضع الصحافة في الاردن ، وهي وقائع تمكنت من الاطلاع على بعضها من خلال تجربتي في الحقل الصحفي في الاردن . وهي تقتصر على الفترة التي اعقبت القضاء على الوجود العلني للمقاومة في الاردن .

● في عامي ١٩٧٢ و١٩٧٣ تم تعطيل صحيفة « **الصباح** » ، لمدة عام ، في كل مرة . وفي عام ١٩٧٥ الغت الحكومة امتياز هذه الصحيفة .

● في عام ١٩٧٣ خضعت الصحافة للرقابة المباشرة . حيث كان « الرقباء » يداومون في مراكز تحرير الصحف ، ويطلعون على جميع المواد (اخبار ، مقالات ، صور ، كاريكاتور ... الخ) ويشطبون ما يشطبون ، وما يسمح بانزاله في الصحيفة يجب أن يكون ممهورا بخاتم الرقيب .

● في عام ١٩٧٥ اقدمت حكومة **زيد الرفاعي** على سحب امتياز ثلاث صحف ، بدفعة واحدة (**الصباح ، عمان المساء ، والحوادث**) . دون تقديم اي تفسير .

● وفي نهاية عام ١٩٧٥ داهم رجال البوليس والمخابرات العامة ، مبنى صحيفة **الأخبار** اليومية . واعتقلوا جميع العاملين فيها ، من محررين وعمال مطابع ، واجبروهم على توقيع تعهدات بعدم العودة الى مركز الصحيفة .

حضر رجال الأمن والمخابرات بملابس مدنية ، واستعملوا سيارات خاصة تحمل ارقاما كويتية . ولم يكن قد صدر ، بعد ، اي قرار عن الحكومة بتعطيل هذه الصحيفة . وفي اليوم الثاني لهذا الحادث أصدرت الحكومة قراراً بسحب امتياز الصحيفة ، دون الاعلان عن الأسباب .

● وفي اليوم الثاني لاغلاق هذه الصحيفة قام رجال المخابرات العامة بمداهمة مقر نقابة الصحفيين الأردنيين ، حيث كانت تجتمع فيها مجموعة من الصحفيين : للتباحث بشأن اغلاق الصحيفة ، وبالشكل المهين الذي تم فيه مداهمة مقرها . وأثناء مداهمة مقر النقابة ، اعتقل رجال المخابرات الاديب والصحفي **سالم النحاس** ، وكاتب هذا المقال . **وسالم النحاس** معتقل ، الآن ، في مبنى المخابرات العامة .

وفي تلك الحملة ، ايضا ، دوهم منزل رئيس تحرير صحيفة **الأخبار** ، كما اعتقل الزميل **فهد الديماوي** .

● وفي ٢١/٩/١٩٧٧ اصدرت الحكومة قراراً بسحب امتياز صحيفة **الشعب** ، دون الاعلان عن الأسباب وصحيفة **الشعب** هي أول صحيفة في الاردن تصدر عن شركة مساهمة ، معظم المساهمين فيها من محرري الصحيفة نفسها .

● ولم تنج الصحف الاكثر قربا من النظام (**الراي ، والدستور**) من قرارات التوقيف التعسفية لفترات محدودة . على سبيل المثال عطلت صحيفة **الراي** عن الصدور : لمدة اربعة أيام : بسبب لنشرها خبراً عن احتمال إقرار الحكومة لغلاء معيشة . الحكومة اعتبرت هذا القرار بمثابة تحريض على المطالبة بغلاء معيشة للعاملين في القطاع العام !!

● اخبار العائلة المالكة ، والجيش والشرطة ، والحكومة يجب ان تاتي عن طريق رسمية . اي عبر **وكالة الانباء الاردنية** ، الخاضعة لوزارة الاعلام .

● بين حين وآخر تصدر دائرة المطبوعات والنشر تعليمات بسلسلة من المحرمات (ممنوع مهاجمة السياسة الاميركية ... ممنوع مهاجمة المانيا الاتحادية ... الخ) .

● مساء كل يوم يتصل مدير دائرة المطبوعات والنشر ، أو وزير الاعلام ، برؤساء تحرير الصحف ، فارضا عليهم كتابة افتتاحيات للصحف على نحو محدود . (تعليق على خطاب الملك ... إشادة بالموازنة العامة ... إشادة بالعلاقات مع السعودية ... الخ) !!

● جميع اسماء العاملين في الصحف يجب أن ترسل للمخابرات العامة ، التي تضع ، بين الحين والاخر ، فيتو » على بعض الأسماء . ولا يملك اصحاب الصحف الا ان يخترعوا المبررات والحجج لطرد الاشخاص المعنيين من صحفهم ، ورزقهم على السماء !!

● ومن حين لآخر ، تقدم المخابرات العامة كشفاً شفويا بالأشخاص غير المرغوب في نشر اسمائهم في الصحف الأردنية لسبب أو لآخر !!

● نشر اي بيان علني عن نقابة شرعية ، أو هيئة اجتماعية في الاردن يتطلب موافقة مسبقة من قبل وزارة الاعلام ، وبالتالي المخابرات العامة .

● كذلك فان نشر اي معلومات عن اي تحرك شعبي او نقابي ، مهما كان طابعه ، يتطلب موافقة رسمية مسبقة .

● ليس هناك في الصحافة الاردنية ما يمكن ان نسميه بالسبق الصحفي ، على صعيد الاخبار المحلية . فجميع القضايا والمسائل التي تتعلق بالدولة ، يرهن نشرها ببثها عبر وكالة الانباء الاردنية .

● وقد عطلت احدى الصحف الأردنية لأيام محدودة : لأنها نشرت مقتطفات لحديث أدلى به **الملك** لاحدى الصحف الأجنبية ، قبل أن تبثه وكالة الأنباء الأردنية .

تعليمات مدير المطبوعات

وكنموذج لكيفية تطبيق قانون المطبوعات والنشر ، وللتدخل السافر في شؤون الصحافة والاعتداء على حرياتها من قبل المسؤولين في الدولة ، نشير الى البلاغ المثير للاستهجان ، الذي وجهته وزارة الاعلام ، في الثاني من حزيران عام ١٩٧٧ ، وفيه سلسلة من المحرمات والمحظورات .

وبين المحظورات التي أوردها بلاغ وزارة الاعلام ، نشر الشكاوي التي ترد من المواطنين ، على شكل كتب مفتوحة ، أو نداءات ، أو أعلانات ، وتكون موجهة للمسؤولين في الدولة .

كما حظر البلاغ على الصحف نشر رسائل بريد القراء ، والمقالات التي يتبرع بها القراء ، كما تأتي في خطابات مرسليها . وطلب من الصحف « اعادة تحريرها ، وتدقيق محتواها ، مع الأجهزة المعنية في الدولة » . وبرر ذلك بأنه لتجنب « ما قد تحتويه من مبالغات وأغلاط ، تؤدي عكس الغرض المطلوب » .

ونص البلاغ ، أيضاً ، على أن « جميع المقالات والأعمدة المختلفة يجب أن تأخذ الطابع الأيجابي » ، محذراً مما وصفه بـ « طابع الهدم والتخريب ، بكل ما تحمله من معان وأساليب » ، وكذلك « الانتباه الى عمليات التسلل » .

وطلب البلاغ أخذ رأي المسؤولين المعنيين في الريبورتاجات التي تنشرها الصحف « مع ضرورة إبراز ذلك الرأي » ومعالجة القضايا « بحنو وعناية » .

ولابراز وجهة نظر الدولة ، قال البلاغ « أن المقال الافتتاحي يجب أن يكون في معظمه على الصفحة الأولى » .

وأضاف انه ستم تنظيم لقاءين في الأسبوع ، يومي الخميس والأثنين ، بين الصحافة والدولة لاطلاعكم على آخر أوضاع السياسة الاردنية ، في كل المجالات » ، وضرورة حضور هذا الاجتماع ، من قبل رؤساء التحرير ، أو من ينوب عنهم ، عند الضرورة القصوى فقط .

وكانت وزارة الأعلام قد نبهت ، في مطلع بلاغها ، إلى ضرورة أن تدعو الصحافة الأردنية الى « تماسك البناء ، الذي يحفظ لهذا الوطن وأبنائه الهيبة ، ويبعد عنه نظرات التمزق ، والتفكك ، والنظر الى نظامنا الاقتصادي الرأسمالي بصورته الحقيقية القائمة على الأبداع » .

كما دعا البلاغ الى تزويد الوزارة بأسماء جميع المحررين والعاملين في الصحف .

هكذا ، يطبق قانون المطبوعات والنشر . وهذه هي ديمقراطية النظام الاردني . وهكذا تترجم تأكيدات الدستور على حرية الرأي والتعبير ، بحيث لا يعود منها الا حرية التعبير والرأي للسلطة الحاكمة ، وللطبقة المهيمنة .

والواقع أن حال الأردن لا يختلف كثيراً عن أحوال العديد من الأنظمة العربية مع صحافتها . حتى تلك الوطنية منها . واليوم ، فأننا نعتقد ان خوض معركة الحريات الديمقراطية ،معركة الدفاع عن جوهر الانسان وانسانيته التي تنتهك في وطننا العربي ، بصورة لا مثيل لها ، أصبحت على رأس مهمات القوى الديمقراطية.. القوى التي تلتزم ، قولا وعملا ، بمنهج ديمقراطي ، والتي تعيش في داخلها حياة ديمقراطية أصيلة .

إن الانسان العربي يتعرض ، اليوم ، لحملة تشويه روحية ، من خلال استلابه لأدنى حقوقه الانسانية . حقه في التفكير بحرية ، والتعبير عن أفكاره ، بحرية .

لقد بات التفكير بصوت مسموع أمراً متعذراً في معظم الدول العربية ، وأصبحت الرجعيات الجديدة تتبارى مع الرجعيات القديمة في تكبيل الانسان العربي ، ومسخه وتشويهه من الداخل .

ولا نضيف جديداً حين نقول بأن تحرير فلسطين لا يمكن ان يتم بمعزل عن تحرير الانسان .. الاداة الفاعلة والتغني بفلسطين بات اليوم كلمة حق يراد بها باطل . فمعركة فلسطين هي معركة الحريات الديمقراطية . والحريات الديمقراطية لا تقبل القسمة ، ولا تقبل المساومة : فاما مع الحريات وأما ضدها . ومن يقبل بالقسمة والطرح ليس حراً .

نقول ذلك ، ونحن نرى مدى الهجمة على الانسان وجوهره من قبل أنظمة تمتهن الوطنية شعاراً ... ونحن نرى الانسان يعاد صلبه من جديد .

«العشاق»* وضريبة العشق

الدكتور حسام الخطيب

خلال العقدين من السنين اللذين اعقبا نكبة فلسطين بحث الموضوع الفلسطيني عبثا عن وعاء روائي يحتويه . وكانت هناك تجارب وصرخات عاطفية ومعالجات من جوانب مختلفة ، ولكن الموضوع الفلسطيني الصميم ظل ضائعا تائها شأنه شأن القضية التي ولدته والارض التي انبتته .

وفي العقد الثالث ، وربما في اواخره ، بدأت تظهر معالجات لصلب الموضوع الفلسطيني لا لأطرافه ، ولصلب تجربته لا لصداها العاطفي او الحدثي . وتعتبر رواية « العشاق » لرشاد ابو شاور رواية الموضوع الفلسطيني الصميم proper ، وهي تبدو مغرقة في فلسطينيتها حتى ان الاطار العربي من حولها يرق ويتضاءل ليصبح في منتهى الهشاشة ، وكذلك العدو يبدو نتفا متفرقة لا معنى لها ، بل لا يكاد يبين له وجود الا من بعض دوريات او طائرات عابرة ** : ذلك لأن تجربة التحرر الذاتي auto-émancipation *** التي تشغل ذهن رشاد ابو شاور، وانه ليوحي لنا من مجمل الرواية اننا من هناك يجب ان نبدأ .

ان فلسطين الغربة الداخلية ، فلسطين الشتات المطل ، فلسطين الذبح ، فلسطين المعاناة هي اللب الذي تتمحور حوله الرواية ، و(العشاق) الذين هم شباب وشيب ونساء ، وساكنو مخيمات، واهلو مدن ، وفلاحو قرى ، هم الذين يمارسون باشكال مختلفة عمليةعشق – معاناة للتراب الفلسطيني ، وهم الذين يغرقون في تجربة الغربة داخل بلادهم ، واللجوء مرتين خلال اقل من عقدين من السنين ، والتقلب تحت وطأة ثلاثة انواع من السلطة الجائرة خلال فترة لا تعد شيئا في اعمار الامم . وهم الذين يقاسون ويضحون ويغنون الاغاني الوطنية ، ويتمسكون بايمانهم الديني بمختلف الاشكال . ويقبلون على الاهازيج الشعبية ويجدون فيها منصرفا لأزماتهم الوجودية والوطنية والعاطفية ، ويجربون الحب الممنوع ، ويسترقونه استراقا – وهم العاشقون المتيمون ، واخيرا هم الذين يفرزون الطليعة الثورية الواعية التي تنظم نفسها في ظل اسوأ الظروف ، وتقع في التجربة والخطأ ، وتصمد وتضحي ، وتحارب على عدة جبهات داخلية وخارجية ، ولا تفقد الامل ، وكذلك لا تسمح لنفسها ان تكون فريسة سائغة لاوهام المستقبل ، وهي التي تحدد المصير الحالي للشعب الفلسطيني والشغل الشاغل له :

المقاومة ، الفداء ، القتال .

بكل بساطة وبمسحة صادقة من الفطرية يعرض لنا رشاد ابو شاور مادته الروائية ، وانه ليخدعنا عن نفسه في بادىء الامر ، فنظن ان المسألة ليست أكثر

وبين المحظورات التي اوردها بلاغ وزارة الاعلام ، نشر الشكاوي التي ترد من المواطنين ، على شكل كتب مفتوحة ، أو نداءات ، أو اعلانات ، وتكون موجهة للمسؤولين في الدولة .

كما حظر البلاغ على الصحف نشر رسائل بريد القراء ، والمقالات التي يتبرع بها القراء ، كما تأتي في خطابات مرسليها . وطلب من الصحف « اعادة تحريرها ، وتدقيق محتواها ، مع الأجهزة المعنية في الدولة » . ويبرر ذلك بأنه لتجنب « ما قد تحتويه من مبالغات واغلاط ، تؤدي عكس الغرض المطلوب » .

ونص البلاغ ، أيضا ، على أن « جميع المقالات والأعمدة المختلفة يجب أن تأخذ الطابع الأيجابي » ، محذرا مما وصفه بـ « طابع الهدم والتخريب ، بكل ما تحمله من معان وأساليب » ، وكذلك « الانتباه الى عمليات التسلل » .

وطلب البلاغ اخذ رأي المسؤولين المعنيين في الريبورتاجات التي تنشرها الصحف « مع ضرورة إبراز ذلك الرأي » ، ومعالجة القضايا « بحنو وعناية » .

ولابراز وجهة نظر الدولة ، قال البلاغ « أن المقال الافتتاحي يجب أن يكون في معظمه على الصفحة الأولى » .

واضاف انه ستم تنظيم لقاءين في الأسبوع ، يومي الخميس والأثنين ، بين الصحافة والدولة لاطلاعكم على آخر أوضاع السياسة الاردنية ، في كل المجالات » ، وضرورة حضور هذا الاجتماع ، من قبل رؤساء التحرير ، أو من ينوب عنهم ، عند الضرورة القصوى فقط .

وكانت وزارة الاعلام قد نبهت ، في مطلع بلاغها ، إلى ضرورة أن تدعو الصحافة الأردنية الى « تماسك البناء ، الذي يحفظ لهذا الوطن وأبنائه الهيبة ، ويبعد عنه نظرات التمزق ، والتفكك ، والنظر الى نظامنا الاقتصادي الراسمالي بصورته الحقيقية القائمة على الأبداع » .

كما دعا البلاغ الى تزويد الوزارة بأسماء جميع المحررين والعاملين في الصحف .

هكذا ، يطبق قانون المطبوعات والنشر . وهذه هي ديمقراطية النظام الاردني . وهكذا تترجم تأكيدات الدستور على حرية الراي والتعبير ، بحيث لا يعود منها الا حرية التعبير والراي للسلطة الحاكمة ، وللطبقة المهيمنة .

والواقع أن حال الاردن لا يختلف كثيرا عن أحوال العديد من الأنظمة العربية مع صحافتها . حتى تلك الوطنية منها . واليوم ، فاننا نعتقد ان خوض معركة الحريات الديمقراطية ، معركة الدفاع عن جوهر الانسان وانسانيته التي تنتهك في وطننا العربي ، بصورة لا مثيل لها، أصبحت على رأس مهمات القوى الديمقراطية.. القوى التي تلتزم ، قولا وعملا ، بمنهج ديمقراطي ، والتي تعيش في داخلها حياة ديمقراطية أصيلة .

إن الانسان العربي يتعرض ، اليوم ، لحملة تشويه روحية ، من خلال استلابه لأدنى حقوقه الانسانية . حقه في التفكير بحرية ، والتعبير عن أفكاره ، بحرية .

لقد بات التفكير بصوت مسموع أمرا متعذرا في معظم الدول العربية ، وأصبحت الرجعيات الجديدة تتبارى مع الرجعيات القديمة في تكبيل الانسان العربي ، ومسخه وتشويهه من الداخل .

ولا نضيف جديداً حين نقول بأن تحرير فلسطين لا يمكن ان يتم بمعزل عن تحرير الانسان .. الاداة الفاعلة والتغني بفلسطين بات اليوم كلمة حق يراد بها باطل . فمعركة فلسطين هي معركة الحريات الديمقراطية . والحريات الديمقراطية لا تقبل القسمة ، ولا تقبل المساومة : فاما مع الحريات واما ضدها . ومن يقبل بالقسمة والطرح ليس حرا .

نقول ذلك ، ونحن نرى مدى الهجمة على الانسان وجوهره من قبل أنظمة تمتهن الوطنية شعاراً ... ونحن نرى الانسان يعاد صلبه من جديد .

«العشاق»* وضريبة العشق

الدكتور حسام الخطيب

خلال العقدين من السنين اللذين اعقبا نكبة فلسطين بحث الموضوع الفلسطيني عبثا عن وعاء روائي يحتويه . وكانت هناك تجارب وصرخات عاطفية ومعالجات من جوانب مختلفة ، ولكن الموضوع الفلسطيني الصميم ظل ضائعا تائها شأنه شأن القضية التي ولدته والارض التي انبتته .

وفي العقد الثالث ، وربما في اواخره ، بدأت تظهر معالجات لصلب الموضوع الفلسطيني لا لأطرافه ، ولصلب تجربته لا لصداها العاطفي او الحدثي . وتعتبر رواية « العشاق » لرشاد ابو شاور رواية الموضوع الفلسطيني الصميم proper ، وهي تبدو مغرقة في فلسطينيتها حتى ان الاطار العربي من حولها يرق ويتضاءل ليصبح في منتهى الهشاشة ، وكذلك العدو يبدو نتفا متفرقة لا معنى لها ، بل لا يكاد يبين له وجود الا من بعض دوريات او طائرات عابرة ** . ذلك لأن تجربة التحرر الذاتي auto-émancipation *** التي تشغل ذهن رشاد ابو شاور، وانه ليوحي لنا من مجمل الرواية اننا من هناك يجب ان نبدأ .

ان فلسطين الغربة الداخلية ، فلسطين الشتات المطل ، فلسطين الذبح ، فلسطين المعاناة هي اللب الذي تتمحور حوله الرواية ، و(العشاق) الذين هم شباب وشيب ونساء ، وساكنو مخيمات، واهلو مدن ، وفلاحو قرى ، هم الذين يمارسون باشكال مختلفة عملية عشق – معاناة للتراب الفلسطيني ، وهم الذين يغرقون في تجربة الغربة داخل بلادهم ، واللجوء مرتين خلال اقل من عقدين من السنين ، والتقلب تحت وطأة ثلاثة انواع من السلطة الجائرة خلال فترة لا تعد شيئا في اعمار الامم . وهم الذين يقاسون ويضحون ويغنون الاغاني الوطنية ، ويتمسكون بايمانهم الديني بمختلف الاشكال . ويقبلون على الاهازيج الشعبية ويجدون فيها منصرفا لأزماتهم الوجودية والوطنية والعاطفية ، ويجربون الحب الممنوع ، ويسترقونه استراقا – وهم العاشقون المتيمون ، واخيرا هم الذين يفرزون الطليعة الثورية الواعية التي تنظم نفسها في ظل اسوأ الظروف ، وتقع في التجربة والخطأ ، وتصمد وتضحي ، وتحارب على عدة جبهات داخلية وخارجية ، ولا تفقد الامل ، وكذلك لا تسمح لنفسها ان تكون فريسة سائغة لاوهام المستقبل ، وهي التي تحدد المصير الحالي للشعب الفلسطيني والشغل الشاغل له :

المقاومة ، الفداء ، القتال .

بكل بساطة وبمسحة صادقة من الفطرية يعرض لنا رشاد ابو شاور مادته الروائية ، وانه ليخدعنا عن نفسه في بادىء الامر ، فنظن ان المسألة ليست أكثر

من مجرد ملامسة مسطحة لكيان التجربة المرة .

ولكننا بعد ان نعيد النظر نستنتج ان البساطة هي التي وفرت على الكاتب عناء كتابة مئات الصفحات في موضوعات شائكة ومتداخلة ، وبعضها لما يزل بكرا لم يمسسه انسان في نطاق الرواية . ولقد آثر الكاتب البساطة في تناول التجربة وفي عرض الافكار وفي عرض الاشخاص وفي اللغة وفي الاسلوب . وان للبساطة نقائصها التي لا تخفى ، وقد كان الكاتب غير مهادن في بساطته وفطريته ، واراد لسر البساطة ان يعوض عن كثير من المناقشات والتجارب والاختيارات وضحى في سبيل ذلك بالشيء الكثير وفاز كذلك بالشيء الكثير . ان رواية رشاد ابو شاور في بساطتها ، تشبه اكثر الروايات الحديثة تعقيدا ، من ناحية واحدة على الاقل ، وهي انها يمكن ان تستهويك دفعة واحدة فتقبلها هكذا جملة وتفصيلا ، واما ان تخفق في اغوائك منذ البدء وبينك ترفضها شكلا ومضمونا . انها ليست مخلوقا محايدا او وسطيا او توفيقيا في الفن ، انها وقفة منسجمة مع نفسها ومعتدة بلبوسها الرقيق المتناهي في البساطة وهي تقول لقارئها دفعة واحدة :

اما ان تقبلني كما انا ، او ترفضني كما انا .

والحياد ، حتى الحياد الايجابي مرفوض في حالتنا هذه .

ان رشادا في حياته ، فدائي ومغامر ، وهو في كتابته ايضا فدائي ومغامر . لكن مغامرته هنا محسوبة من خلال الاعتبارات الانسانية لا الحسابات الكومبيوترية . فهو يعرف اية مادة خصبة يتناول واية تجربة غنية يعرض . ولذلك يترك لهذه التجربة ان تتحدث عن نفسها بنفسها دون تزاويق وشيات وتطريزات .

وهو يعرف ايضا انه يختار فترة محنة تاريخية لا تحتاج وقائعها لبراعة التفصيل والخياطة . ان الوقائع بحد ذاتها هي اكبر ملحمة مأساوية في تاريخ الانسان العربي المعاصر ومن اكبر المآسي في التاريخ الحاضر لانسان الكرة الارضية .

الفترة : هي حرب حزيران بأيامها الستة وببضعة الاسابيع التي سبقتها وببضعة الاسابيع التي تلتها

المكان : هو مخيمات اللاجئين حول اريحا ، ثم اريحا والقدس وما حولهما .

مادة التجربة : لاجئو عام ١٩٤٨ في تعرضهم لتجربة اللجوء الثانية عام ١٩٦٧

قوى التحدي : تحدي التحرر الذاتي ، وتحدي البطش من السلطة التي يفترض انها السلطة الصديقة ، ثم الصمود امام السلطة الغازية .

جبل الاعتصام : عشق التراب وعشق السلاح والاغنية الشعبية والوجدان القومي والتاريخي والديني . هل هناك ما هو اغنى واخصب من هذه التجربة وظروفها ؟ وهل هناك شيء اوجب من تقديم هذه التجربة بالاسلوب السردي الحواري العادي المتسلسل تاريخيا المبسط المرصع بعشرات الاغاني والامثال والحكم الشعبية ؟

واذا كان محركو الرواية هم من (العشاق) المخلصين ، فلتكن الرواية نفسها (غانية) بسيطة الهندام والمظهر لها من حسنها واصالتها ما يغنيها عن كل تزويق !!*

ان في بساطة هذه الغانية ما يغني القارىء المتوق عن اصطناع مفاصل للكلام وحيل للعرض وواجهات براقة للآراء . فلنسم الاشياء باسمائها اذن ولنعرض التجربة هكذا مقطعا مقطعا بقصد واستقامة .

الماضي والحاضر :

منذ البدء يطالعنا في رواية رشاد ابو شاور ربط رائع حي بين الماضي والحاضر متجاوز لشكليات الزمن ولفواصل الحقب . ويتركز هذا الربط حول مصير مدينة اريحا على مدى السنين ، وصمود اهلها الكنعانيين في وجه الغزاة العبرانيين وحلفائهم المؤابيين . ثم صمودهم ثانية في وجه الانكليز ، ثم في وجه الغزوة الاسرائيلية التي لم تقل همجية عن الغزوة العبرانية السالفة ، واخيرا صمودهم في وجه السلطات الملكية التي ورثت عن السلطة البريطانية كل انواع الجور والظلم وزادت من عندها الشيء الكثير .

إن رشاد يكتب بطريقة متحررة من الشكلية ولذلك نراه يربط بين اشياء صغيرة في ظاهرها كبيرة في مدلولها ، وينجح كل النجاح في تأكيد مفهوم التواصل التاريخي والفكري والنضالي

(والتراجيدي كذلك) بين ماضي اريحا وحاضرها ، باعتبارها نموذج المدينة الفلسطينية التي كتب لها ان تظل خلال العصور مشغولة اما بدفن موتاها او بتحضير الزاد لموجة من المقاتلين مصيرها الدفن في الاغلب .

وهكذا حسبما وجد رشاد :

« عرف الكنعانيون ان الاسوار لا تحمي المدن ، لذا لم يعمروا الاسوار والابراج بعد انتصارهم . وهكذا حملوا حكمتهم الخالدة : الحجارة لا تحمي المدن ، الاسوار لا ترد الغزاة وقد حافظوا على هذه الحكمة منذ القديم حتى اليوم .

(الرواية ص ٨)

وهناك لفتة اخرى جميلة يبرزها رشاد ويكررها ليعطي انطباعا باستمرار التراجيديا الفلسطينية مع القدرة ولاستمرار المشاركة الجماعية في حصيلة هذه التراجيديا :

« لقد ظل سكان اريحا وغيرها من مدن فلسطين طيلة مئات الاعوام يدفنون موتاهم في قبور جماعية ، وهذا ما فعله اللاجئون حين تدفقوا على اريحا بعد ان خسروا مدنهم وقراهم وارضهم » ص ٩

وان هذه المقدمة ، التي وضعها رشاد في اول صفحة من الرواية ووضع لها ، بتواضع او بخبث او برغبة في التضليل ، عنوانا غريبا لافتا للنظر « ملحق » ليست مقدمة مترهلة او مدخلا تاريخيا ، وانما هي شيء في صلب تجربة العشاق الذين ظلوا يتنفسون تجربة التاريخ الخاصة في حلهم ومرتحلهم ، والذين لم يكن ليفاجىء مسيرة نضالهم ومعاناتهم اي شيء لأن تجربة المأساة التاريخية كانت ابدا حاضرة في ساحة وعيهم .... وهذا هو الذي ساعدهم عى ان يقبلوا بطيبة نفس دورهم الذي رسمه لهم التاريخ من خلال الجغرافيا السياسية ! دور المعاني الذي لا تمنعه معاناته من الاستمرار في نضال لا يعرف من سيقطف سمرته ومتى ، ودور الباني الذي لا يعرف متى سيؤدي البناء اكله ولصالح من* ؟

« ولكن مع الايام زرع الفلاحون الاراضي الشاسعة الرطبة ، فانتشرت بيارات الموز والبرتقال ، واستبدلت الخيام بالبيوت الطينية ، فما عادت الزوابع تؤثر .... لقد زرع الناس شعاب الوديان ، وخاصة الوادي الفاصل بين مخيمي النويعمة وعين السلطان ، وانشأوا حواجز تمنع وصول المياه التي تتدفق في الشتاء ... » ص ١٦

ان المقدمة تشحن القارىء شحنا بهذا البعد التاريخي للتجربة الفلسطينية ، ولكن القارىء يحس بان رشادا لا يمضي في الشوط الى نهايته ، اذ ان هذه الشحنة لا تستمر طويلا وفي مناسبات عديدة مهمة يبدو ان رشادا نسي ان يكرر التأكيد عليها ، ولعله وهم ان زخم المقدمة يكفي لشحن القارىء نفسيا حتى نهاية الرواية .

الفلسطيني والفلسطيني اللا فلسطيني :

بعد خاص عند رشاد : ان رشاد يلتفت بجراة الى بعد خاص من المعاناة الفلسطينية لم يلتفت اليه كثيرون غيره من الكتاب . ذلك انه في غمرة انشغال الكتاب بالمعاناة الفلسطينية ازاء العدو الصهيوني وازاء ذوي القربى من اصحاب البلاطات والدواوين ، وازاء التنصل العالمي من المسؤولية ، تقع المعاناة الفلسطينية ــ الفلسطينية في الظل ولا يكاد يبلغها المرء من خلال غوصه في طبقات الظلمة المتراكم بعضها فوق بعض .

ان رشاد يعيد ترتيب الامور ، متجاوزا كل الشكليات كما ذكرنا سابقا ، ولذلك يضع المعاناة الفلسطينية ــ الفلسطينية ، او المعاناة الشعبية ، في الواجهة ويتحدث عن بيارات اريحا التي زرعها الفلاحون اللاجئون بعرقهم وخبراتهم ، والتي دبت فيها الحياة بعد موت دام مئات السنين ، والتي استثمرها واستغلها الاغنياء من ابناء الاسر الفلسطينية بعد ان اشتروها باثما ، بخسة من فقراء اريحا ، ثم وظفوا هؤلاء الفقراء مع فقراء اللاجئين ونسوتهم ، واطفالهم ، لتنبت لهم الارض الرطب الجني ، وليقيموا بيوتهم الواسعة ذات الحجارة البيضاء الناصعة والسقوف القرميدية والاسوار الحصينة والحدائق الملونة .

وكان على ابناء الفلاحين والفقراء ان يتفرجوا من بعد على ثمرات الازدهار الذي لولا كد ايمانهم وعرق جبينهم ما كان له ان يكون .

واجمل ما في كلام رشاد انه لا يتحدث في النظريات ولا في العموميات . ان كلامه يتصف بملوسية طاغية . أسرة وهو يتوصل الى العام جدا من خلال الخاص جدا والى الخاص من خلال العام ويخرق الفاصل بينهما .

ففي كلامه عن الاغنياء مثلا ، قدم لنا بسرعة نموذجا مثيرا ، هو نموذج ابو صالح الامي الجاهل الضعيف السكير . لقد نجح ابو صالح في تجارة المواصلات وفي السينما ولم يبق عليه سوى ان يتوج النجاح بوسام السياسة ، فكان ان رشح نفسه للانتخابات البرلمانية زمن الحكم الملكي ، وصار اضحوكة الناس وتسليتهم لجهله اولا بالسياسة ولعجزه ثانيا عن الخطابة فهو الشغ ضعيف العارضة.. ولكن مجد (ابو صالح) لا ينتهي باخفاقه في الانتخابات ، فسرعان ما اتت حرب ١٩٦٧ وحل الاسرائيليون محل القوات الملكية في اريحا ، ولم يجدوا انسب من ابو صالح « ثالح » ليكون رئيسا للبلدية . وان ابا صالح ليس نمطا خاويا من الحياة ، فعلى الرغم من موافقته للاسرائيليين على كل شيء فان ثائرته تثور لدى سماعه نبأ إحراق المسجد الاقصى ، فينتفض من خنوعه وينادي بالناس ليضربوا ويظهروا سخطهم . وحين يواجه الحاكم العسكري الاسرائيلي يواجهه بعناد مفاجيء ، ويستغرب الاسرائيلي هذا العناد المتعلق بمسألة دينية وهو يعرف عن (ابو صالح) ما يعرفه ، ويجيبه ابو صالح :

« — انا اشكر — اسكر — وايضا احب النشوان — النسوان — واقترف كل الموبقات ، ولكن لا اقبل ابدا بالاعتداء على الدين » . ص ١٥

انها لفتة بارعة من المؤلف ، اذا فسرناها من خلال المنطق الخاص يمكن ان نقول ان للروح الدينية جذورا عميقة في اناس هذه المنطقة وانها قد لا تظهر على السطح ولكنها عند المحك تنطلق قوية جامحة ، وربما اقوى مما يريد لها اصحابها ان تنطلق ، وهم غرقون في الاثم الى اذقانهم ... واذا نحن فسرناها من خلال المنطق الانساني الاشمل مهما بلغت بها الحطة والنذالة والاستهانة بالقيم فانه يظل في عمق أعماقها بعض جمرة من الوجدان الاخلاقي الذي صنعته التجربة الانسانية على مر العصور والايام ، وهذه الجمرة تتوهج على قوة او ضعف حين تهب عليها ريح مندفعة تزيل عنها ما يكون قد تراكم عليها من رماد خارجي .

ولكن إلى اي مدى يخدم هذا التوهج في ردع الشر ودفع الانسان الى العدول عن طريقه الى طريق اخرى يرضى وجدانه المستثار؟ هذا ما لم يبحثه رشاد .... إذ ترك الامر معلقا عند انفجار (ابو صالح) ، ولقد ترك لنا ان نستنتج لانفسنا ما يمكن ان يدفعه ابو صالح ثمنا لهذا الانفجار ، ولكنه لم يوح الينا بان هذا الانفجار يمكن ان يكون بداءة ثورة او عدول او نكوص ؛ وإن كان عاد إلى (أبو صالح) فيما بعد وأكد على استمرار يقظة وجدانه .

ولقد ترك رشاد الامر معلقا ، وحسنا فعل . لان هذه المسألة من اعقد المسائل في تكوين الانسان ، والخوض فيها يحتاج الى توسيع افق التجربة والدخول في سلسلة اختبارات التفاعل بين الانسان وشرطه ، مما لا يحتمله المزاج الخاص « للعشاق » .

وعلى اي حال ، وبعيدا عن مسألة الوجدان واللاوجدان وافقها الفلسفي ، يمكن القول ان موقف (العشاق) من هذه الطبقة من الفلسطينيين (اللافلسطينين) محسوم ثوريا وعمليا بشكل قاطع . فالفلسطيني اللافلسطيني لا يمكن ان يكون عاشقا او ثوريا باي حال . ان بريق الثورة قد يخطف بصره ويغريه الى حين ، ولكن حين تتطور الامور الى نقطة التضحية والمعاناة فليس لامثال هؤلاء مكان في الثورة . وانهم ليحاولون ان يظلوا في الثورة وخارجها في وقت واحد . وانهم ليعمدون الى تلك اللعبة البهلوانية بان يضبطوا وقع خطاهم على حافة رصيف الثورة بحيث يتاح لهم في اية لحظة اما ان يقفزوا الى شارع الثورة وربما على اكتاف حماة الشارع ليرفعوا لواءها بأيديهم هم لا بأيدي غيرهم ، واما ان يميلوا قليلا الى عمق الرصيف ويندسوا بين المارة ويصطنعوا على جبينهم لافتة المتفرج البرىء .

ان شخصية الشاب باسم العارف يراد لها في (العشاق) ان تكون نموذج هذا الصنف من الناس . انه شاب نبيه انخرط في الثورة وهو طالب في

الجامعة ، وكان احد ثلاثة شكلوا قيادة التنظيم السري ، ولكن ما ان انتهت ايام الدراسة بما فيها من تطوس وغرور ولا مسؤولية حتى بدأت ايام المصلحة العملية ، واخذ باسم يصغي اكثر من ذي قبل الى نصائح والده الوصولية ، ويتهيأ بقوة للحياة العملية (محاماة ، برلمان ، نفوذ ، ثروة) ، مما يتناقض تماما مع طريق الثورة ... وهكذا اخذ يتهرب من الاجتماعات ويتملص من المسؤولية دون ان يعلن تخليه او انسحابه .

ان رشاد هنا واع لما يقول . وهو يضيف بعدا جديدا لتجربة معاناة الفلسطيني من الفلسطيني اللافلسطيني حين يختار والد باسم العارف من طبقة الفلسطينيين الذي ذاقوا مرارة الغربة والتشرد ، ثم اتيحت لهم فرصة تعديل اوضاعهم فانقطع ما بينهم وبين معاناة العشاق وصح اعتبارهم من طبقة اخرى او صنف آخر* ..

الفلسطينية والفلسطينيون :

ان رواية رشاد ابو شاور هي رواية الموضوع الفلسطيني الصميم . انها رواية فلسطين والفلسطينيين عامة . وعلى الرغم من ان (العشاق) لا تنسب لنفسها اية ادعاءات نظرية بطرح السؤال الصعب :

« والده رباه ، وعلمه ، ووجهه ، والده الماسوني ، الوصولي ، موظف الوكالة ، القفيز ، الاستاذ بهاء الدين العارف ، المولود في حيفا والذي ذاق مرارة الغربة ، ثم نسي كل شيء ، وانغمس في السرقة والارتشاء .... » ص ١٠٦

والخلاصة ان معاناة الفلسطيني اللافلسطيني بعد واضح جدا في رواية رشاد ابو شاور ، وقد اعطت هذه المعالجة الجريئة المبراة من شبهة التعاطف الاقليمي التي تشوب كثيرا من الاعمال الادبية الفلسطينية لرواية العشاق (تميزا) خاصا ، وعادت بنا وبها الى ايام النقاء الثوري لصرخات ابراهيم طوقان في وجه بائعي الاراضي من الاقطاعيين ، ولكن الان بوعي نظري واثق من نفسه ومدعوم بحصيلة تجربة ساخنة .

من ص ١ الى ص ٦

ما معنى ان يكون المرء فلسطينيا ؟

فانها في كل لفتة وفي كل موقف تقدم مادة غنية للاجابة على هذا السؤال . ومما يساعدها على الاجابة ان الرواية تتركز حول الفلسطينيين لا حول اشخاص بارزين منهم . وانها لا تخلو من بعض شخصيات واضحة المعالم ، ولكنها بوجه عام تعنى بتجربة الجميع وتتخذ من الفلسطينيين بجملتهم مادة لتجريبيتها .

وببساطة الفطرة تقول لنا الرواية ان معنى الفلسطينية الحق هو التعلق بالتراب والخشية الدائمة من الانفصال عنه والاستعداد المستمر لدفع ثمن عشقه على الرغم من عدم وضوح النتيجة .

وهذا هو مقياس الفلسطيني عند رشاد ، ومن لا ينطبق عليه هذا المقياس من الفلسطينيين فهو غير فلسطيني او لما يصبح بعد فلسطينيا . ان الهوية الفلسطينية غير قائمة رسميا ، ولكن مقياسها قائم في النفوس وفي الافعال وهناك حركة دائبة من اجل تثبيت هذا المقياس الذي يحسن ان يطلق عليه مصطلح (المعيار) . انه معيار قيمي بمقدار ما هو وصفي . انه معيار قيمة مستمد من واقع ملموس لا ينكر .

والمعضلة الوجودية والوطنية للفلسطيني ان كل شيء يعمل ضد هذا المعيار ، ضد تثبيته اساسا للهوية . ان الناس الفلسطينيين العاديين يتعلقون اشد التعلق بالارض والشجر ، وحيثما ذهبوا يزرعون ويعمرون . ولكن هناك قوى اضخم منهم بما لا يقاس تعمل باستمرار على اقتلاعهم حيثما استقروا . وهم بالتدريج يتعلمون الدرس الصعب وهو الا يغادروا ، الا يهاجروا مهما كانت الاخطار التي تحيق بهم ، ولو لسبب واحد هو ان ما سوف يصيبهم بعد الهجرة ادهى وامر من كل توقع . ان احداث رواية العشاق تدور في اطار مخيمات اللاجئين الفلسطينيين حول اريحا ، وهؤلاء تأتيهم ظروف حرب حزيران الصعبة ، وتنهار السلطة ويهرب الجيش ، ويجدون انفسهم بلا سلاح وبلا تدريب وبلا حول ولا طول امام القوة الغاشمة التي سمعوا الكثير من بطشها . وهكذا تسود بينهم حالة من الرعب

تغذيها وقائع مصير الذين رفضوا من قبلهم ان يهاجروا فكان جيش العدو يذيقهم النكال في كل يوم . ومع ذلك يصمد من هؤلاء عدد كبير ، وتبقى الشبيبة الطليعية وتؤكد للناس ان الامتحان الاساسي امامهم هو التشبث بالوجود . اما الذين خرجوا فمنطقهم معهم ، انهم لاجئون هنا وهناك . لقد تعودوا اللجوء ، ولم يحدث ان هيأهم احد للصمود والاستمرار . لقد صار عدم الاستمرار هو القاعدة في حياتهم (ص ٢٥٢) . وصار امتحانهم الحياتي (خلافا للوطني) هو التكيف ، مع كل وضع جديد وباسرع ما يمكن وبأقل ما يمكن من الخسائر .

ومن هنا تبدو صعوبة المعيار الوجودي الوطني الذي تحاول الشبيبة الثورية ان تثبته في النفوس وهو معيار التشبث بالارض تحت اي ظرف ورغم كل الظروف .

واذا كانت الترجمة الحرفية لهذا المعيار ذات طابع سكوني في عنوانها (**اي عدم مغادرة الارض**) فان لها وجهها الايجابي الفعلي الذي تقدمه الرواية في كل سطر ... والذي يتمثل في عملية المقاومة والفداء . ان التشبث بالارض له ثمنه الغالي سواء تحت ظل الحراب الملكية او تحت وطأة الدبابات الاسرائيلية ، وفي الحالتين كلتيهما يجب ان تستمر المقاومة ، والامتحان الاساسي (للفلسطينية) **هو الاستعداد** للانخراط في المقاومة . وهكذا تكون (**المقاومة او الثورة او الفداء**) مبدأ مفروغا منه وفقا لمنطق العشاق ، فانطلاقا من علاقة العشق وربما ايضا من (قيمة) العشق ينبثق الالتزام الثوري انبثاقا عفويا لا يحتاج الى مناقشة او تسويغ .

والى جانب هذا المعيار الجوهري هناك مواصفات رئيسية تحدد ملامح الهوية الفلسطينية في تجربة العشاق ، وليس من السهل استقصاء هذه الملامح جميعا ، على انه من المكن تلخيصها في الملامح البارزة التالية :

١ ـ تقبل حالة الشقاء المفروضة بوصفها ضريبة لذنب ما خفي غير منظور ، وتجاوز البحث في سر الشقاء الى شيء آخر ربما كان حلا وسطا بين مناضلة الشقاء والتعايش معه في وقت واحد حرصا على استمرار الحياة .

ان هذا التجاوز لسبب الشقاء ، الذي يخفي وراءه احساسا خفيا من الشعور بالاثم الغامض ، يسهم كثيرا في انقاذ (العشاق) من التعقد او الانطواء او الانسحاب . ان الشباب الثوريين مثل محمود عباس وزياد وحسن والامهات والفتيات والرجال الناقمين غير المسلحين بالنظرية الثورية ، كل هؤلاء بعيدون عن الندب والعويل . انهم يبكون مصيرهم ولكنهم لا يسرفون ، انهم يبكون مصيرهم بالقدر الذي يساعدهم على الاندفاع في سبيل مناضلته .

وتنبثق من هذا الموقف صفات كثيرة لابن الشعب الفلسطيني تمر بها الرواية مرورا غير مركز وان كانت لا تهمها ، واهم هذه الصفات : **المقدرة على التكيف مع الاوضاع المستجدة ، والحيوية الدائمة ، والميل الى العمل والبناء ، والتعامل مع ظروف الشقاء** من خلال منطق عملي .

٢ ـ الاستعداد الدائم للتضحية دون تساؤل عن النتيجة .

ان (عشاق) رشاد ابو شاور هم اقرب الى العشاق العذريين من بعض الوجوه . وابرز هذه الوجوه ان بعد المنال وامتناع الوصال لايدفعانهم الى القنوط . انهم يدركون جيدا ان العشق هو معاناة ، ويعنيهم جدا ان تصل بهم المعاناة الى نتيجة ما ، ولكن عدم تأكدهم من زمان الوصال ومكانه ونوعه ودرجته لا ينال من حماستهم ولا يدنيهم من حالة القنوط .

ان (الفلسطينيين) الذين يستحقون بجدارة هذه التسمية مستعدون للتضحية بنعيم العيش وبالمال وبالاهداف الشخصية واخيرا بالروح والدم لمجرد استمرار النضال ، لمجرد شعورهم بانهم واقفون على ارجلهم وصامدون . انهم ليسوا صوفيين وليسوا محاربي طواحين . انهم يدركون اي عدو بل اي اعداء يحاربون ، وهم غير واثقين من مقدرتهم على طحن الاعداء ، كذلك هم غير واثقين من مقدرة الاعداء على طحنهم ، ولذلك يفضل كل منهم ان يموت واقفا على رجليه ، ارضاء لنفسه وتأكيدا ايضا لاستمرار الوقوف على الرجلين من بعده .

في ساعات حرب حزيران المحدودة ، تهرب

الحكومة ويهرب الجيش وتتفرق الشرطة القمعية بددا ، ويقول زياد لابيه :

ـ .... الى السلاح ، هذا هو العمل الصحيح . انه موقف مضحك . يهرب الجيش والحكومة ويفكر الناس الفلسطينيون بالسلاح . واي سلاح ؟ ومن اين ؟ وبيد من ؟

لكن والد زياد ، خلافا للمتوقع ، لا يفطن لهذه الاسئلة . لان السلاح ـ فيما يبدو ـ مرادف لغريزة الفلسطيني وليس اضافة طارئة . ومن هنا يستمر المشهد في الرواية على النحو التالي :

« مرقت طائرة اطلقت زخات من رشاشاتها . ثم دارت دورة واسعة فوق اريحا ، والبحر الميت ، وجبال مؤاب ، وانقضت .

قال زياد :
ـ انبطح يا ابي .
قال ابو زياد :
ـ لن افعل ، اريد ان اموت واقفا » ص ١٧٨

ولم يكن أبو زياد رومنتيا ولا كيشوتيا ، فقبل قليل كان يفكر في طريق مأمون لترحيل الاهل عن المخيم الذي تقترب منه القوات الاسرائيلية الغازية ، ولكن حين تأتي الطيارة ويتضح انه لا بد من مواجهتها ، فليواجهها واقفا .

هذا ما اراد ان يقوله رشاد ابو شاور من خلال تجربة نضالية شاقة ، وتشير كل الشواهد الى انه لم يبتعد كثيرا عن منطوق تجربته .

٣ ـ التشبث بالهوية الفلسطينية :

ان ابطال رشاد ابو شاور متمسكون بفلسطينيتهم حتى العظم . وهم لا يناقشون المسألة لا من زاوية الاطار القومي ولا من زاوية الايديولوجيا ولا من زاوية المصلحة . وتبدو المسألة لديهم محاولة سواء اكانوا من الطليعة الثورية المتحزبة ام من الجماهير المضطهدة وسواء اكانوا من اللاجئين ام من اهل الضفة الغربية .

ان كل شيء في تجربة هؤلاء يدفعهم الى الابتعاد عن هويتهم او عن التفكير في ذلك لو كان هذا الامر موضع مناقشة * وهيهات . انهم قد يكونون من البعثيين او القوميين العرب ولكنهم قبل كل شيء فلسطينيون لا تطغي هويتهم القومية على هويتهم الخاصة ، وقد يكونون من الشيوعيين ولكنهم قبل كل شيء فلسطينيون لا تطغى هويتهم الاممية على هويتهم الخاصة وقد اتيحت لهم جميعا فرصة نفعية بالانضواء تحت الجنسية الاردنية ، والتخلص جزئيا مما يمكن ان يكون التزامات الهوية الفلسطينية . ولكنهم لم يفكروا ابدا بالتخلي ..

ان رشاد لا يتعرض لتعليل ذلك او تفسيره كما هو شأنه في نقاط كثيرة ، ولكن القارىء يسمح لنفسه باستنتاج التعليل من ثنايا الرواية نفسها . ويبدو لدى جماهير المخيمات بالذات ان تعلقها بهويتها الفلسطينية هو رمز لاستمرار وجودها من جهة وتأكيد على رغبتها بالعودة الى حالة المواطنة الطبيعية بعد التحرير من جهة اخرى . ولقد اوذيت هذه الجماهير في كرامتها الوطنية ، بالاضافة الى فقدها تراب الوطن ، ولذلك كان التعلق بالهوية تأكيدا للحفاظ على الكرامة ويبدو واضحا في الرواية ان الهوية الفلسطينية هي رمز داخلي لقيم النضال والصمود والصبر ، وهي غير موجهة ضد اي اتجاه وحدوي . وحين تنهزم السلطة الملكية خلال حرب حزيران ويستولي المواطنون على مراكز الحكومة والشرطة لا يسمع الانسان هتافات حاقدة على الوحدة الاردنية الفلسطينية مثلا ولكن على العكس من ذلك يسمع تأكيدا لها من خلال التشديد على حرية فلسطين وعروبتها . ص ١٣٥

وهناك وجه آخر للتشبث بالهوية الفلسطينية يعرج عليه رشاد ولكنه لا يقف عنده طويلا ولا يفصله ذلك هو التشبث بالهوية ازاء العدو الراغب في محو اسم فلسطين مقابل تثبيت اسمه وكذلك ازاء انظمة عربية قائمة لا يسرها كثيرا ذلك التشبث لانه يرتب عليها التزامات ويقيد حركتها السياسية .

ان هذا التشبث بالهوية يبدو في الرواية ضرورة وطنية تمليها ظروف المعاناة والنضال ، ولذلك لا يترتب عليها أي تعقيد في الموقف من الاطار العربي والعالمي أبعد من الشعور الحاد بالمرارة . وهكذا يظل الموقف الفلسطيني في نطاق الظاهرة السوية بعيداً عن البحث عن متنفس تعويضي مثل التعالي أو كره الأجانب أو الانطوائية .

٤ ـ التعلق بالسلاح والتوق الدائم للقتال

ان عشاق رشاد هم عشاق السلاح بقدر ما هم عشاق تراب . املهم كله معلق بالسلاح ، وكرامتهم ، ومستقبلهم . لا يعادل غلاء التراب عندهم سوى غلاء السلاح . وتعلقهم بالقطبين كليهما عذري وفطري وغير مطروح للمناقشة او اعادة النظر .

وفي كل مناسبة تسنح تنطلق الحناجر الفلسطينية مطالبة بالسلاح كأنما هو اكسير الحياة الذي ينقص الحياة الفلسطينية . ان (العشاق) تركز كثيرا على هذا التعلق بالسلاح . فحين يصل احمد الشقيري مثلا الى القدس بعد انبثاق منظمة التحرير الفلسطينية تتجمع الجماهير بشكل غريزي في القدس متحدية صفوف رجال الشرطة والامن :

« واكتسحت الجموع رجال الشرطة والامن في طريقها :

نريد السلاح .... نريد السلاح .

وصارت القدس حنجرة واحدة ضخمة هائلة الهتاف :

نريد السلاح .... نريد السلاح » . ص ١٣٦

وكذلك خلال حرب حزيران كان رد الفعل الطبيعي لدى الجماهير الفلسطينية وهي تشهد انسحاب الجيش الملكي والشرطة الملكية هو البحث عن السلاح والعمل على اقتنائه باي ثمن .

(انظر مثلا ص ٢٠٣ وما بعد) .

ويصحب السلاح بالطبع ذلك التوق الدائم الى مواجهة العدو ، الى لقائه ومقاتلته ، وكالعادة يبرز رشاد هذه الظاهرة ولا يعللها . كأنما هو عاجز عن استلال نفسه من دائرة التجربة وكأنه يكتب وهو متأثر بالمناخ النفسي لكونه مناضلا لا كاتبا . ان السلاح ـ كما يصوره رشاد في اماكن كثيرة ـ يبدو مضحكا للانسان المنطقي . جيوش تهرب ومواطنون غير مدربين يفكرون جديا بمجابهة العدو باسلحة بالية لا ذخيرة لها . ههنا في مثل هذه المواقف تجنح الرواية الى نوع من التمجيد الرومنتي غير المقنع للبطولة الشعبية والثورية . ونحن مقتنعون يا أخي رشاد ولا تخامرنا ذرة شك ، ولكن الرواية الملتزمة تكتب من اجل اقناع اكبر عدد ممكن من الناس او على الاقل تثبيت قناعاتهم . ان قضية الفلسطيني والسلاح يجب ان يكون لها شأن اي شأن في اية رواية ذات موضوع فلسطيني . والتوق الفلسطيني للسلاح ، الذي ينبثق في جذوره من فترة الحرمان التسليحي الطويلة زمن الانتداب ومن ضياع فرصة مواجهة العدو ابتداء من النكبة ومرورا بتطورات الاحداث التي لحقت (حتى الزمن الفعلي لكتابة الرواية على الاقل) ، هذا التوق يحتاج الى تحليل وتعليل وربط من داخل اي عمل فني يتعرض للتجربة الفلسطينية .

٥ ـ مصارعة القيود :

ان الرواية ـ كما هو شأن الواقع ـ تعطي انطباعا بان الفلسطيني ، اذا كان له ان يتعقد داخليا ، فلن يحصل ذلك بسبب ظروف الغربة او شظف العيش او استمرار التضحية وانما بسبب القيود التي كبلت حركته في الماضي وما زالت .

ويتضح من رواية رشاد ان الفلسطيني سواء أكان لاجئا ام مقيما في ارضه هو نموذج للجيوية الراسفة في القيود . حركته اليومية محدودة وكذلك حركته النضالية . انه مقيد معيشيا ونضاليا . وقيوده لا تأتي من الاعداء دائما . وقد بلغ بهذه الشكوى من القيود ان انسحبت على الثورة نفسها . فالبطلان الثوريان محمود وحسن يستنكران ان تكون القيادة المركزية لهما خارج الارض الفلسطينية ، ولا يعبران عن شعورهما فحسب وانما كذلك عن الصعوبات العملية الناجمة من ذلك . انهما يعبران عن الشعور العام الشعبي ضد اشكال الوصاية والاحتواء التي جعلت من الشعب الفلسطيني وحتى ثورته في ارضه كما هو واضح في الرواية تابعا مغلول الارادة .

ـ عندما يأتي المندوب التنظيمي سنطرح امامه كل شيء . وسنحمله وجهات نظرنا في كل شيء . المركزية الشديدة هذه مرهقة ، لماذا مثلا لا تكون لنا في هذا الجزء من وطننا ، قيادة قادرة على التلاؤم مع ظروف النضال ؟ ص ١٠٧ .

وكذلك هنا يترك رشاد الامور على عواهنها ولا يعني بتقديم اي نوع من التعليل . ولكن الانسان يستطيع ان يستنتج من مجمل الرواية وبشيء من

التجوز ان (التحرر الذاتي) يفرض نفسه على رأس سلم الاولويات التي تواجه الفلسطيني ، ففي النصف الاول من « العشاق » نجد الفلسطيني مشغولا بتحرير ارادته ، ولا يكاد العدو يشغل من اهتمامه اي حيز . الا ان الوضع يتغير وتبدأ حلقة المواجهة . ولكنها ـ كما هو واضح ـ مواجهة مفاجئة لم يتح للمقاومة ان تعد لها الاعداد الكافي بسبب انشغالها السابق .

على ان المشكلات النفسية للمواجهة لم تكن هي الطاغية . فالاستعداد النفسي للقتال وللنضال السري وللتضحية موجود دائما وفي مستوى ممتاز من الجاهزية . ان المشكلة التنظيمية هي التي برزت في الواجهة، مشكلة تنظيم الناس سريا في وجه عدو وتسلم من السلطة جواسيسها ومخبريها الذين لم يتغير عليهم شيء . ان رشادا يولي هذه النقطة كثيرا من اهتمامه ، وحق له ، ما دام جانب كبير من نجاح العدو في كشف حلقات المقاومة السرية يعود الى هذا السبب .

٦ ـ العناد الفردي والشعبي :

يتعمد الكاتب في مواضيع كثيرة من الرواية ان يؤكد على تغلغل روح العناد لدى الفرد الفلسطيني ولدى الجمهور الفلسطيني . وهو في اغلب الاحيان عناد غير مفهوم وغير منتظر ممن كان في مثل هذه الظروف . وعلى الاقل عند الذين يضطهدون هذا الشعب يبدو هذا النوع من رد الفعل مستغربا وغير متوقع . وهذا ما يزيدهم امعانا في اضطهاده .

وتقدم الرواية الشرطي (عطوة) نموذجا لهذه الظاهرة . ان عطوة شرطي فلسطيني عنيد صلب المراس وغير مبال بالعواقب . وهو يعرف ان تخليه عن فلسطينيته يريحه من كثير من المتاعب ولا سيما في سلك الشرطة . ولكنه مع ذلك يجاهر برأيه ويصادم ويعاند ويتعاطف علنا مع اولئك الذين يفترض فيه ان يصب نقمته عليهم . انه يقوم بعكس وظيفته تماما ، ويأتي وقت ليبدأ فيه بمساعدة التنظيم الثوري على تهريب السلاح لا من خلال ثقافة ثورية او انتماء حزبي وانما من خلال عناد فطري وحس بالكرامة الفردية والوطنية متأصل فيه . وها هو احد (فصوله) :

فايز المهبج ابن العشيرة الكبيرة الضالعة مع السلطة يأتي يوميا الى اريحا بسيارته الفارهة ويتصدى لبنات المدارس ويتحرش بهن ويعامل الاهالي باحتقار شديد . ولا يجرؤ احد على مجابهته خوفا من العشيرة والسلطة . اخيرا يخلع عطوة بزته الرسمية ويرتدي الملابس الوطنية ويتصدى لفايز المهبج ويضربه ويذيقه الوانا من العذاب والاهانة تكفي لتلقينه درسا بضرورة احترام (الناس) .

ان عطوة يدفع الثمن غاليا بالطبع . وفيما يلي الحوار الذي يدور بينه وبين الشاب الثوري حسن*

قال حسن : رأسنا يابس يا عطوة ، ولذا فنحن نتحمل الكثير .

قال عطوة : احيانا اتساءل لماذا خلقني الله فلسطينيا ؟

ضحك محمود وقال :

هذا تكريم لا يحصل عليه جميع الخلق (ص ١١٦)

ان هذا المشهد يكشف عن اقصى درجات الاعتداد الفردي والوطني لدى البطل عطوة ولدى محاوره ايضا ولدى المؤلف بالتأكيد لانه يقدم المشهد بكثير من التعاطف والاعجاب .

وكالعادة لا يوحي الكاتب باي تعليل او تفسير لهذه الظاهرة ، ولكن يمكن ان يستنتج الانسان من جو الرواية بان هذا العناد متمم للمواقف الاخرى ورد فعل معاكس للظروف التي لا تفتأ تقدم التحدي تلو التحدي في جميع مجالات الحياة .

والخلاصة ان (العشاق) هي رواية الموضوع الفلسطيني الصميم بحرارة تجربته وبساطة انسانه وتداخل مناحيه ، ويظل اجمل ما فيها انها تبشر ولا تبشر في وقت واحد وذلك من خلال تأكيدها على ان النضال مستمر والتضحية متواصلة في وجه تحديات لا يصح الاغضاء عنها او التقليل من شأن خطورتها .

* دراسة لرواية« العشاق » لرشاد ابو شاور ، م.ت.ف. ، دائرة الاعلام والثقافة ، بيروت ، ايار ١٩٧٧

** في الرواية كلها هناك بضع ملحوظات عابرة من العدو تتناول تصرفات جنوده . مع اشارة محدودة الى التركيب الهش للمجتمع الاسرائيلي .

*** أشارة الى عنوان كتاب ليوبينسكر الذي نشر عام ١٨٨٢ . ومن الملاحظ طبعا ان كثيرا من المصطلحات الصهيونية يمكن ان ينطبق على الوضع ذاته الذي وجد فيه الشعب العربي الفلسطيني نفسه بعد الغزوة الصهيونية لفلسطين ــ وبالسخرية الاقدار .

* المعنى اللغوي لكلمة (غانية) .

* وهي نقطة مشتركة بين رشاد ابو شاور وجبرا ابراهيم جبرا ، مع تميز جبرا بالتأكيد عليها ومحورتها ، في روايته « **البحث عن وليد مسعود** » .

* في رواية (**البحث عن وليد مسعود**)لجبرا ابراهيم جبرا يحس الانسان ان المقصود بالفلسطيني النمط هو ابن هذه الطبقة الذي انبثق من نقطة العدم وخلق نفسه بنفسه وصار شيئا ذا بال . وشتان ما بين المنطلقين .

* ونلك خلافا للبرجوازية الفلسطينية التي تفاوت تعلقها بالهوية بتفاوت الظروف السياسية للاقطار العربية .

من اجل ادب واقعي اشتراكي

دراسة في إنتاج الاديب يحيى يخلف

محمود قدري

الباحث فـي الادب الفلسطيني (القصة القصيرة والـرواية) سيتوقف بأهتمام عند انتاج الكاتب الشاب **يحيى يخلف** . ووصف الكاتب بهذه الصورة ، لا يقصد منه الانتقاص من قيمة انتاجه هذا ، وانما يقصد منه التساؤل بأن يكـون هذا الانتاج هو البداية لمرحلة اكثر ابداعا . فخلال عشرة سنوات ومنذ عام ١٩٦٧ تاريخ اقدم قصص مجموعته الاولى « المهره » وحتى نهاية عام ١٩٧٧ قدم يحيى مجموعتين قصصيتين هما « **المهرة** » و « **نورما ورجل الثلج** » وبينهما رواية « نجران تحت الصغر » .

ومع ان سبع عشرة قصة ورواية واحدة ـ بالاضافة الى القصص التي نشرها الكاتب ولم تتضمنها المجموعتين ـ هي شيء معتبر ، الا اننا نتوقع مــن يحيـى انتاجا ادبيا .اكثر غزارة وابداعا . وتوقعنا هذا ليس مجرد تفاؤل لا يستند الى مبررات .فمجموعته « **المهره** » ـ كما يبدو مـن التواريـخ المذيلة بـها قصص المجموعة ـ كتبت في مساحة زمنية واسعة نسبيا ، هي خمس سنوات في اقـل تقدير ، منذ عام ١٩٦٧ وحتى عام ١٩٧٢ . بينما كتب خلال السنوات الخمس التالية رواية « **نجران تحت الصفر** » ومجموعة « **نورما** » . هذا ، بالاضافة الى الاحترام الذي حظي به انتاج الكاتب في اوساط القراء والنقاد . فمجموعتـــه الاولى اشتملت على تسع قصص قصيرة اتسم بنيان بعضها ـ « المهرة » « **يوميات المواطن سين** » و « **موت بائع الياسمين** » ـ بدرجة عالية من الفنية . **وعكست ، « بشكل غير محايد » صورة فنية لواقع معين نجح الكاتب كثيرا ، في تحقيق هذه تجاهه** .

* دراسة لرواية « العشاق » لرشاد ابو شاور ، م.ت.ف. ، دائرة الاعلام والثقافة ، بيروت ، ايار ١٩٧٧

* * في الرواية كلها هناك بضع ملحوظات عابرة من العدو تتناول تصرفات جنوده . مع اشارة محدودة الى التركيب الهش للمجتمع الاسرائيلي .

* * * أشارة الى عنوان كتاب ليوبينسكر الذي نشر عام ١٨٨٢ . ومن الملاحظ طبعا ان كثيرا من المصطلحات الصهيونية يمكن ان ينطبق على الوضع ذاته الذي وجد فيه الشعب العربي الفلسطيني نفسه بعد الغزوة الصهيونية لفلسطين ــ وبالسخرية الاقدار .

* المعنى اللغوي لكلمة (غانية) .

* وهي نقطة مشتركة بين رشاد ابو شاور وجبرا ابراهيم جبرا ، مع تميز جبرا بالتأكيد عليها ومحورتها ، في روايته « **البحث عن وليد مسعود** » .

* في رواية (**البحث عن وليد مسعود**) لجبرا ابراهيم جبرا يحس الانسان ان المقصود بالفلسطيني النمط هو ابن هذه الطبقة الذي انبثق من نقطة العدم وخلق نفسه بنفسه وصار شيئا ذا بال . وشتان ما بين المنطلقين .

* وذلك خلافا للبرجوازية الفلسطينية التي تفاوت تعلقها بالهوية بتفاوت الظروف السياسية للاقطار العربية .

من اجل ادب واقعي اشتراكي

دراسة في إنتاج الاديب يحيى يخلف

محمود قدري

الباحث في الادب الفلسطيني (القصة القصيرة والرواية) سيتوقف بأهتمام عند انتاج الكاتب الشاب **يحيى يخلف** . ووصف الكاتب بهذه الصورة ، لا يقصد منه الانتقاص من قيمة انتاجه هذا ، وانما يقصد منه التساؤل بأن يكون هذا الانتاج هو البداية لمرحلة اكثر ابداعا . فخلال عشرة سنوات ومنذ عام ١٩٦٧ تاريخ اقدم قصص مجموعته الاولى « المهره » وحتى نهاية عام ١٩٧٧ قدم يحيى مجموعتين قصصيتين هما « **المهرة** » و « **نورما ورجل الثلج** » وبينهما رواية « نجران تحت الصفر » .

ومع ان سبع عشرة قصة ورواية واحدة ـ بالاضافة الى القصص التي نشرها الكاتب ولم تتضمنها المجموعتين ـ هي شيء معتبر ، الا اننا نتوقع من يحيى انتاجا ادبيا اكثر غزارة وابداعا . وتوقعنا هذا ليس مجرد تفاؤل لا يستند الى مبررات . فمجموعته « **المهره** » ـ كما يبدو من التواريخ المذيلة بها قصص المجموعة ـ كتبت في مساحة زمنية واسعة نسبيا ، هي خمس سنوات في اقل تقدير ، منذ عام ١٩٦٧ وحتى عام ١٩٧٢ . بينما كتب خلال السنوات الخمس التالية رواية « **نجران تحت الصفر** » ومجموعة « **نورما** » . هذا ، بالاضافة الى الاحترام الذي حظي به انتاج الكاتب في اوساط القراء والنقاد . فمجموعته الاولى اشتملت على تسع قصص قصيرة اتسم بنيان بعضها ـ « المهرة » « **يوميات المواطن سين** » و « **موت بائع الياسمين** » ـ بدرجة عالية من الفنية . **وعكست ، « بشكل غير محايد » صورة فنية لواقع معين نجح الكاتب كثيرا ، في تحقيق هدفه تجاهه** .

وكذلك ، فرواية **نجران تحت الصفر*** « لاقت استحسانا، كعمل جاد وجدير بالقراءة والاحترام • وممارسة ادبية-نضالية ترسم واقعا اظلاميا وتشير الى الثورة عليه » (١) • وهذا ، بلا شك ، مما يدعم هذا التفاؤل الـذي نعقـده على الكاتب ، بأعتبار ان الرواية هـي الاولى في انتاجه ، كما يبرر اختياره ـ مـن خلال انتاجه ـ موضوعا لهذه الدراسة •

وتأتي مجموعة « **نورما ورجل الثلج** » بقصصها الثماني وصفحاتها المئة ، برهانا جديدا ـ يضاف الى رصيد يحيى ـ يدعم هذا الرأى • خاصة وانه يمكن بسهولة استنتاج ان قصص هذه المجموعة ، على الاغلب ، قد كتبت خـلال فترة زمنية قصيرة نسبيا • وليس هذا فحسب • ففي المجموعة الجديدة يدخلنا يحيى الى عالم جديد يختلف كثيرا عن عالم « **المهـرة** » وحتى عن عالم « **نجـران** » المتميز • انه الفضاء المعاش للثـورة • سماءها الرحبة وعالمها الـذي ينبض بالحركة والتجديد في « **نجران تحت الصفر** » وضعنا الكاتب على تخوم الثورة وكان قد ادخلنا في بعض قصص « **المهرة** » في اجوائها ، ولكنها كانت اجـواء ضبابية غير محددة المعالم • هنا في « **نورما ورجل الثلج** » يجعلنا الكاتب نعيش تفاصيل الحياة اليومية للثوار بكل اسرارها ، بكل زخم الحياة ونبضها فيهم •

في « المهـرة » كان الاتجاه الاكبر لـدى الكاتب هو في ابرز الاحاسيس والانطباعات ، **واعتماد الفكرة كان لديه اكثر من اعتماد الشخصية** • ومع ذلك فقد استطاع تصوير الواقع ، الى حد ما ، ونجح في تحقيق الهدف الذي توخاه تجاهه • غير انه ، باستثناء قصتين او ثلاث ، **نجد ان تصوير الواقع بدقة ، والتوغل في ابعاده المادية الملموسة ، امر لم يكن من السهل العثور عليه فـي « المهرة » بينما شكل ذلك الاساس الابداعي لمجموعته « نورما ورجل الثلج »** •

حركة الاديب وحركة الواقع

اذن فالتطور لدى كاتبنا ليس فقط نتيجة التغير والتطور الذي طرأ علـى

* قررت وزارة التربية والتعليم فيجمهورية اليمن الديمقراطية تدريس رواية « **نجران تحت الصفر** » كنموذج للادب التقدمي ، بدلا من عبقريات **العقاد** ، التي تمثل نموذجـا لـلادب البرجوازي الرجعي

١ ـ فيصل دراج • البطل في الرواية بين الامكانية المجردة والامكانيـة الفعليـة • **الكاتب الفلسطيني** ، عدد ١ ، شباط (فبراير) ١٩٧٨ ، ص ٦٥ ـ ٧٤ •

الواقع المعاش في **زمنين مختلفين ، بل هو تطور الكاتب ذاته في استيعاب هـذا الواقع اولا** ثم كيفية التعبير عنه بصورة غير محايده ، ثانيا • فالكاتب قد تعمق في الواقع أكثر ، وصار اكثر رهافة وتقديرا للحظة المعبرة عن روح زمانه • كما ان تطور الممارسة الادبية جعله اكثر قدرة على رسم الواقع وأيصاله للقارىء • فغابت عن قصصه الجمل الغائمة والنقاط التي تعني ، على الاغلب ، عجزا عـن التعبير الدقيق وهروبا من المواجهة المباشرة للموضوع •

ومما لا شك فيه ان مرور الكاتب بمرحلة رواية « نجران تحت الصفر » قد أثر بشكل ساطع على اسلوب كتابته في « **نورما ورجل الثلج** » • **فاتضحت الواقعية بجلاء في قصصه بل يمكن القول انه قد شارف ضفاف الواقعيـة الاشتراكية** •

والقول بان الكاتب « قد شارف ضفاف الواقعية الاشتراكية » لا يقصد منه نقض ما قاله يحيى في انه « في مجموعة المهرة كتبت معظم القصص على ضوء المنهج الواقعي الاشتراكي » (٢) • وانما القصد منه **ابراز تطور نظرته وفهمه للحقائق الموضوعية** ، ذلك انه ، « من وجهـة نظر المادية المعاصـرة ، أي الماركسية • هناك حدود مشروطة تاريخيا لاقتراب مفاهيمنا من الحقيقـة الموضوعية المطلقة • غير ان هذه الحقيقة موجودة بالتأكيد • كما اننا نقترب منها بلا شك » (٣) • وما بين فهم يحيى لديالكتيك الحياة والكتابة في « المهرة » وفهمه له في « **نورما ورجل الثلج** » يوجد تطور كبير يمثله المرور في مرحلـة رواية « نجران تحت الصفر » ونتيجته هذا الفهم الاكثر عمقا ونضجا للواقع المعاش والتطور في عكسه في صورة فنية •

الواقع مفهوم ايديولوجي أم مفهوم أخلاقي •

في لقاء مع جريدة السفير ، بمناسبة ظهور مجموعته « **نورما ورجـل**

٢ ـ مجلة **الحرية** (بيروت) ، العدد ٨٤٥ ، كانون الثاني ١٩٧٨ ، ص ٤٨ ـ ٤٩ •

٣ ـ م • أوفسيانيكوف • **موجز تاريخ النظريات الجمالية** بيروت ، دار الفـارابي ، ١٩٧٥ ، ص ٤٤٦ • (اقتطافا عن ف • ي • لينين • المؤلفات • المجلد ١٤ ص ١٢٣)

٤ ـ جريدة **السفير** (بيروت) • ٢٢/ ١١/ ١٩٧٧ ، ص ٦ •

الثلج » ، أشار يحيى الى أنه « يكتب عن الانسان مقاوما سلما وحربا ،بسلاح وبدون سلاح ، من منظور طبقي وطني وغير حيادي اطلاقا » (٤) ٠

ومع انه ليس من السهل العثور ـ من خلال لقاءات كهذه ـ على توضيح لهذا « المنظور الطبقي وغير الحيادي » ، ا لاان استنتاج هذا المنظور شيء ممكن ففي نفس اللقاء يسجل يحي اعجابه برواد الواقعية الاشتراكية ، واعجابه الشديد بالقصة القصيرة عند **يوسف ادريس ونجيب محفوظ** ويحدد سبب اعجابه بهذا الاخير « بأبطاله الشعبيين الذين يقفون في أسفل السلم الاجتماعي ٠ واشارته الى تفسخ البرجوازية المصرية » ٠ ومع ان البحث الصحيح عن تحديد « منظور » يحي هذا يجب ان يكون من خلال دراسة انتاجه ، وليس العكس ـ وسنحاول تحقيق ذلك ايضا ـ الا اننا نهدف هنا الى محاولة تحديد الايديولوجية التي تحايث العمل الفني لديه ٠ ذلك ان فهمنا للقاعدة الايديولوجية لدى الكاتب يسهل كثيرا فهمنا لابطاله وحركتهم الادبية ، ويمكننا من ان نحدد بصورة أكثر دقة رؤيته للواقع وكيفية عكسه في عمل فني، اذ ان الموقف الايديولوجي لدى الكاتب يلازم ، بشكل واع او لا واع ، موقفه الفني ، **أو يمكن القول انه يحكم هذا الموقف الفني** ٠

في هذا المجال نصادف تركيزا لدى الكاتب على « **النماذج التي تقف في اسفل السلم الاجتماعي** » فبالاضافة الى الاشارة السابقة ، (**جريدة السفير**) ، وخلال حديثه عن عمله « **نجران تحت الصفر** » يقول الكاتب « تتحدث الرواية عن الحرب الاهلية في اليمن وتنحاز بشكل كامل الى القوى التقدمية والوطنية فيها ٠ وعندما كتبتها كنت أشعر انني اكتب عن فلسطين ٠ **فالتخلف في نجران كان واحدا من اسباب الهزائم المتتالية في فلسطين والوطن العربي** ٠ وان النماذج التي تقف في أسفل السلم الاجتماعي ، ممن اتيح لي فرصة مقابلتها والتعرف عليها ، كذلك التقاليد والقوانين الصارمة اللاانسانية التي تنتمي الى القرون الوسطى هي احدى اسباب كتابتي لهذا العمل » (٥) ٠

فيحيى لا يميل هنا الى تحديد انحيازه لطبقة معينة ٠ فهو يؤكد انه مع الفقراء والمضطهدين بشكل عام ٠ انه ضد التقاليد والقوانين اللاانسانية ، ضد التخلف الحضاري ٠

....

٥ – **مجلة الحرية** ، مصدر سبق ذكره ٠

من ناحية اخرى ، هو يكتب عن نجران ونصب عينيه الكارثة التي حلت بفلسطين ، وكان اثرها عليه مباشرا ٠ يكتب عن نجران من خلال علاقة ما يجري فيها بكارثة فلسطين ٠ لذلك فرؤيته للواقع في **نجران تركزت على ذلك الجانب الذي له علاقة مباشرة ووطيده بأسباب قضيته الاساسية** ٠ هنا يكمن السبب في ان الكاتب **لم يلمس جوهر الصراع الطبقي** في نجران ، وأنما اكتفى بالاشارة اليه ٠ بينما **تعمق في كشف التخلف الحضاري** ـ دون كشف كامل لاسبابه ـ من ناحية ، وأبرز بشكل جلي عمق التحالف بين النظام الاقطاعي والامبريالية من ناحية اخرى ، لما لهذه ـ حسب تقدير الكاتب ـ من علاقة وطيدة بجوهر قضيته ٠

وبالرغم من الاستحسان والتقدير الذي حظيت به ، عن حق ، رواية « **نجران تحت الصفر** » ٠ وبالرغم من القيمة الفنية العالية لها ، والتي نعتبرها حقيقة لا تحتاج الى مزيد من التأكيد ، الا ان الكاتب لم يعطها العمق والشمول الضرورين لرفعها الى مصاف الاعمال الروائية المبدعة ٠ فالكاتب وقف الى جانب قوى « الخير » ، المتمثلة في الانسان المضطهد في نجران امام قوى الشر الممثلة في تحالف الاقطاع ـ الامبريالية ، ولكنه لم يتعمق في البنية الاجتماعية لهذا المجتمع ، ولم يتطرق الى دور طبقاته في رسم واقعه ٠

ان طبيعة مسرح الاحداث في الرواية ـ نجران النائية على التخوم ـ لا يجوز ان تكون مبررا للقفز عن هذه البنية الاجتماعية او التقصير في اظهار تفاصيلها ٠ ولا تكفي الاشارات التي تضمنها التاريخ المقتضب لحياة **بوشنان** ـ النقابي المهزوم هزيمة غامضة ـ او لحياة **الزيدي** ـ الثري بدون أية خلفية عن سبب هذا الثراء ـ لا تكفي لالقاء ضوء كاف على هذه البنية الاجتماعية ٠ ان تقديم الشخصيات في العمل الفني ـ من خلال ما يمثلون في البنية الاجتماعية كان سيضفي عمقا اكبر على هذا العمل الفني ويخلق فيه **توازنا منطقيا يفسر** ثورة هؤلاء المضطهدين (بفتح الهاء) ـ يمثلهم اليامي ـ في وجه مضطهديهم، الاقطاعية والامبريالية وادواتهما ، ويعطي الصراع بعده المادي الذي لا تكتمل الصورة بدونه ٠ بينما الواقع ـ في العمل الفني ـ هو غير ذلك ٠ فقد قدم الكاتب الطرف الاول في الصراع كنموذج « للخير المطلق » بينما قدم الطرف الاخر « للشر المطلق» مما يشير الى **انه يتعامل مع العالم انطلاقا من مفاهيم اخلاقية لا انطلاقا من مفهوم مادي يسمح له برسم الواقع في حركته وتداخله ومنحاه العام** ٠

ان هذا يبرز محدودية فهم الكاتب لواقع نجران الحقيقي ، في ذلك الظرف

التاريخي · محدودية انعكست في التعامل مع قطبي الصراع كوحدتين « وحدة مضطهدة (بكسر الهاء) واخرى مضطهدة (بفتح الهاء) · فقد اظهرالكاتب « تفاصيل » الوحدة الاولى ، بينما أهمل تفاصيل الوحدة الاخرى عاكسا بذلك أثر ايديولوجيته في الانحياز للفئات المضطهدة بشكل عام وعدم اهتمامه بانتمائها الطبقي ·

ان هذا التصوير للواقع يبرز موقف الكاتب الذي عبر عنه في لقاءه الذي أشرنا اليه مع مجلة **الحرية** حيث قال « تتحدث الرواية عن الحرب الاهلية في اليمن وتنحاز ،بشكل كامل ، الى القوى التقدمية والوطنية فيها » · اذ يظهر بوضوح ان الكاتب ينحاز لقوى الثورة ، قوى التحرر بشكل عام ، ضد أية قوى رجعية يمينية · ولكنه لا يبدو معنيا بتفاصيل قوى الثورة أو قوى حركة التحرر هذه ، ولا يظهر انحيازا لاي منها بشكل خاص · ويمكن القول ان **هذا الموقف ينتج عن اللاتطابق بين الوعي السياسي عند الكاتب ووعيه الاديولوجي** · لذلك فهو **يقدم مواقف سياسية دون ان يستطيع رسم الشروط المادية الفعلية التي ترتكز عليها هذه المواقف** ·

ان موقف الكاتب هذا لا يقتصر أثره على رواية « **نجران تحت الصفر** » وانما ينسحب على معظم قصصه في مجموعتيه القصصيتين ايضا · فحتى في قصصه الاكثر تقدما في هذا المجال ــ **نورما ورجل الثلج ، عربي المقهور ، موت بائع الياسمين ، المطار ، والبقاع** ··· الخ ــ فان **الشخصيات** الاساسية فيها **لا تعبر عن هوية طبقية محددة** ، أو أنها شخصيات هامشية ــ بالرغم من انها المسحوقة ــ **لا تحمل امكانيات التعبير عن الصراع الحقيقي** ·

الواقعية والواقعية الاشتراكية

الواقعية ، كمنهج فني ، هي نقد الواقع ، تعريته وكشفه وأظهار عيوبه ومحاسنه · وفي هذا تلتقي الواقعية والواقعية الاشتراكية ، غير انه في الوقت الذي يكتفي فيه الفنان الواقعي بتحضير **صورة الواقع الامينة او الصورة المولدة عن هذا الواقع** ، يذهب الفنان الواقعي الاشتراكي الى أبعد من ذلك ، **فهو يقدم هذه الصورة ويشير ، في نفس الوقت ، الى ضرورة تغييرها ، والى الاتجاه الذي يجب ان يتم فيه هذا التغيير** ·

ومع ابراز الجوانب الاظلامية في هذا الواقع هي احدى اهداف

الواقعية ، الا انها قد قصرت عن ادراك واستيعاب حركة المجتمع وتطوره · ذلك ان فهم هذه الحركة وهذا التطور لا يمكن ان يتحقق الا بالاستناد الى النظرية المادية ، تلك النظرية التي تشكل حجر الاساس في علم الجمال الماركسي اللينيني ، والتي تتخذ من الانسان ونضاله في سبيل تحقيق الاشتراكية محورا لها ·

لذلك فان الواقعية الاشتراكية التي تستند الى تلك النظرية المادية ، وتستلهم علم الجمال الماركسي ــ اللينيني ، هي القادرة على استيعاب حركة المجتمع وتطوره · وهذا ما جعل **بريشت** يعرف الواقعية الاشتراكية بأنها « تعني ان الكاتب موجود حيث يتم بناء الاشتراكية وهو يدعم هذا البناء ، ويكشف الواقع ويصوره لهذا الهدف · لان المرء وفق مفهوم **باكون** ، يتسلط على الطبيعة حينما يخضعها لسطوته · العبارة ، اذن ، تعني ان الكاتب موجود حيث يتم النضال من اجل بناء الاشتراكية ، وهو يدعم هذا النضال ويكشف الواقع ويصوره لهذا الهدف » (٦)

فالواقعية الاشتراكية هي ، من ناحية ، كشف للواقع ، نقده وتعريته ، واظهار **ضرورة** ، **وحتمية تغييره باتجاه تحقيق الاشتراكية** · والكاتب الواقعي الاشتراكي هو الذي يضع ذلك نصب عينيه ويناضل من اجل تحقيقه ، هو الذي يجعل ليس **مجرد تغيير الواقع** هدفا يسعى لتحقيقه ، من خلال انتاجه الادبي ، **بل تغيير الواقع في الاتجاه الذي يحقق الاشتراكية** ·

ومن ناحية اخرى فان الاديب الواقعي الاشتراكي هو انسان مبدع لاسلوب تعبير جديد وثوري يتلاءم مع المضمون الثوري الذي تفرزه الاشتراكية أو النضال من أجل تحقيقها ، وبمعنى اخر فأن الاديب الواقعي الاشتراكي هو الذي يبذل **قصارى جهده في تكريس المدرسة الفنية الثورية الجديدة وفي اغنائها ، ويسهم في تميزها عن المدارس الفنية السابقة عليها** ·

وحتى نقيم انتاج **يحيى يخلف** من منظار الواقعية الاشتراكية ، علينا ان نحدد السمة الاساسية لهذا الانتاج · ولقد خلصنا ، مسبقا ، الى ان هذه السمة الاساسية **تتمثل في انحيازه لجانب الثورة وحركة التحرر الوطني** ،

---

٦ ــ برتولت بريشت · أطروحات حول الواقعية الاشتراكية · (ترجمة قيس الزبيدي) · **الكاتب الفلسطيني** ، العدد الاول ، مصدر سبق ذكره ، ص ٩

وعنايته بجميع القـوى التي تناضل مـن اجـل التقدم الاجتماعي دون ان يكون معنيا بطبقة معينة ، ولو بصورة غير مباشرة . ولا نقصد هنا ان الانحيـــاز لجانب الثورة او حركة التحرر الوطني ، بشكل عام ، يبعد انتاج الكاتب عـن كونه واقعيا اشتراكيا .. غير ان « تكون الواقعية الاشتراكية مرتبطة بالنمـو العظيم لوعي الطبقة العاملة الاجتماعي . وهو يفترض بدوره ، ان الفنان قـد أدرك تمام الادراك ، رسالة البروليتاريا التاريخية » (٧)

ان ادراك دور **الطبقة العاملة** واستيعابه هو الاساس الهام الذي ينطلق منه اي فنان واقعي اشتراكي . والاكثر اهمية هو **استيعاب وتمثل ايديولوجيا هذه الطبقة ، وترجمتها الى فعـل نضالي ، على المستوى السياسي ، واثـر مباشر في عملية الكتابة ذاتها** . لان « الدور الحاسم في تكوين المنهج الجديد (الـواقعية الاشتراكية م . ق .) قد ادته البرهه الطبقية ، اي انتقال الفنان الى مواقـع البروليتاريا الثورية ، محققا بذلك الثورة الاجتماعية والثقافية . او المطابقة بين مفهوم الفنان للعالم بكل تماميته ومفهوم الطبقة العاملة فـي ميدان النضال وأدتـه مقدرة الفنان على تقويم مجمل ظواهر الحياة بـروح مفهوم البروليتاريا الثورية للعالم الاشتراكي وأداه وعيه لحقيقة الشيوعية ، للتطور التاريخي » (٨) .

ومع اننا لا نستطيع ان نعزل الشكل عن المضمون ، الا اننا نستطيع القول بأن كل كاتب ، ككاتبنا ، يناضل من اجل تحقيق انتصار حركة التحرر الوطني ، وانعكاس نضاله هذا في فنه يمكن ان يكون انتاجه ادبا واقعيـــا اشتراكيـــا ، ذلك ان **اية هزيمة للتخلف والرجعية هي خطوة على طريق بناء الاشتراكية ، بل خطوة ضرورية لتحقيق بناء الاشتراكية** .

كذلك فأن انتصار اية حركة تحرر وطني ، خاصة في ظل الواقع الـذي يعيشه عالمنا العربي – واقع التبعية الكولونيالية – يؤدي ، حتما ، الى تحقيق الاشتراكية ، لانها عملية الصراع الطبقي نفسه الـذي تحدده بنية عـلاقات الانتاج الكولونيالية في تحددها بالعلاقـة الكولونيالية ، مـن حيث هي العلاقـة

٧ – بوريس سوتشكوف . **المصائر التاريخية للواقعية** . بيروت دار الحقيقـة ، ١٩٧٤ ، ص ١٩٧ .

٨ – المصدر نفسه .

تبعية بنيوية » (٩) ..

لذلك نحن نعتقد بصدق ودقة **يحيى يخلف** عندما ذكر « فـي مجموعـة « **المهره** » كتبت معظم القصص على ضوء المنهج الواقعي الاشتراكي » (١٠) والتعبير بهذه الصورة (معظم) يـدل على الدقة من ناحية ، وعلى ان الكاتب كان **يحاول بلورة نهجه الفني** من ناحية اخرى . خاصة واننا نعلم ان عـددا من القصص التي نشرها الكاتب في ذلك الوقت لم يدخلها ضمن مجموعته .

فباستثناء قصة « **العجز** » – تجربة ذاتية محضة لا علاقة لهـــا بالعام – لا نستطيع ان نقول ان ايا من قصص « **المهره** » لمتكتب على **ضـوء المنهـج** الواقعي الاشتراكي . وتعبير الكاتب « من الممكن ان التفاوت في **الاسلوب** قد ظهر في **الشكل الفني** بين قصة واخرى ، لكن **مضمونها** كان ملتزم بنسق ينبع من منهجها الواقعي » (١١) يدل على فـهم محدد للواقعية الاشـتراكية كمنهـج ايديولوجي . اذ يبدو هنا ان الكاتب اعتبر الشكل الفني شيء مستقل عن مفهوم الواقعية الاشتراكية . ومع ان **بريشت** ، الفنان الواقعي الاشتراكي ، كان يرى ، في مساجلته مـع الكاتب الواقعي الاشتراكي **فردريـك ردولف** ، ان « الواقعية الاشتراكية ليست قضية اسـلوب » (١٢) . الا ان هـذا لا ينفي ان الـواقعية الاشتراكية ، كمدرسة فنية ، قد تطورت وتبلورت الاساليب الفنية فيها بما يجعلها مدرسة فنية متكاملة . **فبريشت** ذاته يقول « وانا اتفق معك بأن اية وسائل فنية يجب ان ننتقي ، هي قضية الكيفية التي ننشط بها ، نحن معشر الكتاب ، جمهورنا اجتماعيا . وعلينا فقط ان نجـرب ، في سبيل هـذا الهدف ، كـل وسائل الفن الممكنة التي تعين ذلك اكانت قديمة ام جديـدة » (١٣) . فهو ، ككاتب واقعي اشتركي ، لايرفض اللجؤ الى الاشكال الادبية المسيطرة وانتقاء بعضها واعادة

٩ – مهدي عامل ، **مقدمات نظرية لدراسة اثر الفكر الاشتراكي في حركـة التحـرر الوطني** . القسم الثاني . في نمط الانتاج الكولونيالي . بيروت ، دار الفارابي، الطبعة الثانية ، حزيران ١٩٧٨ . ص ١١٦ .

١٠ – مجلة **الحرية** . مصدر سبق ذكره .

١١ – **المصدر نفسه** .

١٢ – برتولت بريشت . **الكاتب الفلسطيني** . مصدر سبق ذكره . ص ٨٩ .

١٣ – **المصدر نفسه** .

انتاجه ثم ادخاله فـي **فضاء الواقعية الاشتراكية** · **فاية مدرسـة فنية جديـدة تأخذ** ، في الواقع ، من المدارس السابقة عليها ما يتناسب معها ، **وتسعى لتطوير** الاساليب والاشكال الفنية السابقة **التي تغدو** ، **بذلك** ، **ادوات تعبير لهذه المدرسة الفنية** · **ففورنسكي** يرى ان « جميع الظواهر تشير الى ان الواقعية الجديـدة (يقصد هنا الاشتراكية م·ق·) ستشكل في المستقبل طريقة الكتابة الرئيسيـة والمسيطرة ، وهي تمازج اصيل بين الرومانسية والرمزية والواقعية » (١٤) ·

ان **الواقعية** « البرجوازية » **لم تبتكر كافة ادوات تعبيرها** ، وانما استعملت بعض الادوات الفنية التي كانت شائعة قبلها ، وطورت بعضها ، بحيث غـدا مجموع ذلك يشكل ادوات التعبير لـدى الواقعية « البرجوازية » · فالمدرسـة الفنية الجديدة ، الواقعية الاشتراكية ، تستطيع – بل يجب ان تستفيد من ادوات المدرسة الفنية السابقة عليها ·واذا لم تظهر هذه القضية بهذه الحدة لدى المدرسة الواقعية « البرجوازية » فانما يعود السبب الى هيمنتها وطغيانها – نتيجة التطور الاجتماعي الشامل السريع – على المدارسـ السابقة عليها ، مما ابـرز ادوات التعبير وكأنها ابتكار هذه المدرسة · بينما تعيش المدرسة الـواقعية الاشتراكية الى جانب المدارس الفنية السابقة عليها ، مما يظهرها احيانا ، **بصورة خاطئة** ، **كمنهج ايديولوجي يعتمد ادوات تعبير برجوازية** ·

غير ان البحث ، بدقـة اكبر ، يظهر ان يحى يتلافى تحديد موقفة المتعلق بهذا السؤال (الواقعية الاشتراكية منهج ايديولوجي ام مدرسة فنية) · فهو ، تارة ، يقتطف مـن **الكسندر فادييف** قوله « الواقعية الاشتراكية تتميز بالتنوع والغنى ، انها تشمل الملحمة والقصيدة الغنائية والدراما والتراجيديا والكوميديا والحكمة الساخرة والرواية النفسية وقصص المغامرات والاحلام الثورية العاطفية والاخلاص العارم للحياة الواقعية والتحليق الجريء في الخيال » (١٥) ويبرز رأي **شولوخوف** « يبدو لي ان كل فن يساعد الناس بصورة ايجابية على ان يبنوا عالما جديدا هو فن واقعي اشتراكي » (١٥) · وتارة اخرى يقول ان « الواقعيـة الاشتراكية هـي منهـج ابـداعي يسـاهم فـي صنع الـوعي الثقافي العلمي للانسان » (١٦) ، ويبرز محاولة **جـورج لـوكاتش** في مـزج الواقعية النقدية

١٤ – فيصـل دراج · بعض الاسئلـة حـول وضـع الواقعيـة الاشتراكيـة · **شؤون فلسطينية** ، عدد ٧٣ · كانون الاول ١٩٧٧ ص ٢٣٠ – ٢٤٥ ·

١٥ و ١٥ مجلة **الحرية** · مصدر سبق ذكره

١٦ – **المصدر نفسه** ·

بالواقعية الاشتراكية » بهدف الوصول الى ادب واقعي اشتراكي متكامل » (١٧) **مما يوحي بعدم الوضوح تجاه اعتبار الواقعية الاشتراكية** مدرسة فنية متكاملة · وعدم الوضوح هـذا ، انعكس على انتاجه ، فجاء مترددا ، يبرز سمات الادب الواقعي الاشتراكي احيانا ، ويقصر عن ابراز هذه السمات ، بشكل كامل، احيانا اخـرى ·

وبالرغم من ذلك فلم يؤثر هذا الفهم للواقعية الاشتراكية ، لدى الكاتب ، كثيرا على نموذج « واقعية اشتراكية » معظم انتاجه بمـا في ذلـك مجموعته « المهرة » ، مع ان الكاتب قد اشار الى ان « اول ما كتبته واقتنعت به هو « نجران تحت الصفر » (١٨) ، مما يخلق انطباعا ان الكاتب – وهو الذي يقول انه يكتب على ضوء المنهج الواقعي الاشتراكي – يرى ان قصص « **المهره** » التي كتبت قبل رواية « **نجران تحت الصفر** » ، لم تكتب على ضوء هذا المنهج · ومن الممكن ان سبب هذا الاعتقاد لدى الكاتب يكمن في الحقيقة التي ذكرنا ، وهي ان الواقعيـة الاشتراكية تعمل على ملائمة بعض ادوات المدرسة الفنية السابقة ، وهي الادوات التي يستعملها الكاتب بالطبع ، مما خلق لديه اعتقادا بأنه ، في جزء من انتاجه، لم يعتمد الواقعية الاشتراكية كمنهج فني ·

وبالرغم من اعتقادنا ان جميع قصص « **المهـره** » – **باستثناء العجز** – كتبت على ضوء المنهج الواقعي الاشتراكي ، فعلا · الا ان الكاتب نجح في قصة اكثر مما نجح في اخرى ، وربما فشل تماما في بعض هذه القصص · ومقارنة قصتي « **لحن الثورة** » و « **المهرة** » تبرزذلك بوضوح· فالقصتانتعالجان موضوعا واحدا هو « عملية في الارض المحتلة » ، وبالرغم مـــن تغير مجرى الاحداث فالعمليتين متشابهتين الى حد كبير ، هدفهما « زرع لغم في طريق دورية معادية»· والكاتب ابرز في كلا الدوريتين ثلاثة افراد · وبغض النظر عن وجود آخرين او عدمه ، فالفدائيون الثلاثة هم ابطال في كل القصتين · وفي كـلا القصتين اخطأ احد هؤلاء الابطال خطأ كان له نتيجة هامة · غير ان بين القصتين من الناحيـة الفنية فارق عظيم · يكاد هذا الفارق يخرج « **لحن الثورة** » تمامـــا من الادب الواقعي الاشتراكي ، بينما يؤكد انتماء « المهرة » اليه · كذلك فانه من الملاحظ ان الكاتب في القصتين **لم يرسم اشخاصه الا بصورة سطحية وغير هامة** · مما يدفع

١٧ – **المصدر نفسه** ·

١٨ – جريدة **السفير** ، مصدر سبق ذكره ·

الى الاستنتاج بأن الكاتب لا يتعامل مع **اشخاص** (المقاتلين) بقدر ما يتعامل مع فكرة (المقاتل) فاستبدال « خالد » او « عباس » ـ بصفاتهم المحددة في القصتين ـ بأي مقاتل آخر لا يغير كثيرا في جوهر القصة ·

ومع ان التعامل مع الفكرة اكثر من الشخصية يتكرر في القصتين ، الا ان الكاتب استطاع ان يعوض في قصة « **المهره** » عن ذلك ، وفشل في التعويض عنه في قصة « **لحن الثورة** » ·

تحس ، وانت تقرأ **لحن الثورة** ، بأن الكاتب يرى ان عليه واجبا يجب ان يؤديه · لديه معلومات عن عملية من هذا النوع ، وعليه ان يقدم منها قصة قصيرة · وسبب هذا الاحساس لا يكمن في الاسلوب السردي اباشر ، في اللغة العادية البعيدة عن الشعرية ـ تلك اللغة التي تفعل الكثير في قصص من هذا النوع ـ وانما ، **ايضا** ، في « **الايجابية الميكانيكية** » **للبطل** ـ خالد ـ في هذه القصة ، ايجابية صورته كنموذج للمقاتل الصلب، المملوء خبرة، والذي يحملك صفات المقاتل الباهرة ، دون اية نقيصة · « كان خالد يسير بثبات ووراءه افراد المجموعة ، لم يكن يبعد عني سوى خمسة امتار ، لذلك اصطدمت نظراتي بعينيه الصلبتينوما لبثان ابتسم اشارليبأن انظرامامي لكي لااصطدم بالصخور»(١٩)· وهو آخر من يدخل المغارة (يحمل معنى الاهتمام بالآخرين اكثر من الاهتمام بالذات)· ويهتم بالتدخين ، ولا يهتم بالطعام (مع ما يحمل ذلك معنى الصبر والتقشف) · كما يهتم دائما بتصفير لحن (الثقة بالنفس والتفائل) « ان اللحن على شفتيهلا يمكن انتزاعه ، حتى في اكثر اللحظات خطرا » (١٠) · البطل الذي يجيب ايجابات مقتضبة ، لكنها ذات مغزى عميق « ان وصيتي شفوية » (٢١) · « صحت به : ماذا تكتب ·· رسالة الى خطيبتك ؟ ابتسم واجاب · لا وقت لذلك الآن · هتت به : ماذا اذن ؟ اجابني بصوت خافت : احاسب نفسي » (٢٢) ·

ويمضي الكاتب في تقديم امثلة كثيرة على ايجابية البطل المغرقة ، هذه

---

١٩ ـ **يحيى يخلف** · **المهره** · **منشورات وزارة الاعلام** ، **الجمهورية العراقية** ، ١٩٧٤ ، ص ٣٩ ·

٢٠ ـ **المصدر نفسه** · ص ـ ٤ ـ

٢١ ـ **المصدر نفسه** · ص ـ ٤ ـ

٢٢ ـ **المصدر نفسه** · ص ـ ٤ ـ

ولكننا بالامثلة التي فكرنا ، لننتقل الى « المهرة » ، ونرى كيف صور الكاتب « عباس » · هذا الذي يدخل الارض المحتلة في أول عملية له، فبعد أن « ابتعدوا كثيرا ، ولم يعد ثمة سوى الأفق العابس وأصوات الاقدام الخافتة ووخز الريح الصقيعية · قال قائد الدورية : عباس ·· كيف تشعر ؟ » (٢٣) فيأتي الجواب طبيعيا ، يدل على تحفز الفدائي الذي يقوم بعمليته الأولى ، وفي نفس الوقت يدل على التهيب والترقب « ـ أشعر أنني بحاجة لأن أضغط على الزناد ·· » · (٢٤) وعندما وضع عباس قدمه في الماء ، أحس بالصقيع ينفذ الى عظامه .· كان المفروض ، بالقياس الى خالد ، أن يخوض عباس النهر ، رافعا سلاحه ، كمن يخوض في ماء « بانيو » دافىء ·

وعباس حين يتناول اللغم يتناوله بحذر · وحين يلتقي الامر «بزراعته» وسط الطريق « احس بوجهه يسخن » (٢٥) · يستعد للخروج من الكمين ، ولكنه ينسى السونكي · أليست مثل هذه الهفوات طبيعية لمن يقوم بعمليته الاولى ؟ أنه يفخخ اللغم بحذر ويدفنه بحذر أشد · العملية خطيرة وهو يعمل بصمت « كان كل شيء في الوجود صامتا حتى الريح صمتت ، والغيوم في السماء بدت صامته وعابسة » (٢٦) · « سوى الارض بالتراب كما كانت ، ظل راكعا وهو يتنفس بعمق » (٢٧) ·

بعد كل ذلك فشلت مهمة عباس الاولى مرت المجنزرة ولم ينفجر اللغم · وفي « لحن الثورة » فشل خالد · « أضاءت قنبلة جديدة فرفع لي كفه وقال بصوت وحشي جارح : أصابعي متصلبة ·· متورمة ·· لم أستطع ان اطلق الرصاص ، لم أستطع » (٢٨) ·

فشلان متشابهان ، تقريبا ، في القصتين · فكيف كان رد الفعل عند

---

٢٣ ـ **المصدر نفسه** · ص ٥٥ ·

٢٤ ـ **المصدر نفسه** ، ص ٥٧ ·

٢٥ ـ **المصدر نفسه** ، ص ٥٨ ·

٢٦ ـ **المصدر نفسه** ، ص ٥٩ ·

٢٧ ـ **المصدر نفسه** ، ص ٥٩ ·

٢٨ ـ **المصدر نفسه** ، ص ٤٤ ·

البطلين خالد وعباس ؟ مع الأخذ بالاعتبار أن لخالد بعض ما يبرر فشله ، ذلك الجرح الذي أصاب يده ، قبل ساعة ، عندما سقط في حفرة في حلكة الليل · بينما يوجد ، بصعوبة ، ما يبرر لعباس فشله · خالد « قفز من الكمين وركض بأتجاه المجنزرة الهاربة ·· وما هي الا دقائق حتى كانت المجنزرة تتفجر وتملأ الافق باللهيب ·· كان خالد قد فجرها ، وتفجر معها » · (٢٩) (اليس هذا تصرفا غريبا لمقاتل بالمواصفات السابقة ؟) · ويأتي التبرير على لسان القائد – « ما كن عليه آن يفعل هذا ·· ولكنه رفض أن يسجل على نفسه المزيد من النقد الذاتي » (٣٠) · والقسم الاول مما قاله القائد « ما كان عليه ان يفعل هذا » لا يعني شيئا ما دام قد أتبعه بذلك التبرير ·

وأما عباس فقد « امتقع لون وجهه ، واحس بالاحتراق ، وصفعته موجة من الهواء المشبع بالرطوبة فأحس بأنه يتعطل ·· ويكف عن النبض ·· ويختنق » (٣١) ، « فقال في اعماقة ·· لتنفتح الارض وتبتلعني ·· ماذا سيقولون في البقعة ؟ فاشل من العملية الاولى ؟ » (٣٢) ·

ويأتيه العذر من القائد منطقيا « الرذاذ يتساقط من اول الليل ، والارض قد صارت رخوة ، ولا بد ان اللغم قد غاص في التربة » (٣٣) · وبعد ذلك يأتيه الأمر والتقريع ، الذي يبدو أنه لا بد منه في مثل هذه المواقف « – عد وضع تحت اللغم شيئا صلبا ·· ألم تتعلم ذلك في المعسكر ؟ » (٣٤) ·

وتستمر الأحداث **بنفس الوتيرة الواقعية** · يرافقه الكاتب وهو يعيد تفخيخ اللغم فيصور احاسيسه ، رجاءه « ايتها المهره الطيبة لا تخذليني » (٣٥) ·

---

٢٩ – **المصدر نفسه** ، ص ٤٥ ·

٣٠ – **المصدر السابق** ، ص ٤٥

٣١ – **المصدر نفسه** ، ص ٦٠

٣٢ – **المصدر نفسه** ، الصفحة نفسها ·

٣٣ – **المصدر نفسه** ، الصفحة نفسها ·

٣٤ – **المصدر نفسه** ، الصفحة نفسها ·

٣٥ – **المصدر نفسه** ، الصفحة نفسها ·

يرافقه في العودة ، وينقل بدقة هواجسه « سيهتفون لك وللثورة وللشهداء ·· ولكنك ستحس بأنك ضئيل ·· ضئيل ·· لقد خذلك اللغم من العملية الاولى » (٣٦) · وعند لحظة اجتياز النهر في العودة من العملية ينفجر اللغم · ولكن عباس « لم يدر هل كا ن الحبل يهتز ، أم أن يده كانت ترتجف ، لكن بكاء الفرح ملأ ملامحه » (٣٧) ·

(عندما يطلب **ماركس وانجلز** من الفنان أن يخترق بعمق جوهر الواقع ، فانهما في الوقت نفسه يحاربان الاتجاه الفني الشكلي في تصوير العالم المحيط· فيكتب **ماركس** الى **لاسال** حول مسرحيته (**فرانس فون زيكنجن**) « أن عيبك الرئيسي ، في رأيي، هو أنك تكتب على طريقة ، **شلر** ، محولا الأفراد الى أبواق بسيطة لروح العصر » (٣٨) ·

أن ما قصده **يحيى** في « **لحن الثورة** » **هو تقديم صورة ايجابية للفدائي** ، فوقع فريسة « **الجدانوفية** » في الواقعية الاشتراكية · **قدم ايجابية ميكانيكية منفرة** · غير أنه حقق نجاحا في « **المهرة** » · ذلك انه في « **لحن الثورة** » **جعل من أبطاله أدوات بسيطة للترويج** ، **بشكل مباشر** ، **غير فني** ، **للمقاييس والمواصفات الثورية** · عاملهم كفدائيين وأبطال **فقط** ، ونسي أنهم قبل ذلك آدميون · غير أنه لم يفعل ذلك في « **المهرة** » ·

والملاحظ أن الاسلوب لا يختلف كثيرا في القصتين، فهما سرديتان · غير أن الفارق في الشكل الفني ينبع – بالاضافة الى الفارق في الواقعية – من غنى « **المهرة** » بالصور والذكريات والعواطف الصادقة والتعابير الشعرية الجميلة ، وضعف ذلك في « **لحن الثورة** » او حتى انعدامه · في « **المهرة** » نصادف مثل هذه التعابير « كان مذاق الأرض على أطراف أصابعه وتحت ركبته · وكانت عيناه تنظران الى الارض المنبسطة ·· كانت تبدو له مثل مهرة سوداء عذراء وطيبة » (٣٩) ·

---

٣٦ – **المصدر نفسه** ، ص ٦٣ ·

٣٧ – **المصدر نفسه** ، الصفحة نفسها ·

٣٨ – م· اوفسيانيكوف ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٤٣٦ ·

٣٩ – يحيي يخلف · **المهرة** · مصدر سبق ذكره ، ص ٦١ ·

« كانت الأقدام تغوص في الأرض الطينية ، والمطر يزخ ·· تذكر ، في تلك اللحظات ، اشياء كثيرة ·· سقف القصيب في (عين مصباح) ·· والمزراب ·· وليالي الدلف وكانون النار ·· والوجوه القلقة في مخيم البقعة ·· واذ ذاك أحس بأنه بحاجة لأن يضغط على الزناد ويظل يطلق النار في أحشاء هذا الليل حتى تفرغ كل مخازن الذخيرة في جعبته » (٤٠) ·

هناك الكثير من أمثلة هذه الصور والتعابير الجميلة التي تخلو منها « **لحن الثورة** » والامر الغريب هو ان القصتين ، مع هذا الفارق الكبير ، كتبتا ، كما هو مذكور في نهاية كل منهما ، في نفس العام (١٩٦٨) · وفي أماكن متقاربة (لحن الثورة / تل الاربعين الاغوار الشمالية · والمهرة / شمال الاردن · اربد)· غير ان « **المهرة** » **هي قصة قصيرة متكاملة** ، **تشكل نموذجا من الأدب الواقعي الاشتراكي** ، بينما « **لحن الثورة** » هي محاولة فاشلة كتبت على **ضوء المنهج الواقعي الاشتراكي** ·

ديالكتيك الأدب والثورة

أن نموذج « **المهرة** » هو النموذج الطاغي في انتاج **يحيى** من القصة القصيرة · وهو نموذج الكتابة المباشرة عن الثورة (كحركة تحرر وطني) ، **ضمن الرؤية التي تعطي الأولوية للنضال الوطني في هيكل الصراع العام** ضد القوى السوداء التي تستهدف الهيمنة على الانسان وأستعباده وأستثماره ·

في هذا النموذج ، يكتب **يحيى** عن الثورة ويمجدها ، ويبرز حتمية انتصارها · يكتب عن الثوار وتفاصيل حياتهم وعلاقاتهم وتضحياتهم ، عن روح الريادة فيهم · عن سمو اهدافهم وقدسية معاناتهم ·

ضمن هذا النموذج نجد قصة « **البحر واشجار الليمون ·· وجواد ابيض** » · **قصة تتغلغل** في واقع الثائر المقاتل بكل دقائقها ـ خاصة خلال تجربة خطيرة هي التعرض لنيران العدو ـ وهي لا تكتفي **بتاكيد حتمية** انتصار الثورة والثوار ، وأنما تقدم **تفسيرا** لهذه الحتمية في أن الثوار يقاتلون في الوقت الذي يساوم فيه غيرهم ·

---

٤٠ ـ **المصدر نفسه** ، ص ٦١ ـ ٦٢ ·

ولا تخرج « **الدمية** » و « **البقاع** » و « **نورما ورجل الثلج** » ـ رغم ما طرا عليها من تطور ـ عن نموذج « **المهرة** » ، هذا النموذج الذي يعكس ، بصورة واضحة ، أيديولوجية الكاتب التي أشرنا اليها ·

غير أن ربط النضال الوطني بالصراع العام ضد الامبريالية ـ **في هذا** النموذج ـ يتضح اكثر في القصص الثلاث « **الدمية** » « **البقاع** » « **ونورما ورجل الثلج** » ـ وبشكل خاص في « **نورما ورجل الثلج** » ـ فهو هنا **يوحد حركتين في اتجاه واحد ·· ثورة لتحقيق أماني شعب في تحرير وطنه السليب وتحقيق العيش بسلام كغيره من الشعوب · وثورة أخرى ، هي ثورة المسحوقين ضد الظلم الاجتماعي الذي يصل حد القتل** · ومن الطبيعي أن تلتقي حركتين من هذا النوع · فحركة التحرر الوطني وحركة التحرر الاجتماعي حتما تلتقيان ، بل أن انتصار اولاهما تاريخيا هو الشرط لانتصار الاخرى · ولقد استطاع الكاتب أن يمزج تفاصيل الواقع لكلا النموذجين ، ويعكسه عملا فنيا ، يظهر عظمة هذا الامتزاج على أرض الواقع ·

غير أن الكاتب ، ولأسباب ذاتية ، كان اكثر تعمقا حيال النموذج الاول (التحرر الوطني) منه حيال النموذج الثاني (حركة التحرر الاجتماعي) · وكذلك جاءت العلاقة بين النموذجين وامتزاجهما ، غير متوازنة بشكل دقيق · **فنورما** التي تعبر ، في القصة ، عن النموذج الثاني لم تستطع حمل السمات الكاملة له · في الوقت الذي كان للنموذج الاول عدد كبير من الممثلين وهم يحملون سمات هذا النموذج بصورة اكثر تفصيلا ·

غير ان اختلال هذا الاتزان لم يؤثر كثيرا ، أو لم يشوه ، الصورة التي تشكلت هذا المزج بين النموذجين والحركتين ·

ولكننا نعود ونسأل : هل استطاع الكاتب أن يعكس الواقع بشكل فني ملائم ؟

في معرض تحليله لامكانيات البطل في رواية « **نجران تحت صفر** » ، يقول د · **فيصل دراج** « ان رسم الشخصيات فنيا بشكل محدود جعلها ـ في معظم الاحيان ـ اضيق من واقعها ، واقل كثافة ، واقل تحديدا · فالشرط التاريخي المرسوم واضح ، متميز ، لكن هذا التميز يتراجع كثيرا عندما يصل الى مستوى

الشخصية » (٤١) · ومع الاخذ في الاعتبار الفروق الاساسية في البناء بين الرواية والقصة القصيرة ، الا ان هذا الفارق ، في مجال استيعاب الشخصيات وانارتها وعكسها فنيا ليس كبيرا ·

ونورد هذا هنا للتأكيد بأن ذلك هو تقصير اساسي لدى الكاتب · فاستعراض احدى الشخصيات الرئيسية في قصة « **نورما ورجل الثلج** » – سعيد ابو جابر – تظهر ان الكاتب قد اكتفى بتقديم **سماته السطحية** دون ان يتعمق في عالمه الداخلي · رجل يقضي نهاره كاملا في موقعه – وعلى مدى طويل – لا بد ان يكون له واقع خاص · كيف يعامل معاونية ؟ كيف يقضي نهاره ؟ ما هي الاسباب الفعلية لاحترام المقاتلين له ··· الخ ·

ان ذلك ينطبق على الشخصيات الاخرى · فقد قدم الكاتب « ابو سراج » « وعلي البدوي » و « ابو اروى » وغيرهم بشكل سطحي دون التطرق ، الا بشكل ضحل ، الى اعماقهم وتفاصيل حياتهم اليومية التي تسهم في انارة هذه الشخصيات ·

من ناحية اخرى ، **اورد الكاتب هذه الصفات كعناصر ثانوية جدا في القصة** · لم يدخلها في احداثها · ادخلها بشكل **تقريري** ولم **يمزجها بصورة فنية في هذه الاحداث** « ابو سراج **الذي** اصيبفي معركة كفرشوبا ··· » ، « وعلي البدوي الاردني **الذي** يلبس فروة ··· » ، « وأبو اروى **الذي** يحب الموت فجأة ··· » ، « يوسف الفتى **الذي** يحمل الآر بي جي ··· » (٤٢) · لذلك ظهرت هذه الصفات المذكورة **كزوائد** لا علاقة لها بالعمل المحوري · ولن تتأثر القصة كثيرا فيما لو حذفت بكاملها ·

ان عدم التعمق – وخاصة في الشخصيات – هي لدى الكاتب صفة سائدة ، والامثلة عليها كثيرة · ويترك ذلك ، احيانا ، اثر شديد السلبية على بناء القصة · اذ ان السياق في بعض هذه الاحيان ينقطع نتيجة عدم التعمق هذا · فالكاتب ، على سبيل المثال ، يبدأ نقاشا في « **نورما ورجل الثلج** » **حول العمليات**

---

٤١ – فيصل دراج · الكاتب الفلسطيني ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٧١ ·

٤٢ – يحيى يخلف · **نورما ورجل الثلج** ·دار ابن رشد ، بيروت · نوفمبر ١٩٧٧ ، ص ١٢ ·

الخارجية ، ويقوده بصورة توحي بالتعمق · ولكن القارىء يفاجأ بالانقطاع المباغت : « – لماذا يخافون منا في المطارات ايها المتطوع ؟ – لاننا نخطف الطائرات · – هل انت ضد خطف الطائرات · – اجل · – لماذا ؟ – لانني ضد الارهاب والعمليات الخارجية · – ماذا يعني ضد الارهاب والعمليات الخارجية ! بدأ المتطوع يشرح ويشير بأصبعه ويديه · وينفعل وتتغير تقاطيع وجهه » (٤٣) · فاذا كانت هذه النتيجة هي الهدف الذي يقصده الكاتب ، كان من الممكن تحقيقها بعبارة قصيرة متقنة البناء ·

ومن ضمن نماذج عدم التعمق الكافي ايضا ، **تقديم احكام وفرضيات بدون خلفية كافية لتبريرها** · فالكاتب يصف **نورما** « – العبرة ليست بالشكل ·· انها جميلة جدا من الداخل ·· انها مفعمة برائحة الانسان في اعماقها » (٤٤) · ولم يسبق للكاتب ان قدم ، في القصة ، معلومات كافية تبرز هذا الوصف · وذات الشيء ينطبق على قوله « ولكنني لو جرحت في معركة فسوف يستشهد ثلاثة منهم من اجل انقاذي » (٤٥) ·

لذلك يلجأ الكاتب ، احيانا ، الى التكرار لتاكيد الصورة التي يريد تقديمها · فعبارة « الذي تقدر قوته بثمانين حصانا » التي وصف بها سعيد ابو جابر في قصة « **نورما ورجل الثلج** » تكررت عدة مرات · وكذلك تعبيرات من نوع « ابتسم سعيد · ثم لبتسم ·· ثم عاود الابتسام » (٤٦) · « وكان الشباب في المقاعد الخلفية يدخنون ويدخنون ولا يكفون عن التدخين » (٤٧) ·

وبشكل مواز للاقتضاب – السطحية · هناك اطناب لا مبرر له فقصة الارنب البري الطويلة في « **نورما ورجل الثلج** » لا مبرر لها · واذا كان المقصود هو التركيز على القوه ، او خلق مقارنة بين القوي والضعيف ، فليس من المناسب مقارنة قوة سعيد ابو جابر ، او اي مقاتل آخر ، بأرنب ضعيف · ومهما كانت

---

٤٣ – **المصدر نفسه** ، ص ١٩ ·

٤٤ – **المصدر نفسه** ، ص ٢٠ ·

٤٥ – **المصدر نفسه** ، ص ٢١ ·

٤٦ – **المصدر نفسه** ، ص ٦٣ ·

٤٧ – **المصدر نفسه** ، ص ٩ ·

البررات ، فأن من الممكن ، ايجاز ما يقصده الكاتب في عبارات فنية مكثفـــة لا تشكل زوائد في جسم القصة ٠

ان ما ذكرنا، يتكرر فيمعظم القصص التي قدمها **يحيى**٠ فماسبق اناشرنا اليه في « **نورما ورجل الثلج** » حول سعيد يتكرر في « **الدمية** » **فكل من** « نادية » والراوي ، لم يكونا هـدف انارة كافية من قبل الكاتب ٠ وقصة « الارنب » فـي « **نورما ورجل الثلج** » لها مثيل في « **البحر واشجار الليمون وجواد ابيض** » ٠ فالمرض هنا يحاول ان يكتب « قصة » اقحمت ، هذه ، في القصة الاصلية ، دون ان تضيف شيئا ذا اهمية تعادل الصفحتين اللتين احتلتهما ٠

ان هذا يعود ، على الاغلب ، الى النزعة الذهنية الضي تلازم الكاتب بشكل او بآخر والتي تجعله يمضي في مطاردة الحدث ـ الفكرة دون ان يعني بتطوير الشخصيات تطويرا كافيا ٠ وهو عندما يقوم بذلك نجده يكتفي بتطوير الشخصية من الخارج ٠

لكن هذا المنطق لا ينسحب علـى جميـع القصص التي قدمها **يحيى** اذ ان بعضها قد تجاوز هذا الضعف ٠ فالكاتب في قصة « **عربي المقهور** » يقول «غلى الدم في عروقه وامتلأ بالقهر والسخط والغضب » ٠ لكنه لم يكتف بذكر ذلك ، بل **تعمق** ، وكشف اسباب هذا القهر « حاول عربي ان ينجو بالكيس الذي هو تجارته ورأس ماله ، وسرعان ما جذبته يد ابن الحكومة ولسعت كتفه تحت الرقبة ٠ ومن فوققميص الكاكي الذي امتص العرق ٠ لسعت كتفه عصاه الخيزران » (٤٨) ٠
لهذا السخط، اذن ، ما يبرره **ليس في الواقع فقط ، وانما في المعادل الفني ايضا** ٠ بل ان الكاتب رسخ مبرر السخط هذا ، حين اظهر ـ ببرود وبدون ضجيج، وهذا امر له اهميته ـ عجز « عربي » عن تحدي جهاز السلطة القمعي ٠ فعربي « فكر في ان يهين ابن الحكومة ٠ يهينه ويهينه ويدوس على رأسه لكنه تذكر ان الاطفال سيجوعون ان هو دخل السجن » (٤٩) ٠

والكاتب لم يكتفي بهذه الاسباب لتبرير سخط عربي ، بل اورد غيرها الكثير٠ وهو بذلك ، قدم في المعادل الفني ـ بشكل كاف ـ مبررات السخط عند « عربي »٠

٤٨ ـ **المصدر نفسه** ، ص ٧٧ ٠

٤٦ ـ **المصدر نفسه** ، ص ٧٧ ٠

فأصبحت شخصيته اكثر اكتمالا ٠ وبذلك **جاءت في حركتها معبرة عن الواقـع كما يريد الكتب ان يصوره** وحققت المقصود في المقولة الشهيرة « **على الكاتب ان يبرز العام من خلال الخاص** » ٠

ان الكتابة الادبية عـن الثورة لا تقتضي مجـرد استيعاب ظاهرة حـركة الثورة ٠ لا تقتضي مجرد استكشاف فضاء الثورة ، مهما كان هذا الاستكشاف دقيقـا ان ادراك جدلـية الثورة هـو اساس لا غنى عنه فـي الادب الـواقعي الاشتراكي ٠ وهذا لا يتاتى الا منخلال **فهم الاسس المادية ـ الديالكتيكية للثورة**٠ اذ بهذا تتاح للكاتب رؤية التلاحم الوثيق بين الثورة وتطور المجتمع ، وتتكشف له قاعدة الثورة الحقيقية التي لا يجوز ان تفلت من ساحة رؤيته ٠
ومن ناحية اخرى ، فأن الكتابة الادبية عن الثورة تقتضي ارتقاء في الشكل الفني ـ اسلوبا متجددا ثوريا ـ يتلاءم مع الموضوع الثوري ، المستمر،في حركته وتجدده ، ولا ينوء تحت زخمه ٠

ولان تحليل نتاج يحيى ليس هدفا بحد ذاته ـ اذ ان الهدف هو تقصي المنحى الواقعي الاشتراكي لديه ـ نسنكتفي بالتأكيد على التطور الهام الذي بـرز في قصصه « **المطار** » و « **مقامة من كتاب الزيت** » و « **البقاع** » ، بالاضافة الـى قصتيه « **عربي المقهور** » و« **نورما ورجل الثلج** » ٠ هذا التطور الذي نجد جذوره في « **موت بائع الياسمين** » و « **يوميات المواطن سين** » من قصص « **المهرة** » ، الا وهو **المزج بين قضيتي التحرر الوطني والتحرر الاجتماعي** ٠

الواقعية الاشتراكية والتجريب :

في مراجعته النقدية لمجموعة « **الولد الفلسطيني** » للكاتب **محمود شقير** ، يتحدث **يحيى** عن التجريب ، فيقول « أن الحديث عن هذه المسألـة لا يعني انني **ضد التجريب الواعي** ، وتمثـل ثقافـــة العصر ، والبحث عـــن أشكال فنيـة جديدة » ٠ (٥٠) ويبدو واضحا ، من هذا القول ، أن الكاتب ينفي عن نفسه أن **يكون ضد التجريب** ٠ ولكنــه ـ القول ـ ، في نفس الوقت ، يشي بحقيقـــة أن **الكاتب لا يبدي حماسا تجاهه** ٠ ومع أن الكاتب ، في نفس المراجعة النقديـــة ، قدم فهمه للتجريب بصورة ، تظهـر اعتبـاره ـ التجريـب ـ حركـــة تقدمية ،

٥٠ ـ يحيى يخلف ٠ الولد الفلسطيني ، **مجلة الحرية** ، العدد ٨٥٤ ٠ (٦ اذار ١٩٧٨) ، ص ٣٤ ٠

وتؤكد ادراك الكاتب للشروط التي يجب توفرها لتحقيق ذلك ، ألا انه من ناحية أخرى ، حاول أن يقيد « التجريب » بمطابقته مع « التطور » . فالكاتب يقول ، في مراجعته هذه ، في معرض الحديث عـن التجريب « التطور عند كاتب ما لا ياتي فجأة . كما ان هذا التطور لا يكون مقطوعا عن سياقه » (٥١) .

ورغم ان هذا يصح على التطور ، بشكل عام ، ألا أنـه لا يجوز أن يطبق على « التجريب » ، الذي يحمل ، ضمنا ، محاولـة العثور على أشكال فنيـة جديدة ، وربما فجأة . ومع أنه ، بهذا المعنى ، يعني تطورا ، الا انـه لايفترض التراكم البطيء والمتدرج الذي تتضمنـه كلمـة « التطور » ، في السياق الذي استعملها فيه الكاتب .

ويحيى ، في نفس المراجعة النقدية ، قدم شرطا اخر « للتجريب » ، الذي طابقه بالتطور ، حين توجه الى الكاتب ، طالبا ان يكون « التطور عنده وليـد تجربته الذنية ، وان يبقى له صوته الخاص ولغته الخاصة »(٥٢) . والواقـع ان هذه هي سمات الفنان المبدع بشكل عام . انها عناصر الاسلوب الذي يتميز به هذا الفنان . **وليحيى** ، بذلك ، كل الحق في التوجه الى الكاتب طالبا منه ان يحرص على سماته واسلوبه . غير ان خشية **يحيى** من « ان تستدرج **لعبة الشكل** هذا الكاتب المبدع » تكشف نظرته الحقيقيـة نحو التجريب ، باعتباره مجرد « لعب » بالشكل الفني ، مفسخا بذلك وحدة الشكل والمضمون ، ومزدريا محاولة الابتكار والتجديد التي يحملها التجريب ، سيما وان اصطلاح « **لعبة الشكل** » قد تكررت في مراجعته النقديـة ، مما يوحي باصرار **يحيى** علـى المعنى الذي تحمله . وبذلك تصبح المفاهيم السابقة ، التي قدمهـا **يحيى** عن التجريب ، ذات مغزى واحد فقط ، وهو الاعلان عن « معرفته » بمعنى التجريب وشروطه ، دون قناعة بهذا المعنى وهذه الشروط .

ان رواد الواقعية الاشتراكيـة يرون في التجريب غير ذلك . **فبريشت** الفنان الواقعي الاشتراكي المرموق ، يتوجه الى الكتاب بقوله « اذا ما اردنـا عمليا استيعاب العالم الجديد فنيا ، فعلينـا ان نبتكر وسائل فنيـة جديدة ،

٥١ـ **المصدر نفسه** .

٥٢ ـ **المصدر نفسه** .

٥٣ ـ **المصدر نفسه** .

ونعيد صياغة الوسائل القديمة . علينا ان ندرس اليوم وسائل كلايست وغوته وشيلر الفنية ، غير انها لن تكفينا في التعبير عما هو جديد . **ان رفض التجريب يعني الاكتفاء بالموجود وهذا يعني التخلف** » (٥٤) التشديد من عندنا م.ق. .

والواقع ان **برشت** لا يكتفي **بشجب** « رفض التجريب » ، بل انه يدعو الى التجريب بحماس . فهو يرى « انتصوير الجديد ليس بالامر السهل (كما تبين رسائل كثيرة) . انـه مرهون بالحماس للجديد » (٥٥) . ان **بـريشت** ، هنـا ، يتحدث عن الواقعية الاشتراكية المناضلة التي « تحتاج الى كل الاسلحة ، دائمـا الى افضل الاسلحة ، ودائما الى اسلحة جديدة » (٥٦) .

اذن ، فالتجريب عند رواد الواقعية الاشتراكية لا يحمـل المعنـى الحرفي لكلمة « التجريب » . **انه ليس « لعبة » يمارسها الفنان باسترخاء و « يجربها » على قراءة دون اي اعتبار جدي للنتائج** . فالتجريب هو **تعمق مستمر** في فهـم الواقع ، وتطوره ، **وبحث مضني ، مستمر ، عن الوسائل الفنية الاكثر ملائمـة** للتعبير عن هذا الواقع ، كما يراه الكاتب . ولن نكون افضل تعبيرا من **بريشت** الذي يعتبر التجريب بحث مستمر عن افضل الاسلحة الجديدة ، الاسلحة الجديدة التي تحتاجها الواقعية الاشتراكية في نضالها الذي لا يتوقف .

لقد تقيد **يحيى** بفهمه للتجريب وتحفظه تجاهه . وانعكس اثر هذا التحفـظ على اسلوبه . ولعل الاصح القول بأن يحيى اراد ان يجد مبررا لمحافظته على الاسلوب التقليدي ، في تحفظه تجاه التجريب . فقصصه في اغلبيتها سردية ، سوى القليل منها .

غير ان قصصه « **مقامة من كتـاب الزيت** » ، و « **الضبع** » ، و « **عربي المقهور** » ، من مجموعته « **نورما ورجل الثلج** » ، تحمل طابع التجريب . ومن مجموعته القصصية « **المهرة** » نجد « **يد ايلول ذات الاظافر** » ، و « **الطـائر الاخضر** »، و « **الحلم** » و « **موت بائع الياسمين** » ، تخفي في ثناياها **الميل نحو التجريب** . بل ان قصة « **يد ايلـول ذات الاظافر** » هي **مثال مكتمـل من امثلة**

٥٤ ـ برتولت بريشت . الكاتب الفلسطيني ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ـ ٩ ـ

٥٥ ـ **المصدر نفسه** .

٥٦ ـ **المصدر نفسه** .

التجريب · ولعل في هذه الامثلة مـا يشير الى ان الميـل الى التجريب يكمن ، بصورة غير واعية ، في عمق كل كاتب· وبالرغـم من ذلك يظل انتاج **يحيى** ، بشكل عام ، يعكس بأمانة تحفظه تجاه التجريب ، اذ تظل تشده بقوة « السردية المتوهجة البسيطة » ·

واخيرا ، نود ان نؤكد مرة اخرى ، ان الانتـاج الادبي **ليحيى يخلف** هو انتاج يستوجب القراءة والاهتمام · وهو يدعو الى التفاؤل الجدي بانطلاقـة كاتب وضع اقداما راسخة على عتبة الواقعية الاشتراكية · ونأمل ان تكون هذه الدراسة جهدا ــ مهما كان صغيرا ــ يدعم اصرار الكاتب على بلورة منهجـه الفني الواقعي الاشتراكي وتكريسه ·

جورج برنارد شو

دراسة السوبرمان البرجوازي

كريستوفر كودويل

ترجمة: فاضل جتكر

« رجل صالح سقط بين الغائبين » (لنين)

لمحة موجزة عن الكاتب :

عند اصيل ذلك اليوم ، الثاني عشر من شباط عام ١٩٣٧ ، حين كانت الشمس تغالب الغيوم السوداء الداكنة لتظهر حينا ولتحتجب حينا آخر فوق رابية خضراء بالقرب من مدريد ، قرر **كودويل** أن يقوم بتغطية انسحاب ثلة من رفاقه الثوار ، بعد أن حاصرت موقعهم **قطعان الفاشية** . احتضن رشاشه بحنان ، وأسند خده المتورد الى الأخمص ، وراح يطلق النار ليعوق تقدم الذئاب ، حتى اطمأن الى أن رفاقه اصبحوا في مأمن . ثم غابت الشمس قبل أن تغيب ، عندما تفجر سيل الدم من جبهة **كودويل** ، بعد ان تحطم ذلك الراس الذي أعطى الكثير من الفكر .

هكذا كان استشهاد ذلك الشاب البريطاني المتقد **كريستوفر كودويل** ، ولما يبلغ التاسعة والعشرين من عمره ، دفاعا عن الحرية والديمقراطية ، في صفوف الكتيبة البريطانية الملحقة **بالفرقة الأممية** ، التي ضمنت صفوة البشرية التقدمية ، وتجمعت في أسبانيا ، للوقوف في وجه زحف الوحش الفاشي . فهناك ، حيث كانت غربان « الفكر » الفاشي تنعب بأصواتها المبحوحة المجوجة رافعة شعار : « الموت للفكر ، عاش الموت ! » ، قدم **كودويل** حياته الشابة ، مسطرا ، بدمائه الحارة ، آخر ملاحمه واروعها على الأرض الاسبانية .

ان **كريستوفر كودويل** هذا هو الصحفي البريطاني الدؤوب : **كريستوفر سان جون شبرغ – Christopher St. John Sprigg** ، الذي ولد في أحدى ضواحي لندن ، عام ١٩٠٧ ، وتلقى تعليمه الابتدائي في مدرسة للرهبان ، ثم اضطر الى ترك المدرسة وهو ما يزال طفلا في الخامسة عشرة من عمره ، ليكسب قوته . وظل يعمل في المطابع والصحف حتى غدا كاتبا واسع الاطلاع والمعرفة ، لا من خلال الذهاب الى

التجريب · ولعل في هذه الامثلة مـا يشير الى ان الميـل الى التجريب يكمن ، بصورة غير واعية ، في عمق كل كاتب · وبالرغـم من ذلك يظل انتاج **يحيى** ، بشكل عام ، يعكس بأمانة تحفظه تجاه التجريب ، اذ تظل تشده بقوة « السردية المتوهجة البسيطة » ·

واخيرا ، نود ان نؤكد مرة اخرى ، ان الانتـاج الادبي **ليحيى يخلف** هو انتاج يستوجب القراءة والاهتمام · وهو يدعو الى التفاؤل الجدي بانطلاقـة كاتب وضع اقداما راسخة على عتبة الواقعية الاشتراكية · ونأمل ان تكون هذه الدراسة جهدا ـ مهما كان صغيرا ـ يدعم اصرار الكاتب على بلورة منهجـه الفني الواقعي الاشتراكي وتكريسه ·

جورج برناردشو

دراسة السوبرمان البرجوازي

كريستوفر كودويل

ترجمة: فاضل جتكر

« رجل صالح سقط بين الغابيين » **(لنين)**

لمحة موجزة عن الكاتب :

عند أصيل نلك اليوم ، الثاني عشر من شباط عام ١٩٣٧ ، حين كانت الشمس تغالب الغيوم السوداء الداكنة لتظهر حينا ولتحتجب حينا آخر فوق رابية خضراء بالقرب من مدريد ، قرر **كودويل** أن يقوم بتغطية انسحاب ثلة من رفاقه الثوار ، بعد أن حاصرت موقعهم **قطعان الفاشية** . احتضن رشاشه بحنان ، وأسند خده المتورد الى الأخمص ، وراح يطلق النار ليعوق تقدم الذئاب ، حتى اطمأن الى أن رفاقه أصبحوا في مأمن . ثم غابت الشمس قبل أن تغيب ، عندما تفجر سيل الدم من جبهة **كودويل** ، بعد أن تحطم نلك الرأس الذي أعطى الكثير من الفكر .

هكذا كان استشهاد نلك الشاب البريطاني المتقد **كريستوفر كودويل** ، ولما يبلغ التاسعة والعشرين من عمره ، دفاعا عن الحرية والديمقراطية ، في صفوف الكتيبة البريطانية الملحقة **بالفرقة الأممية** ، التي ضمنت صفوة البشرية التقدمية ، وتجمعت في أسبانيا ، للوقوف في وجه زحف الوحش الفاشي . فهناك ، حيث كانت غربان « الفكر » الفاشي تنعب بأصواتها المبحوحة المجوجة رافعة شعار : « الموت للفكر ، عاش الموت ! » قدم **كودويل** حياته الشابة ، مسطرا ، بدمائه الحارة ، آخر ملاحمه وأروعها على الأرض الاسبانية .

ان **كريستوفر كودويل** هذا هو الصحفي البريطاني الدؤوب : **كريستوفر سان جون شبرغ – Christopher St. John Sprigg** ، الذي ولد في أحدى ضواحي لندن ، عام ١٩٠٧ ، وتلقى تعليمه الابتدائي في مدرسة للرهبان ، ثم اضطر الى ترك المدرسة وهو ما يزال طفلا في الخامسة عشرة من عمره ، ليكسب قوته . وظل يعمل في المطابع والصحف حتى غدا كاتبا واسع الاطلاع والمعرفة ، لا من خلال الذهاب الى

الجامعات ، بل عن طريق التردد الدائم على المكتبات العامة بلندن ، كما صرح هو نفسه في أحدى المرات .

عندما أصبح **كودويل** ناضجا يمتلك القدرة على الكتابة ، كانت بريطانيا ، أعرق قلاع الرأسمالية ومعها أوروبا وسائر أرجاء العالم « الحر » ، غارقة في أزمة عمت كل جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وهذه الأزمة الخانقة كانت تدفع بالشباب المتأزم والمتشكك ازاء كل ما يحيط به نحو البحث عن طريق للخلاص ، عن مثل عليا وقيم جديرة بأن يعيش الأنسان لها ، وأن يكافح من أجلها .

في هذه الفترة القلقة والمتأزمة اهتدى **كودويل** الى الماركسية ، لا من خلال الاتصال بدعاة الشيوعية من مثقفي الجامعات ، كما فعل غيره من أبناء جيله من أمثال **ادون Auden** ، **وسبندر Spender** ، بل من خلال المعاناة الحقيقية لقضايا الحياة اليومية . وهذه الماركسية فهمها **كودويل** سلاحا ماضيا لتمزيق أقنعة جميع مظاهر الزيف والخداع ، ولا سيما تلك السائدة في الحياة الثقافية ، وأرادها نظرية شمولية تقدم الحلول الصحيحة لكل المسائل المطروحة في ميادين الاقتصاد ، والفلسفة ، والفن ، والجمال ، والاجتماع ، والأخلاق ، وعلم النفس ، الخ ..

كان **كودويل** غزير الانتاج ، بشكل يكاد لا يصدق ، فخلال السنوات الخمس الأخيرة من حياته ، منذ احتفاله بعيد ميلاده الرابع والعشرين وحتى استشهاده ، كتب : سبع قصص بوليسية ، وخمسة كتب عن الطيران ، ورواية جادة بعنوان « **هذه يدي** » **ThisisMyHand** وكتابا نقديا بعنوان « **الوهم والواقع Illusion And Reality** » وثلاث عشرة مقالة فلسفية نقدية معمقة ، صدرت في كتابين هما : « **دراسات في ثقافة محتضرة Studies in a Dying Culture** » ، و « **دراسات اضافيــة في ثقافــة محتضرة Euther Stusies in a Dying Culture** » وعددا من القصائد ، يكفي لتكوين مجموعة شعرية متوسطة الحجم . وقد قيل إنه كان يكتب بمعدل خمسة الاف كلمة في اليوم !

بعد أن أنجز أهم كتبه ، وهو الكتاب النقدي : « الوهم والواقع **Illusion And Reality** » انتقل **كودويل** أواخر عام ١٩٣٥ الى حي بوبلار Poplar ، القريب من الايست اند East End البائس ، ليعيش بين العمال ، ويشاركهم الحياة التي كانوا يعيشونها ، دون أي تكلف ، وانتسب الى منظمة **الحزب الشيوعي** في ذلك الحي ، وراح يعمل بنشاط ويسهم بحماس في كل الأعمال التي كانت المنظمة تقوم بها ، كتوزيع المنشورات وكتابة الشعارات على الجدران وتثبيت الملصقات وجمع التبرعات والقاء الخطب في الساحات العامة . غير أن هذا كله لم يصرفه عن ساحة النضال الاضافية التي إختارها لنفسه ، ألا وهي ساحة الثقافة ، بل كتب ، في الفترة نفسها ، العديد من المقالات والدراسات المتنوعة ، أبرزها مجموعة مقالاته ، التي كانت بعنوان « **دراسات في ثقافة محتضرة** » و « **ازمة الفيزياء** » ، وقد نشرت ، مثلها مثل باقي مؤلفاته الهامة ، بعد استشهاده في اسبانيا ، عندما دعت الحاجة لأن يترك القلم جانبا ويتنكب البندقية من أجل الدفاع عن أشعار **لوركا** وأغاني الرعاة الأندلسيين ضد الغول الفرنكوي الفاشي .

المترجم

حصل شو ، في حياته على اعتراف عام بين الأعضاء العاديين في الطبقة المتوسطة ، هنا وفي امريكا ، كممثل للفكر الاشتراكي . وحالــة **شو** ممتعة وهامة من عدة جوانب ، وهي البرهان على مدى عناد الوهم البرجوازي . فقد يكون البرجوازي مطلعا على الماركسية وصاحب موقف نقدي حاد ازاء النظام الاجتماعي ، توّاقا الى تغييره ، ومع ذلك فان ذلك كله لا يعدو كونه قبضا عابثا للريح ، لأن هذا البرجوازي يعتقد بأن الانسان حر بذاته .

إن **شو** فوضوي سابق ، ونباتي ، وغابــي ، ففاشي اجتماعي ، كما تكشف في السنوات الأخيرة : إنه اشتراكي طوباوي حتما . ففكرة اليوتوبيا عنده نشرت في « **عــودة الى متوسيلا** «**BackTo Methuselah**» ، جنة قدامى ينفقون أيامهــم في « التفكير » ويحتقرون الشباب الفراشة التي تغرق في العمل « النشيط » : في الخلق الفني والعلم .

ثم كشف **شو** نقطة الضعف ، جنبا الى جنب مع جوهر طينة اشتراكية البرجوازية المتميزة . وهي تمثل قمة التأمل النقي الصافي . فالانسان في التأمل الصافي النقي وحيد ، وبعيد ظاهريا عن التعاون ، يلفه عالم خاص : وهو عندئذ ، كما يتوهم الفكر البرجوازي ، كلي الحرية . أليس هذا هو وهم العالم ؟ لا ، لأن العلم ليس فكرا **صافيا** ، إنه فكر تحالف مع العمل ، يختبر كل معارفه على محك الواقع . فهو فكر ، كما ينبغي للفكر أن يكون ، مارا ، على الدوام ، في حركة جدلية بين المعرفة الى الكينونة ، بين الحلم والواقع الخارجي . وشــو يحتقر مثل هذا الفكر . إنه يحتقر العالم الحديث ، لا كما يمكنه أن يفعل ، نظرا لنقاط ضعفه (أي العلم الحديث) الانسانية ، بل كارها له بسبب جوهره ، بسبب مواصفاته الاجتماعية ، بسبب كل ما هو جيد في دوره الفعال والخلاق .

اليكم هذا المشهد المألوف : إنه مشهد المثقف الذي يحاول الهيمنة على الواقع المعادي ، من خلال الفكر النقي ، فمن نقاط الضعف الأنسانية أن يعتقد المرؤ بأنه ، من خلال هروبه الى خياله ، قادر على استخراج عدد من المقولات او التعاويذ السحرية التي ستمكنه من إخضاع الواقع تأمليا . إن هذا هو الخطأ الذي يقع فيه الانسان النظري ، النبي ، الغيبي ، الميتافيزيقي ، وهو الخطأ ذو الشــكل المرضي الذي يقع فيه المصاب بمرض العصاب . إنه بقايا البدائي المؤمن بالسحر ، الموجــودة فينــا جميعا . وهو يأخذ لدى **شو** شكلا برجوازيا متميزا . **فشو** يرى بأن الحقيقة تجلب الحرية ، غير أنه يرفض أن يرى أن هذا الفهم هو نتاج اجتماعي ، وليس شيئا يمكن لانسان ذكي أن يجده بمفرده . ويصر **شو** على اعتقاده القائل بأن انسان الروح الافلاطوني عنده قادر على انتزاع الحكمة الصافية على شكل أفكار مسيطرة على العالم ، ومن خلال المناقشة والمحاكمة الفعلية ، دون العمل الاجتماعي وصولا الى صياغة وعي أعلى جديد .

ومن الجدير بالملاحظة ، أن الفنان الحقيقي ، مثله مثل العالم الحقيقي ، لا يقع في مثل هذا الخطأ . فكلاهما يجد نفسه ، المرة تلــو المرة ، مدفوعا الى الاتصال بالواقع : فهما يرغبان في الواقع ويبحثان عنه خارجهما .

إن الواقع مادة عظيمة وقاسية ، ويتضاعــف تعقيدها مع ازدياد معرفة الانسان لها . فمعرفة الواقع تتطلب الجهود المبذولة والمراكمة اجتماعيا من قبل أجيال من البشر . فقد غدت العلوم على درجة من التعقيد ، بحيث لا يستطيع المرء ان يطمح الى اكثر من امتلاك زاوية صغيرة من زواياها ، امتلاكا كاملا . إن الحلم القديم بالموسوعيــة المعرفيــة بالنسبة لعقل واحد قد تلاشى . وعلى الناس ان يقتنعوا بالتعاون عن طريق تقديم بعض الخيوط الى اللوحة الواسعة والكبيرة ، وحتى هذه الخيوط القليلة قد تكون على درجة من التعقيد تصل الى مستوى تعقيد مخطط عظيم كمخطط **نيوتون** او **دارون** .

وشو بفرديته البرجوازية ، فارغ الصبــر من الحدود التي تضعها العلوم في طريق عقل نفاذ واحد ، يريــد فرض هيمنته على الواقع . لا يستطيع **شو** أن يحلم بالسيطرة على آلية العلم . لذا ، نجده يعمل على تكنيسها من طريقه بعجرها وبجرها ، يقول **شو** إن من العبث ان تكون الشمس على بعد تسعين مليونا

من الأميال عن الأرض ، والاصطفاء الطبيعي أمر غير مقبول . لذا ، فبدلا من هذه المفاهيم ، التي يتم التوصل اليها بكل ذلك القدر من العمل ، يسوق **شو** آراء استخلصت ، بكل صفاء ، من رغباته ، مثل تلك التي نجدها عند أي غبي من الهنود ينظر للعالم . مزيلا جانبا كل العلوم بوصفها هراء ، يفيد **شو** كتابة تاريخ الواقع بعبارات « **قوة حياة** » متطبب السحر ، ورب الغد المعبود ، إن علم الكوزمولوجيا (الفضاء) الشوي (نسبة إلى **شو**) بربري : إنه مثالي . إن **شو** يفرض سيطرته على بيئته القاسية المزعجة والشائكة عن طريق المنهج العصابي المألوف ، عن طريق فرض سلسلة من الأوهام المتخلية من نوع أحلام اليقظة . وليس هذا لأن **شو** أحمق ، بل لأنه ، بالتحديد ، مأخوذ بالذكاء الحاد طبيعيا ، فحدة هذا الذكاء ، بالذات ، أعطته كبرياء تجعله يشعر بأنه ينبغي أن يكون قادرا على السيطرة على كل المعرفة ، دون أية مساعدة اجتماعية ، عن طريق النشاط العقلي الصرف . وهو لن يعترف ، الا عرضا ، بالطبيعة الاجتماعية للمعرفة . وهكذا فاننا نعثر في كوزمولوجية على تأثير شبيه بتأثير ذلك الطبيب اللامع ، بصورة استثنائية ، وهو ينظر للحياة . ونظرا لان المثقف المتوسط لا يزال يعاني من مرض التنظير البربري ، فليس من المفاجيء الا يتحرى الفجاجة الاساسية في فلسفة **شو** ، إنه برجوازي يتحدث الى برجوازي .

من البربرية أن تؤمن بالعمل دون الفكر ، تلك هي الهرطقة الفاشية . غير أنه من البربرية ، على المستوى نفسه ، أن تؤمن بالفكر دون العمل ، وهذا هو عين الهرطقة البرجوازية . ان الفكر معرض لان يشل – او لأن يجري مثل الآلة التي لا تطحن شيئا – إذا ما تم تجريده من العمل . فالفكر يقود العمل . غير أنه يتعلم من العمل كيفية القيادة . إن على الكينونة ان تسبق المعرفة ، تاريخيا وعلى الدوام ، لأن المعرفة تنمو كامتداد للكينونة .

إن ايمان **شو** البرجوازي الغريزي يتفوق الفكر المجرد وسموه واضح ، بالطبع ، ليس فقط من كوزمولوجيته المضحكة ويوتوبيته الخائبة ، بل ومن بنولوجيته البطلرية ، حيث يقرر حيواناته المختلفة ما إذا كانوا يريدون أعناقا طويلة وما إلى ذلك ، وينجحون ، عبر تركيز عقولهم على هدفهم ، في تحقيق ما أرادوا . ومع ان البطلرية هذه لم تكن اقل بعثا على السخرية من لاماركية جديدة ، فقد كان لها تأثير عاطفي عملاق على العقول البرجوازية . فهي تخاطبها بقوة ، حتى ان العلماء المتزنين ، حتى عند اعترافهم بعدم وجود ذرة من الدليل لصالح هذه الفرضية في حين ان كل الدلائل هي لصالح وجهة النظر المقابلة ، يصرون على اصدار موافقتهم المشروطة عليها ، لأنها تبدو على هذا المستوى من « الروعة » . فبالنسبة لعقل وقع تحت كابوس مفاهيم الحرية البرجوازية والاستقلالية الذاتية للعقل الفردي ، يبدو مثل ذلك المفهوم واغدا ببديل عن الجنة التي تنفيها الحتمية .

لو لم تعم فابية **شو** أعماله كلها ، مجردة إياها من كل حتمية فنية وسياسية ، على حد سواء ، لهان الأمر . فالايمان بالتفوق الوحيد للفكر جعل كل مسرحياته خلوا من الانسانية ، لان شخصياته تمثل كائنات بشرية على شكل عقول متحركة . ولحسن الحظ ليس الناس كذلك ، والا فان الجنس البشري كان ينبغي له ان يزول منذ أمد بعيد ، متلاشيا في وهم حلم منطقي او ميتافيزيقي . إن المخلوقات البشرية هي جبال من الكينونة اللاواعية ، تجوب غابات الغريزة والحياة البسيطة ، مع نوع من الوعي الفوسفوري عند القمة . وهذا الأفق الفوسفوري الواعي تستمد قيمته وقوته من العواطف ، من الغرائز : وشكله ، فقط ، هو المستمد من الصيغ العقلية للفكر . وجيلا بعد جيل يسعى الانسان ليجعل هذا الوعي أكثر حدة ، الفنان عبر جعل العواطف اكثر ذكاء وحدة ، والعالم من خلال جعل قالب الفكر اكثر امتلاء وأبعد واقعية ، وفي كلا الحالين يتم الأمر عبر إحراق المزيد من الكينونة بين ألسنة اللهب . وعلى أي حال ، فان **شو** يعاني من كابوس اللهب الصافي ، الافق الفوسفوري المعزول عن الكينونة . إن الأفكار ، التي تم تجريدها بهذه الطريقة ، تغدو فارغة وصغيرة ، وارتطامها يعطي صوت رنين بعيد تتردد اصداؤه في الآذان . وتتحول مسرحيات **شو** الى « بالية غير أرضي لمقولات دون دماء » .

إن خليط التفكير والشعور بالوعي هذا ليس هو مصدر القوة الاجتماعية ، بل واحدا من دعائمها ، فالمجتمع بمشاغله ومبانيه وثباته المادي هو موجود دوما ، تحت الكيان الواقعي ، وهو نوع من الخزان الكبير الواسع للمجهول ، واللاوعي واللامعقول في كل انسان ، حتى أن بمقدورنا القول ، عن أي كائن ، بأن حياته الواعية ليست الاومضة طارئة على سطح كتلة كيانه ، ككل . فضلا عن أن هناك نوعا من القساوة الدرقية ، مثل قساوة غطاء السلحفاة ، حول الجزء الواعي من المجتمع ، الذي يقاوم التغيير ، حتى عندما تكون التغيرات في المادة والتكتيك وفي الكيان التفصيلي الواقعي ، في ظل تلك التعميمات ، مستمرة في الحصول . وهذا يبرز في كل انسان أزمة هي ، في حقيقة الأمر ، قوة ديناميكية في المجتمع ، تنتج الفنانين والشعراء والانبياء والمجانين والمصابين بالعصاب ، جنبا الى جنب مع كل الشكوك والدوافع واللامعقولات والمحاكمات العاطفية المفاجئة الصغيرة ، كل المسرات وأسباب الرعب ، كل الأشياء التي تؤلف الحياة وتجعلها كما هي ، مثيرة الفنان ومرعبة المصاب بمرض العصاب . إن ذلك كله هو حاصل جمع الصعب والمعادي للمحافظة ، والثوري . إنه كل ما لا يستطيع أن يرضى بالحاضر ، ولكنه يجعل المحبين يتعبون من الحب ،. والأطفال يهربون من دوائرهم الأبوية السعيدة ، والرجال ينفقون أنفسهم في سبيل أعمال لا طائل وزاءها ، ظاهريا .

إن مصدر كل هذه السعادة وهذا الأسى هو التفاوت بين كينونه الانسان ووعيه ، الذي يحرك المجتمع وينفث الروح في الحياة . وكل هذه الحدة ، الأزمة ، أي كل ما هو تحت مستوى المجال الفكري الميت ، مسموح وملغى في قاموس **شو** . وحب الحياة ، الذي يشكل بديله اللاهوتي الفظ لهذا الكيان الفعال الواقعي ، هو نفسه مدرك عقليا . وهكذا ، فان شخصياته ليست بشرية : فجميع صراعاتهم تمت على المستوى العقلي ، وما من أي من هذه الصراعات يصل الى أي حل – إذ كيف يمكن للمنطق ان يحل طروحاته الخالدة التي لا يمكنها ان تتركب معا الا عبر العمل ، عبر الفعل ؟ هذه الأزمة توجد « ابطالا » مثل **قيصر وجان دارك** ، يستحضرون الى الوجود ، استجابة للمؤشرات غير المصاغة للتجربة ، قوى فكرية وعقلية عملاقة لا يعرفون شيئا عن طبيعتها ، ومع ذلك فان التاريخ يبدو وكأنه رهن إشارتهم . مثل هؤلاء الأبطال لا يمكن استيلادهم من **شو** فهو محكوم بان يفترض بان كل ما انجزوه انما كانوا يريدونه بملء ارادتهم . ولذلك فان هؤلاء الأبطال يبدون بالنسبة له كما لو كانوا شخصيات نظيفة صغيرة في كتاب للتاريخ البرجوازي ، بعيدين كل البعد عن ان يكونوا بشرا ، ويعتبرون حياتهم هادئة كما لو كانوا أوراق امتحان لمادة « تيارات التغير الاجتماعي » . وهذه المسرحيات ليست دراما . فهذا الذي نقرأه أو نراه على المسرح ليس فنا ، بل مجرد جدل ونقاش ، فضلا عن أنه ، وبنفس القدر ، مفتقر الى الحلول ، والنهاية المأساوية ، والتطور الزمني او الوحدة الفنية .

ولهذا السبب بالذات فان **شو** هو نوع من الارستقراطي الفكري (الثقافي) ، وما من أحد غير قادر على الاعلان عن دوافعه ، عقليا ، وبكل الدقة ، لحظة الطلب ، يظهر في مسرحياته ، إلا كشخصية هزلية أو ثانوية . فالممثلون لا شيء ؛ والمفكرون هم كل شيء . وحتى ذلك الذي يكون في الحياة قويا ومرعبا ، ودون قدر ينكر من الدماغ – « عشيقة » ، « الميجر باربارة » – يجب ان يتحول الى منظر ثاقب الرؤية قبل (كما يتوهم **شو**) ان يتمكن من ان يغدو مؤثرا على خشبة المسرح . غير أننا جميعا نعرف ونعجب بشخصيات تخلو من القدرة على الصياغة الفكرية ، تبدو مع ذلك في تأثيرها على الواقع اكثر نبلا وعظمة واشد قوة وتأثيرا من اي من أصدقائنا المثقفين . ونحن نعرف ، بما فيه الكفاية ، انه في الحياة وعند كل الحوادث ، لا يكفي الفكر وحده لتسيير العالم ، ونعترف بذلك من خلال ولائنا للفن « الايمائي » و « غير المعقول » الفن الذي يخاطب التجربة المجردة عندنا ، محركا اياه ودافعا له الى نوع من الوعي العاطفي السابح في الفضاء (الطائفي) ؟ ما من احد من هذه الشخصيات التي كانت ذات اهمية في اي من مجالات الحرب والفن والسياسة والاخلاق في تاريخ العالم يظهر في مسرحيات **شو** فهو غير قادر على رسم شخصية تترك انطباعا ما الا اذا كانت ذات قدر على المحاججة

والجدل في ميدان الجدل البرجوازي . ونقطة الضعف هذه ، بطبيعة الحال ، تظهر عند بروليتارييه . ومثل البروليتاريين في معسكرات جيش الميجر باربارة ، فهم صور كاريكاتورية بكل بساطة . ولا يصبحون جديرين بالاحترام الا اذا كانوا « مثقفين » ؛ مثل السائق في « مان وسوبرمان » .

وينتج من ذلك أن عالم شو المثالي ليس عالما شيوعيا ، بل عالم تحكمه نخبة من المثقفين « الساموراي » (الفرسان) تكون دليلا للعمال الفقراء المشوشين المرتبكين ؛ إنه عالم الفاشية . لأن المثقفين البرجوازيين أسرى فكرتهم الخاطئة عن طبيعة الحرية نقائض الحرية بسبب التناقضات الأساسية الكامنة في تصورهم للحرية ، إنهم الفاشية بالذات . إن جمهورية شو الفاضلة هي عالم مخطط يفرض من الأعلى حيث تبقى أمور التنظيم بيد أيدي البيروقراطية المثقفة . ومثل هذا العالم مرفوض ، ويجري نفيه من قبل العالم الشيوعي ؛ حيث ساهم الجميع في الحكم ، وكلهم مثقفون ، ولا طلاق بعد الآن بين الكنون والقصور ، يتعلمون من العالم الواعي بمقدار ما يتطلب العمال دليلا من الفكر . إن الهوة الطبقية القدرية بين الفكر والممارسة يجري ردمها وجرها . وهذا العالم بموظفيه الذين يمكن استبدالهم ؛ لأنهم لم يدربوا خصيصا للقيام بمهمة محددة ، هو نقيض الحلم أو الكابوس الفاني القديم ، الجمهورية أو المدينة الفاضلة الطبقية حيث تأخذ الطبقة الحاكمة شكل البيروقراطية المثقفة والمدربة الخالدة ، التي تتولى زمام سلطات الدولة لـ « صالح » البروليتاريا . لقد كان هذا العالم حلما جميلا في نظر الطبقة الوسطى ، التي لم تكن تملك العالم ، مثل الرأسمالية ، ولا عندها اليقين بامتلاكها ، ذات يوم في المستقبل ، مثل البروليتاريا ، إنه حلم مستحيل التحقق ، ولكنه مع ذلك قادر على ابعاد المثقف عن البروليتاريا وتحويله الى قلعة للرجعية والفاشية ، ولا يزال شو أسير فكرة الحرية كنوع من العلاج يستطيع صاحب الارادة الطيبة أن يفرضها على العامل « الجاهل » من الخارج . مثل هذه الحرية يمكنها أن تكون علاجا بالنسبة للبرجوازي ، لا بالنسبة للعامل . وهو ـ أي شو ـ لا يرى انه لا المثقف ولا العامل يمتلك هذه الحرية المجانية حتى يعطيها لغيره ، فكلاهما سجين مقولات عصرهما ، وأن الشيوعية هي الابداع الخلاق للحرية الحقيقية التي لا يمكن حتى الآن أن يمنحها أي شخص . إنها رحلة استكشاف غير اننا متأكدون من شيء واحد . إن الحرية التي توصل اليها الروماني (مواطن دولة روما) والامير الاقطاعي ، والبرجوازي ، برهنت أنها وهمية ، لأن هؤلاء جميعا توهموا بأن الحرية يمكن ان تجدها هذه الطبقة الحاكمة أو تلك ومن ثم تفرضها على المجتمع . غير اننا قادرون على أن نرى بأنهم اخفقوا ، ولا يزال الانسان ، في كل مكان ، مكبلا بالقيود ، لأنهم لم يشاركوا عبيدهم وأقنانهم وبروليتاريتهم الكادحة في عملية مطاردة الحرية والقاء القبض عليها ؛ وهم لم يفعلوا ذلك لأنهم بعملهم ذاك كانوا سيكفون عن أن يكونوا طبقة حاكمة ، وذلك أمر مستحيل ، حتى تطورت القوى المنتجة بحيث اصبح وجود الطبقة الحاكمة أمرا غير ضروري . ولذلك فقبل أن ينطلق المثقف الذكي ذو القصد الطيب مثل شو بحثا عن هذه الحرية الصعبة ، يجب عليه أن يساهم في تغيير نظام العلاقات الاجتماعية ليصبح نظاما يكون فيه جميع الناس ، لا طبقة واحدة ، قادرين على الامساك بزمام المجتمع بين أيديهم . فللوصول إلى الحرية لا بد للمرء من أن يحكم نفسه ؛ ولكنه بسبب كونه يعيش في مجتمع ، وبسبب كون هذا المجتمع يعيش في ومن خلال العلاقات الانتاجية ، فان ذلك يعني أن بلوغ الناس الحرية لا بد له من تمكين المجتمع من السيطرة على العلاقات الانتاجية القائمة فيه ، إن امكانية أن يحكم الانسان نفسه تتطلب مسبقا أن لا يكون المجتمع محكوما من قبل طبقة لا ينتسب هو إليها . فالبحث عن الحرية لا يمكن ان يبدأ إلا في دولة لا طبقية ، حيث المجتمع يكون حاكما لنفسه بنفسه تماما ، إذ ذاك يستطيع الاهتداء إلى الطرق الصعبة للحرية . ولكن كيف يمكن تحقيق ذلك عندما يكون مصير المجتمع رهن طبقة معينة ، أو محكوما بمساومات السوق ، أو يتم ترتيبه من قبل حفنة من الساموراي ممشوقي القد ؟ وكيف سيتفق فرسان الساموراي هؤلاء فيما بينهم ، نظراً لأن أي اثنين من الفلاسفة لم يسبق لهما ان اتفقا حول الحقيقة

والعدالة المطلقتين ؟ هذا ولم يتم العثور ، بعد إلا على قاض وحيد ، للحكم على مدى صحة الفكر الا وهو العمل والممارسة الواقعية . ولكن كيف يمكن للمسألة أن تجد حلا لها في عالم يحكمه الفكر ويبقى فيه الفعل والممارسة ممنوعين من الكلام ؟ إن الفعل هو الذي يملأ كل مسام المجتمع : فحياة المجتمع هي من فعل الانسان . وما أن يتم تحديد شكل المجتمع عن طريق فكر حفنة أصحاب الامتيازات المنفصلين عن فعل الأكثرية وممارستها حتى يتعرض للتمزق والانحلال .

وبما أن شو ينكر ، ولو تلميحا ، الحقيقة الأولية التي تقول بأن الفكر يفيض عن الوجود ، وأن الانسان يغير من وعيه عن طريق تغيير علاقاته الاجتماعية ، هذا التغيير الذي هو نتاج ضغط الوجود الواقعي الكامن في تلك العلاقات . وبالضرورة يجب على شو أن ينكر فاعلية الفعل الثوري بالمقارنة مع النشاطات الدعائية . فمثل ويلز يؤمن بأن الوعظ وحده سيحرك العالم . غير أن تحرك العالم عبر المواعظ ، ومن خلالها وبمرافقتها ، لا يعني ان كل وعظ قادر على تحريكه ، بل يعني فقط أن الوعظ يتحرك بفعل قانون الحركة الذي يحكم العالم بأسره ، ذلك القانون الذي يماشي خط سير الفعل ، ويقطع نوى الأحداث ، ومع ذلك فان المثقف البرجوازي يبقى ، دوما ، على ايمانه بأن كل ما يقبله هو على أنه حقيقة وعدالة مطلقتين ـ مثل البنائية أو المداخيل المتساوية أو مكافحة التلقيح ، يمكن فرضه على العالم من خلال المناقشات والمحاججات الناجحة . ومثل هذه الصناعة هي التي تقف وراء مسرحيات شو .

ولكن شو يقع هنا في ورطة . فهو مطالب بأن يفرض حقائقه المطلقة على العالم ، من خلال المناقشة والاقناع . ولكن عالم اللامفكرين أو انصاف المفكرين الذي يفرضها عليه هو عالم جنس أدنى من المخلوقات ـ العمال العاديين ، ومجموعات غير المثقفين ، والجمهور البلاستيكي المتغير شكله الذي تنقذه أوامر لوردات الابداع والخلق الربانية من الكارثة . فكيف يمكن للمرء أن يزرع العقل في مثل هذا العالم ؟ وما الذي يمكن أن يخاطب عقله الطفولي اللاهي ؟ إن على المرء أن يعامله مثلما يعامل الاطفال ، عليه أن يغلف جرعات الحكمة والعقل بالسكر ، بالهزل ، بالحدث الحي والمستحيل .

وهكذا فان شو ، الذي منعه ايمانه بأولوية الوعي الثقافي (العقلي) من أن يصبح فنانا ، كان بفضل هذا الايمان بالذات ممنوعا من ان يغدو مفكرا جادا أو قوة واقعية في الوعي المعاصر . لقد أصبح مهرج العالم ؛ ولأن رسائله كانت دوما محاطة بأغلفة من الهزل فقد استقبلت دوما على أنها مثيرة للضحك . إن البرجوازية البريطانية التي تجاهلت ماركس ، وشوهت لينين ، وألقت بأمثال توم مان عندها في غياهب السجون ، اعتبرت شو نوعا من مهرجي البلاد ، مع مظاهر التسامح ورحابة الصدر . فالذين قام باحتقارهم واستصغار شأنهم ، احتقروه واستصغروا شأنه . إن طبقة السكر التي غلف بها حباته جعلت هذه الحبات عديمة الاثر .

وعلى النقيض ، فان ماركس لن يحاول أن يخاطبه « راس المال » الأدمغة المتعبة الخاملة للبرجوازية البريطانية . ولم يحاول أن تصل مبيعات مؤلفاته أرقاما قياسية ، أو أن يقنع آراءه بنجاحات الوست اند West End (أبو رمانة لندن ـ المترجم) ولم يجر مقابلات ساخرة وهزيلة مع الصحافة العصرية . فاسمه لم يكن معروفا إلا عند عدد قليل من انجليز زمانه ، في حين ان اسم شو معروف لدى الملايين . غير انه (ماركس) بسبب كونه قد أدى رسالته بصدق وجدية ، معاملا لجنس البشري كبشر متساوين معه ، فان رسالته استقبلت استقبالا جادا وحسنا . ولأنه لم يؤمن بأن الفكر هو الذي يحكم العالم ، بل انه تابع للفعل . فان فكره كان أكثر قدرة على خلق العالم من فكر أي رجل آخر في التاريخ . فهذا الفكر لم يبين حضارة جديدة على سدس سطح الكرة الارضية فقط ، بل أن كل العناصر الثورية في سائر البلدان يلتفون حول فكر ماركس ؛ وكل السياسة المعاصرة لا تكتسب أهميتها ومغزاها إلا بمقدار ما هي الى جانب ماركس أو ضده .

إن القول بأن عقل ماركس أكبر من عقل شو ليس جوابا شافيا . لا شك أنه لو كان شو ماركسا ، لكان ماركسا بالفعل . فما من أحد اخترع مقياسا لقياس حجم العقول بذاتها ، لأن هذه العقول ليست موجودة بذاتها ، بل إنها لا توجد إلا بتفكيرها العلني

أو المعلن . لقد كان شو وماركس كليهما رجلين لكل منهما عقل وقاد وحاد ، كما يتضح بجلاء من كتاباتهما ، وكلا الرجلين كانا يدركان ، بالتجربة ، مسألة انهيار العلاقات الاجتماعية البرجوازية الشرهة ، غير ان عقل احدهما كان قادراً على القفز إلى المستقبل ، في حين أن عقل الآخر ظل على الدوام حبيس المقولات البرجوازية التي يمقتها ويحتقرها . ونظراً لأن « شو » أدى رسالته بالكثير من التلطف والمسايرة والثرثرة ، متعاملا مع الجنس البشري على أنه في مرتبة أدنى منه ، فان رسالته قرئت كثيراً ولفتت القليل من الانتباه ، والرسالة نفسها تفضح زيف ولا واقعية الموقف الكامن وراءها .

اطلع « شو » على مؤلفات ماركس وهو بعد طري العود ، وتوفرت له لذلك فرصة أن يصبح ثورياً خطيراً بدلا من اصلاح يتمتع بالشعبية ويحلم بعالم يتم انقاذه على يد طبقة وسطى مهتدية وتائبة . وقرر ، رغم أن ماركس كشف له عن حقارة الحياة البرجوازية وزيفها ، أن يرفض الاعتراف بضرورة الاطاحة بهذه الطبقة المهترئة البالية في المستقبل . ومن هذه اللحظة انقسم شو ليفرز نقيض ذاته ، وليكون عدو نفسه .

وقراره هذا مفسر بتاريخه الشخصي . **فشو** ، الشاب الطموح المولود في أسرة من الطبقة الوسطى سقطت من مواقع الشهرة والمرتبة الاجتماعية الى الضيق والعوز ، قدم إلى لندن طلباً للنجاح ، متأثراً ـ منذ الصغر ـ بضرورة استرجاع المراكز الشووية السابقة ، وهنا عاش من الكتابة لفترة من الزمن فقيراً ، مثل أي عامل . غير أنه بفضل حيازته لبذلة رسمية ، وامتلاكه لشيء من الموهبة في العزف على البيانو ، كان ، مع ذلك ، قادراً على الاختلاط بأوساط كنسنجتون الراقية . وعندما واجهته امكانية البلترة تعلق بأذيال الطبقة البرجوازية . وبالطريقة نفسها . عندما وجه بمسألة البلترة الايديولوجية لدى قراءته لماركس ، واجهها وقاومها ، وهرب إلى الفابية بتقاليدها البرجوازية ، وبالاحترام الذي تحظى به على المستوى الاجتماعي .

إن القضية ورده عليها حددا أيديولوجيته وفنه ، أيضاً . فمعرفته بماركس مكنته من شن الهجمات المدمرة على كل المؤسسات البرجوازية . غير انه كان ، دائماً ، عاجزاً عن الاجابة على سؤال : **ما الذي يجب علينا أنْ نفعله الآن وهنا من اجل تحسيننا اضافة إلى الكلام ؟** وهذه القضية تبرز في أعماله ، المرة تلو المرة ، في « بيوت الأرامل » و « الميجور باربارة » و « وظيفة السيدة وارن » ـ وهي باستمرار **ملصقة الصاقاً** . علينا ان نقبل بالأشياء كما هي إلى حين تغيير النظام . ولكن دون اية خطوات مباشرة ، إلا الكلام ، تتخذ على الاطلاق في سبيل تغيير هذا النظام . « والميجر باربارة » تنتهي مرعوبة في البداية من اكتشافها أن المسيح ، الذي تؤمن به ، باع نفسه لرأس المال ، تنتهي إلى لا شيء من خلال زواجها بمدير معمل الاسلحة الذي اشتراه مالكه . وشو نفسه الذي اكتشف أن الطبقة الحاكمة فاسدة حتى الاعماق ، وبنت مجدها على استغلال العمال ، ينتهي مع ذلك بالزواج أيديولوجياً بالمال والاحترام والشهرة والاصلاح السلمي ، واخيراً حتى بموسوليني . فالذي لا يخطو خطوات نشيطة على طريق تغيير النظام ، لا يسعه إلا أن يساعد على المحافظة على هذا النظام .

ومع ذلك فان مجرد كون شو قد قرأ ماركس جعله قادراً على فهم التناقضات الأساسية في هذا الحل . ولهذا السبب نجد مسرحياته مملوءة بالتوبات المقحمة قصداً ، والادانات غير المقنعة ، إضافة إلى هروب عام من الواقع عبر قنوات الخيال والسخرية .

لقد تعامل شو ، بالكثير من البساطة في حياته ، مع مسألة البضائع المزيفة (المصبوغة) الناجمة عن معاناة الحيوانات . فاللحوم والمصول ، الأولى من ذبح الحيوانات والثانية من تشريحها وهي على قيد الحياة ، يجب ألا تستخدم ، رغم أن العمل الشرير يستمر غير مبال بشيء ، بصرف النظر عن عزوف هذا الانسان أو ذاك عنه . ولكنه غير قادر على مثل ذلك العزوف والرفض أزاء المال ، وكل الجوانب غير الملموسة من الوفاء البرجوازي ـ مثل أن يكون مثقفاً فابياً شهيراً بدلا من التعرض للاضطهاد كواحد من الثوريين الخطرين . فاللحوم والمصول ليست أساسية في حياة المجتمع ، ومن الممكن لذلك العزوف عنهما ، أما المال في المجتمع البرجوازي فهو الذي يبقي المجتمع واقفاً على قدميه ، ما من أحد يستطيع ان يأكل بدونه ، ولذا فان من المستحيل

« العزوف » عنه . ولكن هذا الأمر بالذات يفضح تفاهة النظرة العزوفية البرجوازية لدى شو إلى المسألة ، وهي شبيهة بنظرة المسالم الذي لا يريد القتال ولكنه يستمر في أن يأكل على حساب المجموع . إن موقف شو المزاجي من الشرور الاجتماعية يكشف النقاب عن جبنه أمام الشر الأول ، قمة الشرور ، مفصل المجتمع بالذات ، الذي يقبله في حين يعزف عن الشرور الاصغر والأقل أهمية . وهكذا ، فان نباته هي نوع من التعويض عن الخيانة التي يرتكبها ازاء القضية الأكبر ، وهي رمز لكل نظرته الاصلاحية ، فهو مستعد لأن يعزف ، ومستعد لأن ينتقد ، ولكنه ليس مستعداً لأن يفعل ، لأن يعمل ، وعدم استعداده الأخير هذا يفسر نقده ، ويجعل من عزوفه سلاحاً ماضياً بيد الرجعية . وهكذا فان المال ، عبر كل مسرحياته ومقدماتها ، هو الله ، وبدونه نحن لاشيء ، لاحول لنا ولاقوة . « أحصل على المال فيمكنك ان تصبح فاضلا ؟ وبدونه انت عاجز حتى عن البدء بأن تكون طيبا » . ويكرر شو هذه العبارة ، بكثرة وبصوت عال ، حتى انه يبدو كما لو كان تواقا لأن يقنع بها نفسه ، فضلا عن الآخرين ثم يسأل : « أترفضه ؟ وما فائدة غيرتك ؟ حتى لو القيت به في البالوعة ، فان احد الاوغاد سيلتقطه انتظر الى أن يتم تغيير النظام »

ولكن ، كيف سيتم هذا التغيير ؟ لا يقدم لنا شو جواباً مقنعاً ، ولا حاجة لاتهام « شو » بعدم الامانة عن وعي . فهو أسير مقولات الفكر البرجوازي ولا حول له . ولم يستطيع أنْ يرى ، لأن الكينونة هي التي تحدد المعرفة ، أن الطبقة البرجوازية مهما بلغت درجة « ذكائها » ، فحكومة بأن تنهار ، وأن العمال ، مهما بلغت درجة « غبائهم » ، قادرون على أن يلعبوا دوراً نشيطاً ومبدعاً في بناء حضارة جديدة على أنقاض الحضارة القديمة ، وعندما وقف شو أمام هذا الخيار : إما البرجوازية أو العمال ، بدت البرجوازية له ـ وهو المستند إلى كل بريق الثقافة البرجوازية ـ هي المفضلة على العمال الجهلة و « المحرومين من العقل » و « الأفظاظ القساة » نتيجة الفقر . ومن هنا نشأت قضيته الحياتية ! كيف يمكن اقناع هذه الطبقة البرجوازية بضرورة شجب وادانة خطاياها ؟ فقد توجب عليه أن يهديهم إلى سواء السبيل ، إلى التوبة ، أو يقف مكتوف الأيدي غارقاً في اليأس ، ومع ذلك لم يكن واثقاً بمستقبلهم في أعماق قلبه لأنه كان قرأ مؤلفات **ماركس** .

وقراره هذا ، الذي حددته طبقته من جهة وتجربته من جهة ثانية ، هو الذي قاد الى جميع مشاكله . فهو لم يستطع ، أبداً ، أن يقنع نفسه بالايمان في طبقة برجوازية جددتها الفابية ، وجاءت الاحداث لتزيد من البراهين الساطعة على بؤس مثل هذه الطبقة واهترائها . ومن هنا فان مسرحياته تصبح تافهة وضائعة اكثر فأكثر . فسفينة الحضارة « ارتطمت بالصخور » ، أو أن الحضارة أصبحت « في عربة التفاح » والغراء الوحيد يكمن في (قوة الحياة Life Force) المندفعة بصورة حتمية نحو (مدينة فاضلة Utopia (عودة إلى ميثوسيلاه (Back to Methuselah . أو يحاول ، كما في القديسة جون St. Jean أن يريح نفسه بالرجوع الى حقبة كانت فيها الطبقة التي ورط نفسه بها ، هذه الطبقة البرجوازية ، تلعب دوراً نشيطاً ومبدعاً : وهو تصور القديسة جون على أنها بطلة الفردية البرجوازية وبنيتها ، وسط ركام عصير وسيط محتضر . وفي « بيت القلوب المكسورة » يقوم بعملية تسجيل بسيطة للعزلة وزوال الوهم التشيخوفيين . (نسبة الى تشيخوف) واضح أن اخفاق « شو » كله ، وأن جميع الأشياء التي حالت بينه وبين تحقيق الآمال الفنية والثقافية المعقودة على مواهبه الاصيلة ، ناجم ، بصورة مباشرة تماماً ، عن اختياره القدري البائس للطبقة البرجوازية في فترة من التاريخ كان فيه مثل هذا الاختيار اختياراً خاطئاً . إن لا واقعية مسرحياته فضلا عن افتقارها إلى الحمم الدراماتيكي ، واحلالها للمناقشة محل الجدل الديالكيتك ، وايمانها بقوى حياتية وبمدن فاضلة (يوتوبيات) ، ومعالجتها المتكلفة (غير الاصيلة) للكائنات الانسانية المحبة ، وافتقارها الى المعرفة العلمية ، وانشداد وتر الشعوذة والدجل بشكل غريب في كل ما يقوله شو ، كما لو كان رجلا بخداعه للآخرين يخدع نفسه ، أيضاً لأنه يحتقر نفسه ، غير انه يحتقر الآخرين أكثر ، كل هذا ناجم عن الخيار الذي اختاره .

أدى شو رسالة مفيدة في فضح نقاط ضعف الطبقة البرجوازية . فهو يفضح تفسخ ثقافتها . ولكنه ، في الوقت نفسه ، يضع المستقبل بين أيديها ؛ غير انه لا هو ولا قراؤه ، يستطيع أن يقتنع بنجاح نلك ؛ وهكذا فانه يصور النكاء البرجوازي ، بصورة رمزية ، على حقيقته اليوم موصوماً بالعار فاقداً الثقة بنفسه . إنه يلعب دوراً ايجابياً نشيطاً بسبب كونه واحدة من قوى الهزيمة واليأس التي تساعد في اهتراء عالم ولى زمانه . وليس هذا الاهتراء والانحلال اكثر من انحلال باتولوجي (مرضي) في حال غياب قوى الثورة الايجابية النشيطة ، التي تستطيع أن تحطم البنيان المتفسخ ، وتجدد بناءه . ان شو لم يصل ، أبداً إلى مثل هذه القناعة ، كما أنه لم يصل إلى الرؤية اللازمة لها . فهو يقف بجانب كل من **ويلز ولورنس وبروست وهوكسلي ورسل وفوستر ووسرمان وهمنغواي وغالسوورثي** ، كنماذج للعصر ،

كأناس يعلنون عن زوال أوهام الثقافة البرجوازية حول ذاتها ، كأناس هم انفسهم تخلصوا من الوهم ، ولكنهم مع نلك عاجزون عن أن يعقدوا الآمال على أي شيء أفضل أو يمتلكوا رؤية أوضح لهذه الثقافة البرجوازية التي أودى ركضها وراء الحرية والفردية بالناس الى المستنقعات الموحلة ، إنها ، دوماً ، حريتهم هم ، تلك التي يدافعون عنها . وهذا يجعلهم أشخاصاً مرضى ، اكثر من ان يكونوا تراجيديين ، لأنهم عاجزون ، لا بسبب الظروف المعقدة بل بسبب أوهامهم هم بالذات .

طفولتان وعالمان

يوسف عبد الحميد

١ ـ الطفولة السعيدة مرآة النظام الاشتراكي

ثمة طبقة واحدة في الاتحاد السوفييتي، لها امتيازات خاصة تتمتع بها ، هي الاطفال ... اضحى هذا القول شائعاً في العالم ، يشهد بـه كل من عرف هذا البلد ، ودرس تجربته عن كثب .. أو اطلع اطلاعاً ، ولو بسيطاً ، على تطوره وتقدمه . وهذا القول لا ينطبق على الاتحاد السوفييتي وحده ، بل ينطبق على كل البلدان الاشتراكية الأخرى .. لماذا الأطفال هم « الطبقة » الوحيدة التي تتمتع بالامتيازات الخاصة في هذه المجتمعات الاشتراكية ..

يكمن الجواب في السؤال نفسه ، لأن هذه المجتمعات اشتراكية : ينتفي فيها البؤس ، والقهر ، والاستغلال وفي مجتمع ينتفي فيه البؤس ، والقهر ، والاستغلال تكون فيه الطفولة سعيدة . والطفولة السعيدة عنوان لمجتمع سعيد ، وعنوان لمستقبل سعيد أيضاً .

ان علم التربية في الاتحاد السوفييتي ، مكرس لتكوين شخصية متطورة ، منسجمة ، مبدعة ، تعرف المسؤولية وتمارسها إزاء المجتمع ، منذ سن الطفولة ، وحتى بقية المراحل الأخرى . ورعاية الدولة السوفيتيية تبدأ من الأيام الأولى لولادة الطفل ، من خلال الشبكة الواسعة لدور الحضانة ، ورياض الأطفال ، التي تتلقى الأطفال منذ الأيام الأولى لولادتهم وحتى التحاقهم بالمدارس الابتدائية .

ومنذ أن انتصرت الثورة في عام ١٩١٧ ، أصبح الاهتمام بالأطفال ، أهم مهام الحكومة الثورية الجديدة .

وبرغم الحرب العالمية الأولى ، والحرب الأهلية ، وما خلفتاه من دمار ، وأطفال يتامى ، كان الاهتمام منصباً ، في الدرجة الأولى ، على رفع الرعب ، والبؤس ، وتخفيف الآلام عن الأطفال ، الذين بلغ عددهم ، في نلك الوقت ، اربعة ملايين ونصف مليون طفل .

وفي تلك السنوات العصيبة ، بالذات ، في ٤ كانون الثاني ١٩١٩ ، وقع لينين على رسوم تأسيس « **مجلس حماية الأطفال** » ، حيث جاء فيه :

« ينبغي اعتبارا قضية تزويد الأطفال بالطعام ، والملبس ، والمأوى ، والوقود ، والمساعدة الطبية ، واجلاء الأطفال إلى المقاطعات الزراعية إحدى أهم مهام الدولة » .

أدى شو رسالة مفيدة في فضح نقاط ضعف الطبقة البرجوازية . فهو يفضح تفسخ ثقافتها . ولكنه ، في الوقت نفسه ، يضع المستقبل بين أيديها ؛ غير انه لا هو ولا قراؤه ، يستطيع أن يقتنع بنجاح نلك ؛ وهكذا فانه يصور النكاء البرجوازي ، بصورة رمزية ، على حقيقته اليوم موصوماً بالعار فاقداً الثقة بنفسه . إنه يلعب دوراً ايجابياً نشيطاً بسبب كونه واحدة من قوى الهزيمة واليأس التي تساعد في اهتراء عالم ولى زمانه . وليس هذا الاهتراء والانحلال اكثر من انحلال باتولوجي (مرضي) في حال غياب قوى الثورة الايجابية النشيطة ، التي تستطيع أن تحطم البنيان المتفسخ ، وتجدد بناءه . ان شو لم يصل ، أبداً إلى مثل هذه القناعة ، كما أنه لم يصل إلى الرؤية اللازمة لها . فهو يقف بجانب كل من **ويلز ولورنس وبروست وهوكسلي ورسل وفوستر ووسرمان وهمنغواي وغالسوورثي** ، كنماذج للعصر ،

كأناس يعلنون عن زوال أوهام الثقافة البرجوازية حول ذاتها ، كأناس هم انفسهم تخلصوا من الوهم ، ولكنهم مع نلك عاجزون عن أن يعقدوا الآمال على أي شيء أفضل أو يمتلكوا رؤية أوضح لهذه الثقافة البرجوازية التي أودى ركضها وراء الحرية والفردية بالناس الى المستنقعات الموحلة ، إنها ، دوماً ، حريتهم هم ، تلك التي يدافعون عنها . وهذا يجعلهم أشخاصاً مرضى ، اكثر من ان يكونوا تراجيديين ، لأنهم عاجزون ، لا بسبب الظروف المعقدة بل بسبب أوهامهم هم بالذات .

طفولتان وعالمان

يوسف عبد الحميد

١ ـ الطفولة السعيدة مرآة النظام الاشتراكي

ثمة طبقة واحدة في الاتحاد السوفييتي، لها امتيازات خاصة تتمتع بها ، هي الاطفال ... اضحى هذا القول شائعاً في العالم ، يشهد بـه كل من عرف هذا البلد ، ودرس تجربته عن كثب .. أو اطلع اطلاعاً ، ولو بسيطاً ، على تطوره وتقدمه . وهذا القول لا ينطبق على الاتحاد السوفييتي وحده ، بل ينطبق على كل البلدان الاشتراكية الأخرى .. لماذا الأطفال هم « الطبقة » الوحيدة التي تتمتع بالامتيازات الخاصة في هذه المجتمعات الاشتراكية ..

يكمن الجواب في السؤال نفسه ، لأن هذه المجتمعات اشتراكية : ينتفي فيها البؤس ، والقهر ، والاستغلال وفي مجتمع ينتفي فيه البؤس ، والقهر ، والاستغلال تكون فيه الطفولة سعيدة . والطفولة السعيدة عنوان لمجتمع سعيد ، وعنوان لمستقبل سعيد أيضاً .

ان علم التربية في الاتحاد السوفييتي ، مكرس لتكوين شخصية متطورة ، منسجمة ، مبدعة ، تعرف المسؤولية وتمارسها إزاء المجتمع ، منذ سن الطفولة ، وحتى بقية المراحل الأخرى . ورعاية الدولة السوفيتيية تبدأ من الأيام الأولى لولادة الطفل ، من خلال الشبكة الواسعة لدور الحضانة ، ورياض الأطفال ، التي تتلقى الأطفال منذ الأيام الأولى لولادتهم وحتى التحاقهم بالمدارس الابتدائية .

ومنذ أن انتصرت الثورة في عام ١٩١٧ ، أصبح الاهتمام بالأطفال ، أهم مهام الحكومة الثورية الجديدة .

وبرغم الحرب العالمية الأولى ، والحرب الأهلية ، وما خلفتاه من دمار ، وأطفال يتامى ، كان الاهتمام منصباً ، في الدرجة الأولى ، على رفع الرعب ، والبؤس ، وتخفيف الآلام عن الأطفال ، الذين بلغ عددهم ، في نلك الوقت ، اربعة ملايين ونصف مليون طفل .

وفي تلك السنوات العصيبة ، بالذات ، في ٤ كانون الثاني ١٩١٩ ، وقع **لينين** على رسوم تأسيس « **مجلس حماية الأطفال** » ، حيث جاء فيه :

« ينبغي اعتبارا قضية تزويد الأطفال بالطعام ، والملبس ، والمأوى ، والوقود ، والمساعدة الطبية ، واجلاء الأطفال إلى المقاطعات الزراعية إحدى أهم مهام الدولة » .

وفي شباط عام ١٩٢١ قررت اللجنة المركزية لعموم روسيا تأسيس لجنة لتحسين حياة الأطفال ، وأصبح شعار حماية الطفولة من البؤس ، والتشرد ، والحاجة ، الشعار الرئيسي لتلك المرحلة . وشارك في تلك اللجنة ممثلون عن المفوضية الشعبية للتعليم، واللجنة الطارئة ، ومنظمات الشباب .

وبعد ذلك بمدة قصيرة ، افتتحت بيوت الأطفال ، التي خصصت للأطفال البائسين . ورغم الوضع الاقتصادي الصعب ، الذي كانت تجتازه البلاد ، فقد كانت هذه البيوت تحصل على احتياجاتها ، وتحتل المرتبة الأولى في تلبية كل متطلباتها .

وهناك اعتقاد خاطىء ، يسود بعض الأوساط ، حول مسؤولية العائلة السوفييتية في تربية الأطفال ، اذ تعتقد هذه الأوساط أن تقدم المجتمع السوفييتي نحو الشيوعية سيحرر العائلة من واجب تربية الأطفال .. إن هذا الراي غير صحيح اطلاقا : اذ أن تخفيف الجانب المادي ـ الاقتصادي والعملي من المعيشة ، وجعله عقلانيا ، والعمل على ازدهار الجانب الروحي والخلقي للعلاقات العائلية ، يضمن إمكانيات أوسع لقيام العائلة بالتربية .

لقد أكد مؤتمر المعلمين لعموم الاتحاد السوفييتي ، الذي انعقد في موسكو ، عام ١٩٦٨ ، أن وحدة جهود العائلة ، والمدرسة ، والأوساط الاجتماعية ، هي جزء لا يتجزأ من علم التربية السوفييتي .

ولا تملك العائلة ، خيار اعتبار التربية عملا شخصيا ، يمكن اداؤه أو عدم أدائه ، لأن تربية الأطفال والاهتمام بتطورهم الشامل واجب مباشر للوالدين ، وهما مسؤولان عن ذلك امام المجتمع .

ان الأساس الفكري لنظام التربية ، والتعليم في الاتحاد السوفييتي ، والدول الاشتراكية الأخرى مستمد من النظرية الماركسية ـ اللينينية ، في نفس الوقت الذي لا يغفل هذا النظام منجزات العلماء الآخرين ، القدامى ، والمعاصرين ، سوفييت وأجانب .

وتبدو مساهمة المربي الروسي الكبير ، **ك. د اوشينسكي** ، بشكل ملحوظ في انتشار نظام التربية السوفييتي ، استنادا الى موضوعته القائلة « بأن المعرفة الشاملة للطفل شرط مهم للتربية والتعليم الناجحين ، وأن على المربي ان يسعى الى أن يعرف الانسان ، كما هو في الواقع ، بكل مواطن ضعفه ، وبكل عظمته ، بكل احتياجاته اليومية البسيطة ، وبكل متطلباته الروحية السامية ، كما يجب على المربي ان يعرف الانسان في العائلة ، وفي المجتمع ، وسط الناس ، وسط البشرية ، ووحده امام ضميره ، بكل الأعمار ، في كل الطبقات ، والأوضاع ، في السراء والضراء »(١) .

وتعتبر تنشئة الأطفال السوفييت على حب العمل وممارسته ركنا اساسيا من اركان التربية السوفييتية : وذلك لان العمل الحر ضروري للانسان ، ولأنه خير وسيلة لتكوين الكيان الخلقي للفرد .

وقد أدت المربية السوفيتية الكبيرة ، **ن.ك كروبسكايا** ، زوجة ورفيقة **لينين** ، دورا هاما في تطوير نظرية التربية الشيوعية ، وقد أعطت للأسس الجماعية ، في حياة الأطفال اهمية خاصة في تربية الانسان الجديد .. كما أولت اهمية خاصة للمشاعر المشتركة للأطفال ، المتعلقة بالأسس الجماعية ، وكانت ترى أن من الضروري وضع الطفل ، منذ سنواته المبكرة ، في ظروف تتيح له أن يعيش ، ويلعب ، ويدرس ، ويعيش افراحه وأتراحه ، مع الأطفال الآخرين والكبار . في الاحساس بانطباع مشترك يواشج بين التلامذة روحيا ، وكلما كان الأحساس بانطباع مشترك أكثر تنوعا وعمقا قوي هذا التواشج الروحي . واعتبار الفرد نفسه جزءا من كل يمتلك أهمية تربوية وانضباطية هائلة . ومن اهم أسس التربية السوفييتية ، ايضا ، اعتبار أن علم التربية الحقيقي هو الذي يكرر علم تربية المجتمع كله ...

وقد روعي ، على مستوى التربية والبرامج ، وكل ما يتعلق بحياة الطفل ، فهم العالم الداخلي للطفل ، فهم « وتره الخاص » الذي يجب أن يعزف عليه .. وقد أجرى العالم السوفييتي ، **فوفيلنسكي** ، الذي اهتم بهذه

الناحية أعمق الاهتمام ، تجارب طويلة في هذا الصدد ، وقد كتب : « هناك في مكان ما من ركن باطني ، من قلب كل طفل ، وتره الخاص ، وهو ينبض بنغمه الخاص ، ولكي يستجيب القلب لكلمتي يجب أن أدق ، أنا نفسي ، على هذا الوتر »(١) .

إن جوهر وروح التربية في المجتمعات الاشتراكية إبداع شخصية إنسانية تحس المسؤولية ازاء المجتمع ، وازاء العالم .. شخصية منسجمة ، ومبدعة ، تأخذ وتعطي ، وتتفاعل بحيوية ، وصحة . وتؤدي المدرسة دورا إيجابيا كبيرا في تربية المواطن ، إذا كانت هذه المدرسة تخضع لأصول تربوية صحيحة ، ففيها يتلقى الطفل المعارف ، ويدرب على إبداء الروح الجماعية في كل المواقف والقضايا ... إلا أن أهم دائرة تلعب الدور الاخطر في حياة الفرد هي دائرة العائلة : حيث يتكون المفهوم الانساني عن العالم ، والحياة .

وترينا قراءة سيرة حياة **لينين**(٢) كم كان لكل من ابيه ، وأمه ، وأخيه الكبير ، من تأثير هام على فكره ، وسلوكه ، ونزاهته ، وجديته ، وشعوره بالمسؤولية .

لقد كان أبوه مدرسا للفيزياء والرياضيات ، طاف في كثير من المدن ، وتعرف إلى الريف الروسي ، المتخلف ... وحمل في اعماقه معاناة الانسان في الأماكن التي عمل بها ، ونقل هذه المعاناة إلى الرجل الذي كبرت معاناته ، ورؤاه ، ومسؤوليته ، حتى شملت العالم .

ولقد كان الأب ديموقراطيا ، حيث ربى أطفاله على الأفكار التعليمية التي نادى بها الديموقراطي الثوري ، الروسي ، **ن. دوبرو ليوبوف** ... وقد غرس في نفوس الأسرة ، حب المعرفة ، وعلمهم أن يفهموا الحياة ، وأن يحاسبوا انفسهم ، وأن يشعروا بالمسؤولية حيال أعمالهم ، ونمى لديهم الأخلاص ، والصدق .

اما ام **لينين** ، فتصفها كثير من الكتب التي تعرضت الى حياة **لينين** ، بانها كانت أما رائعة .. ترعرعت في الريف ، وتعلمت في البيت ، وظلت ، حتى في أصعب لحظات الحياة ، نقية ، وطيبة ، ووفية لآرائها ومعتقداتها .. وكان يهيمن عليها ، باستمرار ، جو البساطة ، والانسجام . مما خلق في البيت جوا يعبق بالطمأنينة ، والرضا ، والمسؤولية ، وحب الحياة ، والآخرين .

اما الأخ ، فلقد كان بمثابة أب فكري **للينين** ... وهو الذي فتح آفاق **لينين** على الفكر الماركسي ، وقد تعود **لينين** ، في بداية حياته ، أن يستشير هذا الاخ في كل شؤونه . ومما يدلل على جو المسؤولية ، والتفتح ، والاهتمام ، والجدية في حياة هذه العائلة ، هو انها انشأت جريدة خاصة بها ، كان يشارك بها جميع أفراد الأسرة ، وكانوا يكتبونها بخط يدهم . لقد تكونت نظرة **لينين** عن العالم ، والحياة في هذه الاسرة التي عكست الاتزان ، والصحة العقلية ، والنفسية ، والتفكير المنطق ، والتعامل الديموقراطي ، على شخصية ، وسلوكه طيلة حياته .

من هنا فان الدستور السوفييتي لم يعف العائلة من التربية ، بل انه حملها مسؤولية اكبر ... في نفس الوقت الذي أتاح لها من المساعدات ما يمكنها من إيلاء التربية إهتماما اكبر ، بشروط افضل واكثر راحة .

(١) ف ١٠ سوخو ملينسكي ● **قلبي اهبه للأطفال** ● موسكو ب دار التقدم ، ١٩٦٩ ص ٨٣ .

(٢) **سيرة حياة لينين ترجمة عزيز سباهي**

كيف يطبق حق الطفولة في الاتحاد السوفييتي

يولد ، سنويا ، في الاتحاد السوفييتي ، اكثر من ٤,٥ مليون طفل .. كيف يستقبل الاتحاد السوفييتي هذا العدد من الأطفال ، وما هي الأمكانيات التي يوفرها لهم من أجل تطورهم الجسماني ، والفعلي ، والأخلاقي ؟

انشات الدولة السوفييتية شبكة واسعة من مؤسسات ما قبل المدرسة ، وخارج المدرسة ، والمؤسسات المدرسية ، التي يستطيع جميع أطفال البلاد التمتع بخدماتها :

● يوجد في الاتحاد السوفييتي ١٢٠,١ الف من رياض الأطفال ، ودور الحضانة ، تتسع لما يقارب من ١٣ مليون طفل .

● وفي فصل الصيف يعمل في جميع أنحاء البلاد مختلف المؤسسات الصيفية للأطفال دون السن المدرسية ، وملاعب الأطفال ، التي يتمتع بها حوالي خمسة ملايين طفل ... بالاضافة إلى مخيمات الطلائع التي يستريح فيها ، سنويا ، اكثر من عشرة ملايين من الفتيان والفتيات .

● أما قصور الرواد فيبلغ عددها ٤٦٠٠ قصرا وهناك ، ايضا ، الف محطة للتقنين الصغار .. وسبعمائة محطة للتلاميذ المحبين للطبيعة ،واكثر من مئتي محطة للجولات والسياحة .. واكثر من مئة وخمسين حديقة للاطفال ، واربعين سكة حديدية للأطفال ،و ٢٥٠ ألف مكتبة خاصة بالأطفال و ١٦٠ مسرحا خاصا بالأطفال ، ايضا .

إن هذه الارقام تشير الى القاعدة المادية الكبيرة التي تمكن أطفال كل عائلة سوفييتية من التمتع بها ، في تطوير الطفل ، ورعايته ،وتعويده على العمل للمستقبل . وفي الرياض يقضي الاطفال وقتهم تحت اشراف المربين والاطباء المتخصصين ... ويستوعب برنامج هذه الرياض مختلف الالعاب والاشغال ، الممتعة ، والهادفة الى اعداد الاطفال للدراسة في المدارس .

وقد دلت التجارب العملية أن الأطفال الذين يتخرجون من هذه الرياض اكثر نجاحا في سني حياتهم الدراسية من الأطفال الذين لم يتمكنوا من الدخول في مثل هذه الرياض ... كما تؤكد التجارب ، ايضا ، أمورا تتعدى النواحي الدراسية ، وهي قوة الشخصية ، ومرونتها ، والأستقلال في السلوك ، والتعامل الايجابي مع الآخرين .

إن هذه الرياض ، ودور الحضانة لا تعود بالنفع النفسي ، والمادي على الأطفال ، وحدهم ، بل انها توفر على الأمهات الكثير من المشاغل المنزلية للعناية بالطفل ، وتمكنهم من اختيار المهنة التي يردنها ، بالاضافة إلى عامل الراحة الذي يستشعرنه ، نتيجة الخدمات التي يتمتع بها الطفل ، واطمئنانهن إلى انه يخضع لأفضل سبل التربية الصحيحة . مع العلم انه توجد دور أخرى تمكن الأطفال من ان يقضوا فيها خمسة ايام في الاسبوع .

وتتحمل الدولة السوفييتية عبء اقامة الاطفال ، وما يترتب عليها في هذه المؤسسات ، وتبلغ تكلفة الطفل الواحد ، ما يقارب خمسماية روبل سنويا ... يدفع الآباء من هذا المبلغ خمسه تقريبا .وتهيأ لكل طفل في جميع هذه المؤسسات(قصور ودور الطلائع ومحطات الصغار المحبين للطبيعة ، وحدائق الاطفال) فرص تعلم الشطرنج ، والرياضة ، وذلك تحت قيادة مدربين مؤهلين ، ويتيح ذلك لهؤلاء الاطفال التطور الملحوظ ميدانيا ،بل انها تحدد ، الى درجة كبيرة ، اختيار المؤسسة التعليمية ، والمهنة الأساسية ، لكل طفل ، في المستقبل .

وتتجاوز عناية الدولة السوفييتية بالمواطنين الصغار مجال هذه المؤسسات ، إذ ان ذوي الأطفال ، يتلقون مساعدات اخرى ، خاصة الامهات الكثيرات الانجاب والأمهات الوحيدات ، والعائلات ذات الدخل المحدود .. اذ يقدم لهؤلاء الاشراف الطبي الشامل على صحة الأطفال ، والنساء ، وخلق ظروف ملائمة للاطفال الأيتام بشكل خاص ، والأطفال ذوي العاهات الجسدية .. كما ان هناك حماية حقوقية متنوعة لعمل النساء والقاصرين .

إن العودة إلى الماضي والتأمل في الحاضر ترينا الصورة المشرقة التي تكتنف عالم الأطفال . من خلال التطور الكبير الذي حصل ، والمساعدات التي قدمت :

ـ في سنة ١٩٤٠ كان في البلاد السوفييتية ٤٦ الفا من مؤسسات ما قبل المدرسة :

ـ لكنها قفزت ، في سنة ١٩٥٦ ،الى ٩١,٩ الفا :

ـ ووصلت في عام ١٩٧٥ ، الى ١١٥,٢ الف .. وهي ، في الوقت الحاضر ، اكثر من ١٢٠ الفا . وستعير السلطات السوفيتية اهتمامها ، في المستقبل ، للعملية الدراسية التربوية في مؤسسات ما قبل المدرسة ، والمؤسسات المدرسية ، لتعزيز قاعدتها المادية ، ورفع تأهيل المعلمين والمربين ، وذلك بالاستعانة بالوف الاختصاصيين ، وجماعات كاملة متخصصة في البحث العلمي .

وقد اتخذت مؤتمرات شعبية عدة في الاتحاد السوفياتي توصيات ، رفعتها الى السلطات المختصة ، لتخفيض يوم العمل للنساء ذوات الأطفال الصغار ، مما سيمكنهن من منح اطفالهن عناية أكبر .

كيف يربى الأطفال في السن ما قبل المدرسية

لنأخذ عينة واحدة من الرياض المتواجدة في الاتحاد السوفييتي ولنلق عليها نظرة متفحصة ، كي نرى أي عالم يعيشه الأطفال ، وكيف يربون ، ويعدون ، من اجل المراحل اللاحقة . **الروضة ٧٠٣** : روضة واقعة ، في موسكو ، في عمارة مشرقة ، ذات ثلاثة طوابق .. ويلحق بها كثير من الأجنحة الملونة ، تتناثر وسط الأشجار ، والأعشاب التي تزين المكان ... وثمة ، في كل مكان من هذه الروضة ، اطفال يلعبون .

غرف واسعة للعب .. وأخرى مريحة للنوم .. وصالات للدروس الموسيقية والرياضية ، ومطبخ .. اثاث خاص للاطفال ، على اختلاف اعمارهم ، نظافة مطلقة .. وفرة في الألعاب ، بحيث تلبي كل رغبات الأطفال من اجل أن توقظ فيهم القدرة على الخيال ، ولتطور التفكير والمشاعر ..

في الروضة مئة وثمانون طفلا لعمال ومستخدمين من أهالي المنازل المجاورة .. يقسم هؤلاء الأطفال إلى أربع جماعات . حسب العمر (بين ١,٥ سنة و ٣ سنوات) ، وثمانية جماعات دون السن المدرسية ، بين ٣ سنوات و ٧ سنوات .

يقضي الطفل يومه في هذه الروضة من الساعة السابعة صباحا ، وحتى الساعة السابعة مساء .

أما البرنامج فيختلف من فئة لأخرى من الأطفال ، تبعا لأعمارهم . ولكن يمكن تحديده على الشكل التالي .

بعد وصول الأطفال في الصباح ثمة تمارين رياضية ، وحمام وفطور .. بعد ذلك يبدأ الدرس الأول حسب الاهتمامات لكل طفل من الأطفال ، ومدة الدرس عشرون دقيقة .. ثم يعطي الأطفال فرصة عشر دقائق .. يبدأ بعدها الدرس الثاني ، وهو اما موسيقى ، أو العاب رياضية .. ثم نزهة في الحديقة ، يجيء بعدها وقت الغداء ، فالنوم لمدة ساعة ونصف أو ساعتين .

وبعد الاستيقاظ يمارس الأطفال السباحة في مياه دافئة ، تتراوح حرارتها بين ٢٠ درجة و ٢٦ درجة ، من اجل تقوية اجسامهم .. ثم يعودون إلى العابهم المفضلة ، وبعدها يتناولون عشاء مبكرا .. ويعودون مرة اخرى ، إلى الالعاب في الحديقة .

وفي الساعة السابعة مساء يغادرون الروضة مع ذويهم ، بعد يوم حافل بالمتعة والتعلم البسيط والمتدرج ، والمدروس .

ويعار في هذه الروضة اهتمام كبير لصحة الطفل ، وتربية نزعة استقلالية لديه ، حيث يعلم الاعتماد على نفسه ، سواء أثناء لبس ثيابه أو تناول طعامه .

ويدرس ، في هذه الروضة ، كل الدقائق الصغيرة المتعلقة بحياة الأطفال واجوائهم الخاصة ، وعالمهم الداخلي ، وذلك لأن هؤلاء الأطفال منحدرون من عائلات مختلفة ، بعضها له جو مختلف ، ويحتاج لرعاية خاصة ، وفهم خاص .. ويلاحظ أن هناك بعض الأطفال مصابون بنزعة أنانية ، وغالباً ما يكون هؤلاء الأطفال وحيدين لآبائهم ، مما يستدعي اعطاؤهم اهتماماً تربوياً اكثر عناية وتركيزاً ؛ لتخليصهم من هذه النزعة .

يعمل في هذه الروضة أكثر من سبعين مربياً ، ومدرباً ورياضياً ، ومشرفاً موسيقيا . كما أن بينهم أطباء ، ومتخصصين في تشوشات النطق التي ثبت ، مرارا ، انه يمكن التغلب عليها ، كليا .. يضاف الى ذلك ملاك كامل من العمال المهرة التقنيين والممرضات ، والمساعدات ، والطباخات ، والغسالات .

أما على صعيد الأطفال المتخلفين عقليا ، فأنهم يعارون اهتماما مضاعفا ، ويجري التعاون الدائم بين مسؤولي الروضة ، ومسؤولي هؤلاء الأطفال ... وتعقد اجتماعات دورية بين ذوي الطفل ، ومسؤولي الروضة ؛ لرصد شفاء الطفل وتطوره ، ولأعطاء ذويه الأرشادات اللازمة للتعامل مع الطفل في البيت .

وهناك فراغ مخصص لمشاهدة الأفلام التلفزيونية (رسوم متحركة ، برامج خاصة مسرح عرائس) .

وتستخدم في الحضانة البرامج المعدة خصيصا للاطفال ، لأنها تساعد على تنمية الخيال والمبادرة ، وتعلمهم الروح الجماعية ، وحب الطبيعة الحية . اما الاطفال الاكبر سنا فيجري التركيز على اعدادهم للمدرسة الابتدائية ...ويركز في هذاالصدد ، على تعليم الطفل العمل المستقبل ، ومتابعة المنطق في الحديث ، كأن يعيد الطفل حكاية سمعها ، أو أن يعبر عن صورة ما شاهدها في التلفزيون ...مع تعليمه عمليت حسابية غير معقدة . ويتم تعريف الأطفل على المعلمين الذين سيتعلمون لديهم .. كما تنظم لهم زيارات خاصة للمدارس التي سيدخلونها تهيئة لهم ، وحتى لا يكون عالم المدرسة غريبا عليهم .

ان الطموح الحكومي للمستقبل هو ان تستوعب هذه المؤسسات ٧٠٪ من اطفال البلاد .

ماذا يقرأ أطفال الاتحاد السوفييتي :

في الاتحاد السوفييتي أكثر من ٧٠ دارا للنشر ، تصدر ملايين النسخ من كتب الأطفال في ٥٢ لغة مختلفة .

وتعتبر الدار السوفييتية « ديتسكايا لتيراتورا » المتخصصة في ادب الاطفال ، من اكبر دور النشر في العالم . وقد بدأت هذه الدار باصدار مكتبة «الأدب العالمي للأطفال » المكونة من خمسين مجلداً طبع على ٤٠٠,٠٠٠ نسخة .

وقد صدر ، خلال عشر سنوات ، مائتا مجلد من الأدب العالمي . وقد أثار ذلك أهتماماً واسعاً على مستوى الاتحاد السوفييتي ، مما دعا الناس الى كتابة رسائل تلح على المسؤولين انجاز مجموعة مماثلة من الكتب للأطفال والمراهقين . وهكذا أخذت « ديتسكايا ليتراتورا » على عاتقها التصدي لهذه المهمة الكبرى . وقد ساهم في تحقيق هذه المهمة ، ورسم خطوطها الأولية ، كتاب ، ونقاد ، ومربون ورسامون مشهورون .. وقد ناقش هؤلاء ، مطولا ، سن القراء الذين يمكن أن تتوجه إليهم هذه المكتبة ، وتقرر أن توجه إلى أطفال في اعمار مختلفة .

(١) ف ١٠ سوخوملينسكي **قلبي اهبه للأطفال** ، موسكو ، دار التقدم ، ١٩٦٩ ، ص ٨٣ سوفوملينسكي

(٢) **سيرة حياة لينين** ترجمة عزيز سباهي

تضم المكتبة أعمال ١٢٠ كاتباً عالميا ، بدءاً من مجموعة « ما قيل عن جماعة إيغور » ، وهي عمل ادبي قديم مستلهم من الأخبار والأغاني الملحمية الروسية ، والحكايات الشعبية .. « والألياذة » و« الاوديسة » واساطير اليونان القديمة .. « اغنية رولان » وأعمال أخرى من الشعر الملحمي الأوروبي .. إلى اعمال الأدب العالمي في العصور التالية .. حتى الوقت الحاضر .

وقد صدر ، حتى الآن ، عشرة مجلدات (**بوشكين ، ليرمونتوف ، غريبويدوف ، كريلوف ، نيكراسوف ، كيبلينغ ، جول فيرن ، الكسندر دوماس ، مارك توين ، هيزن ، تشيرنيشفسكي ، تولستوي ، شولوخوف ، ماين ريد ، ستيفنسون ، واخرون**) .

وسوف تتضمن المكتبة ، أيضاً ، عدة مجموعات ومختارات منها : الشعراء الروس ، والوطن ، حكايات الكتاب الروس ، مختارات من شعر شعوب الاتحاد السوفييتي ، أخبار وقصص لكتاب شعوب الاتحاد السوفييتي ، قصائد لشعراء أجانب ، وسيطبع كل مجلد على ٤٠٠,٠٠٠ نسخة ، يعود نصفها الى المشتركين ، ويرسل النصف الآخر إلى مكتبات البلاد ، بما فيها المكتبات المدرسية وذلك بهدف التعجيل بدوران المجلدات وايصالها إلى أكبر عدد ممكن من القراء . وتقدم الدار المشار إليها ، سنوياً ، عدا المجلدات ، ما يقارب من ٢٢٠ ــ ٢٣٠ مليون نسخة كتاب .

وهناك اهتمام بمنجزات الأدب العالمي ، وفي عام ١٩٧٨ اشترت دار نشر « ادبيات الأطفال » حق ترجمة وطباعة ٣٢ مؤلفا لكتاب اجانب (المجر ، بلغاريا ، الهند ، أمريكا ، وأفريقيا) وهذه الدار عضو في المكتبة الدولية للأداب العلمية المبسطة للأطفال ، والتي يشترك فيها كل من ناشري بريطانيا ، المانيا الاتحادية ، فرنسا ، ايطاليا ، وامريكا . وتصدر في هذه البلدان ، وبشكل منتظم ، كتب يتم اقرارها عبر استشارات مشتركة .

وفي نفس الوقت تتم طباعة الكتب السوفييتية ، الخاصة بالأطفال ، في الخارج ، حيث عقد ، في العام الماضي ، ما يزيد عن ٨٠ اتفاقية بخصوص بيع حق الترجمة والنشر لمؤلفات الكتاب السوفييت للأطفال مع مختلف بلدان العالم .

الطفولة الشقية مرآة النظام الرأسمالي

للحكم على وضع الاطفال في بريطانيا ، او في أمريكا ، او في بلدان اوروبية اخرى يكفي الاطلاع يوميا على الصفحات الداخلية للصحف ، التي تنشر اخبار الجرائم ، والانحراف ، والمشاكل الاجتماعية الأخرى .. ان الصورة التي سنجابه بها ، يوميا ، ستجعلنا نقف مشدوهين أمام كثير من حالات الجريمة ، او القسوة ، أو اللامبالات التي يقابل بها الأطفال ، والطفولة في المجتمعات الرأسمالية ... غير ان دهشتنا ، أو انشداهنا يزولان حين نتذكر أننا أمام مجتماعا رأسمالية : القيمة الحقيقة فيها هي للربح ، والاستهلاك ، والمصلحة والشخصية .

قد لا نصدق ان مجتمعنا كالمجتمع البريطاني ، معروف « بتحضره ورقية » يمكن ان يمارس او القتل ، أو اللامبالاة امام الطفولة ، والأطفال ، لكن الاحصاءات البريطانية وحتى الرسمية ، منها ، تجعلنا نصدق مرغمين .. انها الحقيقة . صحيح أننا أمام مجتمع متقدم كثيراً ، ولكننا أمام مجتمع بورجوازي ، وهذا يكفي .

في بريطانيا نظمت ، أخيراً ، لجنة جعلت من مهمتها مكافحة القسوة ضد الأطفال ، التي تنتشر في المجتمع البريطاني وقد شرحت هذه اللجنة أمام الأوساط الجماهيرية ، استناداً الى وثائق رسمية ، أن أكثر من مئة طفل ، أغلبهم في سن الرضاعة ، (في كل عام) يذهبون ضحايا لقسوة والديهم، وأن طفلين يموتان كل

اسبوع بسبب جروح ، أو تشوهات ، يسببها الأهل ! وذكرت بعض الصحف البريطانية نماذج أخرى من هذه القسوة منها . ان ابوين احرقا طفلهما بكبريت .. كما ان ثمة اطفالا آخرين أحرقوا بالسجائر .. **وفي حالات اخرى تعرض الأطفال للتعذيب البشع في الماء البارد !** ويذكر تقرير للجنة المذكورة انفا «أنه في بعض العائلات البريطانية فان السادية في معاملة الأطفال تقارب الجنون ، ولا يمكن مقارنتها الا بوحشية برابرة الماضي » .

اما في المثال الامريكي ، فان الصورة اشد قباحة وبشاعة . فقد ألقت سيدة أمريكية بابنتها الصغيرة /٣ اشهر/ عبر نافذة احدى ناطحات السحاب ! وتقول مجلة « يونايتد ستاتيس نيوز اندوورلد ريبورت»، التي روت القصة المخيفة السابقة ، ان ما يقارب ٦,٥ مليون طفل امريكي ، هم ، في كل عام ، ضحايا للعنف الجسدي من قبل الأهل . وهذا الرقم المخيف يطبع الحياة الامريكية ، بمجملها ، بطابع العنف ، والجريمة المنظمة ، التي اصبحت «فنا هاما» في أمريكا .. إذ أن الأطفال ، هرباً من الأذلال والتعذيب الجسدي ، يفرون من بيوتهم ، لينضموا بالملايين الى امثالهم ممن سبقوهم الى عالم الجريمة ، والاحتيال ، والتشرد .

وفي كل عام ، حيث يشرد الأطفال الصغار ، فان ذويهم لا يكلفون انفسهم عناء البحث عنهم ، كما أن السلطات الامريكية / البوليس/ لا تبحث عنهم أيضاً ، ولا يعنيها أمرهم ، إلا حينما يبدأ هؤلاء بترويع المجتمع الامريكي ، واغتصاب أمنه ، عندما يبدأون بممارسة الجريمة ، ممارسة فعلية ، ومؤثرة .

وتشير ارقام البوليس الأمريكي أن عشرين الفا من الأطفال الصغار ، ممن هربوا في العالم الحالي ، لم يعد منهم سوى خمسة آلاف طفل .

وهكذا ، فان المجتمع الراسمالي الأمريكي ، يولد المجرمين بصورة متتالية ، الذين يصبحون اداة لنشر البغاء ، والانحراف ، والأدمان على المخدرات ، وهي رذائل « يزهو » بها المجتمع الامريكي ، ويباري بها كل المجتمعات الأخرى .

إن السؤال الذي يرفض الغرب الجواب عليه ، هو : لماذا تنتشر في هذا المجتمع القسوة ، والجرائم ، والتشرد ، والانحرافات واللامسؤولية ، بينما لا تعرف المجتمعات الاشتراكية مثل هذه الظواهر ؟.

ان الجواب يكمن في طبيعة المجتمع البورجوازي الظالمة والمستغلة : إذ أن الازمات الاقتصادية ، والبطالة الجماعية ، والتعسف ، والعنصرية ، والتمييز ، كل هذه الظواهر تفسر العاهات التي يصاب بها هذا المجتمع ، والتي تنتقل من جيل الى جيل لتمسك بخناق جيل آخر.

صور أخرى : الأطفال السود .. ضحايا العنصرية

تلك كانت صورة للطفولة الشقية ، والمهددة باستمرار في الغرب الامبريالي .. ولكن ما هي صورة الطفولة في البلدان التي تدور في فلك تلك البلدان الامبريالية ، وخاصة في البلدين العنصريين ، جنوب افريقيا ، وروديسيا .

في الفيلم الوثائقي الذي صور بطريقة سرية في جنوب افريقيا تصدمنا لقطات يقشعر لها ضمير الانسان !

إحدى هذه اللقطات مقبرة في احد احياء الغيتو السوداء .. صفوف لا نهاية لها من التلال الصغيرة ، التي رفعت حديثا ، وعلى كل منها لعبة أطفال .. وقد كتب على صليب كل قبر : « موسى ، توفي وعمره سنة ونصف » ، « كيت، توفيت في الشهر الثامن من عمرها »، الخ .. لقد قتل هؤلاء الأطفال من قبل نظام الاضطهاد العنصري الأجرامي .

وإذا كان عام ١٩٧٩ ، الذي أعلن عاماً دولياً للطفل ، عاماً هاماً بالنسبة لاطفال العالم ، فانه بالنسبة

لأطفال افريقيا ، الذين يعانون من الاضطهاد العنصري ، يرتدي أهمية اكبر ، لما يعانيه ذوو هؤلاء الاطفال ، وبالتالي هم انفسهم ، من اضطهاد ، وحرمان ، وقهر . إذ لا يمكن أن يكون الاطفـال سعداء ، عندما يكون آباء وامهات هؤلاء الاطفال ، اشقياء ، ومضطهدين ، ويائسين ، ومحرومين من الحقوق السياسية ، والمدنية في أوطانهم .

ان الوثائق ، وشهودَ العيان ، تصفع النظام العنصري لجنوب أفريقيا ، وحتى مواد الصحافة العنصرية التي تصدر عن صحافة هذا البلد ، فانها شاهد على الجرائم المرتكبة بحق الطفولة في هذا البلد.

فقد اوردت صحيفة « **صانداي تايمز** » التي تصدر في « جوهانسبورغ » ، وقائع في هذا الصدد ، تذكر بعصور المجتمعات العبودية والاقطاعية . إذ أشارت الصحيفة الى ان النظام المتبع في هذا البلد ، الذي تهيمن عليه العنصرية ، في نظام تشغيل الأطفال ، هو اعطاؤهم أجورا يومية تتناسب مع وزن كل منهم ! فالطفل الذي يزن أقل من ٤٨ كغ يبلغ أجره في اليوم ٩٠ سنتا .. والذي يتراوح وزنه بين ٤٩ ــ ٥٢ كغ يبلغ اجره راند و ١٠ سنتات .

وقد جنى رجال الأعمال البيض من هذا النظام البشع الظالم ارباحا فاحشة . ذلك لأن غالبية الأطفال السود في سن المراهقة نحاف الأجساد ، ومنهكون الى الحد الاقصى .. ويخضعون لنظام عمل لا تقل مدته عن تسع ساعات دون أن يمنحوا أية راحة أو فرصة زمنية صغيرة .

وفي المساء يعود هؤلاء الأطفال إلى الأكواخ المعزولة بالأسلاك الشائكة ، حيث يعيشون في ظل شروط في منتهى القساوة ، والحرمان من ابسط الشروط الصحية والانسانية .

ويحرم هؤلاء الأطفال من المدارس .. إلا إذا كانت مصلحة أرباب العمل تقتضي تعليمهم . مقابل أن يعملوا مجانا لصالح مالك الأرض .

وفي المدن ، فان الفرص المتاحة للأطفال من أجل الحصول على التعليم هي الانتساب إلى مدارس الدرجة الثانية ، وذلك لأن في هذا البلد نظامين للتعليم .. وينطبق هذا على كل من نظامي جنوب افريقيا وروديسيا .. حيث النظام الخاص بالبيض الذي يقضي بان التعليم اجباري ومجاني .. والنظام الخاص بالسود اختياري ، ومأجور ، بقصد توفير خدم مسلوبي الارادة .

وقد توصلت الىٰ هذه النتائج **لجنة اليونسكو** ، التي حققت ، اكثر من مرة ، في نظام التعليم في كل من جنوب افريقيا ، وروديسيا .

وتؤكد **لجنة اليونسكو** ، في تقاريرها المستقاة حتى من المصادر الرسمية للنظامين المذكورين ، ان نصف التلاميذ يتساقطون في الصف الأول الابتدائي . أما المرحلة الابتدائية فلا يتجاوزها كاملة اوينهيها الا ٤٪ فقط من التلاميذ . وحتى في نسبة الظروف والشروط ، فان النسبة لا تتجاوز ٦٪ .

وبسبب عمليات الفرز والغربلة ، التي تخضع لكثير من الاعتبارات المفتعلة ، فان الذين ينهون التعليم الثانوي لا يتجاوزون بنسبة الـ ٢٪ في جنوب افريقيا ، و ٠,٥٪ في روديسيا .

ان صورة الطفولة السوداء المعذبة والشقية والمقموعة في هذين النظامين العنصريين هي مرآة حقيقية ليس لهما فحسب ، بل إنها مرآة للنظام الامبريالي بكامله ، الذي يقدم لهذين النظامين كل الدعم والمساندة ، في نفس الوقت الذي يمارسان المظالم ، والتمييز والحرمان ، ضد السكان السود .

والاطفال ، في كل مكان ، بعرف التحضر والعدالة ، يمثلون المستقبل ، ويرمزون اليه ، الا بالنسبة للعنصريين ، فان ذلك محصور بالطفل ذي البشرة البيضاء .. فمنذ الولادة يحيطه العنصريون بالاهتمام

والرعاية ، ويصنعون من « مشروع مالك ، وسيد على الأرض والناس.» .

اما الطفل الأفريقي فان قدره في النظام العنصري أن يكون عبداً هذا إذا استطاع هذا الطفل ان يبقى على قيد الحياة .

وثمة صورة صارخة الدلالة عن همجية هذين النظامين العنصريين (جنوب افريقيا – وروديسيا) إذ تشير الاحصاءات إلى أن نسبة الوفيات بين الأطفال الافارقة ، في السنة الأولى من اعمارهم ، تزيد على نسبتها لدى الأطفال البيض ، ثماني مرات تقريبا . اما بين الأطفال الذين يبلغون الخامسة من عمرهم ، فان نسبة الوفيات بين الأفريقيين أعلى من ذلك .

وكثير من امراض الأطفال ذو طابع اجتماعي ، ومثال ذلك الأمراض التي تنشأ عن سوء التغذية المزمن . ونسبة الاطفال الذين يعانون من الجوع في جنوب افريقيا تصل إلى ٨٠٪ .. وتؤكد شهادة **الدكتور بيكر** /٢٥ سنة من الخدمة والخبرة/ بأن سوء التغذية ، هو السبب الأساسي للأمراض وحوادث الوفاة بين الأطفال .

اما سجون جنوب أفريقيا ، فانها تعطي صورة أخرى عن قبح هذا النظام وظلمه .اذ تؤكد الاحصاءات أن في هذه السجون خمسة آلاف سجين من الأطفال بحجة الجريمة .. ويبقى الكثير من هؤلاء الأطفال ، في السجون فترات طويلة بدون تحقيق أو محاكمة . ويعتبر « الجرم » المقترف ، في كثير من الأحيان ، هو ان هؤلاء الأطفال ، نتيجة اليأس والاحباط ، رفعوا صوت الاحتجاج والثورة : مما يستدعي اطلاق النار عليهم او سوق هؤلاء الى السجون .

ان حماية الطفولة الافريقية ، ضحية الانظمة العنصرية ، هي مسؤولية المجتمع الانساني بكامله ، لان ليس ثمة من يدافع عن هؤلاء داخل بلدانهم ، بسبب سياسة القمع السائدة ، وبسبب الدعم الذي يلقاه هذان النظامان من الخارج ، من الامبريالية العالمية .

وتوفير الطفولة السعيدة لهؤلاء الاطفال لن يكون ممكنا إلا اذا قضي على الركائز الاستعمارية والعنصرية للامبريالية في القارة الافريقية .

الأدب في جنوب فيتنام بعد التحرير

فونغ هين

ترجمة: سهيلة منصور

عبر كل كاتب ثوري في الجنوب عن فترة التحرير « اللقاء بين الماضي والحاضر » بطريقة مختلفة : « انني اتجول في شوارع سايغون » . تذكر جيانج لام ، نائب الامين العام لاتحاد كتاب وفناني التحرير . « انني اختلط بالجموع فاشاهد وجوها مرحة مشعة ، وجوه رفاقي وأصدقائي وزملائي المواطنين . واتساءل هل حقيقة كل هذا .. » (ادب التحرير ، رقم ٥٠ ، في الواحد والثلاثين من ايار عام الف وتسعمائة وخمسة وسبعين) . كذلك كانت حالة الشاعر فين فوغ ، رئيس الاتحاد نفسه ، الذي كان قد القي القبض عليه قبل عشرين عاما ، وهو يوزع المنشورات الثورية في شوارع سايغون : « قيدت الأيدي ، ونزفت الشفاه ، وضرب الجسم حتى العظم » . وعند خروجه من السجن اتجه نحو الغابة ، ثم عاد الى سايغون ، عام الف وتسعمائة وثمان وستين ، حيث انخرط في صفوف جيش التحرير . « بدا الأمر وكأنني في حلم . السماء صافية جدا وزرقاء . وقلبي مفعم بالفرح » . (ادب التحرير ، رقم ٥١ ، السابع من حزيران عام الف وتسعمائة وخمسة وسبعين) سافر لي فان تاو مع طوابير جيش التحرير المتقدمة ، واخذ يسجل ملاحظاته ، وهو يمر أمام أشجار التمر الهندي والجسور التي عرفها طوال حياته . اما فان تو ، مؤلف « الانسان وانا » فقد كان اقل حظا . وقد سمع بأنباء تحرير المدينة في الساعة السابعة والنصف ، في الثلاثين من نيسان عام الف وتسعمائة وخمسة وسبعين ، بينما كان جالسا في مازدا ٦١٦ ، باتجاه الجنوب من داتانغ . اما فو هانه الذي ظل لسنوات عديدة يقاوم التأثير السلبي للثقافة الرجعية في قلب سايغون ، فقد خرج لتوه من السجن حيث شاهده ، صباح الثلاثين من نيسان ، وهو يبني ملجأ ضد القنابل « تخلصت من الرفش » تذكر اللحظة التي سمع فيها بيان استسلام الجنرال دونغ فان منه ، عبر الراديو . « لقد تصببت عرقا ، وكان كياني كله يصيح من الفرح الشامل » (ادب التحرير ، رقم ٥٠ ، الواحد والثلاثين من ايار عام الف وتسعمائة وخمسة وسبعين) .

كنت قد قابلت بعضا من هؤلاء الرجال ، بعد ثلاثة ايام ، في سايغون جيا دنه مقر اتحاد ادباء وفناني التحرير . حيث كانوا موجودين ، ايضا ، في السابع من ايار ، عند اول ظهور عام للجنة العسكرية الادارية لسايغون ، وفي حشد النصر ، في الخامس عشر من شهر ايار ، ايضا . وكانوا جميعا يتحدثون مع الكاتبين التقدميين في سايغون ، هوى ودانانغ ، حيث قاما بتقديم الأدب الثوري الى الجمهور الجديد . وطبع في سايغون العدد التاسع والاربعون من أدب التحرير ، في الثامن والعشرين من ايار ، بينما عملت دار التحرير للنشر على إصدار عدد من الاعمال الثورية ، واعادت طبع أعمال أخرى . وكان الاتحاد قد دعي ، بعد أقل من شهرين ، الى عقد مؤتمر في سايغون ، في السابع عشر والثامن عشر من حزيران ، شارك فيه خمسمائة مندوب من مختلف انحاء الجنوب وحضره لاي فان سام ، وجيانغ نام ، وانه دك ، وفين فونغ ونجوين ترنغ تانه، وكلهم من أوائل الذين انضموا في العشرين من حزيران عام الف

والرعاية ، ويصنعون من « مشروع مالك ، وسيد على الأرض والناس ».

أما الطفل الأفريقي فان قدره في النظام العنصري أن يكون عبداً هذا إذا استطاع هذا الطفل ان يبقى على قيد الحياة .

وثمة صورة صارخة الدلالة عن همجية هذين النظامين العنصريين (جنوب افريقيا ـ وروديسيا) إذ تشير الاحصاءات إلى أن نسبة الوفيات بين الأطفال الأفارقة ، في السنة الأولى من اعمارهم ، تزيد على نسبتها لدى الأطفال البيض ، ثماني مرات تقريبا . أما بين الأطفال الذين يبلغون الخامسة من عمرهم ، فان نسبة الوفيات بين الأفريقيين أعلى من ذلك .

وكثير من امراض الأطفال ذو طابع اجتماعي ، ومثال ذلك الأمراض التي تنشأ عن سوء التغذية المزمن . ونسبة الاطفال الذين يعانون من الجوع في جنوب افريقيا تصل إلى ٨٠٪ .. وتؤكد شهادة الدكتور بيكر /٢٥ سنة من الخدمة والخبرة/ بأن سوء التغذية ، هو السبب الأساسي للأمراض وحوادث الوفاة بين الأطفال .

أما سجون جنوب أفريقيا ، فانها تعطي صورة أخرى عن قبح هذا النظام وظلمه ،اذ تؤكد الاحصاءات أن في هذه السجون خمسة آلاف سجين من الأطفال بحجة الجريمة .. ويبقى الكثير من هؤلاء الأطفال ، في السجون فترات طويلة بدون تحقيق أو محاكمة . ويعتبر « الجرم » المقترف ، في كثير من الأحيان ، هو ان هؤلاء الأطفال ، نتيجة اليأس والاحباط ، رفعوا صوت الاحتجاج والثورة : مما يستدعي اطلاق النار عليهم او سوق هؤلاء الى السجون .

ان حماية الطفولة الافريقية ، ضحية الانظمة العنصرية ، هي مسؤولية المجتمع الانساني بكامله ، لان ليس ثمة من يدافع عن هؤلاء داخل بلدانهم ، بسبب سياسة القمع السائدة ، وبسبب الدعم الذي يلقاه هذان النظامان من الخارج ، من الامبريالية العالمية .

وتوفير الطفولة السعيدة لهؤلاء الاطفال لن يكون ممكنا إلا اذا قضي على الركائز الاستعمارية والعنصرية للامبريالية في القارة الافريقية .

الأدب في جنوب فيتنام بعد التحرير

فونغ هـــين

ترجمة : سهيلة منصور

عبر كل كاتب ثوري في الجنوب عن فترة التحرير « اللقاء بين الماضي والحاضر » بطريقة مختلفة : « انني اتجول في شوارع سايغون » . تنكر جيانج لام ، نائب الامين العام لاتحاد كتاب وفناني التحرير . « انني اختلط بالجموع فاشاهد وجوها مرحة مشعة ، وجوه رفاقي وأصدقائي وزملائي المواطنين . واتساءل هل حقيقة كل هذا .. » (أدب التحرير ، رقم ٥٠ ، في الواحد والثلاثين من أيار عام الف وتسعمائة وخمسة وسبعين) . كذلك كانت حالة الشاعر فين فوغ ، رئيس الاتحاد نفسه ، الذي كان قد القي القبض عليه قبل عشرين عاما ، وهو يوزع المنشورات الثورية في شوارع سايغون : « قيدت الأيدي ، ونزفت الشفاه ، وضرب الجسم حتى العظم » . وعند خروجه من السجن اتجه نحو الغابة ، ثم عاد الى سايغون ، عام الف وتسعمائة وثمان وستين ، حيث انخرط في صفوف جيش التحرير . « بدا الأمر وكأنني في حلم . السماء صافيـــة جدا وزرقاء . وقلبي مفعم بالفرح » . (ادب التحرير ، رقم ٥١ ، السابع من حزيران عام الف وتسعمائة وخمسة وسبعين) سافر لي فان تاو مع طوابير جيش التحرير المتقدمة ، واخذ يسجل ملاحظاته ، وهو يمر أمام أشجار التمر الهندي والجسور التي عرفها طوال حياته . اما فان تو ، مؤلف « الانسان وأنا » فقد كان أقل حظا . وقد سمع بأنباء تحرير المدينة في الساعة السابعـــة والنصف ، في الثلاثين من نيسان عام الف وتسعمائة وخمسة وسبعين ، بينما كان جالسا في مازدا ٦١٦ ، باتجاه الجنوب من داتانغ . اما فو هانه الذي ظل لسنوات عديدة يقاوم التأثير السلبي للثقافة الرجعية في قلب سايغون ، فقد خرج لتوه من السجن حيث شاهده ، صباح الثلاثين من نيسان ، وهو يبني ملجأ ضد القنابل « تخلصت من الرفش » تنكر اللحظة التي سمع فيها بيان استسلام الجنزال دونغ فان منه ، عبر الراديو . « لقد تصببت عرقا ، وكان كياني كله يصيح من الفرح الشامل » (ادب التحرير ، رقم ٥٠ ، الواحد والثلاثين من أيار عام الف وتسعمائة وخمسة وسبعين) .

كنت قد قابلت بعضا من هؤلاء الرجال ، بعد ثلاثة أيام ، في سايغون جيا دنه مقر اتحاد ادباء وفناني التحرير . حيث كانوا موجودين ، أيضا ، في السابع من أيار ، عند اول ظهور عام للجنة العسكرية الادارية لسايغون ، وفي حشد النصر ، في الخامس عشر من شهر أيار ، أيضا . وكانوا جميعا يتحدثون مع الكاتبين التقدميين في سايغون ، هوى ودانانغ ، حيث قاما بتقديم الأدب الثوري الى الجمهور الجديد . وطبع في سايغون العدد التاسع والاربعون من أدب التحرير ، في الثامن والعشرين من أيار ، بينما عملت دار التحرير للنشر على إصدار عدد من الاعمال الثورية ، وأعادت طبع أعمال أخرى . وكان الاتحاد قد دعي ، بعد أقل من شهرين ، الى عقد مؤتمر في سايغون ، في السابع عشر والثامن عشر من حزيران ، شارك فيه خمسمائة مندوب من مختلف أنحاء الجنوب وحضره لاي فان سام ، وجيانغ نام ، وانه دك ، وفين فونغ ونجوين ترنغ تانه ، وكلهم من أوائل الذين انضموا في العشرين من حزيران عام ألف

وتسعمائة وواحد وستين الى حركة المقاومة وقد كانوا ، في نفس الوقت ، الاعضاء المؤسسين لاتحاد أدباء وفناني التحرير وكان نصف المشاركين تقريبا من « سكان المدينة » ، اناس أمثال **فو هانه وشن نام ولاي تشانه ترنغ** ، الذين كان لهم في الجبهة الأدبية نشاط فعال ضد زمرة **ثيو** الأمريكية ، لقد أنحنوا اجلالا لذكرى أولئك الزملاء الذين سقطوا شهداء في المعارك ـ **نغوين تي ، ولي انه كسوان ، ولي فنه هوا ، ودومنغ توجيانغ ، ودونغ تي منه هونج** ـ وآخرون ، ممن قضوا في السجون . ثم بحثوا تقريرا حول « الأدب في المرحلة الجديدة » ، أعده أنه دك مؤلف رسائل من كاماد (الف وتسعمائةوخمسة وستين) وهون دات (الف وتسعمائة وسبعة وستين) وحام الانسان القديم في حديقة الطيور (الف وتسعمائة وتسعة وستين) .

كانت أول نقطة أدرجت على جدول اعمال المؤتمر هي معرفة أفضل السبل للعمل بعيدا عن المؤثرات المعوقة في أدب الحرب النفسية ، التي تستخدمها الزمرة العميلة للولايات المتحدة والعصابات الرجعية في تشجيع المشاعر المعادية للشيوعية الى جانب الجنس وهراء التصوف، مما يؤثر على تقاليد الأمة وكرامة الانسان .

نقول الحق بأن هذا النوع من الأدب قد أخذ ينحدر في الاشهر الاخيرة من نظام **ثيو** ، الى جانب الوضع الثقافي المتردي والانهيار الأدبي العام ، حيث بلغت نسبة الكتب الفيتنامية الاصلية ٢٠٪ ، فقط ، من مجموع الكتب التي صدرت في سايغون عام الف وتسعمائة وثلاثة وسبعين ، والتي زادت عن المائة كتاب . اما الثمانون بالمائة الأخرى فقد كانت عبارة عن أعمال مترجمة . واضطر ثمانون بالمائة من المؤلفين في السنة التالية الى التوقف عن الكتابة ، حيث بلغ أقصى ما يتمناه اي كاتب هو أن يرى من كتابه ألف نسخة فقط بدلا من الثلاثة الاف نسخة المعتادة ، وكان الامر صحيحا ، كذلك ، فيما يتعلق بالمجلات الادبية المتبقية . والتي هبط معدل توزيعها من ستة آلاف نسخة الى ثلاثة آلاف نسخة فقط . وكانت تصدر بعض الكتب الخاصة لهذا الكاتب أو ذاك ، ويكتب **باك كاد** (موسوعة) (كتاب خاص صدر في ماوتت في الرابع والعشرين من كانون الثاني ، عام الف وتسعمائة وخمسة وسبعين) : « .. والا فلا أحد معني بما تقوله أنت عن الكتب والمؤلفين ، عن النثر والشعر ، أمام سرعة تغير الوضع العسكري والسياسي والاقتصادي ، وامام الحديث المتواصل عن الحياة والموت والمعارك والقصف » .

وهكذا وجدنا أن الأدب الرسمي كان قد توقف عن القيام بأي دور ، حتى قبل نهاية نظام سايغون ، ولذا فان انحداره كان محسوبا ، على هشاشة أسسه الاجتماعية والأدبية ، وعلى انخفاض الحماسة بين مؤيديه ، الذين انهارت عزائمهم ، بسبب اللامبالاة الجماهيرية ورقابة المطبوعات القاسية التي شدد عليها **ثيو** ، بنفسه ، خاصة وانه يعيش فترة استثنائية مسروقة من الزمن .

وبالرغم من انهيار أدب النظام العميل وانهيار مموليه والمجتمع الذي ولد فيه ، فقد كانت الكتب المنشورة لا تزال متوفرة في المكاتب او الاكشاك الجديدة . وبما ان غـذّى الجماهير لعهود متتالية فان تأثيره كان ما يزال قويا على فكر وذوق مجموعة من الناس ، وخاصة على الذوق الادبي . لقد انهار المستعمرون وقضي عليهم ، من الناحية الفسيولوجية ، لكنهم ظلوا عقائديا في هذا النتاج الأدبي الرجعي ، ولا يزالون متخندقين في عقول أولئك الذين سيطر عليهم الغرور المعنوي ، وأرهقهم التحامل ، وسوء الفهم ، وفي عقول الناس الذين لم يكونوا قادرين على التكيف مع الاسلوب الجديد في الحياة . فكان الأدب القديم ، بالطبع ، لا يزال يروق لأمثال هؤلاء الناس : انه يرسخهم في ظل الحياة الطفيلية القديمة ، التي لا تزال حية هنا وهناك ، في الأزمة المعتمة والأرصفة أو المقاهي « فضوليين مسعورين أشبه بالتحدي ، والأغواء ، وتنهيدة طويلة من المستعمرين الامريكيين بعد مغادرتهم الجنوب » (تين سانغ ، **ابناء الصباح** . إصدار خاص بنه ثن تت ، عم الف وتسعمائة وستة وسبعين) .

كانت وزارة الأعلام والثقافة في جمهورية فيتنام الديمقراطية حظرت ، في ايلول عام الف وتسعمائة وخمسة وسبعين ، ستة وخمسين مؤلفا من مجموع ما يقارب من الألف مؤلف ، وعلى اكثر من مائتي كتاب ، من آلاف الكتب التي وزعت في تلك الفترة . وأمرت ، في الخامس والعشرين من شهر آذار عام الف وتسعمائة وستة وسبعين ، بأن تسجل جميع الكتب الرجعية وتسلم في الثالث من نيسان .

وكان هذا أول عمل هجومي ضد الادب الرجعي ، حيث اعتبر بداية لحملة هدفها إعطاء الادب الثوري أولوية الانتفاع نحو الجماهير . « لقد اتفق كل شخص على أن الأدب الثوري هو الأدب الصالح الصحي ، ذلك لانه يملك السمة الوطنية الشعبية ويدعم المبادىء الاخلاقية والعدالة والكرامة الانسانية ، وهو الغذاء الثقافي لهذا الجيل والاجيال المقبلة » (**أدب التحرير** ، رقم ٨١ ، الثامن من كانون الثاني عام الف وتسعمائة وستة وسبعين) . وقد قال **تران كوانغ** ، في نفس المنشور ، رقم ٨٥ ، في الرابع من كانون الثاني عام الف وتسعمائة وستة وسبعين :

« ليس ثمة عدد كاف من الكتب الثورية للجمهور » . وفي الحقيقة لقد انتصر الأدب الثوري بفضل شخصيته الرائعة . لقد كان محرما ، في العهد الماضي ، لكنه اليوم يلعب الدور القيادي في بناء المجتمع الجديد ، وفي تكوين الانسان الجديد في جنوب فيتنام .

وطالما أن الأمر يتعلق بالأدب ، فمن الصحيح أن نقول ، اليوم ، بان « الهدم » في الجنوب إنما هو المهمة الثانوية المؤقتة ، فقط ، لان ثمة هدفا جوهريا طويل الأمد أكثر أهمية ، وهو « تعزيز بناء » فيتنام الاشتراكية المستقلة الموحدة .

والآن ماذا ؟ لقد ناقش هذا السؤال ، باهتمام كبير ، خمسمائة كاتب ، حضروا أول مؤتمر أدبي ، وتم الاتفاق فيه على ضرورة الاستمرار في الكتابة عن الحرب القريبة ضد اعتداء الولايات المتحدة ، لأن الامبريالية الامريكية لم تكن قد تخلت ، بعد ، عن مخططها التخريبي ، بالرغم من وجوب مغادرتها البلاد ، ولأن العناصر الرجعية لم تكن قد كنست من المنطقة ، بعد ، بالرغم من انهيار النظام العميل . لقد انهزم النظام الاستعماري الحديث ، لكن المدن والقرى لا تزال مليئة ببقاياه . انتهت الحرب لكن ملايين الحفر من أثر القنابل لا تزال فارغة من التراب ، وملايين الدور المدمرة لم يكن قد أعيد بناؤها بعد . أما ملايين الهكتارات من الأراضي المهملة فلم تكن قد نظفت ، كما لم تعوض ملايين الاشجار التي جردت من اوراقها كذلك . لم تكن ملايين العقول قد تخلصت ، بعد ، من الماضي . كان الناس لا يزالون يقتلون في حقول الأرز الآمنة ، بسبب القنابل والألغام التي تتفجر . ولذلك ، فقد كانت الطريقة الوحيدة لتعزيز البطولة الثورية ، وكشف النوايا الشريرة للاعداء ، بجميع اشكالها ، في الوقت ذاته ، هي مساعدة الناس على معرفة الأصدقاء من الاعداء ، في الوقت الذي كان الماضي يتلاشى الى النسيان ، ليحل محله النسيم المنعش للمشاعر الوطنية والعهد الجديد ، فتنفذ الى عقول اولئك الناس ، الذين لم يتمكنوا بعد من رؤية الامور بوضوح ، أو انهم لا يزالون مرضى الحنين الى الماضي .

أما المسئولية الثانية ، التي وافق عليها المؤتمر بالاجماع ، فقد كانت العمل على إعادة توحيد البلاد سلميا ، وتثبيت الاستقلال والحرية من أجل تضميد جراح الحرب في كافة أنحاء البلاد ومن ثم على دفع فيتنام ، كلها ، نحو الاشتراكية . وقال **انه دك** « لقد بدأ الصراع ، حاليا ، بين المصالح الشخصية والمصالح العامة ، بين القديم والجديد ، بين الفردية والجماعية » . (**أدب التحرير** ، رقم ٣٨ ، ينه ثن تت ، كانون الثاني عام الف وتسعمائة وستة وسبعين) . ولذا كان على المؤلفين ، من أجل إنتاج عمل أخلاقي ثوري حقيقي ، أن يكونوا أكثر التصاقا بالحياة الحقيقة ، ويكتشفون كل وجوهها ، ويدعمون الاتجاه المتصاعد ، بحزم ، وهم ممتلئون بالأمل الشامل والتراجيديا الذاتية .

إن مهمة التحويل الأدبي نحو المرحلة الجديدة تعني ، حسب التحليلات الاخيرة ، تحولا في موقف الكاتب المعنوي . إنه **انه دك** ليشكر الثورة ، وهو عائد من منطقة المقاومة ، لانها منحته« الفرح الأكبر ، وعلمته ان يثق ويحب من الاعماق » . وهو يتفق في الرأي على ان التحول انما هو محصلة صراع بين القديم والجديد في داخله . ويقول **ثوهانه** ، وهو أحد الأبطال المخلصين في الأدب الوطني في سايغون المحتلة « لم تكن ظروف الكتاب مواتية ، كما هي الآن ، لكي يخدموا الوطن والشعب . لقد اعتدنا الكتابة من أجل الأقلية ، أو من اجل المال ، لكننا حاليا نكتب من أجل العدالة ، ومن اجل الحقوق الشرعية للأمة بكاملها » (**ادب التحرير** ، رقم ٥٠ ، الحادي والثلاثين من أيار عام الف وتسعمائة وخمسة وسبعين) . ولكي تتمكن الأقلام من خدمة العدالة والأمة على نحو أفضل ، فقد بذل **ثو هانه** ورفاقه جهودا اكبر من أجل تحسين أفكارهم وأساليبهم .

ثمة أشخاص آخرون ، أمثال **ترنه كونغ سن** ، من الذين عاشوا طوال الوقت في المدينة ، وارتبطوا بعمق بأدب النظام القديم ، وكانوا غرباء ، تماما ، عن الأدب الثوري ، فماذا يفعلون كي يتخلصوا من الماضي .

ليتمكنوا من رؤية الأشياء الجديدة ، وهي تلد من بقايا النظام القديم ؟

« لا أود أن أكون إنعزاليا ، حقيرا ، تائها في حقول الحرية والسلام والاستقلال الرائعة ... انني أعيش تحريرين تطهير الجنوب من آخر اللحظات التي خلفها عدوان الولايات المتحدة ، واقتلاع الحزن والكآبة اللذين قيدا ذهني لعدة سنوات قلقة ... وبالنسبة لي اريد تحولا تاما » (**أدب التحرير** ، رقم ٧٦ ، التاسع والعشرين من تشرين الثاني عام الف وتسعمائة وخمسة وسبعين) .

مشكلة أخرى اعترضت جميع الكتاب ، من مختلف الخلفيات ، انها مشكلة تحسين مهاراتهم من أجل خدمة الجمهور الجديد ، الذي تخلص ، الى حد كبير ، من الذوق الرديء الذي اكتسبه من مجتمع الاستعمار الحديث ، وهو الآن يطالب بأعمال أرقى مستوى ، من حيث الشكل والمضمون «أدب ناضج لجمهور ناضج » . هذا هو شعار الأدباء في سايغون ، هذه الايام . وقد تقبل الكثيرون هذا الشعار على أنه تجربة حقيقية .

وانبثقت من هذا كله الحاجة الى ضرورة تنظيم جميع القوى الجديدة والقديمة ، حتى يتمكن الأدب ، في المرحلة الحاضرة ، من القيام بالدور الفعال ، حيث عقد في الرابع عشر والخامس عشر من تشرين الأول عام ألف وتسعمائة وخمسة وسبعين ، في سايغون ، مؤتمر اقتصر على حضور مائة وخمسين كاتبا في المدينة ، حيث منح اثنان وسبعون منهم ، في هذه المناسبة ، عضوية اتحاد أدباء وفناني التحرير . كما قامت بعد ذلك نشاطات مشابهة ، في أماكن اخرى ، مثل هوي ودانانغ . وكان الاحتفال الذي جرى إحياء لذكرى **تران هو ترانغ** الممثل الجندي ، الذي مات في العشرين من تشرين الاول عام الف وتسعمائة وستة وستين ، تلك المناسبة التي يستطيع المرء فيها ان يشاهد نمو القوة الادبية في الجنوب ، في الفترة الماضية .

لقد عمل كثير من الناس بحماس كبير ، وصدرت من ادب التحرير كميات من الكتب ، كما أعيد طبع كثير غيرها ، بحيث بلغ مجموعها ما يربو عن المليون كتاب ، واكثر من اربعين منشورا . وأخذ الكتاب الذين عادوا من القتال يكتبون عن الحرب ، وتجاربهم الحربية العظيمة ، وقدصور لو جيانغ بنجاح « الام الفيتنامية الجنوبية » الرمز الحقيقي للثورة الفيتنامية في الجنوب .

« لقد منحت الحياة للانسانية والرجال
«وبيتنا مع أغاني راك جام ، راك جوك ،
« مع النباتات لبرية فوق جبال تشو بونج المنتصرة ،
« مع تهاليل جدول آدام »

(**ادب التحرير** ، رقم ٦٨ ، الرابع من تشرين الاول عام الف وتسعمائة وخمسة وسبعين) .

اما فين فونغ فيمجد ، بالغناء ، إحدى فتيات العصابات المتواجدة في الضواحي :

«سايغون ملاىء بالازهار
« ومع ذلك لا أحد يستطيع منافسة الأخوات وهن يشاهدن أضواء النهار من بين الصعاب
« والأزهار التي تشع في المحن القاسية ،
« حتى يزرق الظلام ويعم المدن السلام » .

كما يكتب **كوينه ديب** حلول « عودته الى ضواحي غربي سايغون » ، حيث أقيمت هناك منطقة اقتصادية جديدة سميت ، فيما بعد ، **لي منه كسوان** ، وهو اسم قائد كتيبة قتل أثناء معركة عنيفة جرت هناك . لقد زار لي ديب قرية شن ماي (او ماي لاي – المحرر) وهي الجيورنيكا الفيتنامية والاورادور او الليديل – المكان الذي قتل فيه خمسمائة واربعة قرويا على يد المخابرات المركزية الامريكية . وتذكر فيها كيف انخدع الناس ، وغني الكثيرون عنهم ممتدحين الولايات المتحدة الاميركية ، مقابل الدولارات ، ورافضين ، بكل عناد ، ان يشاهدوا الجرائم التي ارتكبت على ارضهم ضد اخوانهم المواطنين .

كما ذهب آخرون الى أماكن ظهرت فيها الصراعات الشخصية ، لتكون عونا على ميلاد أسلوب جديد في الحياة . ان **تربو بون** يحلل في « العقدة » المشاعر المتناقضة في شخصية ثاي ، وهو جندي اضطر لأن يناضل ، بقوة ، ضد ردود فعل العقدة الكائنة فيه ، ليتمكن من تنقية ضميره وبناء المستقبل (**أدب التحرير** ، رقم ٧٧ ، السادس من كانون الاول عام الف وتسعمائة وخمسة وسبعين) .

وثمة قصة قصيرة ، كتبها **لي فان تاو** ، عن لأنه، وهي امراة عادية تسكن في احد شوارع سايغون

الخلفية ، كانت قد نجحت في أن تصفح عن زوجها للاخطاء التي ارتكبها بحق وطنه وبحقها (**أدب التحرير** ، رقم ٦٩ ، الحادي عشر من تشرين الاول عام ألف وتسعمائة وخمسة وسبعين) . اما **لي ثو** فيكتب في « رحلة صديق » ، عن مشاعر بوي تو وفتيات اخريات صغيرات ، كن قد التحقن بفرقة المتطوعات من أجل إعادة بناء الوطن . وثمة قصة اخرى بقلم **نغوين كسوان فان** ، يحدثنا فيها عن العمال في محجر الرخام الكائن فوق جبل نجو هانه ، وعن الزيارات التي قام بها لهم رئيس الوزراء ، **فام فان دوغ** ، ورئيس الجمعية الوطنية ، **ترونغ تشنه** ، بعد تحررهم المادي والمهني (**أدب التحرير** ، رقم ٩٢ ، الثالث من نيسان عام الف وتسعمائة وستة وسبعين) .

انها مجرد بداية ، لكنها بداية وعد عظيم .

عن كتاب « بخطوات حازمة » باللغة الانجليزية ، **فيتنام كورير** ، رقم ٤٩ ، حزيران عام الف وتسعمائة وستة وسبعين .

الموقف العربي

سياسية فكرية شهرية

تعني بقضايا القومية العربية على طريق الوحدة

المشرف على التحرير

عبد العظيم مناف

تصدر عن دار الموقف العربي للصحافة والنشر والتوزيع

القاهرة ــ ٣٨ شارع القصد العيني . ت : ٢٣٢٥١ .

القصة القصيرة الفلسطينية

سجل احصائي (بيبلوغرافيا)

إعداد: جميل حتمل

● استغرق إعداد هذا السجل الاحصائي لمجموعات القصة القصيرة الفلسطينية (القصة التي يكتبها عرب فلسطينيون) ، أشهراً عديدة رغم تصوري المسبق عندما قررت البدء به ، بأن العمل لن يكون صعباً ، وأنه سينتهي بسرعة ، لكنني بعد فترة وجدت نفسي ــ متورطاً ــ في عمل صعب نسبياً ، أخوضه لأول مرة . من الصعوبات الاساسية في إعداد أي سجل احصائي (بيبلوغرافيا)للأدب الفلسطيني،انتشار الكتاب الفلسطينيين في كل العالم العربي ، إن لم يكن خارجه أيضاً ، إضافة إلى انغماس جزء كبير منهم في خصوصية الحياة الفكرية والثقافية لمكان تواجده ، مما يجعل من الصعب تمييز نتاجاته عن النتاجات الأخرى لأبناء نفس القطر الذي يعيش به مثلا ، هذا إذا لم يكن القطر نفسه قد اعتبر الأديب الفلسطيني جزءاً من تراثه الثقافي ، والحديث هنا ليس من منطلق قطري ضيق . بقدر ما هو للتأكيد على صعوبة التمييز كما ذكرت .

وهذا الانتشار للاديب الفلسطيني ، ينطبق بالضرورة على نتاجاته وأمكنة نشرها والذي يشكل الوطن العربي ككل(١) مكاناً لها ، وهذا لا ينطبق تماماً بهذا الشكل الاستثنائي على اي نتاج أدبي لاي قطر عربي آخر ، اضافة الى صعوبة متابعة الحركة الثقافية داخل الارض المحتلة بشكل مستمر ومنظم مما أجبرني على مراجعة مجموعة كبيرة جدا من المجلات والصحف العربية الصادرة بأوقات مختلفة . والتي تتابع أحيانا أخبار الثقافة في الأرض المحتلة .

أما أسباب اهتمامي بايجاد هذه (البيبلوغرافيا) للقصة الفلسطينية ، فهو ندرة مثل هذه الدراسات ، مما يبرر لي القول بأن هذا السجل هو الأول من نوعه المتخصص بشكل دقيق . علماً أنه هنالك محاولات في هذا المجال ، لكنها أما خلطت الأعمال الروائية بالقصصية . أو عددت الأعمال القصصية ضمن الحديث عن نتاجات كتابها المختلفة ككل . تبقى بعض الملاحظات السريعة المتعلقة بهذا السجل :

١ ـ السجل يتابع القصة القصيرة الفلسطينية منذ ظهورها كفن مستقل في مجموعة قصصية عام ١٩٢٤(٢) وحتى بداية عام ١٩٧٩ أي خلال ٥٥ عاماً الكاملة من عمر القصة الفلسطينية .

٢ ـ اعتمدت في ترتيب هذا السجل (البيبلوغرافيا) التسلسل الابجدي للاسم الثاني ـ اللقب ـ للمؤلف . ثم رتبت مجموعاته حسب تسلسل تاريخ صدورها ، الأقدم فالأحدث .

٣ ـ ادخلت ضمن هذا السجل بعض القصص التي نشرت منفصلة في كتاب ، والتي لا يمكن أيضاً اعتبارها عملا روائياً . وقد اشرت لها في موضعها .

٤ ـ رغم العمر المعقول للقصة الفلسطينية لم تتجاوز المجموعات المحصورة هنا الـ (١٥٠) مجموعة،كما أن الكتاب لم يتجاوز الـ (٩٥) كتاباً تقريباً .

٥ ـ أثناء الطبع تم اضافة ملحق لهذا السجل بالنواقص التي لم اتمكن من تسجيلها ضمن الجدول .

٦ ـ أخيراً لا ادعي أن هذا السجل قد ألم بكل المجموعات القصصية الصادرة ، فلا شك أن هنالك نقصاً لم اتمكن من تلافيه ولكنه ليس بالكبير . كما أن هنالك نقصاً في المعلومات حول بعض المجموعات الواردة في هذا الاحصاء .

(١) الاقطار التي صدرت بها مجموعات قصصية فلسطينية والواردة في هذا الاحصاء هي : فلسطين ـ لبنان ـ العراق ـ سوريا ـ الاردن ـ تونس ـ مصر ـ الجزائر ـ الكويت ثم كندا .

(٢) أول مجموعة قصصية صادرة لكاتب فلسطيني هي (مسارح الأذهان) لخليل بيدس . وقد صدرت عام ١٩٢٤، واشرت إليها في موضعها .

القاص	المجموعة	الناشر ومكان الطبع	عام الطبع
ابراهيم ـ حنا	ازهار برية	الارض المحتلة	١٩٧٤
	ريحة الوطن	الارض المحتلة	١٩٧٧
ابو اصبع ـ صالح	عراة على ضفة النهر	القاهرة	١٩٧١
	محاكمة مديد القامة	دار القدس ـ بيروت	١٩٧٤
	اميرة الماء	المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت	١٩٧٨
ابو ريا ـ محمد	ارض لا تنبت الموت	الارض المحتلة	١٩٧٤
ابو شاور ـ رشاد	ذكرى الايام الماضية	دار الطليعة ـ بيروت	١٩٧٠
	بيت اخضر ذو سقف قرميدي(٤)	وزارة الاعلام ـ بغداد	١٩٧٤
	الاشجار لا تنمو على الدفاتر	مجلة فلسطين الثورة ـ بيروت	١٩٧٥
	مهر البراري	اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ـ بيروت	١٩٧٧
ابو لبدة ـ مصطفى	العنف والشاي		
	السخن(٥)		١٩٦٥
	مجموعة قصص قصيرة(٦)		١٩٦٧
ابو الهيجا ـ نواف	والخيبة ايضا	دار اليقظة العربية ـ دمشق	١٩٦٥
	ممرات مضيئة الى احزان الفلسطيني	دار العودة ـ بيروت	١٩٧١
	الضرب في الرأس	وزارة الاعلام ـ بغداد	١٩٧٤
	إن كنت الليلة وحيدا	وزارة الاعلام ـ بغداد	١٩٧٨
ابو ناب ـ ابراهيم	أشواق الى الابتسام	بيروت	
ابو النجا ـ حسين	رصاص في عقل متعب	توزيع دار الآداب ـ بيروت	١٩٧٣
	جسر بين الكينا والبرتقال	دار القصص ـ بيروت	١٩٧٧
اسحق ـ اسحق ابراهيم	حدث في القرية	دار العودة ـ بيروت	
اسحق ـ علي	ملاحظات متفرج	اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ـ بيروت	١٩٧٤
الامام ـ عميد	الافريقي وقصص أخرى(٧)		١٩٦٢
الانشاصي ـ عبد الحميد	عطف أم		
الايراني ـ محمود سيف الدين	أول الشوط	يافا	١٩٣٧
	مع الناس	بيروت	١٩٥٥
	ما أقل الثمن	بيروت	١٩٦٢
	حتى ينتهي الليل	بيروت	١٩٦٤

	أصابع في الظلام	عمان	١٩٧٢
أيوب – محمد	الوحش	دار البيادر – القدس	١٩٧٨
بلعاوي – حكم	موال للأرض والثورة	اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين – بيروت	١٩٧٦
	دفاعا عن الشمس	الشركة التونسية – تونس	١٩٧٧
البنا – سلوى	الوجه الآخر	المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت	١٩٧٤
بنورة – جمال	العودة	مكتبة صلاح الدين – القدس	١٩٧٧
البيتاوي – عبد الله	...؟[٨]	نابلس	١٩٧٥
بيدس – خليل[*]	مسارح الاذهان[٩]	المطبعة العصرية بمصر – القاهرة	١٩٢٤
	أحلام الخياة[١٠]		
تايه – عبد الله	من يدق الباب	الارض المحتلة	١٩٧٧
التلاوي – آمال	الصوت الرقيق	الكويت	١٩٦٠
جاد الحق – يوسف	أشرقت الشمس	دمشق	١٩٦١
	النافذة المغلقة	دمشق	١٩٦٤
	سنلتقي ذات يوم[١١]	دار الكاتب العربي – القاهرة	١٩٦٩
جبرا – جبرا ابراهيم	عرق[١٢]	المؤسسة الاهلية – بيروت	١٩٥٦
الجوزي – نصري	أنا وطالبتي[١٣]	القدس	١٩٣٢
حاطوم – معين	ونوت بسمة الله[١٤]	الارض المحتلة	١٩٧٤
	وجه الظل العابس[١٥]	الارض المحتلة	١٩٧٥
حبيبي – اميل	سداسية الايام الستة[١٦]	دار الهلال بمصر – القاهرة	١٩٦٩
الحسيني – علي زين العابدين	خميس يموت أولا	وزارة الاعلام – بالتعاون[١٧] – بغداد	١٩٧٤
حمود – هدى صلاح	دمعتان		١٩٦١
خالد – عدنان علي	الزمن والذاكرة	المطبعة الاردنية – عمان	١٩٧٦
خلايلة – مرشد	حبيبتي جميلة كالخبز	الارض المحتلة	١٩٧٤
خلف – علي حسين	خذوني الى بيسان	دار ابن خلدون – بيروت	١٩٧٧
الخليلي – علي	احتمالات الهامش		
الخطيب – محمود	أحزان الرجل الميت	المكتبة العصرية – صيدا – بيروت	١٩٦١
	ثلاثة قبور للمستحيلات	الاعلام الموحد – فلسطين الثورة – بيروت	١٩٧٨
الخطيب – يوسف	عناصر هدامة	دمشق	١٩٦٤
خمرة – عمر	دموع أسيرة	دار اليقظة العربية – دمشق	١٩٧٢
درويش – زكي	الجسر والطوفان	الارض المحتلة	١٩٧٤
رباح – وليد	خناس المخيم	دار العودة – بيروت	١٩٧٧
	نقوش على جدران الزنزانة	دار العودة – بالتعاون – بيروت	١٩٧٤
	عزف منفرد على قماش الخيمة	وزارة الاعلام – بالتعاون – بغداد	١٩٧٦
رباح – يحيى	الذي لم يسافر	الاعلام الموحد – بيروت	١٩٧٥
الرزاز – مؤنس	مد اللسان الصغير في	المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت	

	وجه العالم الكبير		١٩٧٣
	البحر من ورائكم	بيروت	١٩٧٧
رشيد – علي هاشم	رصيف الدموع		١٩٦٠
	سر الراعي		
ريهاوي – محمود	العري في صحراء ليلية	وزارة الاعلام – بالتعاون – بغداد	١٩٧٢
زياد – توفيق	حال الدنيا[١٨]	الارض المحتلة	١٩٧٤
السايح – ليلى	قصصي أنا	المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت	١٩٧٣
سالم – عفيف صالح	سواعد الرجال	منشورات الأسور – عكا	١٩٧٨
سمعان – فرج نوح	ابرياء وجلانون	الارض المحتلة	١٩٦٠[١٩]
السواحري – خليل	٣ أصوات[٢٠]	عمان	١٩٧٢
	مقهى الباشورة	وزارة الثقافة والارشاد القومي – دمشق	١٩٧٥
شرورو – فضل	قراءة في صحيفة الصباح	اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين – بيروت	١٩٧٦
شرورو – يوسف	زورق من دم	دار الآداب – بيروت	
	عين في النهار	دار الآداب – بيروت	
شريم – اكرم	لم نمت بعد	دار الكاتب العربي – القاهرة	١٩٦٧
	السجناء لا يحاربون	اتحاد الكتاب العرب – دمشق	١٩٧٢
شقير – محمود	خبز الآخرين	دار صلاح الدين – القدس	١٩٧٥
	الولد الفلسطيني	دار صلاح الدين – القدس	١٩٧٧
الشيتي – عبد الله	القديسة العارية		١٩٦٠
	جدار العار		١٩٦٢
صخر	الوصايا العشرة من قانون فرسان الملك[٢١]	مجلة فلسطين الثورة – بيروت	١٩٧٧
صدقي – نجاتي[٢٢]	الاخوات الحزينات	دار المعارف بمصر – القاهرة	١٩٥٣
	الشيوعي المليونير	دار الكاتب العربي – بيروت	١٩٦٣
صدوق – راضي	الرغيف المحروق		
ضمرة – يوسف	العربات	اتحاد الكتاب العرب – دمشق	١٩٧٩
طه – ايوب	العقد	بيروت	
طه – محمد علي	لكي تشرق الشمس	مطبعة الحكيم – الناصرة	١٩٦٤
	سلاما وتحية	دار الجليل – عكا	١٩٦٩
	جسر على النهر الحزين[٢٣]	منشورات عربسك – القدس	١٩٧٤
	عائد الميعاري يبيع المناقيش في تل الزعتر	منشورات العودة – عكا	١٩٧٨
طوبي – أسمي	أحاديث من القلب	بيروت	
	الدنيا حكايات	بيروت	
العابدي – محمود سليمان	من قصص العرب[٢٤]		١٩٥٧
العامري – محمد اديب	شعاع النور		١٩٥٣

عباد ـ عبد الرحمن	جمع الشمل	الارض المحتلة	١٩٧٧
عبد الفتاح ـ زياد	بلاغ خاص جدا لآخر الرجال العابدين	مجلة فلسطين الثورة ـ بيروت	١٩٧٦
عبد الهادي ـ راضي[٢٥]	خالد وفاتنة		١٩٤٥
	الشهيد		١٩٥٠
	البطل		١٩٥٠
	فارس غرناطة		١٩٥٢
	سمسمة الشجاعة		١٩٥٣
	كوكو		١٩٥٧
العبسي ـ ابراهيم	المطر الرمادي	رابطة الكتاب الاردنيين ـ عمان	١٩٧٧
عريقات ـ عبد العزيز محمد	حب بلا لقاء	دار الكاتب العربي ـ بيروت	بلا تاريخ
عزام ـ سميرة	أشياء صغيرة	دار العلم للملايين ـ بيروت	١٩٥٤
	الظل الكبير	دار العلم للملايين ـ بيروت	١٩٥٦
	وقصص أخرى	دار الطليعة ـ بيروت	١٩٦٠
	الساعة والانسان	المؤسسة الاهلية ـ بيروت	١٩٦٣
	العيد من النافذة الغربية	دار العودة ـ بيروت	١٩٧١
العمري ـ فوزي	غزة من المحلف	بيروت	١٩٦٥
عودة ـ احمد	حين لا ينفع البكاء	الارض المحتلة	١٩٧٥
عودة ـ نبيل	يوميات الفلسطيني الذي لم يعد تائها	الناصرة	١٩٧٥
العيلة ـ زكي	العطش	دار البيادر ـ القدس	١٩٧٨
الغول ـ فائز علي	الدنيا حكايات[٢٦]		١٩٥٦
فتى الثورة	وثيقة الدماء[٢٧]	دار الأشبال ـ دمشق	١٩٧٠
فياض ـ توفيق	الشارع الاصفر[٢٨]	الناصرة	١٩٦٨
	البهلول	المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت	١٩٧٨
القاسم ـ افنان	الأعشاش المهجورة	الجزائر	١٩٧٢
القاسم ـ نبيه	ابتسمي يا قدس	منشورات الأسوار ـ عكا	١٩٧٨
قعوار ـ نجوى	عابرو السبيل	دار ريحاني للطباعة والنشر ـ بيروت	١٩٥٤
	لمن الربيع	مطبعة الحكيم ـ الناصرة	١٩٦٣
	دروب ومصابيح	مطبعة الحكيم ـ الناصرة	١٩٥٦
	اللقاء	دار النهار بيروت	١٩٧٢
	عهد من القدس	الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ببيروت	١٩٧٨
القلق ـ عز الدين	شهداء بلا تماثيل	الاعلام الموحد ـ بيروت	١٩٧٨
كنفاني ـ غسان	موت سرير رقم ١٢	مكتبة منيمنة ـ بيروت	١٩٦١
	أرض البرتقال الحزين	الاتحاد العام لطلبة فلسطين ـ بيروت	١٩٦٣
	عالم ليس لنا	دار الطليعة ـ بيروت	١٩٦٥

	عن الرجال والبنادق	دار الطليعة ـ بيروت	١٩٦٨
اللحام ـ سلمى	أعواد الثقاب	دمشق	١٩٧٢
المبيض ـ توفيق	الصوت والكرامة	الكويت	١٩٦٩
مجموعات مشتركة[٢٩]	الوان من القصة الاردنية	دائرة الثقافة والفنون ـ عمان	١٩٧٣
	مختارات من القصة الاردنية	دائرة الثقافة والفنون ـ عمان	١٩٧٦
	١٧ قصة قصيرة	رابطة الكتاب الاردنيين ـ عمان	١٩٧٥
	هكذا فعل أجدادنا[٣٠]	الجبهة الديمقراطية ـ بيروت	١٩٧٨
المدهون ـ ربعي	ابله خان يونس	اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ـ بيروت	١٩٧٧
مرار ـ مصطفى	الخيمة المثقوبة	دار النشر العربي ـ تل أبيب	
الملح ـ يوسف	قصص فلسطينية	جريدة المورد ـ كندا	١٩٧١
ملحس ـ ثريا	العقدة السابعة	بيروت	١٩٦٢
ملحس ـ أمير فارس	أبو مصطفى		
موسى ـ عصام	حكايات الفارس المحور	نادي خريجي الجامعة الاردنية ـ عمان	١٩٧٢
	العودة لصدر الشمس	عمان	١٩٧٦
موعد ـ محمود	رباعية الموت والجنون	بالتعاون مع اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق	١٩٧٨
ناطور ـ سلمان	الشجرة التي تمد جنورها الى صدري	منشورات الأسوار ـ عكا	١٩٧٩
النشاشيبي ـ ناصرالدين	حفنة رمال	دار الموعد ـ بيروت	بلا تاريخ
نفاع ـ محمد	الأصيلة	منشورات عربيسك ـ القدس	١٩٧٦
	ودية	القدس	١٩٧٧
النقيب ـ مازن	زوجة بلا زوج	المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت	بلا تاريخ
نمر ـ احمد حسين	قريتنا عادت تقاتل	الارض المحتلة	١٩٧٦
هنية ـ اكرم	السفينة الاخيرة .. الميناء الأخير	دار الكاتب ـ القدس	١٩٧٩
وادي ـ فاروق	المنفى يا حبيبتي	وزارة الاعلام ـ بالتعاون ـ بغداد	١٩٧٦
ياسين ـ عبد الحميد	اقاصيص	سلسلة الثقافة العامة ـ يافا	١٩٤٦
	اقاصيص[٣١]	عمان	١٩٥٩
يخلف ـ يحيى	المهرة	وزارة الاعلام ـ بالتعاون ـ بغداد	١٩٧٤
	نورما ورجل الثلج	دار ابن رشد ـ بيروت	١٩٧٧
مجموعة قصاصين	٢٧ قصة من الأرض المحتلة[٣٢]		

هوامش

(٤) صدرت ضمن سلسلة القصة والمسرحية ـ العدد ٣٠
(٥) هذه المجموعة مكتوبة بلهجة قروية فلسطينية .
(٦) لم اتمكن من معرفة الاسم الصحيح لهذه المجموعة .
(٧) قصص هذه المجموعة ككل مقتبسة أو معدة عن الادب العالمي .
(*) ذكر في كتاب ألوان من القصة الاردنية ١٩٧٦ ، أن هنالك مجموعة معدة للطبع لكاتب فلسطيني هو **انور ابو مغلي** .
(٨) لم اتمكن من معرفة اسم هذه المجموعة .
(٩) تعتبر « مسارح الاذهان » المجموعة القصصية الفلسطينية الاولى على الاطلاق ، كما يعتبر صاحبها الرائد الاول للقصة القصيرة كفن مستقل في فلسطين .
(١٠) ذكر في دليل الكتاب الفلسطيني الصادر عام ١٩٤٦ انه مخطوط معد للطبع .
(*) يشك « **ناصر الدين الأسد** » في كتابه « خليل بيدس رائد القصة العربية الحديثة في فلسطين » ، بأن تكون جميع قصص « مسارح الاذهان » مؤلفة من قبل **خليل بيدس** ، حيث يعتقد ان هنالك قصصا مترجمة او معدة فيها .
(١١) صدرت ضمن سلسلة في المعركة .
(١٢) صدر « لعرق » طبعة ثانية عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق ١٩٧٤ ، كما أعيد نشرها قبل ذلك باسم « المغنون في الظلال » .
(١٣) « انا وطالبتي » المجموعة القصصية الثانية في تاريخ القصة الفلسطينية من حيث الصدور ، ويذكر ـ **نصري الجوزي** ان الاذاعة الفلسطينية كانت تقدم برنامجا اسبوعيا مدته ربع ساعة ، يتم خلاله قراءة قصة من قبل مؤلفها ، وقد تناوب على هذا البرنامج بشكل مستمر القاصان الفلسطينيان **خليل بيدس ونصري الجوزي** فقط ، وقد أستمرت اذاعة هذا البرنامج من ١٩٣٦ حتى ١٩٤٧ .
(١٤) قصة واحدة طبعت منفصلة في كتاب .
(١٥) نفس الملاحظة السابقة .
(١٦) نشرت أولا ضمن سلسلة « روايات الهلال » ثم أعادت طبعها « دار العودة » في بيروت .
(١٧) بالتعاون مع اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين .
(١٨) قصص من الفولكور الفلسطيني .
(١٩) التاريخ ليس دقيقا تماما .
(٢٠) مجموعة مشتركة
(٢١) قصة واحدة نشرت منفصلة في كتاب .
(٢٢) كتاب « أعلام الأدب والفكر في فلسطين » يذكر له مجموعة ثالثة « الارملة الملول » صادرة في بيروت ١٩٥٣.
(٢٣) الطبعة الثانية دار ابن رشد ـ بيروت ١٩٧٧ .
(٢٤) قصص مستوحاة من التاريخ العربي .
(٢٥) يظهر من أسماء قصص هذا الكاتب بأنها قصص أطفال ، واذا كانت كذلك فهذا يعني انه ـ الكاتب ـ اول من كتب قصة للأطفال من بين الكتاب الفلسطينيين .
(٢٦) قصص شعبية في ثلاثة أجزاء .
(٢٧) قصة منفصلة للأشبال .
(٢٨) الطبعة الثانية دار العودة ـ بيروت ١٩٧٠.
(٢٩) مجموعات مشتركة لكتاب فلسطينيين او معظمهم فلسطينيون .
(٣٠) صدرت ضمن سلسلة « الطريق الى وطني » وقد ضمت قصصا لكتاب من الارض المحتلة ، هم على التوالي : يوسف سلمان أبو عمر ـ مرشد الخلايلة ـ حنا ابراهيم ـ عصام خوري ـ صلاح حسين ـ ايمان ـ محمد أيوب ـ سعيد نفاع ـ أحمد ناظم ـ محمد نفاع .
(٣١)اقاصيص طبعة ثانية مع اضافة قصص جديدة .
(٣٢) الطبعة الثانية ، فلسطين الثورة ، بيروت . وتضم قصصا لـ : ابراهيم العلي ، جمال بنورة ، حمدي كحلوت ، زكي العيلة ، زياد عواري ، سامي الكيلاني ، صبحي حمدان ، عبد الله تايه ، علي لبد ، غريب عسقلاني ، فضل الريماوي ، محمد أيوب ، محمد كمال جبر ، مفيد دويكات .

المراجع :

١ ـ **الكتب** : المجموعات القصصية للكتاب الفلسطينيين
خليل بيدس رائد القصة العربية الحديثة في فلسطين ، تاليف ناصر الدين الأسد
اعلام الأدب والفكر في فلسطين ـ تاليف البدوي الملثم .
القصة القصيرة في فلسطين والاردن : هاشم ياغي .
حياة الأدب الفلسطيني الحديث ـ عبد الرحمن ياغي .
عبير ومجد : اسمى طوبى .

٢ ـ **المجلات** : مجلات الهيئات والمنظمات الفلسطينية .
مجلة **افكار** الأردنية .
مجلة **الثقافة العربية** الليبية .
مجلة **مواقف** اللبنانية .
صحف سورية ولبنانية وأردنية .

٣ ـ **مقالات وأحاديث** : الكاتب الفلسطيني **توفيق فياض** ، في مقر مجلة الطلائع بدمشق .
حديث خاص للكاتب الفلسطيني **نصري الجوزي** .

الجندي والقديس

عن غسان كنفاني في الذكرى السابعة لاستشهاده

رشاد ابو شاور

ـ ١ ـ

الدور

في العدد الخاص بالأدب الفلسطيني والذي اصدرته مجلة **الاقلام** ، قال الكاتب الفلسطيني الكبير ، **جبرا ابراهيم جبرا** ، محدداً دور الكتاب الفلسطينيين : « وحسن المأساة فيما يكتبون انما هو جزء من الايمان العنيف بقضية أفلحوا بجعلها قضية الأمة العربية كلها ـ هذا الذي يرى عبر الموت والفداء ، الميلاد الجديد » .

ـ ٢ ـ

النسف

في مقدمة كتابه ، في الأدب الصهيوني يقول **غسان كنفاني** :

« ولن يكون من المبالغة ان نسجل ههنا ان الصهيونية الأدبية سبقت الصهيونية السياسية ، وما لبثت ان استولدتها ، وقامت الصهيونية السياسية ، بعد ذلك ، بتجنيد الأدب في مخططاتها : ليلعب الدور المرسوم له في تلك الالة الضخمة التي نظمت لتخدم هدفاً واحداً » .

إن وعي **غسان كنفاني** بدور الأدب ، وخطورة هذا الدور هو الذي مكنه من التعرف إلى الدور الذي لعبه الأدب الصهيوني (كمؤسس) للصهيونية السياسية .

وإذا كان الأدباء الفلسطينيون قد حاربوا على جبهة الأدب ، واستشهد بعضهم على ثرى فلسطين : كالشاعر **عبد الرحيم محمود** ، والشاعر الشعبي **نوح ابو الهيجاء** ، فان **غسان**

هوامش

(٤) صدرت ضمن سلسلة القصة والمسرحية ـ العدد ٣٠

(٥) هذه المجموعة مكتوبة بلهجة قروية فلسطينية .

(٦) لم اتمكن من معرفة الاسم الصحيح لهذه المجموعة .

(٧) قصص هذه المجموعة ككل مقتبسة او معدة عن الادب العالمي .

(*) ذكر في كتاب ألوان من القصة الاردنية ١٩٧٦ . أن هنالك مجموعة معدة للطبع لكاتب فلسطيني هو **انور ابو مغلي** .

(٨) لم اتمكن من معرفة اسم هذه المجموعة .

(٩) تعتبر « مسارح الاذهان » المجموعة القصصية الفلسطينية الاولى على الاطلاق ، كما يعتبر صاحبها الرائد الاول للقصة القصيرة كفن مستقل في فلسطين .

(١٠) ذكر في دليل الكتاب الفلسطيني الصادر عام ١٩٤٦ أنه مخطوط معد للطبع .

(*) يشك « **ناصر الدين الاسد** » في كتابه « خليل بيدس رائد القصة العربية الحديثة في فلسطين » ، بأن تكون جميع قصص « مسارح الاذهان » مؤلفة من قبل **خليل بيدس** ، حيث يعتقد أن هنالك قصصا مترجمة او معدة فيها .

(١١) صدرت ضمن سلسلة في المعركة .

(١٢) صدر « لعرق » طبعة ثانية عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق ١٩٧٤ ، كما أعيد نشرها قبل ذلك باسم « الفنون في الظلال » .

(١٣) « انا وطالبتي » المجموعة القصصية الثانية في تاريخ القصة الفلسطينية من حيث الصدور ، ويذكر ـ **نصري الجوزي** ان الاذاعة الفلسطينية كانت تقدم برنامجا اسبوعيا مدته ربع ساعة ، يتم خلاله قراءة قصة من قبل مؤلفها ، وقد تناوب على هذا البرنامج بشكل مستمر القاصان الفلسطينيان **خليل بيدس ونصري الجوزي** فقط ، وقد استمرت اذاعة هذا البرنامج من ١٩٣٦ حتى ١٩٤٧ .

(١٤) قصة واحدة طبعت منفصلة في كتاب .

(١٥) نفس الملاحظة السابقة .

(١٦) نشرت أولا ضمن سلسلة « روايات الهلال » ثم اعادت طبعها « دار العودة » في بيروت .

(١٧) بالتعاون مع اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين .

(١٨) قصص من الفولكور الفلسطيني .

(١٩) التاريخ ليس دقيقا تماما .

(٢٠) مجموعة مشتركة

(٢١) قصة واحدة نشرت منفصلة في كتاب .

(٢٢) كتاب « أعلام الأدب والفكر في فلسطين » يذكر له مجموعة ثالثة « الارملة الملول » صادرة في بيروت ١٩٥٣.

(٢٣) الطبعة الثانية دار ابن رشد ـ بيروت ١٩٧٧ .

(٢٤) قصص مستوحاة من التاريخ العربي .

(٢٥) يظهر من أسماء قصص هذا الكاتب بأنها قصص أطفال ، واذا كانت كذلك فهذا يعني انه ـ الكاتب ـ اول من كتب قصة للأطفال من بين الكتاب الفلسطينيين .

(٢٦) قصص شعبية في ثلاثة اجزاء .

(٢٧) قصة منفصلة للأشبال .

(٢٨) الطبعة الثانية دار العودة ـ بيروت ١٩٧٠.

(٢٩) مجموعات مشتركة لكتاب فلسطينين او معظمهم فلسطينيون .

(٣٠) صدرت ضمن سلسلة « الطريق الى وطني » وقد ضمت قصصا لكتاب من الارض المحتلة ، هم على التوالي : يوسف سلمان أبو عمر ـ مرشد الخلايلة ـ حنا ابراهيم ـ عصام خوري ـ صلاح حسين ـ ايمان ـ محمد أيوب ـ سعيد نفاع ـ أحمد ناظم ـ محمد نفاع .

(٣١)اقاصيص طبعة ثانية مع اضافة قصص جديدة .

(٣٢) الطبعة الثانية ، فلسطين الثورة ، بيروت . وتضم قصصا لـ : ابراهيم العلي ، جمال بنورة ، حمدي كحلوت ، زكي العيلة ، زياد عواري ، سامي الكيلاني ، صبحي حمدان ، عبد الله تايه ، علي لبد ، غريب عسقلاني ، فضل الريماوي ، محمد أيوب ، محمد كمال جبر ، مفيد دويكات .

المراجع :

١ ـ **الكتب** : المجموعات القصصية للكتاب الفلسطينيين

خليل بيدس رائد القصة العربية الحديثة في فلسطين ، تأليف ناصر الدين الأسد

اعلام الأدب والفكر في فلسطين ـ تأليف البدوي الملثم .

القصة القصيرة في فلسطين والاردن : هاشم ياغي .

حياة الأدب الفلسطيني الحديث ـ عبد الرحمن ياغي .

عبير ومجد : اسمى طوبى .

٢ ـ **المجلات** : مجلات الهيئات والمنظمات الفلسطينية .

مجلة **افكار** الأردنية .

مجلة **الثقافة العربية** الليبية .

مجلة **مواقف** اللبنانية .

صحف سورية ولبنانية وأردنية .

٣ ـ **مقالات وأحاديث** : الكاتب الفلسطيني **توفيق فياض** ، في مقر مجلة الطلائع بدمشق .

حديث خاص للكاتب الفلسطيني **نصري الجوزي** .

الجندي والقديس

عن غسان كنفاني في الذكرى السابعة لاستشهاده

رشاد ابو شاور

ـ ١ ـ

الدور

في العدد الخاص بالأدب الفلسطيني والذي اصدرته مجلة **الاقلام** ، قال الكاتب الفلسطيني الكبير ، **جبرا ابراهيم جبرا** ، محدداً دور الكتاب الفلسطينيين : « وحسن المأساة فيما يكتبون انما هو جزء من الايمان العنيف بقضية أفلحوا بجعلها قضية الأمة العربية كلها ـ هذا الذي يزى عبر الموت والفداء ، الميلاد الجديد » .

ـ ٢ ـ

النسف

في مقدمة كتابه ، في الأدب الصهيوني يقول **غسان كنفاني** :

« ولن يكون من المبالغة ان نسجل ههنا ان الصهيونية الأدبية سبقت الصهيونية السياسية ، وما لبثت ان استولدتها ، وقامت الصهيونية السياسية ، بعد ذلك ، بتجنيد الأدب في مخططاتها : ليلعب الدور المرسوم له في تلك الالة الضخمة التي نظمت لتخدم هدفاً واحداً » .

إن وعي **غسان كنفاني** بدور الأدب ، وخطورة هذا الدور هو الذي مكنه من التعرف إلى الدور الذي لعبه الأدب الصهيوني (كمؤسس) للصهيونية السياسية .

وإذا كان الأدباء الفلسطينيون قد حاربوا على جبهة الأدب ، واستشهد بعضهم على ثرى فلسطين : كالشاعر **عبد الرحيم محمود** ، والشاعر الشعبي **نوح ابو الهيجاء** ، فان **غسان**

كنفاني هو ، بحق ، رائد (الفلسطينية) الأدبية ، وهو من بين الكتاب الفلسطينيين ، صاحب الدور الريادي في زراعة فلسطين في أرض النفس العربية. والشهادة لم تمنحه كل هذا الحضور في الثقافة الفلسطينية ، والنفس الفلسطينية ، والعربية ، ولكن حضوره ، ودوره ، وريادته ، هي التي شكلت كل الخطر على العدو الصهيوني ، فلجأ الى نسفه جسدياً ، ليلغي وجوده ، بالضبط كما حاول أن ينسف الشعب الفلسطيني من جذوره ، ويلقي به في العدم ، ليلغي وجوده .

ـ ٣ ـ

اقتلاع الجذور

الصهاينة ، ومعهم كل القوى الاستعمارية التي منحتهم فلسطين ، والتي تبذل قصارى جهدها لمساعدتهم في ضرب جذورهم في فلسطين وانتزاع كل الجذور من عمق الأرض الفلسطينية العربية ـ راهنوا على أن عامل الزمن سيعمل ضد الفلسطينيين ، وذلك الرهان تعمق لديهم من حدسهم بأن الاجيال الفلسطينية التي تربت في فلسطين ستموت خارج الوطن ، والاجيال الطالعة في النفي لا بد أن تذوب في البحر العربي ، وتنسى فلسطين .

ولكن الذي حدث هو عكس ذلك بالضبط ، اذ ان الجيل الذي نما وعاش في النفي ، هو الذي قاتل على جبهة الأدب ، وهو الذي قاتل على جبهة السياسة ، وحمل السلاح : من أجل التحرير . أي أنه بدلا من أن ينسى فلسطين ، زرعها في الضمير العربي ، والوجدان العربي ، وجلعها الهم الأساسي لكل مناضل في كل بلاد العرب ، بل ، وأبعد من ذلك ، نقل فلسطين إلى العالم ، فامتدت ملايين الايدي لتسهم في اعلاء راية هذا الشعب الصغير ، المكافح ، العنيد ، والذي لا يمكن تنويبه .

ولأن الصهيونية تريد أن توقف الزمن ، وتلونه . بالأساطير وميتولوجيا التوراة ، وخرافات فكرها المتخلف ، فان الأمر الطبيعي أن تسير الفلسطينية من الزمن ، وأن تستشرف المستقبل ، ولا تأخذ من الماضي غير ما يساعدها على الصمود ، والتطور ، وبلوغ الانتصار .

ومن هنا يمكننا أن نستدل على ميزات الأدب الفلسطيني : الانسانية ، التقدمية ، والتي جسدها **غسان كنفاني ، رائد الكفاح على جبهة القصة والرواية الفلسطينية .**

ـ ٤ ـ

الفلسطينية ما هي ؟

برأيي ، أن هناك فلسطينيتان ، الفلسطينية الاقليمية : المنسجمة مع الاقليمية في الوطن العربي ، والتي هي نتاج لقمة الانظمة للانسان الفلسطيني ، ومحاصرته ، واتهامه المستمر ، ومطاردته المتعمدة ، والفلسطينية العربية : التي هي ـ كما ادركها كاتب صهيوني ، هو ديفيد قاما ـ الاسم الحركي للعروبة في صراعها مع الصهيونية .

غسان ، رأى في وحدة إرادة الجماهير العربية ، وتحطيم الحدود ، وتفجير طاقات هذه الجماهير ، طريقاً لتحرير فلسطين ، **وغسان** رأى في الصهيونية عدواً لكل جماهير الأمة

العربية ، المسحوقة ، الفقيرة ، المضطهدة ، صاحبة المصلحة في الوحدة ، والتقدم ، والحياة الكريمة ، ولأنه انطلق من رؤية سياسية وإجتماعية وحضارية للصراع ، صحيحة ومحددة ، فانه أسهم في (تأسيس) الرد الثقافي الفلسطيني (العربي) على الصهيونية .

ـ ٥ ـ

البحث عن الكرامة

التعاريف التي يمكن وضعها حول الثقافة كثيرة ، والخوض في مفهوم الثقافة ودورها يحتاج الى شرح كثير ، ومعارك فكرية كثيرة . ولكن أقرب تعريف يمكن أن يتطابق مع حالة الفلسطيني هو : الثقافة تعني البحث عن الكرامة .

وواضع هذا التعريف للثقافة ، كاتب اطلع على أوضاع الهنود الحمر في أواسط أميركا اللاتينية ، ورأى كيف ان (الأسبان) ألغوا لغة الهنود ، وعاداتهم ، وتقاليدهم ، أي قطعوهم عن جذورهم ، فحولوهم ، بذلك ، إلى (قطعان) فاقدة للكرامة الانسانية ، ومن هنا رأى بأن امتلاك الثقافة الوطنية يعني امتلاك الكرامة .

لقد أسهم **غسان كنفاني** بالقصة والرواية والمقال السياسي ، والتبشير بأدب الفلسطينيين داخل الأرض المحتلة ، والانتماء السياسي ، وخوض المعارك الفكرية والسياسية ، أسهم في زرع جذور الفلسطيني ، عميقاً ، في أرضه . لأنه استطاع أن يزرع وطن الفلسطيني في داخل الفلسطيني .

كل الناس في هذا العالم يعيشون في أوطانهم ، بما في ذلك الهنود الحمر ، والسود في روديسيا وجنوب افريقيا ، رغم كل القمع ، والتدابير ، والتخريب الثقافي والحضاري ، إلا الفلسطيني : فهو الذي يجب ان (يعيش) وطنه في داخله . ولأن الاجيال الفلسطينية في المنفى لا تعرف ملامح وطنها ، الجغرافية ، فان الأدب الفلسطيني ، بشكل خاص ، والثقافة الفلسطينية بشكل عام قد زرعت (الوطن) في داخل الفلسطيني ، ومع كل قصيدة جميلة ، ومع كل قصة أو رواية متطورة ، ومع كل قطعة موسيقى رقيقة ينمو الوطن في داخل الفلسطيني ، ويصير أكثر بهاء وجمالا .

ـ ٦ ـ

الفلسطينيون ظالمون .. ولكن .

في مقدمة للمجلد الرابع من أعمال **غسان كنفاني** ، كتب الشاعر الفلسطيني الكبير **محمود درويش** : « لم يقل أحد ان الفلسطينيين لا يرحمون أبناءهم . سأقول أن الفلسطينيين لا يرحمون ابناءهم . ذلك من فرط إيمانهم بفاعلية الأدب الذي قدم لهم ، ومنحهم ، تعويضاً عن مهانات ، عندما فقدوا كل شيء ولم يملكوا إلا كلمات . وذلك لأنه استمد منهم القوة ليؤسس لهم العلاقة . نادراً ما يسطو الوطن ، كما يسطو على أدب الفلسطينيين . ولذلك يدرك الفلسطينيون ، وبحق ، أنهم هم الذين خلقوا أبناءهم ، ولذلك ، أيضاً ، يطالبونهم بالمواطنة المثالية وبالطاعة الفولاذية . ولا يسمحون لهم في آن يكونوا أقل من جنود أو قديسين » .

أظن أن هذه هي المرة الأولى التي يقال فيها مثل هذا الكلام عن وضع الأديب الفلسطيني ، ومحمود يرى بأن وضع الأديب الفلسطيني يجب أن يكون (وضع) الجندي أو القديس . **وغسان كنفاني** كان جندياً ليس من حيث (الرتبة) ، ولكن من حيث روح القتال . ولذا استشهد وسط الميدان . ولأن الفلسطينيين رأوا في **غسان** (النموذج) لأديبهم الذي يريدون ، رأوا فيه الجندي ، والقديس ، فقد زحفوا يوم التاسع من تموز : أي اليوم التالي لاستشهاد **غسان** بعشرات الألوف ، وتدفقوا يلملمون أجزاء جسد جنديهم ، وقديسهم : **غسان كنفاني** ، ويعيدونه الى الحياة .

غسان كنفاني استشهد وهو في السابعة والثلاثين ، واليوم يعود إلى الحياة طفلا فلسطينياً جميلا ، حاد الذكاء ، صلب الارادة ، قوي الحضور ، هائل الفاعلية ، وينمو من جديد في العقول ، والقلوب ، والنفوس ، إنه الفلسطيني الذي لايموت ، لا يأكله النسيان ، لا يذوبه المنفى .

وغسان كنفاني ينتشر اليوم ، في العالم ، بكلماته ، وقصصه ، ورواياته الفلسطينية ، وهذا ما يؤكد بأن الفلسطيني سائر على درب الانتصار ، إن إنتشار الثقافة الفلسطينية في العالم ، بعد كل النسيان ، والتناسي المقصود ، هو شرف ومجد الأديب الفلسطيني ، وهو معنى حياة واستشهاد **غسان كنفاني** .

●●●

وبعد :

فقد قال **صلاح الدين الايوبي** ، مخاطبا جنوده :

« لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم . بل ملكتها بقلم القاضي الفاضل » .

ومن جميل المصادفة أن القاضي الفاضل ، وزير **صلاح الدين** ، هو فلسطيني من عسقلان.

لقد أدرك **صلاح الدين الأيوبي** ــ القائد الفذ الذي هزم الفرنجة الغزاة ــ اهمية القلم .

أسوق هذا الكلام لأن كثيرين يصرخون ، إذا زغرد الرصاص فليخرس القلم . وهم سعداء بجهلهم ، لأنهم لجهلهم يحتقرون الثقافة ويقدمون بذلك خدمة للعدو ،الذي يريد خلع جذورنا ، والالقاء بنا في العدم .

لقد ناضل **غسان كنفاني** من أجل كرامة شعبه ، ولهذا فأن شعبه لن ينساه .

خط «دالي» الاحمر

الياس فركوح

ذهبت وجئت وراوحت . انفتلت وصمت ، ثم تركتها تنخطف لكلمة او للعتمة منا . كانت اصواتنا تسقط حال مغادرتها لشفاهنا .. خجلى . كنا الاحياء والمأخوذين الى الاتي من الاعتصار والكرب . كنا الرفاق . احسمت المسألة ؟

« **انظروا الى الكتاب الذي يحمل . لم يحسم مسائله بعد .** »

.. **ونظرنا . لحيته الشقراء ما زالت صغيرة ، وضوء القمر ينغمس في غلاف كتابه .**

لم يأبه لتعليقاتنا، بل تمطى واسند كوعه على ظهر المتراس . السخونة قابعة في البعيد عنا ، وجمرة السيجارة لا تحتسب خطأ تكتيكيا . **الا انك هتفت به:**

« مستريح انت كأنك تحاور احد فنانينك السرياليين . هه ؟! »

واطرق مترددا لحظات . حار . تنقلت عيناه بينك وبين الكتاب الذي تركه عند اخمص بندقيته . كنت مسؤول المتراس الخلفي ، والمتراس بعيد بعيد ، واصوات الساهرين تختلط بأغنية لفيروز يبثها التلفزيون . استجمع نفسه وأجابك :

« يا رفيق . المنطقة آمنة ... والاستنفار احترازي . »

أانفجرت فيه وقتها ، ام فجرت مكنون صدرك :

أظن أن هذه هي المرة الأولى التي يقال فيها مثل هذا الكلام عن وضع الأديب الفلسطيني ، ومحمود يرى بأن وضع الأديب الفلسطيني يجب أن يكون (وضع) الجندي أو القديس . وغسان كنفاني كان جندياً ليس من حيث (الرتبة) ، ولكن من حيث روح القتال . ولذا استشهد وسط الميدان . ولأن الفلسطينيين رأوا في غسان (النموذج) لأديبهم الذي يريدون ، رأوا فيه الجندي ، والقديس ، فقد زحفوا يوم التاسع من تموز : أي اليوم التالي لاستشهاد غسان بعشرات الألوف ، وتدفقوا يلملمون أجزاء جسد جنديهم ، وقديسهم : غسان كنفاني ، ويعيدونه الى الحياة .

غسان كنفاني استشهد وهو في السابعة والثلاثين ، واليوم يعود إلى الحياة طفلا فلسطينياً جميلا ، حاد الذكاء ، صلب الارادة ، قوي الحضور ، هائل الفاعلية ، وينمو من جديد في العقول ، والقلوب ، والنفوس ، إنه الفلسطيني الذي لايموت ، لا يأكله النسيان ، لا يذوبه المنفى .

وغسان كنفاني ينتشر اليوم ، في العالم ، بكلماته ، وقصصه ، ورواياته الفلسطينية ، وهذا ما يؤكد بأن الفلسطيني سائر على درب الانتصار ، إن إنتشار الثقافة الفلسطينية في العالم ، بعد كل النسيان ، والتناسي المقصود ، هو شرف ومجد الأديب الفلسطيني ، وهو معنى حياة واستشهاد غسان كنفاني .

●●●

وبعد :

فقد قال صلاح الدين الايوبي ، مخاطباً جنوده :

« لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم . بل ملكتها بقلم القاضي الفاضل » .

ومن جميل المصادفة أن القاضي الفاضل ، وزير صلاح الدين ، هو فلسطيني من عسقلان.

لقد أدرك صلاح الدين الأيوبي ــ القائد الفذ الذي هزم الفرنجة الغزاة ــ اهمية القلم .

أسوق هذا الكلام لأن كثيرين يصرخون ، إذا زغرد الرصاص فليخرس القلم . وهم سعداء بجهلهم ، لأنهم لجهلهم يحتقرون الثقافة ويقدمون بذلك خدمة للعدو ، الذي يريد خلع جذورنا ، والالقاء بنا في العدم .

لقد ناضل غسان كنفاني من أجل كرامة شعبه ، ولهذا فإن شعبه لن ينساه .

خط «دالي» الاحمر

الياس فركوح

ذهبت وجئت وراوحت · انفتلت وصمت ، ثم تركتها تنخطف لكلمة او للعتمة منا · كانت اصواتنا تسقط حال مغادرتها لشفاهنا ·· خجلى · كنا الاحياء والمأخوذين الى الاتي من الاعتصار والكرب · كنا الرفاق · احسمت المسألة ؟

« انظروا الى الكتاب الذي يحمل · لم يحسم مسائله بعد · »

·· ونظرنا · لحيته الشقراء ما زالت صغيرة ، وضوء القمر ينغمس في غلاف كتابه ·

لم يأبه لتعليقاتنا، بل تمطى واسند كوعه على ظهر المتراس · السخونة قابعة في البعيد عنا ، وجمرة السيجارة لا تحتسب خطأ تكتيكيا · الا انك هتفت به :

« مستريح انت كأنك تحاور احد فنانينك السرياليين · هه ؟! »

واطرق مترددا لحظات · حار · تنقلت عيناه بينك وبين الكتاب الذي تركه عند اخمص بندقيته · كنت مسؤول المتراس الخلفي ، والمتراس بعيد بعيد ، واصوات الساهرين تختلط بأغنية لفيروز يبثها التلفزيون · استجمع نفسه وأجابك :

« يا رفيق · المنطقة آمنة ··· والاستنفار احترازي · »

أانفجرت فيه وقتها ، ام فجرت مكنون صدرك :

« الاستنفـار يعني الانضباط · وانا اجـدك ما زلت تراه خطـا احمـر في لوحة (لدالي) · » وحدجته بنظرة ذات معنى ·

··· تخلصت من شحنتك ، وبرهنت له في ذات الوقت على انك مثقف · عـاد ، كابتا غيظه ، الى بندقيته · امسكها وتأهب في وجه النجوم المحلقة في الصمت كنا نشاهد ونستمع ، وكان الكتاب عن المدرسة السريالية ·

★★★

هواء الخريف يصفع سكون المنطقة الغربية · اهتزاز (اللاند) يدفعنا الى ضغط اصابعنا على البنادق كي لا تسقط · السائق يزيد من سرعته هربـا مـن قذيفة قد تلحق بنا · كان هذا بعد صمتك بساعات · واجهتنا المنطقة بفجر بارد · مسلحان يجتازان الشارع بهرولة · عينا (سليمان) تنغرسان بانكسار في وجهي · ربما يستعيد الان احدى المعادلات الفلسفية لتساعده على هضم الامر · اترجرج فينسل صقيع المقعد المعدني الى بدني · لم افهم شيئا وقتذاك · كان خط (دالي) الاحمر يحفر داخلي خندقا من الاندهاش المرعوب ·

(مازن) يلتصق بالسريالي ذو اللحية الشقراء ، وعيناه دائرتا زجاج · وجهه الصارم ، الحاسم دائما ، انقلب الى شكل متهدم · كـانت مبادرتـه في الاساس · هو الذي اقترحها ، فأحرجنا ، وأخرجنا الى المتاريس الامامية ·

« لنكف عن التنظير · ها هي (الشياح) · آن لنا ان نحك جلدنا هناك ·

ضحك (سليمان) وقال :

ـ تقصد ان نخرج من جلدنا ·

ـ لم لا ؟ انها محاولة دؤوبة كما تعلم ·

فتدخلت انت وقلت :

ـ ولكنها ستكون شيئا اخر ·

ـ نعم · ليست الصحيفة ، ولا الاتحاد ، ولا ···

واكمل الثالث مقاطعا ، وهو يمسد لحيته النابتة ، ناظرا اليك بايحاء :

ـ ولا الانسلاخ على الورق ·

تجاهلته ومددت يدك لتقلب كتب (سليمان) الجامعية · هتف بك مازحا :

ـ قف · لا تعبث بلحية المعلم ، فهو القائل « نقطة الوسط هي الابعـد عـن قطبي التهور ··· والجبن »

··واضفت انا :

ـ ونتيجتها الاسوأ ملصق انيق على جدار شعبي · ستصبح مشهورا ·

خرج (مازن) على صرامته وابتسم بلؤم · نظر نحوك وقال :

ـ وربما ايضا في ازقة « الحمراء » وعلى جدران باراتها · من يدري ؟ ستحسم وقتها قضيتك ·

فانفجرت مقهقها بعصبية ·· ثم هدأت · ارخيت رقبتك الى الاسفل ، وبدأت بطي ورقة منشور كان قد احتوى ساندويش اكل نصفه · »

★★★

وجهها وبيروت · هي وبيروت وجهان لعملة واحـدة · هكذا كنت تقول ، « والمعدن يحرق حين يعشق النار » ·

عشقتها حد التحامك بالقضية ، وكتبت في احدى وجدانياتك الخاصة :

(انت القضية) ، ودفعتني لرؤيتها ·

اقتحمنا المكان وخلفنا طوفان من السماء · لطمتنا اصوات موسيقى ورائحة عطر · استقرت زجاجتا البيرة على الطاولة امامنا ، في حين كنت تومىء نحوها · كنت محرجا · عيناها غاطستان في ظلال حمـــراء ، · تحـدث رجلا لم نر منه الا ظهره العريض ·

هزت برأسها وابتسمت · هتفت من داخلي : (كذب · كذب)

« لذيذة · لذيذة · تنبهت لك ، فأشرت الى زجاجة البيرة وهي تفرغ في الكأس ، وقلـت :

« افضل لذيذه على الامستل · اخف »

سألتك من اين اتت · فقلت من الجنوب · ولماذا هي هنا ؟

« لم يعلموها القراءة ، ولا ··· »

ولكنها ليست بالمهنة التي ···

« حاولت ان تعمل بيديها فنهشوا بقية الجسد »

تململت ساخرا وقلت انها قصة مكررة ، فأجبت :

« القانون واحد والوجوه هي التي تتكرر »

اقتربت منا وجلست · رحبت بي بحرارة ، وقالت انك حدثتها عني كثيرا · لم تكن متكلفة ، وكلماتها كانت بسيطة الى درجة لا تصدق · انبثّ بي الحـرج اكثر وخيل الي انك ضحكت لساعـات · تعجبت · ولكنـك عندمـا صـرت في الخارج ، عاد وجهك الى وقاره ·

سرنا صامتين في شوارع (الحمرا) المبللة . كنت' استرجع ملامح وجهها علني اتذكر اين شاهدته من قبل . لا في مكان . قريب من وجوه الأخريات لا شيء يميزه . تساءلت لماذا هي بالذات ، ولم اصل الى جـواب . صرنا امام مقهى (ستراند) . بضعة رؤوس تتحرك خلف الزجاج . قاربنا نهاية الحوار فقلت لي :

«هنا يبيعون الزهور »

واشرت الى الزاوية . فسألتك : لمن ؟

فأجبت :

« لمن يقدر أن يشتري »

فاجأتـــك :

ـ ولماذا لا تعمل على ايجاد حل لها ؟

توقفت ونظرت الي بتمعن اعتقدت' اني وضعتك في الزاوية . فالحت :

ـ قل . لماذا لا تجد لها الحل ؟

فواجهتني صارخا كالملسوع وانت تدق على صدر سترتك الانيقة :

« اتريدني انا ان اجد لها الحل ؟ انا !! »

***

الانتقال الى (الشياح) ، ليلا يتم سيرا على الاقدام . هذا ما فهمناه ونحن نتوزع على جانبي الطريق . ضوء العربة يحولها الى هدف مباشر لقذيفة . في البداية صادفتنا نقاط متحركة تحمل اجهـــزة الالتقاط والارسال . دخلنا جو الحرب . تقدمنا عبر طرق متربة فبدأ الفراغ يحتوينا . رهيب هـو الفراغ المعتم في اجواء الحرب هذه . وصلنا طـرف الحرش ، باتت مقبـرة الشهداء وراء ظهورنا مدفونة بين البنايات المطفئة .

« قف » ، ونبتت بندقيتان مع الصرخة خلف جدار (الحرش) . اعطيت لهما كلمة السر فتابعنا . بدأت رائحة الشجر تاخذ معنى مهيجا .

«اشم الموت وسط هذه الغابة »

همست للاحد وانت تلحق بالدليل . ارتطام الجعب وتصاعد الانفاس شكلا علامة انعطاف نفسي واضحة . لم تعد البندقية في اليد تمنـح الاطمئنان كالسابق . صعدت كلمات ذو اللحية الشقراء .

ـ السواد فظيع !

فعاجلته انت لاهثا :

« و (دالي) لم يعرفه بكل تاكيد . اليس كذلك ؟ »

اشار الدليل بذراعه ان اتبعوني ، فتبعناه آخذيـــن منعطفا على اليمين . هرول رجال الجانب الآخر عابرين الطريق الواغل في المنطقة . اضاءة خفيفة هنا وهناك . ناس البيوت يبزغون لنا بتحيات « العوافي » . اللهجـة الجنوبية تطفو مع انتحار رصاصة في جدار . ربما كانت لقنّاص مبتدىء .

« يرحبون بكم »

علق الدليل ، وتخطينا غرف بيت .. بيتين ، ثم بتنا في قلب (الشياح) .

***

سدود من اكياس الرمل، عالية وواطئة. ليل الشياح مشبّع برائحة الرجال في الزوايا . عند مفارق الشوارع . وراء المتاريس الموزعة . (مازن) وانا وثالث من اهل المنطقة خلف احداها . كنا مركوبون بفترة خرس امتدت طويلا، او خلتها كذلـــــك .

قطعها ثالثنا مستفسرا :

« من اي حزب انتما ؟ »

« لسنا من اي حزب او تنظيم . مستقلان »

وطفق الشياحي يحدثنا :

« اقصى اليمين شارع اسعد الاسعد . سمعتم عنه بالتاكيد . في المنعطف الايسر ملالة للجيش انضمت الينا . على بعد امتـــــار كنيسة (مار مخايل) . الستما فلسطينيان على ما اعتقد . بعد ثلاث بنايات الشارع الذي ضربت فيـه (البوسطة) . عين الرمانة ـ» احتقن وجه (مازن) وتجهم . الشياحي استرسل :

« في الليل يموت القصف اذ تتعذر الدقة . يتسلى احدهم فيطلق زخة رصاص هناك يربض رشاش (للمرابطين) .... » انفجر (مازن) فيه بنزق :

« لسنا سواحا هنا ! »

اعتذر الشياحي محرجا :

« لم اقل ذلك ، يا رفيق ، ولم اقصده ٠٠٠

ثم بعد دقائق من الوجوم المكهرب ، رفع بندقيته ونهض ٠ ابتعد عن المتراس قليلا

« احذر الفجر ٠ عنده تنفتح شهية القذائف والقناصين » ٠

وثنى ركبتيه وهرول محني الظهر بموازاة سد رملي واطيء ٠ دس اصبعه في الجرح المؤلم ٠ جرحنا المؤلم ٠.وهكذا وبدون ان يقصد ، ككثير من الامور عندما تحدث

قلت (لمازن) :

« ولكنه فعلا لم يقصد »

فهاج في وجهي :

« كفاك توفيقا ، ولا تحاول ان تبرر ٠ فعلها وانتهى »

فعلها الشياحي وذهب ٠ فعلها هذا (التوما*) باقسى مما نحتمل ، رغم ان المسالة – كما بدت لي – ، مكشوفة ليست بحاجة لايغال اصبعه كي يصدق ٠

★★★

حدثني (مازن) عنك وعن (سليمان) ٠ قال انك التزمت بصعوبة ٠ ماطلت كثيرا قبل ان تنتظم ، وعزا السبب الى نفورك من اي عائق للذات ٠ لم يكن ذلك جديدا علي ٠

« احيانا قد يتعارض الخاص مع العام ، والخاص عندي ليس بسيطا »

ولكنك بقيت في الداخل ٠ لم تخرج على العام سكت وتثقفت ٠ او كما فسرت لي ذلك مرة :

« لم ابقى مجمدا ٠ تعبت على نفسي ، وحللت كثيرا من المسائل المعلقة ٠ وبقيت اخرى بلا حل »

ازتّ رصاصة في جدار بيت خلفنا ، فانكمشنا الى المتراس اكثر ٠

« ضُرب الباص وسال الدم ٠ اختزلت المسائل وتكثفت بسرعة ٠ تبادلت الالويات امكنتها فانفتلت اليها »

وسليمان ٠ ماذا عن (سليمان) ؟ سالت مازن :

« كما تراه ٠ الفلسفة عنده مفتاح لكل المدن ٠ يراوح احيانا ، الا ان التزامه عنيد ٠ روماتيزم القلب لا يمنعه من التبشير بفجر جديد ٠ هو يكره هذا التعبير ٠ يعده ضرب من بقايا رومانسية ٠ يفضل الصيرورة »

تراكض شبحان بخفة بين الازقة ٠ اقتربا منا ٠ ناولنا واحدهما رغيفين محشوين ، وهمس الآخر :

« انتبها ٠ ادق فترات الاستنفار ٠ الفجر بعد قليل ٠ قنص وربما تسلل ٠ يعطيكما العافية »

ومرقا الى آخرين ٠ غبش الجانب المقابل ولعب الهواء بفروع شجرة منتصبة كشاهد ٠ ضربت درفة نافذة حائطها ، فحملقت صوبها ٠ موات ٠٠ وغبش ٠٠٠ وسكون ٠

« ترى كيف يشعر الآن صاحبنا السريالي ؟ ربما يفكر بثورة القرن الماضي ٠ متاريس كومونة باريس ٠ حديثه المفضل اذا ما نطق »

فكرت ، وامتددت اليك :

« لعلك لم تصطدم به في متراسكما هناك ٠ لعلك حسمت مسألتك معه »

ونظرت الى الفضاء صوب متراسك ٠ صار اكثر ضياءا وبردا ٠ بحركة غريزية احتك كتفي بـ (مازن) التماسا لدفء ٠ اخدرتّ اصابعي على معدن البندقية البارد ، وتحركت عيناي تمسح الجانب المقابل ٠ صدرت خرخشة خلفنا فانتبهنا ٠ ماءت قطة ونفرت من وسط كوم قمامة ٠ الجدار مثقوب بمئات الطلقات ٠ القناص ٠ عادت عيناي الى الغبش البارد ٠ ثقل انهد على ارض بعيدة فأخفيت رأسي ٠ تفجر فضاؤك واحترق ٠ اكتسحت موجات الطلقات جانبهم وجن الفجر بالقصف ٠ شعرت ان شيئا ينقذف من داخلي مع تشنج اصبعي على الزناد ٠

يزداد جفاف حلقي كلما اقتربت بزحفي نحوك ٠ كنت وحيدا على رمل المتراس الممزق كالمصلوب ٠ وصلتك مع الآخرين ٠ كان بك نفس يصطرع ٠ تحلقنا حولك ٠ وصل السريالي يلهث ، فصاح ديك من بستان مهجور ٠ ارتعشنا ٠ ركعت عند رأسك محاولا اجتذاب عينيك المشبوحتين الى السماء ٠ حركتهما نحوي وملت برقبتك ٠ انبعث خط احمر من فمك

« لا تتكلم »

هتفت بك ٠

« ٠٠٠ لم تحل جميع المسائل ٠ وهذه حسمت نفسها بنفسها ٠٠ »

تحشرجتَ مختنقا بدمك وصمت ٠ جال وجهي في الاشياء حولي ماخوذا ، فكانت كلها تشهد بالموت ٠

٨ نيسان ٧٨
عمان

---

* توما : احد حوارى المسيح الذي رفض تصديق قيامته الا بعد ان يضع اصبعه في جروح جسده ٠

اليوم أعمت تعاليمي

محمد القيسي

الى مصطفى الهاشمي ، أينما كان .

يا مساءَ الخير يا غرناطةَ الحزنِ ،
ويا غرناطةَ الوحشةِ والرعشةِ ،
ما هذا الزحام ، الموجُ !
فالزينةُ لا تأخذ من إكليلك العشبيِّ ،
إلا الظاهر الغشَّاشَ . .
لي هذا العرارُ النابضُ الجيَّاشُ ،
في الاضلاع ،
لي نجدُ وكمثّري
ولي من ناقتي زاد الأغاني الجارحهْ .

وجهك النعناعُ لا يبعدُ عني
وجهكِ الليمونُ كم يأخذ مني
أصفر هذا المدى الشاسعُ والضيِّقُ في آنٍ

ونـاريٌّ هو الوصـلُ ،
حـداديٌّ كفصلِ البارحـهْ .

سأسمي الآن سهـلاً
وأقـول السهـلُ قلبـي
سأسمي الآن نهـراً
وأقول النهـر أصلـي
وأسمـي الآن وعـداً
وأقول الوعـد أهلـي
وأسميـك . . فأحتـارُ . .
أقول الدمـعُ : لا
أو
أقـول اليأسُ : لا
الشمـسُ ؟
سمّيتـك الآن فغوصي في المياه المالحهْ

ما انتسابي لمزامير وبرق النهـر نقشٌ أثريّ
ما انتسابي لمزامير وبرق النهر ،
إلا بعض أسفاري لعينيك ،
فيا عائلـة الأعشـابِ ،
هذا كورسٌ حيٌّ يؤدي الآن ،
إصحاحَ الخروج الملحميِّ العفويّ الوجهَ والإيقاعَ . .
تمتدُّ البساتين الى الصحراء والبحرِ ،
خذي فاكهةَ الدرسِ الختاميِّ ، وهذي الرائحهْ .

يمنعونَ الآن ماعونـي
يحضّونَ على قتـل اليسار الطالبيِّ ،
اليوم يُستبدلُ الرجمُ بهذا الزيِّ . .
آهِ . . يا حقول الجوع والحنطةِ ،
أسفاري اليك ابتدأت
ها إن موتـي فنـارٌ
وردةٌ بيضـاءُ
قامـوسٌ
وناقـوسٌ
وقبري ضائعٌ في الارض بحثاً ،
عن جوادٍ للأماني الجامحـهْ .

يا حقول الجوع والحنطةِ ،
أتممتُ تعاليمي الى الأشجار في كفتيريا الجامعة ،
الهـمُّ احتساني
فاحتسيتُ القهوة المرَّةَ
في جمـعٍ من النـاس
على رنة أمـي النائحـهْ .

يا حقول الجوع والحنطـةِ ،
أتممتُ تعاليمـي الى الاطفالِ في الشارعِ ،
والعمال في هذا المدى الدامعِ ،
آنستُ الى الراحةِ والطعـنِ ،
ويا عصفـورةَ البيـنِ ،

احفظي عني فصولَ الارض ،
زوري نخلةَ الله بغرناطةَ ليلاً
واحملي لي بلحاً أو قبلةً منها
وقولـي ، مرحبـا .

يا حقـول الجوع والحنـطة هاتي الكتبـا
بدأ العامُ الدراسيُّ فما نقرأ ؟
ـ اقرأ باسمِ هذا الجوعِ ، واقرأ ما خلقْ
خلقَ الانسان من فقرٍ وجوعٍ وعرقْ
وقرأتُ الأرض في دورتها الأولى ،
عروساً مشتهـاةً . .
نضجَ التفاح والبرقوق في الكرمِ
دمي صار الشفقْ
وقرأتُ الارض تحديداً بلادي
فرأيت :
عنقها الفارعَ يُلـوى ويُـدقّ .
سأغني الآن توقيـعَ اعتذارْ
للسـطوح الواطئـهْ
سأغني ودمـي باب النهارْ
يا شموسي الدافئـهْ .

يا شموسـي الدافئـه
ملكوتـي أنـتِ . .
عزفي الحـارقُ اليومـيُّ

فُوضَتُ عن الجوع ،
فعانقت القرى والريفَ والصحراءَ من نافذةِ القبرِ ،
وطوَّفت رسولاً موفداً ،
من ليـل غرناطـــةَ ،
طوَّفت الى الطلابِ في العالمِ ،
ناديتُ : اخرجـي غرناطـةَ الآنَ الى . .
جدولكِ النائمِ والمجهولِ
أمداءً وبيتـا
واخرجي من هذه العتمةِ مشكاةً وزيتا
فاذا الليل سجى
ما ودَّعَ الطالبُ ظلَّ النخلِ والرمل ،
ولا القلب قلى

يا حقـول الجوع هاتـي الكتبـا
أنا ما أغمضتُ عيني تعبـا
أنا ضوأتُ لياليكِ باشواقِ المصابيح ،
وأشعلت حنيني لهبـا
فاقرأيني فاتحـهْ
اقرأيني فاتحـهْ
يا مساء الخير يا غرناطةَ الوعد ،
ويا فصـلاً جميلَ الرعـــد ،
لي هـذا العرارُ النابضُ الجيَّاشُ في الأضـلاع ،
لي نجـدُ وكمثّـرى
ولي من ناقتـي زاد الأغاني الجارحـهْ .

عمان / نيسان ١٩٧٧

فرحان صالح .
المادية التاريخية والوعـي القومي عند العرب .
بيروت ، دار القدس ، ١٩٧٩

كانت قراءة كتاب فرحان صالـح « الماديـة التاريخية والوعي القومي عند العرب » متعة حقيقة بالنسبة لي . فخلال مقالاته الست نجح في التنقل بالقارىء بين موضوعات ، بعضها مشـاركة لمن سبقوه ، وبعضها طريف ، محافظا على منهجية متماسكة عموما . وعلى أنني اخالفه الـرأي في منهجه ، فانني اعتبر تمسكه بمنهج محدد انجازا جيدا ، ونلك من خلال مفهوم نسبي للتقدم . فنحن جميعا طلاب حقيقة ، نسلك اليها كافة الطرق ، شرط أن نطوي جوانحنا على العزيمة على أن لا نكون عباد طريق بعينها . فلا مراء أن عبودية الطريق هي أسوأ انواع العبودية .

يبدولي أنه حشر نفسه سلفا بين وجهتين لا ثالث لهما « ان هنا فرق بين أن نرى التاريخ على أنه صراع الطبقات من أجل التغيير والتقدم ، وبين أن نرى التاريخ على أنه صراع ديني . ولا شك أن النين يرون الصراع على أنه صراع ديني يحاولون أن يقودوا المجتمع العربي والفكر الانساني نحو النوم » (ص/١٢) . وعلى هذا فقد اختار التفسير المادي للتاريخ لانه ليس من النين يريدون أن يساهموا في قيادة المجتمع العربي والفكر الانساني نحو النوم ، وهذا سبب مفهوم جدا . ولكن السؤال : هل نحن حقا ملزمون بما الزم به نفسه من خيار ضيق ؟ ومن الجهة الاخرى : هل نحن ملزمون في دراساتنـا التاريخية باختيار تفسير واحد لا نتعداه ؟

في سبيل ايضاح وجهة نظري من هذه المسألة انكر بحقيقتين اساسيتين :

الاولى : ان الخيار الحرج بين التفسير الديني والآخر المادي للتاريخ هو تعبير عن ازمة في الثقافة الغربية ، لم يطرح بهذه الحدة على الاقـل ، في ثقافتنا . يكفي نليلا على نلك أن الحضارة الاسلامية انجبت ابن خلدون ، اول من حاول وضع منهج لدراسة التاريخ ، ولم يكن منهجه دينيا بالتأكيد ومع نلك فان عمله لم يواجه اي احتجاج استحـق التسجيل ، بل ان العالم الاسلامي تقبله بالتقدير ، وما يزال . ولا شك أن ابن خلدون ليس ظاهرة معزولة ، بل انه ككل ظاهرة في الثقافة ، أقام بنيانه على أسس قائمة في الثقافة السائدة ، كمـا أن محاولته وجدت من يستمر بها . ونشير بهذه المناسبة الى ابن الازرق أبي عبد الله محمد ، المتوفي سنة ٨٩٦ هـ/ ١٤٩٠ م وكتابه العظيم المنشور حديثا « بدائع السلك في طبائع الملك » الذي نسج فيه على منوال ابن خلدون ، وحطا بنظرياته الاجتماعية السياسيـة خطوات اوسع ووصل ببعضها الى حد النضج .

النتيجة إن هذا الخيار الضيق هو مجرد اسقاط لا مبرر له ولا تفسير سوى الارتهان الثقافي . وهذه ظاهرة غير نادرة في محيطنا الثقافي ، خاصة في حقل الدراسات الحضارية .

الثانية : اذا استثنينا ابن خلدون والمدرسـة الاسلامية عموما، فان محاولة وضع تفسير شامل للتاريخ بدأت منذ هيجل ، صاحب **التفسير المثالي** ، ثم جاء ماركس فاقام مثالية هيجل على قدميها ، على حد تعبير زميله انجلز ، في **تفسيره المادي** ، وثلث توينبي على محاولات سابقية فقدم لنا **التفسير الحضاري** . على أن **للتوينبي** حسابا خاصا سنشير اليه في خواتيم هذه المشاركة .

معنى هذا اننا ما نزال عند ادنى درجات سلم فهمنا للتاريخ . ومعنى هذا أن علينـا ـ نحـن الباحثين الاحرار ـ أن نضع موقفنا من المسألة ضمن هذه الحركة التطورية وأن أمامنا دربا طويلة لا بد من سلوكها . خاصة وأن التاريخ ، كما نعلم ، هو علم العلوم الانسانية : ميدانه الانسان بكل ما تعنيه كلمة انسان ، في اطار الزمان والمكان وفيه تصب حصيلة مجموعة هائلة من العلوم ، بينها علم الاقتصاد ، والآثـار ، واللغـات ، والسـكان ، وغيرها . وما من شك أن الكلمة النهائية لم تقل بعد في أي علم من هذه وما من شك أن نتائج جديدة من هذا العلم أو ذاك ستنعكس على فهمنا للتاريخ ، وعند ذاك فان حلقة جديدة ستضاف الى سلسلة نمسك نحن بطرفها ، وتشرئب بطرفها الآخر نحو الحقيقة ، تدفعها اشواق الانسان الرائعة .

اريد أن أنتهي من التنكير بهاتين الحقيقتين الى الدعوة الى الحرية والتواضع ، وهما شرطان لا غنى عنهما في البحث . واضيف : وعدم الرضى ، فمن وقفت به آماله عند حد فلن يصل الى نهاية الطريق ، هذا اذا كان ثمة من نهاية .

لقد اشار **فرحان صالح** ،الى الدراسات الاكثر من أن تحصى المؤكدة لانحصار مسيرة التاريخ بالمراحل الخمس التقليدية ، والى « الفلسفة التي حولهـا البعض الى نظرة جامدة » (ص/٣٦) والى ما نتج عن نلك من تجاهل لنمط الانتاج الاسيوي . وأشار سواه الى « لوي عنق وقائع التاريخ » بحيث تنظم قسرا ضمن احدى المراحل الخمس (جورج طرابيشي حول نمط الانتاج الاسيوي)(ص/٦)اليس في كل هذا ما يستحق التأمل ؟ . لقد عمل فرحان صالح وطرابيشي ، على تبرئة مؤسس الماركسية من جريرة نمط الانتاج الاسيوي وأنا اوافقهما على نلك ، اذا كانت التهمة تعني توفر عنصر النية المسبقة (وهو عنصر حرص طرابيشي على نفيه بشدة) . ولكن المحاكمة العلمية لا تعني بالنوايا بالضرورة .

أنا اقول أن التفسير المادي للتاريخ لا بد أن ينتهي الى مأزق كهذا ، يكون فيه الخيار بين لوي عنق هذا المسكين الذي يسمونه التاريخ ، أو تكسير عنق الاصنام . وبما أن اعناق الاصنام هي دائما قوية متينة ، لان قوتها من قوة عبادها ، فان الواقعة تقع على رأس الضعيف ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

لا بد ! لماذا ؟

ان محاولة الاجابة على هذا السؤال الاساسي تغريني بتبسيط الموضوع بمجمله فكثيرا ما يعيننا التبسيط على التعامل المباشر مع المشكلـة دون خلفياتها وذاتياتها . وانني آمل أن لا يجد أحد في هذا التبسيط ما يجانب مقامه العلمي .

ما هو التاريخ ؟

الانسان هو المخلوق الوحيد الذي يصح أن يوضع له تاريخ . ليس من الممكن أن نضع تاريخا لدودة الأرض ، مثلا ، لماذا ؟ لان الانسان هو الوحيد الذي يتعامل مع الواقع عن طريق الوعي ، ووعيه هو الذي يقرر له الوجه الذي يتعامل فيه مع هذا الواقع . ولذلك فان الانسان هو الوحيد الذي يتغير ويغير باستمرار وبطريقة تراكمية بحيث ان خبرات كل جيل تنتقل الى الجيل التالي ، وهكذا يبني الحضارة . والتاريخ هو التعبير الموضوعي عن مجمـل هذه الوضعية الحركية ، وظيفتـه وصفهـا وكشـف قوانينها .الآن يأتينا من يقول أنه يفسر كل هذه المعمعة الهائلة بعامل واحد . الاهم من نلك انه يلغي دور الوعي ، مقتصرا بالممارسة الانسانيـة على الاستجابة للتغيرات التي تدخل في نظام الانتاج . وفي ظل هذا التفكير لا يكتفي بالماضي ، بل يمد يده الى المستقبل ، يرسم معالمه ، مخططا الطريق والمصير بشكل حتمي . وهذه نتيجة طبيعية للتعاطي مع التاريخ كتفاعل آلي يقتصر على الفعل والاستجابة دون المرور بالوعي . أما التاريخ الحقيقي ، أما الوعي ، فانه يظل يشق طريقه بهدوء وأناة . وفي النهاية لا بد أن نصل الى النقطة الحرجة حيـث يتعارض مما يجب أن يكون ، طبقا لافكارنا ، مع مما هو كائن فعلا ، وحينذاك لا بد أن يلوي عنق شيء ، فاما التاريخ واما الاصنام ، وقد عرفنا قبل قليل من يكون الضحية .

ربما كانت مسألة نمط الانتاج الاسيوي نمونجا مثاليا لهذه الحقيقة . فمن المؤكد انه قد جرى بشأنها التجاهل واللوي لمصلحة الفلسفة الرسمية . ولكنها طفت على السطح في فترة من فترات الصحو ،

واستعصت على المعالجة بعد أن فقدت الفلسفة مركزيتها السياسية . والذي يثير التساؤل ان أحدا لم يبحث لحد الآن الاسباب الحقيقية وراء ذلك . حقا أن **ماركس** قد أشار الى نمط الانتاج الاسيوي ، ولكن هذه الاشارات ، في تقديري ، غير كافية ابدا ، اذا اخذنا بعين الاعتبار حجم هذا النمط في التاريخ . وقد فسر **طرابيشي** تجاهلها فيما بعد بمركزية الذات الاوروبية كظاهرة ايديولوجية ، في مقابل الوجود السلبي لآسيا وأفريقيا . ولكن حسم المسألة بهذه الطريقة تبسيط كبير للامور . والقضية ما تزال برسم كل الباحثين الاحرار .

بالنسبة لي فاني انظر الى المسألة برمتها على الوجه التالي : ان التاريخ هو حصيلة التفاعل بين الواقع وبين الوعي . وفي اطار الوعي فان كل حتمية هي مصادرة ، هي اسقاط لافكارنا على الواقع ، هي تغليب للمنطق المجرد على البحث الحقلي الهادىء الدؤب الذي لا يستعجل النتائج قبل أوانها ، واخيرا هي قبلية حيث لا بديل عن البعدية .

لسنا ملزمين بأن ننظر الى التاريخ على أنه صراع ديني او صراع طبقي . ان طرح المسألة ضمن هذين الخيارين هو مجرد انعكاس للمعركة الثقافية التي سادت الغرب منذ عصر النهضة بين السلطة الدينية وفكرها ، وبين الافكار الجديدة ، وكان **ماركس** أحد الذين وجدوا انفسهم في وسطها . ومن التعسف نقل المعركة الى عالمنا بكل ميادينها وأسلحتها وشعاراتها . لماذا لا ننظر الى التاريخ كتاريخ دون أفكار قبلية . ان المذهبية في دراسة التاريخ هي شيء عقيم يفقد صاحبها احدى عينيه على الاقل . وبهذه المناسبة الفت النظر الى نقطة مضيئة في منهج توينبي ، هذا المؤرخ العظيم الذي يجري نبحه كل يوم انتقاما من وقفته المشهورة من قضيتنا ، فعسانا نكون أحد الذين يحملونه الى العالم العربي . ان توينبي يدعو الى أن نتعامل مع التاريخ على اساس المنهج التجريبي وهو منهج يعتمد ثلاث خطوات يقوم بها الباحث في تحرية عن الحقيقة . الاولى تكوين فكرة عامة عن الكل المراد معرفة حقيقته والخروج من تلك الفكرة بفرض عام يصلح لتفسير الظواهر المشاهدة . والخطوة الثانية هي محاولة تحقيق هذا الفرض بالتجربة ، فاذا اثبتته التجربة فقد اصبح الفرض نظرية ، وهذه هي الخطوة الثالثة .

هذا المنهج مستعار من المناهج العلمية كما هو واضح ، وهذه نقطة لصالحه ، ولن أعلن عليه بأكثر من ذلك .

ان ما هو أهم من المنهج في نظري هو روح الباحث ، هي أشواقه الدائمة الحيوية . هي شعوره بالامانة ، لا أعني الامانة العلمية فقط ، فتلك هي الاضعف ، بل أمانة صنع الفكر الحي الخلاق ، وهو سر كل تقدم . لقد أشار فرحان صالح في كتابه الى أنه جندي في سبيل اليقظة في مقابل الذين يدعون الى النوم وليسمح لي أن أضيف الى مهمته العسيرة مهمة أخرى هي محاربة الاسترخاء ، واختيار الطرق التي عبدها الآخرون استرخاء .

رغم كل خلافاتنا في الرأي ، فانني اصر على هذا الكتاب هو انجاز جيد ، وذلك ، كما قلت ، من خلال مفهوم نسبي للتقدم .

الشيخ جعفر المهاجر

جهاد احمد صالح .

الجبل والضباب ـ من أوراق مقاتل .

بيروت ، دار ابن رشد ، ١٩٧٩ .

لا يجوز للكاتب أن يجلس بين جدران أربعة ويستولد المواضيع من ذاته ـ هذا ما يقوله الكاتب الروسي الكبير أ . **تشيخوف** . وإذ صح هذا القول على جميع أنواع الكتابة الابداعية ، فمن باب أولى أن يصح على الكتابه التسجيلية والأدب التسجيلي ، على نحو خاص ، تنتمي أوراق **جهاد أحمد صالح** ، التي تحمل عنوان « **الجبل والضباب** » ، إلى ذلك النوع من الأدب الذي يتخطى كل الجدران لينقلنا إلى عالم أرحب ، **هو عالم الحرب** ، عالم لا ينتمي إليه الكاتب بوصفه شاهداً على وقائعه وأحداثه فحسب ، بل كمشارك من صنع تلك الوقائع والأحداث . ومع أن هذه الأوراق **هي أوراق مقاتل** في زمن الحرب ، إلا أنها ليست شأناً خاصاً بالكاتب الذي لم يتزلق إلى مواقع ذاتية ، يتزلق إليها البعض ، عادة ، حين يتصدون لمثل هذا النوع من الكتابة . فالكاتب هو الراوي في معظم الأحيان ، وليس البطل . إن عناصر البطولة في هذه الحكايات **هي** الجبل ، الضباب ، الصخور ، البرد ، الصقيع ، المدفعية وأجهزة اللاسلكي . أما البطل الحقيقي **فهو** المقاتل الذي يصوغ من نسيج تلك العناصر هذه الحكايات الخارقة .

يهدي الكاتب أوراقه إلى الشهيد النقيب **شفيق أحمد نمر (أبو فراس)** ورفاقه الأبطال شهداء الجبل ، الذين أحبوا الجبل حتى الشهادة ، ويقسمها إلى ثلاثة فصول تحمل العناوين التاليه : حكايات عن الجبل والحرب ، الجبل والضباب ، من أوراق معسكر . يضم الفصل الأول سبعة حكايات عن معارك الجبل ، لم يرد الكاتب منها أن تكون سجلا توثيقيا لسير تلك المعارك . فمثل هذا السجل في الحروب من إختصاص غرف العمليات وحدها . ولكنها حكايات ما أن تقرأها حتى تحس بأنك قد هبطت الجبل لتوك : حكايات تكشف ، بصدق وشفافيه ، عن روح مقاتلنا الصافية والمرحة التي لا يمكن أن تفسدها كل الحروب : **سعادات** يذهب في إجازة لرؤية إبنه الذي ولد وهو في الجبل ، ويعود ليخبر رفاقه المقاتلين بأنه قد سمى إبنه « **يعيش** » ، حتى يجيب الابن حين يكبر ويسأل عن إسمه « **يعيش سعادات** » ... المقاتل اليمني **أبو الطول** يدخل على **النقيب ماهر** في حمأة الحصار الذي تتعرض له صيدا ، والقصف الذي تتعرض له بيروت ، ليطلب جعبة جديدة . وحينما يسأله **النقيب ماهر** لم الجعبة الجديدة وهو يحمل على جنبه ثلاث جعب ، يجيب **أبو الطول :** « الجعبة الأولى أحضرتها من العرقوب وهي لمقاتلة إسرائيل ، والثانية عندما حضرنا إلى عينطورة لتحطيم مؤامرة تقسيم لبنان ، والثالثة لأنهم قالوا إن القوات الانعزالية طلبت قوات دولية لمقاتلتنا . أريد جعبة رابعة لأنني ذاهب الى موقعي الجديد إلى نصف دائرة المؤامرة الآخر . » . كما تدور هذه الحكايات حول الناس البسطاء وحكاياتهم البسيطة والحارقة على حد سواء : **أبو عمار** ، من كفر سلوان ، يتسلق الجبل بمهارة فائقة ، متقدماً الشباب ، رغم كبر سنه ... أبو حسين بسيط التعليم ، ولكنه رجل المدفعية الأول ، وهو لا يطلب أكثر من ثلاثة قذائف ، ليضبط المدفع ، ويضرب أي هدف جديد ... الشبل **سعد الله** ، يخترق الحصار التمويني ، الذي بدأت تشتد وطأته ، ويحضر قطيعاً من الماعز ، بعد أن يقتل الراعي ضابط الاستطلاع لدى القوات الانعزالية ... **أبو حديد** ، المولع باطلاق النار ، على كل شيء وبدون مبرر ، رغم كل ما يطبق بحقه من عقوبات . وأخيراً ، ترسم هذه الحكايات لوحة مشرقة ومضاءة لبطولات مقاتلي الجبل : ففي معارك محور الفنادق ـ تلال الزعرور ... **أبو راكز** يظل ملتصقاً بجهاز اللاسلكي ، حتى تمزق جسده قذيفة

واستعصت على المعالجة بعد أن فقدت الفلسفة مركزيتها السياسية . والذي يثير التساؤل ان أحدا لم يبحث لحد الآن الاسباب الحقيقية وراء نلك . حقا أن **ماركس قد** أشار الى نمط الانتاج الاسيوي ، ولكن هذه الاشارات ، في تقديري ، غير كافية ابدا ، اذا اخذنا بعين الاعتبار حجم هذا النمط في التاريخ . وقد فسر **طرابيشي** تجاهلها فيما بعد بمركزية الذات الاوروبية كظاهرة ايديولوجية ، في مقابل الوجود السلبي لآسيا وأفريقيا . ولكن حسم المسألة بهذه الطريقة تبسيط كبير للامور . والقضية ما تزال برسم كل الباحثين الاحرار .

بالنسبة لي فاني انظر الى المسألة برمتها على الوجه التالي : ان التاريخ هو حصيلة التفاعل بين الواقع وبين الوعي . وفي اطار الوعي فان كل حتمية هي مصادرة ، هي اسقاط لافكارنا على الواقع ، هي تغليب للمنطق المجرد على البحث الحقلي الهادىء الدؤب الذي لا يستعجل النتائج قبل أوانها ، واخيرا هي قبلية حيث لا بديل عن البعدية .

لسنا ملزمين بأن ننظر الى التاريخ على أنه صراع ديني او صراع طبقي . ان طرح المسألة ضمن هذين الخيارين هو مجرد انعكاس للمعركة الثقافية التي سادت الغرب منذ عصر النهضة بين السلطة الدينية وفكرها ، وبين الافكار الجديدة ، وكان **ماركس** أحد الذين وجدوا انفسهم في وسطها . ومن التعسف نقل المعركة الى عالمنا بكل ميادينها وأسلحتها وشعاراتها . لماذا لا ننظر الى التاريخ كتاريخ دون أفكار قبلية . ان المذهبية في دراسة التاريخ هي شيء عقيم يفقد صاحبها احدى عينيه على الاقل . وبهذه المناسبة الفت النظر الى نقطة مضيئة في منهج توينبي ، هذا المؤرخ العظيم الذي يجري نبحه كل يوم انتقاما من وقفته المشهورة من قضيتنا ، فعسانا نكون أحد الذين يحملونه الى العالم العربي . ان توينبي يدعو الى أن نتعامل مع التاريخ على اساس المنهج التجريبي وهو منهج يعتمد ثلاث خطوات يقوم بها الباحث في تحرية عن الحقيقة . الاولى تكوين فكرة عامة عن الكل المراد معرفة حقيقته والخروج من تلك الفكرة بفرض عام يصلح لتفسير الظواهر المشاهدة . والخطوة الثانية هي محاولة تحقيق هذا الفرض بالتجربة ، فاذا اثبتته التجربة فقد اصبح الفرض نظرية ، وهذه هي الخطوة الثالثة .

هذا المنهج مستعار من المناهج العلمية كما هو واضح ، وهذه نقطة لصالحه ، ولن أعلن عليه بأكثر من نلك .

ان ما هو أهم من المنهج في نظري هو روح الباحث ، هي أشواقه الدائمة الحيوية . هي شعوره بالامانة ، لا أعني الامانة العلمية فقط ، فتلك هي الاضعف ، بل أمانة صنع الفكر الحي الخلاق ، وهو سر كل تقدم . لقد أشار فرحان صالح في كتابه الى انه جندي في سبيل اليقظة في مقابل الذين يدعون الى النوم وليسمح لي أن أضيف الى مهمته العسيرة مهمة أخرى هي محاربة الاسترخاء ، واختيار الطرق التي عبدها الآخرون استرخاء .

رغم كل خلافاتنا في الرأي ، فانني اصر على هذا الكتاب هو انجاز جيد ، ونلك ، كما قلت ، من خلال مفهوم نسبي للتقدم .

الشيخ جعفر المهاجر

جهاد احمد صالح .
الجبل والضباب ـ من أوراق مقاتل .
بيروت ، دار ابن رشد ، ١٩٧٩ .

لا يجوز للكاتب أن يجلس بين جدران أربعة ويستولد المواضيع من ذاته ـ هذا ما يقوله الكاتب الروسي الكبير أ . **تشيخوف** . وإذ صح هذا القول على جميع أنواع الكتابة الابداعية ، فمن باب أولى أن يصح على الكتابه التسجيلية والأدب التسجيلي ، على نحو خاص ، تنتمي أوراق **جهاد أحمد صالح** ، التي تحمل عنوان « **الجبل والضباب** » ، إلى نلك النوع من الأدب الذي يتخطى كل الجدران لينقلنا إلى عالم أرحب ، هو عالم الحرب ، عالم لا ينتمي إليه الكاتب بوصفه شاهداً على وقائعه وأحداثه فحسب ، بل كمشارك من صنع تلك الوقائع والأحداث . ومع أن هذه الأوراق هي أوراق مقاتل في زمن الحرب ، إلا أنها ليست شأناً خاصاً بالكاتب الذي لم يتزلق إلى مواقع ذاتية ، يتزلق إليها البعض ، عادة ، حين يتصدون لمثل هذا النوع من الكتابة . فالكاتب هو الراوي في معظم الأحيان ، وليس البطل . إن عناصر البطولة في هذه الحكـايات هي الجبل ، الضباب ، الصخور ، البرد ، الصقيع ، المـدفعية وأجهزة اللاسلكي . أما البطل الحقيقي فهو المقاتل الذي يصوغ من نسيج تلك العناصر هذه الحكايات الخارقة .

يهدي الكاتب أوراقه إلى الشهيد النقيب **شفيق أحمد نمر** (**أبو فراس**) ورفاقه الأبطال شهداء الجبل ، الذين أحبوا الجبل حتى الشهادة ، ويقسمها إلى ثلاثة فصول تحمل العناوين التاليه : حكايات عن الجبل والحرب ، الجبل والضباب ، من أوراق معسكر . يضم الفصل الأول سبعة حكايات عن معارك الجبل ، لم يرد الكاتب منها أن تكون سجلا توثيقياً لسير تلك المعارك . فمثل هذا السجل في الحروب من إختصاص غرف العمليات وحدها . ولكنها حكايات ما أن تقرأها حتى تحس بأنك قد هبطت الجبل لتوك : حكـايات تكشف ، بصدق وشفافيه ، عن روح مقاتلنا الصافية والمرحة التي لا يمكن أن تفسدها كل الحروب : **سعادات** يذهب في إجازة لرؤية إبنه الذي ولد وهو في الجبل ، ويعود ليخبر رفاقه المقاتلين بأنه قد سمى إبنه « **يعيش** » ، حتى يجيب الابن حين يكبر ويسأل عن إسمه « **يعيش سعادات** » ... المقاتل اليمني **أبو الطول** يدخل على **النقيب ماهر** في حمأة الحصار الذي تتعرض له صيدا ، والقصف الذي تتعرض له بيروت ، ليطلب جعبة جديدة . وحينما يسأله **النقيب ماهر** لم الجعبة الجديدة وهو يحمل على جنبه ثلاث جعب ، يجيب **أبو الطول** : « الجعبة الأولى أحضرتها من العرقوب وهي لمقاتلة إسرائيل ، والثانية عندما حضرنا إلى عينطورة لتحطيم مؤامرة تقسيم لبنان ، والثالثة لأنهم قالوا إن القوات الانعزالية طلبت قوات دولية لمقاتلتنا . أريد جعبة رابعة لأنني ذاهب الى موقعي الجديد إلى نصف دائرة المؤامرة الآخر .» . كما تدور هذه الحكايات حول الناس البسطاء وحكاياتهم البسيطة والحارقة على حد سواء : **أبو عمار** ، من كفر سلوان ، يتسلق الجبل بمهارة فائقة ، متقدماً الشباب ، رغم كبر سنه ... أبو حسين بسيط التعليم ، ولكنه رجل المدفعية الأول ، وهو لا يطلب أكثر من ثلاثة قذائف ، ليضبط المدفع ، ويضرب أي هدف جديد ... الشبل **سعد الله** ، يخترق الحصار التمويني ، الذي بدأت تشتد وطأته ، ويحضر قطيعاً من الماعز ، بعد أن يقتل الراعي ضابط الاستطلاع لدى القوات الانعزالية ... **أبو حديد** ، المولع باطلاق النار ، على كل شيء وبدون مبرر ، رغم كل ما يطبق بحقه من عقوبات . وأخيراً ، ترسم هذه الحكايات لوحة مشرقة ومضاءة لبطولات مقاتلي الجبل : ففي معارك محور الفنادق ـ تلال الزعرور ... **أبو راكز** يظل ملتصقاً بجهاز اللاسلكي ، حتى تمزق جسده قذيفة

من آلية على قناة باكيش ، قبل ثوان من إصابة الآلية بواسطة مدفعيتنا ، نتيجة للمعلومات التي ارسلها **ابو راكز** على الجهاز ... **حماد** يطلب ، على الجهاز ، المدفعية للرماية على ثلاث آليات متقدمة ، ثم يطلبها للرماية على المشاة ، على بعد عشرين مترا ، ثم يطلب ، بالحاح ، قصف مكانه بالضبط ثم يتوقف صوته ... **عبد الفتاح ابو سينية وابو مازن** ، من رماة الـ ٥٠٠ ، من الكتيبة الثانية ، ظلا يقاتلان حتى مزقتهما قنيفة دبابة ... **هاني جوهرية** ، المقاتل بكاميرته ، قطع المسافة الشاقة بين خيال الفنان والواقع ... **ابو خالد جورج** ، يكتب على تلوج صنين بدمه « جميع المشاكل تحل في زمن الاشتباك » ، ويرحل .

اما الباب الثاني ، والذي يحمل إسم الأوراق ، فهو عبارة عن حكاية واحدة تعتمد الشكل الحديث للقصة القصيرة . وهي حكاية الكاتب نفسه ، على راس مجموعة من المقاتلين ، تتحرك لاستلام محور التلال الغربية الواقعة في أحضان جبل صنين ، ولكنها تفقد الاتجاه ، بسبب الضباب الكثيف ، فيتحرك قائد المجموعه مصطحبا معه أحد الأشبال لاستكشاف الطريق ولكنهما ، بدورهما يضلان ويفقدان الاتصال بالمجموعة ، لساعات طويلة ، يعانيان فيها من قسوة البرد والصقيع . ويروي الكاتب هنا قصة الضياع ، بكثير من الشفافية المشوبة بشيء من المرارة التي نكتشف معها ضعف المقاتل الانسان ، وليس إستكانته امام قسوة الطبيعة وجبروتها . وعلى اية حال تاتي هذه الحكاية كامتداد للحكايات الأولى عن الجبل والحرب ، ولكنها تضفي على تلك الحكايات روح التجربة ... تجربة الجبل ، كما انها لا تخلو من بعض الايحاءات والدلالات الرمزية حولها ، مثل : ازمة الضياع لا يحلها إلا زمن الاشتباك ـ الضياع الجغرافي اقل قسوة من غيره ـ العدو لا يختلف كثيراً عن الصديق إذا وصل الضباب . وكأن الحكاية تريد أن تقول في النهاية بان من يأخذ القرار بصعود الجبل عليه ألا يفقد الاتجاه ، مهما تعددت أسباب الرؤيا . ولا عجب ، إذن ، أن تحمل الأوراق كلها عنوان هذه الحكاية : « الجبل والضباب » .

ويضم الباب الثالث والأخير ـ أوراق معسكر ـ سبعه حكايات أخرى : استوحاها الكاتب من تجربته الشخصية في معسكرات التدريب في سوريا ولبنان ، قبل وبعد حرب السنتين . تتناول هذه الحكايات نماذج انسانية متعددة ، من المقاتلين الذين يمرون بمعسكرات التدريب ، عادة . ولعل اكثر هذه الحكايات سحرا تلك الاسطورة التي تتناقلها الفلاحات من شمال سوريا ، بين مصياف ووادي العيون ، عن مقام **الولي جابر** الذي يتوسط إحدى غابات الصنوبر هناك . لم يفهم المقاتلون ، في بادىء الأمر ، لماذا تذهب النسوة بعيداً لاحضار الأغصان الجافة ، في حين يمكن لغابة الصنوبر أن تزودهن بما يكفي من أعواد الخشب ، ثم ما لبث المدرب **فواز** ان اكتشف سر الأسطورة التي تقول بان **الشيخ جابر** حينما كان يحارب الكفار قتل بسهم غادر ، فغضب الرب غضبا شديداً ، وحول الجيشين المتحاربين الى اشجار صنوبر ، فمن قتل في تلك المعركة فهو احد تلك الأشجار الملقاة على الأرض . والذين لم يقتلوا فهم تلك الأشجار التي ما زالت واقفة . فالغابة إذن في نظر فلاحات القرى المجاورة هي ملك **الشيخ جابر** ويخفن ان يأخذن أي جزء من شجرة يمكن أن تكون جثة لأحد رجال الشيخ المؤمنين ، حتى لا يجلبن عليهن غضب الشيخ . لا تمجد هذه الأسطورة الجميلة المقاتل فحسب ، ولكنها تكشف ، في نفس الوقت ، عن ضرورة إحترام المقاتلين لعادات وتقاليد الجماهير لضمان عطائها وإحتضانها لهم . ويمكن القول بأن حكايات هذا الجزء اتت ، إجمالا ، أقل وهجا من الحكايات السابقة ، التي نبتت ونمت بعنفوان وحتمية ، كما تنمو الأعشاب في جدار صخري ، وشقت طريقها إلى النور في وهج القذائف والانفجارات . أليست الحروب هي التربة الخصبة التي تنمو عليها الحكايات الخارقة للشعوب ، فتحفظها الذاكرة الجماعية للشعب ، وتتناقلها من جيل إلى جيل ، حتى تغدو أساطير ، تصبح جزءا من التراث الثقافي والنضالي لهذا الشعب أو ذاك ؟

لم تنبت الحكايات التي تضمها أوراق **جهاد احمد صالح** فجأة . ولم تنقل الرياح بذورها من خلف البحار والمحيطات البعيدة . فتلك البذور تختزنها تربتنا المعطاءة ، التي تبدو ، في بعض الأحيان ، قاحلة ، كالصحراء العربية . ولكن حينما ياتي الخطر الصحراوي ، فجأة ، تنبت هذه البذور ، وتزهر ، وتثمر ، وتكمل دورة حياتها بسرعة ، وبعنفوان هربا من موسم الجفاف . وهكذا جاءت هذه الحكايات لتلقي في تربتنا بذوراً جديدة في إنتظار المطر الآتي .

واخيراً ، تطرح هذه الأوراق قضية مهمة للغاية ، يثيرها **يحيى يخلف** ، في تقديمه للكتاب ، وهي أهمية

جمع وتسجيل وحفظ تاريخنا الثقافي والنضالي ، سواء المتعلق منه بالمرحلة الحالية أم بالمراحل السابقة . فنادراً ما يحدث أن يسجل أحد المقاتلين تجربة من تجاربنا النضالية ، كما فعل كاتب هذه الأوراق . كما أن المقاتل العادي ليس مؤهلا لكتابة الأدب « الفني » المدون ، هذا الاصطلاح الذي يستخدم عادة ، مناقضا لاصطلاح الأدب الشعبي غير المدون ، أو الأدب « غير الفني » ، والذي يدخل ، اليوم ، في نطاق الدراسات الفولكلورية . وهذا يلقي على كاهل كتابنا ومؤسساتنا الثقافية عبء الاهتمام بهذين الوجهين للأدب في نفس الوقت . إننا بحاجة لمن يؤرخ للتراث النضالي لثورة ٣٦ ، مثلا ، وخصوصاً الجانب المتعلق منه بالأدب الشعبي الشفاهي ، الذي قاله فلاحون وعمال إنخرطوا في صفوف الثورة . ولكي لا نذهب بعيداً نحن في أمس الحاجة لتدوين الملحمة النضالية لجماهير تل الزعتر . فما كتب حتى الآن ، من شهادات عن هذه التجربة لا يفي بالغرض المطلوب . إن أطفال الزعتر يغنون ، الآن ، أغاني الحصار والبطولة التي إرتبطت بتجربة التل . ولكن أليس من الضروري أن يغنيها ، أيضا ، أطفالنا الذين لم يولدوا بعد ؟ إن ما كتب عن معاركنا في الجنوب اللبناني إقتصر حتى الآن ، على توثيق الجانب المتعلق بسير المعارك ، ولكنه لم يتطرق إلى بطولات المقاتلين والجماهير .

وإذا لم تنهض بمثل هذه المهام مؤسساتنا الثقافية ، فيبقى من واجب كتابنا الملتزمين أن يتصدوا بجهدهم الفردي لهذه المهمة المقدسة ، مهمة إغناء وتطوير ثقافتنا الوطنية .

جابر سليمان

محمد حافظ يعقوب .
التخلف العربي والتحرر العربي .
بيروت ، دار ابن رشد ، أكتوبر ١٩٧٧ .

قليلة جدا الدراسات العربية التي تحاول تناول الواقع العربي المتخلف بالتحليل والتشخيص ، لتخلص الى طرح مهمات وتحديد أولويات لحركة التحرر العربي .

محمد حافظ يعقوب يسعى ، في كتابه « التخلف العربي والتحرر العربي » ، الى تبيان وتوضيح العلاقة بين الامبريالية من جهة ونمو التخلف والتبعية من جهة اخرى مؤكداً أن واقع التجزئة العربي والوجود الصهيوني في فلسطين هما من صلب عملية استمرار التخلف العربي ، ليخلص ، في الفصل الاخير (الرابع) ، الى نتيجة أن « القضية المركزية لقضايا التحرر العربي ، كله ، هي قضية التحرر الفلسطيني . هذه النتيجة هي ما وضعه الكاتب في مقدمة الكتاب ، كالهدف الأهم من دراسته .

الامبريالية والتخلف .

يعتمد الكاتب ، في تبيان العلاقة بين الامبريالية والتخلف ، على اطروحات كل من **جوندر فرانك** ، **وسمير امين** ، بشكل اساسي . فالامبريالية قامت بتشييد « انظمة راسمالية في اقطار العالم الثالث ، مرتبطة بألف خيط وبعرى وثيقة بأقطار المركز

الامبريالي (المتربول) (ص ١٢) . فأصبحت الرأسمالية ، بعد الغزو الامبريالي ، نظاماً عالمياً مركزه في المتربول ومحيطه في الأقطار المتخلفة .

وعبر هذا التعميم الامبريالي للعلاقات الرأسمالية تم إيجاد آلية التخلف الكامنة ـ كما يحددها الكاتب ـ في علاقات التبادل اللامتكافيء بين المركز الرأسمالي ومحيطه (بتعبير مبسط جداً البيع بأسعار متدنية والشراء من الدول الرأسمالية بأسعار مرتفعة*) ، وظاهرة تهميش الرأسمالية المحيطية وكدحها لصالح رأسمالية المركز ، وتهميش جماهير الأقطار المتخلفة (أي تحويل أعداد كبيرة ومتزايدة من سكان الأرياف والفلاحين الى المدن ، دون استيعابهم في عمل إنتاجي صناعي ، أي دون تحويلهم الى بروليتاريا) ، وتحويل أسواق الأقطار المتخلفة الى أسواق البضائع الناجزة والمستوردة من الدول الرأسمالية ، الى مصدر للمواد الخام والأولية ، بفائض قيمة لصالح الأقوى في العلاقة ـ الدول الامبريالية . لقد كان من نتيجة هذا الوضع (نمو التخلف) خلق « برجوازيات رثة » في دول العالم الثالث ، برجوازيات غير قادرة وغير مستعدة وغير مؤهلة للنهوض بمهمات التحويل الصناعي والتقدم التقني والتحرر القومي .

في هذا الفصل النظري (الفصل الأول) يؤكد الكاتب على العلاقة التاريخية العضوية بين الاستعمار والامبريالية ، من جهة ، والتطور المشوه (نمو التخلف) في بلدان ما يسمى بالعالم الثالث ، من جهة أخرى . صحيح جداً بأن فهم التخلف في العالم العربي ، كما هو الحال في البلدان الأخرى ، يتطلب دراسة للاستعمار القديم والجديد ودراسة للعلاقات المتشعبة التي تربط هذه الأقطار بالسوق الرأسمالي . فأن كانت إعادة انتاج التخلف (استمراريته) تتم على الصعيد العالمي عبر تقسيم العمل الدولي ، الذي يثبت علاقة التبادل اللامتكافيء (تخصص بلدان « العالم الثالث » بأنتاج المواد الأولية والعالم الرأسمالي بانتاج المواد الصناعية ..) إلا أن فهم هذه الآلية لن يكون فهما كاملا متكاملا إذا لم يتطرق الى العوامل الداخلية والمرتبطة بدون شك ، بالتحولات المختلفة التي نتجت بفعل الاستعمار القديم والجديد .

بتعبير آخر ، يقع الكاتب ـ وهذا ناتج عن تبنيه لاطروحات **فرانك** في خطأ تفسير التخلف تفسيرا أحادي الجانبين ، عبر التركيز على علاقات التبادل (بين الدول المتخلفة والدول الراسمالية الصناعية) بدلا من التركيز على **علاقات الانتاج** السائدة في هذه الأقطار . فالتخلف يبقى تعبيراً عاما وعائماً إذا لم يترجم إلى العوامل والعناصر التي تعمل على حجز تطور ونمو **قوى الانتاج ، وهذا لا يتم دون تحليل ملموس لانماط الانتاج السائدة وخصائصها .**

فالاستعمار لم يبق انماط انتاج ما قبل الرأسمالية كما هي عليه في بلدان آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية ، فهو وان حافظ على بعض منها الا أنه ، وبأدخاله العلاقات الرأسمالية وتعميمه لها وبأساليب مختلفة ، أوجد علاقات انتاج جديدة ، دعت البعض الى تسمية النمط السائد في هذه البلدان ، بنمط الانتاج الكولونيالي . وليس هنا مجال مناقشة هذا الموضوع ، فالخلل الرئيسي الذي تخلل كتاب **محمد حافظ يعقوب** هو التركيز على العلاقة الامبريالية ، كعلاقة تستند الى **علاقات تبادل ، وليس علاقات انتاج ، والى فهم الامبريالية ، بالاساس ، كعامل خارجي ، بدلا من فهم العلاقة الامبريالية من ضمن التحليل لعلاقات الانتاج ، وبالتالي البنية الطبقية* !**

ولا يكفي لنفي هذا تكرار مقولة أن البرجوازية في العالم الثالث برجوازية « رثة » ، غير قادرة على انجازالمهمات التي أنجزتها البرجوازية الأوروبية . كما أن الهروب من التحليل الطبقي بحجة أن الصراع الطبقي في دول العالم الثالث أشد تعقيداً واكثر تشعباً من في أوروبا المصنعة (ص ١٨) لن يخدم عملية تطوير الوعي تجاه المشكلات التي يعيشها عالمنا العربي ، ويقع في نفس النهج الذي أدانه الكاتب في مقدمة كتابه ، حين هاجم التأملية ، والشكلية والتبشيرية في الفكر العربي السائد (ص ٣ ـ ٤) . وحين طالب الماركسيين العرب بفهم الماركسية كسوسيولوجيا ، أي « دراسة عيانية للمجتمعات في تغييرها .... في علاقاتها وتاريخيتها ... » (ص ٥) .

ولأن الكاتب ينطلق من هذا التركيز الأحادي الجانب (والمشوه) في تحليله للامبريالية والتخلف ، فأنه يقع في تشويه آخر** : فالسمة الأساسية للعصر ، حسب رأي الكاتب هي الأمبريالية ، وقانون العصر هو قانون الفعل الامبريالي (ص ٩) ، والتناقض الرئيسي يكمن « بين الامبريالية (عملية التشويه وسياسة الافقار الامبريالي) وبين حركات التحررلشعوب هذه الأقطار المتخلفة » (ص ١٠) .

فليس صحيحا القول بأن عصرنا الراهن هو عصر الامبريالية ، بل هو عصر اندحار الامبريالية . وبهذا المعنى تغدو عملية تحديد سمة العصر « جزءاً من عملية التحرر ذاتها « وليست » ترفا فكريا » . فالامبريالية تواجه انحساراً متصاعداً ، وتفقد المواقع تلو المواقع . فالعديد من حركات التحرر الوطني تمكنت في السنوات الاخيرة فقط من انجازالاستقلال الوطني لشعوبها ، معلنا اختياره الطريق الاشتراكي (أثيوبيا ، أنغولا ، أفغانستان ، واليمن الديمقراطي ... الخ) ، وتتفاقم أزمات الرأسمالية وتنمو القوى الثورية واضراب الطبقة العاملة فيها ، ويتنامى ، على الصعيد الدولي ، التنسيق والتحالف بين الدول الاشتراكية وحركات التحرر الوطني والحركة العمالية العالمية .

إن القول بأن عصرنا هو عصر اندحار الامبريالية لا يعني ، إطلاقاً ، القول بأنها لم تعد تملك طاقات عدوانية كبيرة ، ولا ينفي وجود قوى طبقية تستند اليها في بلدان « افريقيا واسيا وأمريكا اللاتينية ، ولا ينفي ، أيضا ، استمرارها في مخططاتها وأهدافها العدوانية تجاه شعوب هذه البلدان . إن سمة العصر تحددها موازين القوى الدولية وهي موازين تميل ، باستمرار ، لصالح قوى التحرر والتقدم . ووحدة هذه القوى عامل حاسم في الاسراع في اندحار الامبريالية . فحركات التحرر الوطني لها حلفاء أساسيين في تناقضها مع الامبريالية ، وهي المعسكر الاشتراكي والحركة العمالية العالمية .

الامبريالية : التجزئة = اسرائيل وانتاج التخلف العربي

يتناول الفصل الثاني موضوعي التجزئة وانشاء دولة اسرائيل ، من حيث ارتباطهما بتعميق التخلف العربي ، وتسهيل وتثبيت الهيمنة الامبريالية على الوطن العربي . فالامبريالية توجهت الى مهمتين متوازيتين مترابطتين ، الأولى تجزئة الوطن العربي « فكل جزء (قطر ، دولة ، كيان) لا يستطيع بامكاناته الذاتية وحدها ، حتى لو توفرت النية والوعي ، على أن يشكل أساساً وقاعدة لانتاج يفي احتياجاته أو يسد القسم الأعظم فيها ... » (ص ٢٧) . أما المهمة الثانية فهي انشاء الدولة الصهيونية لتتولى تنفيذ مهمات عسكرية لصالح الامبريالية ، من جهة ، والحفاظ على الوضع الراهن في الوطن العربي (التجزئة ، التخلف) ، من جهة أخرى .

في ظل هذا الترتيب الامبريالي للوطن العربي نمت البرجوازية العربية « وترعرعت كامتداد للاقطاعية وجزء من الاقتصاد الكولونيالي » (ص ٤٧ ـ ٤٨) . وغدت معركتها الحقيقية تحقيق الارتباط وتوثيق الأوامر بالسوق الامبريالية وليس بالسوق القومية .

وهنا يعود الكاتب للتأكيد على منطلقاته الفكرية التي حدد أسسها في الفصل الأول . فهو يركز على مقولتين أساسيتين : الأمة ، والامبريالية . فالتاريخ العربي المعاصر ، لأي بلد أو مجتمع عربي لا يمكن فهمه « دون الحديث عن الامبريالية » الأمة العربية ، نظام التبادل اللامتكافيء ، ودوره في إعادة تشكيل المجتمعات ، وبالتالي إعادة تشكيل الأمة العربية ككل وكمجموعات على ضوء الاقتصاد العالمي المعاصر وتجلياته السياسية » (ص ٥) .

وهنا يوجه الكاتب نقدا للنزعات الماركسوية « التي تختزل الماركسية الى مقولات أساسية معزولة ، لا تاريخية ، عن مقولات أوسع وأكبر وتفسرها ، بنفس الوقت » (ص ٥٠) . والمقولات الأوسع هي الأمة والأمبريالية . ولكن الكاتب في محاولته نقد التحليل **المادي الميكانيكي** ، الذي يقع فيه البعض من دارسي الماركسية اللينينية ، يقع في شباك التحليل **المثالي** . فليس هنالك من تعارض على الاطلاق بين فهم تاريخنا القومي وبين التحليل الماركسي . وليس هنالك من تناقض ، على الاطلاق ، بين فهم الامبريالية وبين التحليل الطبقي ، بل

العكس هو الصحيح . فلا وجود الأمم ينفي وجود الطبقات ، ولا المصالح القومية تنفي المصالح الطبقية .

فإن سلمنا وكما يدعونا الكاتب ، بأن البرجوازية العربية معادية للوحدة العربية ، لان مصالحها الحقيقية تكمن في الارتباط بالسوق الامبريالية وليس بالسوق القومية ، فلا يجب الاستنتاج – كما يفعل الكاتب – بأن « حركة التحرر القومي العربي ، أي القومية العربية ، لا يحركها العامل الاقتصادي على غرار النموذج الكلاسيكي في أوروبا للبرجوازية ، بقدر ما هي متنفس معاد لمصالح هذه البرجوازية » (ص ٥٢) .

فالتحليل الطبقي هو الكفيل بارشادنا الى الطبقات والفئات الاجتماعية ذات المصلحة في انجاز الوحدة القومية ، وهي نفس الطبقات والفئات ذات المصلحة الحقيقية في دحر الامبريالية وانجاز مهمات التحرر الوطني الديمقراطي .

فلأن البرجوازيات العربية ليست ذات مصلحة في إنجاز مهمات الوحدة العربية ، لا يعني انعدام الطبقات ذات المصلحة الحقيقية في انجاز هذه المهمات .

فالتحليل الطبقي هو الكفيل بارشادنا الى الطبقات والفئات الاجتماعية ذات المصلحة في إنجاز الوحدة القومية ، وهي نفس الطبقات والفئات ذات المصلحة الحقيقية في دحر الامبريالية وانجاز مهمات التحرر الوطني الديمقراطي .

التحرر العربي والتحرر الفلسطيني :

إن تغيب النهج الماركسي في التحليل يدفع الكاتب ، باستمرار ، الى الهرب من التجديد . إلى الطروحات العامة والى الاستنتاجات المقلوبة على راسها . ففي الفصل الثالث يعود الكاتب للتأكد على أن الوحدة غير ممكنة التحقيق في ظل قيادة الطبقات البرجوازية العربية ، مؤكدا ، أيضا ، على أن التطور الاقتصادي العربي يسير باتجاه تعميق التجزئة والقطروية ، ليستخلص من هذا بأن الوحدة العربية لن تتحقق عبر التطور الموضوعي (ص ٥٩) ، وان طريق الوحدة ، بالتالي ، ليس هو العامل الاقتصادي بل « هو العامل السياسي الذي تكمن خلفه المصالح الاقتصادية للامة العربية بأسرها » (ص ٦٤) . وبالتالي فان « شعار الوحدة العربية هو المحور الاستراتيجي للعمل الثوري العربي في هذه المرحلة التاريخية » . والوحدة هي « الطريق الوحيد لبناء الاشتراكية » (ص ٦٤) . أليس العكس هو الأصح ؟

فالكاتب يحدد شروط اربعة اساسية للخروج من دائرة التخلف ، وهي : وجود سوق قومية واسعة ، تستطيع استيعاب كميات كبيرة من الانتاج ، الأمكانيات البشرية ، دفع ثوري لقوى الانتاج (التصنيع) . والشرط الرابع ، والتي لا يمكن انجاز الشروط الثلاثة الاولى بدونه ، هو التحرر من الامبريالية (التجزئة ، التبعية ، اسرائيل) وانجاز الوحدة العربية . (ص ٦٥) .

ضمن هذا المنطق الشكلي ، حيث يتحكم الحجم والكمية في العملية الثورية ، يصبح مستحيلا على الدول الصغيرة في العالم التحرر من الامبريالية وبناء الاشتراكية ، وبهذه البساطة تصبح التجارب العديدة لشعوب صغيرة تحررت من الامبريالية ودخلت في طور بناء الاشتراكية (فيتنام ، كوبا ، انغولا ، افغانستان ، أثيوبيا ، اليمن الديمقراطي ... الخ) خارج التاريخ بعد أن تحول المنطق الشكلي الى الحكم والمقياس ، بدلا من التحليل الملموس للواقع الملموس .

وهكذا ، ايضاً يتحول شعار الوحدة العربية الى شعار فوق الصراعات والمصالح الطبقية ، الى شعار يخاطب مصالح الأمة بأسرها » ولا يخاطب طبقات وفئات محددة . إلى شعار يلغي المرحلية في النضال . وهكذا تصبح الوحدة القومية هي الطريق الى التحرر والاشتراكية والطريق الى تغيير نمط العلاقات الاجتماعية » (ص ٦٦) . وتصبح ، ايضا ، بدلا عن الثورة الوطنية الديمقراطية ، بدلا عن الثورة الاشتراكية . وهنا ننتظر من الكاتب ان يحدد لنا طريق الوحدة بعد أن اكد وقوف البرجوازيات العربية ضدها ، فلا يجوز الاكتفاء بطرح الشعارات الاستراتيجية ، دون تحديد ومرحلة المهمات والأساليب النضالية الكفيلة بانجازها . وهنا يكمن

المأزق الذي يواجه الكاتب . فالوحدة تبقى شعاراً عاماً قد يعني كل شيء أو لا شيء . ويلمس الكاتب نفسه هذا عندما يسقط الوضع على حركة التحرر العربية التي « ما تزال غائمة التفكير بصدد السبيل الى وحدة الأمة العربية » (ص ٩٧) . إلا أن ما نجده في كتاب « التخلف العربي والتحور العربي » لا يشكل تنويراً في هذا الصدد . فطرح الشعارات العامة لا يغني ولا يسمن من جوع ، وتكرار المقولات ، دون تحديد ما تعنيه بشكل ملموس ، ليس بديلا عن الاقناع والتفسير . فليس الخلاف على اذا ما كانت الوحدة القومية إنجازاً تحريرياً وثورياً أم لا . انما المطلوب نقاشه وتجديده هو القوى الاساسية والاحتياطية الضرورية للنهوض بهذه المهمة والمراحل التي يتم عبرها الوصول الى هذا الهدف ، واساليب النضال الكفيلة بانجازه .

نفس هذا النهج يسيطر على معالجة موضوع التحرر العربي والتحرر الفلسطيني (الفصل الثالث) . إذ يحدد الكاتب بأن مأزق الحركات والأحزاب التحررية العربية ، بما في ذلك المقاومة الفلسطينية ، ينبع من « اقليمية مخططاتها ، من استمرارية الارضية الامبريالية للخارطة العربية ، ومن البرامج التحررية العربية نفسها » (ص ٩٩) . وهنا يبدو الخلط واضحا بين الاقليمية « من جهة وبين عدم قدرة المقاومة الفلسطينية على تنظيم علاقاتها مع الجماهير ، العربية نفسها ، مباشرة وليس عن طريق الانظمة .. » (ص ٩٩) .

فالمقاومة الفلسطينية ليس جسماً موحدا متجانسا ، في برامجه واهدافه وتوجهاته . فالمقاومة الفلسطينية تعكس توجيهات ومصالح كافة طبقات الشعب الفلسطيني الوطنية ، وفصائل الثورة ، وإن التقت على برنامج وطني بحدوده التي تجمع وتعبر عن مصالح كافة هذه الطبقات الوطنية ، الا انها تتمايز فيما بينها في برامجها واهدافها الاستراتيجية ، وأساليب عملها . كما وتتمايز من حيث الأشكال النضالية التي تتبناها لانجاز الأهداف المرحلية والاستراتيجية . وتتمايز ، ايضـا ، في طبيعة التحالفات التي تقيمها مع القوى والأحزاب التقدمية والثورية العربية وفي العالم .

فالاقليمية ، من حيث هي تغليب لمصالح ضيقة على المصالح الأشمل ، ليست واردة من حيث كون إنجاز الأهداف الوطنية للشعب الفلسطيني يخدم ، بالتأكيد ، العملية الثورية في الوطن العربي بأكمله . بل لعل المقصود هو كيفية إدارة قيادة الثورة الفلسطينية لعلاقاتها مع القوى والدول العربية . ومدى ما تخدم هذه النضال الفلسطيني والنضال التحرري العربي .

إلا أن المطالبة المحقة بأن تدير الثورة الفلسطينية علاقاتها مع القوى والأنظمة العربية بما يخدم استراتيجية الثورة في المنطقة شيء ، ودعوة المقاومة الى تنظيم علاقاتها ، بشكل مباشر ، مع الجماهير العربية شيء آخر . فالمقاومة وان كانت فصيلا متقدما من فصائل حركة التحرر العربي إلا أنها ، ليست البديل ، وهي ليست قادرة ، أصلا ، بأن تشكل البديل ، ومن الخطأ الكبير مطالبتها بذلك . المطلوب هو تمتين وتصليب وتطوير علاقة المقاومة الفلسطينية مع فصائل حركة التحرر العربي ، لتأخذ شكلا أرقى . وهذا ما يخلص اليه الكاتب نفسه (ص ١٠٠) . دون أن ينجح في التوفيق بين هذا الموقف ومنطلقات النقد الموجه الى المقاومة الفلسطينية بفصائلها المختلفة ، يسارها ويمينها .

فهو يضع عموم الفصائل في سلة واحدة ، كما وضع كافة الأنظمة العربية في سلة اخرى . فالبرجوازية العربية ، بكافة فئاتها وفي كافة الأقطار العربية ، برجوازية « رثة » ، مرتبطة كليا بالامبريالية لا تمايز بينها ، وفصائل المقاومة الفلسطينية لا تمايز بين يمينها ويسارها ، فكلاهما – **برأي يعقوب** – معاد لخط الجماهير العربية ، وغير قادر على استقطابها ، وكلاهما يغيب النظرية الثورية المرشدة في العمل والممارسة ، ويقدس الاحتراف العسكري ... الخ . لكن ما يطرحه الكاتب لا يتميز بشيء عن برنامج اليسار الفلسطيني ، من حيث تمتين الوحدة الوطنية ، وتطويرها ، تطوير الكفاح المسلح والتعبئة الجماهيرية ، تمتين العلاقات مع فصائل حركة التحرر العربية والعمل على توحيد جهود حركة التحرر القومي العربية* . هذا كل ما يتمخض عن مطالبة الكاتب للمقاومة « باقتحام الواقع العربي وتثويره » .

الفصل الأخير يتنـاول المشروع الديمقراطـي الفلسطيني (الدولة الديمقراطية في فلسطـين) ، كونه المشروع المتعاكس مع المشروع الصهيوني ، مؤكداً في أن هذا الحل الديمقراطـي هو الحـل الثوري ، الحل المناهض للامبريالية ، والصهيونية والرجعية العربية ، « وهو طريق الثورة العربية ومستقبل الوطن العربي كله » (ص ١٢١) . كون شروط مثل هذا الحل الاستراتيجي تتطلب إنجاز مهمات التحرر الوطني الديمقراطي في الدول المحيطة على الأقل ، بالدولة الصهيونيـة وبحر الدولة الصهيونية وتحطيم مؤسساتها المختلفة ... الخ .

إلا أن الخلاف ليس على الحل الاستراتيجي وشروط إنجازه ، بل أن هذا الفصل كان يمكن أن يكون من أغنى فصول الكتاب لو أنه تطرق الى المهمات التنظيمية والسياسية والعسكرية المطروحة على الثورة وحركة التحرر الوطني العربية ، في هذه الفترة ، في مواجهة الامبريالية وحلفائها المحليين ، بدلا من ابقاء النقاش على الصعيد الاستراتيجي العام . فتحديد الاستراتيجية يبقى طرحاً مجرداً وأكاديميا إذا لم يتطرق الى تحديد سمـات كل مرحلة ، وما يترتب عليها من مهمـات للحـركة الثورية . ومن هذا جاء جواب الكاتب على سؤاله « ما العمل ؟ » ، جوابا عاما لا يغني حركة الجدل ، المفترض تنشيطها تجاه مهمات حركة التحرر العربي في المرحلة الراهنة . فالقول بضرورة البدء بتوحيد فصائل حركة التحرر العربية ، على طريق تشكيل حركة التحرر القومي العربية الموحدة (ص ١٣٥) لا يجيب على السؤال المطروح ، كونه لا يحـدد الفصائل ولا المهمات العامة والمهمات الخاصة التي تقع على عاتقها جميعا ، وعلى عاتق كل منها على حدة .

كتاب « التخلف العربي والتحرر العربي » يطرح عدداً من الأسئلة الهامة على حركة التحررالعربي ، وإن لم ينجح الكتاب في الاجابة عليها ، بالشكل المطلوب ، إلا أنها تبقى أسئلة بحاجة الى إجابات ومعالجات أوفى ... من هذه الزاوية فالكتاب يستحق المطالعة .

جميل هلال

هوامش

* هذا يعود بالاساس لكون كلفة قوة العمل في البلدان المتخلفة اقل من كلفة قوة العمل في البلدان الرأسمالية الصناعية .

** فالامبريالية كظاهرة تاريخية لا يمكن فهمها دون فهم التطور الذي حصل في العلاقات الانتاج في الدول الرأسمالية في أواخر القرن الماضي . وأفضل مثال على ذلك كتاب لينين « الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » .

*** كون السوق الرأسمالية العالمية لا تزال هي المسيطرة لا يعني ان الامبريالية هي السمة الاساسية للعصر . ما يحدد هذه السمة هو موازين القوى الطبقية على الصعيد الدولي .

* لا يورد الكاتب المعسكر الاشتراكي وحركات التحرر في العالم والحركة العمالية العالمية كحلفاء لحركة التحرر العربي .

عبد القادر شهيب .

محاكمة الانفتاح الاقتصادي .

بيروت ، دار ابن خلدون ، ١٩٧٩ .

((لقد نصبت لتسمع الشكاوى : وتفصل بين المتخاصمين : وتضرب على يد السارق ... ولكنك تتحالف مع السارق . !!
ولقد نصبت لتكون سدا للرجل الفقير : يحميه من الغرق ...
ولكن انظر : إنك انت فيضان الجارف)) !!

من (**شكوى الفلاح الفصيح**)

(١)

يصح ان نقول ، في تقديمنا لهذا الكتاب ، ما سبق وقلناه لدى تقديمنا لكتاب المؤلف نفسه « لعبة القطط السمان في مصر » ، على صفحات الكاتب الفلسطيني في عدد اسبق ، من ان قيمـة هذا الكتاب ـ الوثيقة ، تنبـع من ثلاثـة اعتبـارات اساسية ، **اولها** ان صاحبها مناضل ، بالكلمة والموقف ،ـ ضد نظام القهر والاستغلال الطبقي والخيانة الوطنية الحاكم في مصر الآن ، فلهذا جاءت كل كتاباته ، وهمها الاول ان تكون سلاحا للمقاومة واداة للنضال . وثانيها انه دارس متخصص في علوم السياسة والاقتصاد ، ولهذا جاءت كتاباته في هذا المجال حافلة ، وتستند بالاساس على تقص دروب للحقائـق ، وسعـي ملحـوظ لتدعيـم كافـة الاستنتاجات ، بركائزها الطبقية ، وبعوامل تكونها في الواقع الموضوعي للتحولات الاجتماعية ، اما العنصر الثالث ، الذي يمنح هذا الكتاب قيمته ، فهو كونه مكتوب بشكل مباشر ، وبأسلوب سلس وعرض بسيط ، سهل القبـول والاستيعـاب ، يستطيـع الجميع ـ على اختلاف مستوى ادراكهـم ـ ان يخرجوا منه بما يعينهم على الفهم ، ويمنحهم سببا جديدا لاستمرار النضال .

(٢)

يقسم المؤلف كتابه الى اوراق للقضية عددها عشر ، مع ورقة تمهيدية .. اضافة الى ملاحـق ومرفقات .

الورقة التمهيدية تناقش « ارهاصات الانفتاح الاقتصادي » ، بينما الاوراق العشر التالية تتحدث بالتتابع عن : « فرمانات الانفتاح » ـ « حـركة راس المال الاجنبـي » ـ « ورقـة التنفيـذ » ـ « الحصـاد » ـ « الاضرار » ـ « قطـط الانفتاح » ـ « ضغـوط اجنبيـة » ـ « مقاومـة الانفتاح » ـ « جراحة تجميل للانفتاح » .. واخيرا « مستقبل الانفتاح » . امـا الملاحـق العديـدة والمرفقات ، فتحتوي احصاءات وارقام اجمالية تخص حركة رؤوس الاموال الاجنبية في مصر طوال السنوات الاخيرة : نشاطاتها ، واهدافها وافـاق حركتها للسيطرة على اركان الاقتصاد المصري .

(٣)

تاريـخ الانفتـاح .. تاريـخ الخيانـة الوطنية والقومية :

« تاريخ الانفتاح الاقتصادي في مصر .. هو تاريخ الخيانة الوطنية والقومية » .. هذه هي

الفصل الأخير يتنـاول المشروع الديمقراطـي الفلسطيني (الدولة الديمقراطية في فلسطـين) ، كونه المشروع المتعاكس مع المشروع الصهيوني ، مؤكداً في ان هذا الحل الديمقراطي هو الحـل الثوري ، الحل المناهض للامبريالية ، والصهيونية والرجعية العربية ، « وهو طريق الثورة العربية ومستقبل الوطن العربي كله » (ص ١٢١) . كون شروط مثل هذا الحل الاستراتيجي تتطلب إنجاز مهمات التحرر الوطني الديمقراطي في الدول المحيطة على الأقل ، بالدولة الصهيونيـة وبحر الدولة الصهيونية وتحطيم مؤسساتها المختلفة ... الخ .

إلا أن الخلاف ليس على الحل الاستراتيجي وشروط إنجازه ، بل أن هذا الفصل كان يمكن أن يكون من أغنى فصول الكتاب لو أنه تطرق الى المهمات التنظيمية والسياسية والعسكرية المطروحة على الثورة وحركة التحرر الوطني العربية ، في هذه الفترة ، في مواجهة الامبريالية وحلفائها المحليين ، بدلا من ابقاء النقاش على الصعيد الاستراتيجي العام . فتحديد الاستراتيجية يبقى طرحاً مجرداً وأكاديميا إذا لم يتطرق الى تحديد سمـات كل مرحلة ، وما يترتب عليها من مهمـات للحـركة الثورية . ومن هذا جاء جواب الكاتب على سؤاله « ما العمل ؟ » ، « جوابا عاما لا يغني حركة الجدل ، المفترض تنشيطها تجاه مهمات حركة التحرر العربي في المرحلة الراهنة . فالقول بضرورة البدء بتوحيد فصائل حركة التحرر العربية ، على طريق تشكيل حركة التحرر القومي العربية الموحدة (ص ١٣٥) لا يجيب على السؤال المطروح ، كونه لا يحـدد الفصائل ولا المهمات العامة والمهمات الخاصة التي تقع على عاتقها جميعا ، وعلى عاتق كل منها على حدة .

كتاب « التخلف العربي والتحرر العربي » يطرح عدداً من الأسئلة الهامة على حركة التحررالعربي ، وإن لم ينجح الكتاب في الأجابة عليها ، بالشكل المطلوب ، إلا انها تبقى أسئلة بحاجة الى إجابات ومعالجات أوفى ... من هذه الزاوية فالكتاب يستحق المطالعة .

جميل هلال

هوامش

* هذا يعود بالاساس لكون كلفة قوة العمل في البلدان المتخلفة اقل من كلفة قوة العمل في البلدان الراسمالية الصناعية .

** فالامبريالية كظاهرة تاريخية لا يمكن فهمها دون فهم التطور الذي حصل في العلاقات الانتاج في الدول الراسمالية في أواخر القرن الماضي . وأفضل مثال على ذلك كتاب لينين « الامبريالية أعلى مراحل الراسمالية » .

*** كون **السوق** الراسمالية العالمية لا تزال هي المسيطرة لا يعني ان الامبريالية هي السمة الاساسية للعصر . ما يحدد هذه السمة هو موازين **القوى الطبقية** على الصعيد الدولي .

* لا يورد الكاتب المعسكر الاشتراكي وحركات التحرر في العالم والحركة العمالية العالمية كحلفاء لحركة التحرر العربي .

عبد القادر شهيب .

محاكمة الانفتاح الاقتصادي .

بيروت ، دار ابن خلدون ، ١٩٧٩ .

((لقد نصبت لتسمع الشكاوى : وتفصل بين المتخاصمين : وتضرب على يد السارق ... ولكنك تتحالف مع السارق .. !!
ولقد نصبت لتكون سدا للرجل الفقير : يحميه من الغرق ...
ولكن انظر : إنك انت فيضان الجارف)) !!

من **(شكوى الفلاح الفصيح)**

(١)

يصح أن نقول ، في تقديمنا لهذا الكتاب ، ما سبق وقلناه لدى تقديمنا لكتاب المؤلف نفسه « لعبة القطط السمان في مصر » ، على صفحات الكاتب الفلسطيني في عدد اسبـق ، من ان قيمـة هذا الكتاب ــ الوثيقة ، تنبـع من ثلاثـة اعتبـارات اساسية ، **اولها** ان صاحبها مناضل ، بالكلمة والموقف ، ضد نظام القهر والاستغلال الطبقـي والخيانة الوطنية الحاكم في مصر الآن ، فلهذا جاءت كل كتاباته ، وهمها الاول ان تكون سلاحا للمقاومة واداة للنضال . وثانيها انه دارس متخصص في علوم السياسة والاقتصاد ، ولهذا جاءت كتاباته في هذا المجال حافلة ، وتستند بالاساس على تقص دروب للحقائق ، وسعـي ملحـوظ لتدعيـم كافـة الاستنتاجات ، بركائزها الطبقية ، وبعوامل تكونها في الواقع الموضوعي للتحولات الاجتماعية ، اما العنصر الثالث ، الذي يمنح هذا الكتاب قيمته ، فهو كونه مكتوب بشكل مباشر ، وبأسلوب سلس وعرض بسيط ، سهل القبـول والاستيعـاب ، يستطيـع الجميع ــ على اختلاف مستوى ادراكهم ــ ان يخرجوا منه بما يعينهم على الفهم ، ويمنحهم سببا جديدا لاستمرار النضال .

(٢)

يقسم المؤلف كتابه الى اوراق للقضية عددها عشر ، مع ورقة تمهيدية .. اضافة الى ملاحـق ومرفقات .

الورقة التمهيدية تناقش « ارهاصات الانفتاح الاقتصادي » ، بينما الاوراق العشر التالية تتحدث بالتتابع عن : « فرمانات الانفتاح » ــ « حـركة راس المال الاجنبي » ــ « ورقـة التنفيـذ » ــ « الحصـاد » ــ « الاضرار » ــ « قطـط الانفتاح » ــ « ضغـوط اجنبيـة » ــ « مقاومـة الانفتاح » ــ « جراحة تجميل للانفتاح » .. واخيرا « مستقبل الانفتاح » . امـا الملاحـق العديـدة والمرفقات ، فتحتوى احصاءات وارقام اجمالية تخص حركة رؤوس الاموال الاجنبية في مصر طوال السنوات الاخيرة : نشاطاتها ، واهدافها وافـاق حركتها للسيطرة على اركان الاقتصاد المصري .

(٣)

تاريخ الانفتـاح .. تاريـخ الخيانـة الوطنية والقومية :

« **تاريخ الانفتاح الاقتصادي في مصر .. هو تاريخ الخيانة الوطنية والقومية** » .. هذه هي

الحقيقة الرئيسية التي يمكن للمتتبع الدارس ، ان يخرج بها من استعراض مجمل التحولات التي جرت في البنية التحتية للمجتمع المصري في السنوات الاخيرة .

فاذا كان جوهر الانفتاح الاقتصادي ، بحسب ما يحدده المؤلف في صدر الكتاب ، هو (**تلك العملية الخاصة باعادة توزيع الدخل القومي في مصر ، لصالح حفنة من الاثرياء والقطط السمان ، اي اعادة صياغة شاملة لخريطة الدخل القومي في البلاد**) ، فهذا معناه ببساطة ، ان يوضع القرار السياسي في يد التحالف الطبقي للراسمالية التقليدية العائدة ، وبشرائحها المختلفة ، وفي المقدمة منها الشريحة الكومبرادورية ، تلك الشريحة التي لا دين لها ولا وطن ولا مبدأ ، سوى الربح والمزيد من الربح .

وما دام الامر كذلك ، فهذه السياسة – سياسة الانفتاح الاقتصادي – قد استهدفت تحقيق مصالح البرجوازية المصرية المتهالكة في فترات انهيار الطبقة ، بعد ان سلمت السلاح ، وقبلت بمنطق التبعية ، وارتضت فتات موائد الامبريالية . وهي في سعيها لتحقيق هذا الهدف ، أثرت ان ترفع الراية البيضاء ، والايدي ، منذ الخطوة الاولى لتعميد الانفتاح الاقتصادي رسميا ، باصدار القانون رقم ٤٣ لسنة ١٩٧٤ ، الخاص باستثمار راس المال العربي والاجنبي والمناطق الحرة ، والمعدل بقانون رقم ٣٢ لسنة ١٩٧٧ .

والحقيقة ، ان هجوم الراسمالية التقليدية ، لم يبدا في هذه اللحظة ، على العكس من ذلك تماما . فهذا الهجوم كان منظما من قبل بسنوات ، تمتد لنحو العقد الكامل من السنين ، من يوم ان استطاعت هذه الطبقة جعل خطة التنمية الخمسية الاولى .. هي الاخيرة ايضا ، ومن يوم ان استطاعت هذه الطبقة ، الانتشار بشكل سرطاني ، داخل القطاع العام واجهزة الدولة ذاتها .. نازفة الثروات والارباح الغزيرة – دون رقيب – ، ومنتقمة لسنوات الحجر عليها ، المعدودة ، السابقة .

لقد بدا هذا الهجوم المنظم ، واستمر على خطوات مدروسة متتابعة ، فمن تقليص لدور قطاع الدولة (العام) بالتدريج ، الى فتح الباب على مصراعيه امام راس المال الخاص (المحلي والعربي والاجنبي) ، دون قيد او شرط ، الى التخلص من كل قواعد للرقابة على النقد وتداوله ، الى الغاء التشريعات العمالية الحالية المعيقة لاكتمال استغلال راس المال للايدي العاملة ، الى كسر كافة الحواجز الضريبية التي تحد من التراكم الراسمالي .. الخ .. الخ .. وصولا الى القانون الاساسي السابق ذكره (القانون رقم ٤٣ لسنة ١٩٧٤) ، والذي شهد ميلاده السياسي ، قبل اعلان نصه بفترة ، داخل صفحات **البرنامج السياسي الاقتصادي الجديد للراسمالية العائدة ، والذي قدمه انور السادات تحت اسم « ورقة اكتوبر »** ، ليكرس – وبشكل هزلي ساخر – سلطة اعداء الشعب الكادح ، وكأن الدماء الذكية التي روت الارض الطيبة في الحرب ، كانت هي ذاتها التي عبدت الطريق لسطوة قوى الاستغلال ، وهي ذاتها التي مهدت الارض لسيطرة اعداء الوطن !!

مانيفستو الانفتاح .. وسخاء التبعية !

من النادر ان يوجد قانون اقتصادي واحد ، في اي دولة مستقلة ، يمكن ان يشبه هذا القانون الذي كان الحصاد الطبيعي لهزيمة ١٩٦٧ : ولانهيار مقاومة البرجوازية المصرية التامة ، .. واشهارها الافلاس المطلق في مواجهة الغزو المدمر لاحتكارات امريكا والغرب .

ويصف الكاتب – عن حق – هذا القانون فيما يسميه « **سخاء التبعية** » فيقول « **انه سخاء يضحي بكل شيء .. المصلحة الاقتصادية الوطنية ، ومصلحة راس المال المحلي ، في مقابل ارضاء راس المال الاجنبي ، وتشجيعه على القدوم الى البلاد ، لكي يفرض سيطرته ويبسط نفوذه عليها** » ، ص ٣٨ .

فهذا القانون – مانيفستو – الميلاد الرسمي للانفتاح الاقتصادي في مصر ، قد فتح « كل ابواب الاقتصاد المصري امام راس المال العربي والاجنبي ، فسمح بالاستثمارات الخاصة المباشرة العربية والاجنبية ، في كل مجالات النشاط الاقتصادي ، وقطاعات الاقتصاد القومي المختلفة ، **بلا استثناء واحد !** » ص ٣٤ .

« واعطى القانون (مادة ٤) لراس المال العربي والاجنبي الحق في **العمل منفردا** في كل المجالات ، وبدون مشاركة مصرية !! » وفي بعض المجالات –

كالاسكان – **بدون** حتى موافقة ادارة هيئة الاستثمار ، والمناطق الحرة !! . ص ٣٥

كما ان هذا القانون الغريب « حتى يؤكد كرمه وسخاؤه مع راس المال الاجنبي ، اصدر فرمانا في مادته السابعة **بعدم جواز التاميم او المصادرة ، او فرض الحراسة عليه** » ص ٣٦ ، !!!

وكذلك ، فلقد « **اعفى هذا القانون راس المال الاجنبي ايضا من الامتثال للقوانين المصرية ذاتها ، التي يتمثل لها راس المال المحلي ، سواء اكان مالا عاما او خاصا** » كقانون العمال [التعيين – المشاركة في مجالس الادارة – الارباح ... الخ] ، وقوانين الرقابة على عمليات النقد ، وكذلك اعفى راس المال الاجنبي من كل القيود الجمركية « فالارباح **معفاة** من ضريبة الارباح التجارية والصناعية وملحقاتها وكذلك **معفاة** من الضريبة على ايرادات القيم المنقولة وملحقاتها ، ومن الضريبة العامة على الايراد ذاتها ، بل وتسرى هذه **الاعفاءات** على عائد الارباح التي يعاد استثمارها في المشروع ، والاحتياطات الخاصة به ، كما **تعفى** الاسهم من رسم الدمغة ... ذلك كله لمدة خمس سنوات اعتبارا من اول سنة مالية تالية لبداية الانتاج او مزاولة النشاط ، **ويجوز لمجلس الوزراء زيادة مدة الاعفاء الى ثماني سنوات** (اذا اقتضت ذلك اعتبارات الصالح العام) ، **وهي غالبا تقتضي** ، على حد تعبير الكاتب (!!) ، ص ٣٧ .

وليس هذا فقط ، اذ ان مشروعات التعمير وانشاء المدن الجديدة ، تبلغ فترة الاعفاءات بها عشرة سنوات ، **يجوز لرئيس الجمهورية مدها الى خمس عشرة سنة كاملة (!!)** « ولم ينس المشرع ان يضيف الى هذه المادة من القانون ، عبارة ذات دلالة هامة تقول : هذه الاعفاءات لا تخل ، او تجب اية اعفاءات ضريبية **افضل** مقررة في قانون اخر » . !! .

وباختصار – فان هذا القانون الذي لا مثيل له قد منح الاحتكارات الاجنبية مميزات لا تحصل عليها في بلدانها ذاتها ، واضر اضرارا خطيرا ، بعيد المدى بالاقتصاد المصري . وليس ادل على ذلك مما ذكره تقرير وزير الدولة للتخطيط (د . علي السلمي) ، حين اشار للمخاطر التي يتعرض لها الاقتصاد القومي من جراء فشل هذه المشروعات التي تتمتع بالاعفاءات في تحقيق اضافة للناتج القومي ، تفوق او تتعادل مع قيم الرسوم الجمركية والضرائب المعفاة منها ، وقدر التقرير خسائر الخزينة المصرية **بحوالي ٦٠٠ مليون جنية كاملة في العام !!**

والمثير للحسرة ، ان اغلب المشروعات التي استفادت من الميزات الهائلة الممنوحة لها بموجب هذا القانون ، لم يكن بينها ولو مشروع صناعي واحد ، يمنح العزاء والسلوى ويوازن التنازلات غير المحدودة المقدمة للراسمال الاحتكاري نتيجة لبنوده ، فاغلب المشروعات التي تمت على اثره ، مشروعات استهلاكية خفيفة (الكولا – السفن آب .. الخ) ، سريعة الانشاء ، سريعة الربح ، قليلة التكاليف ، قليلة الاضافة للناتج القومي .. او هي معدومتها تماما . تلعب دورها – لا في بناء اقتصاد وطني مستقل – وانما في استنزاف ثروات الوطن ، وربطه بعجلة الاحتكارات الراسمالية العالمية ، وتقلص من دور ونفوذ قطاع الدولة ، في الوقت الذي تسمح فيه بمضاعفة الظروف الاقتصادية والاوضاع الطبقية ، التي تتكاثر فيها شرائح الوسطاء والسماسرة والمهربين والمغامرين والوكلاء ، معدومي الاحساس بالمسؤولية ، وفاقدي الضمير الوطني بالمرة .

(٤)

اعمدة الانفتاح السبعة

مثل القانون ٤٣ لسنة ١٩٧٤ ، اول السيل ، الذي انهمر من بعد ، لكي يدك في الارض المصرية « مداميك » ، اعمدة الانفتاح السبعة الاساسية :

١ – القانون رقم ١١٨ لسنة ١٩٧٥ للاستيراد والتصدير ، والذي يبيح الاستيراد للقطاع الخاص كما هو بالنسبة للقطاع العام ، [مما سمح للقطاع الخاص باستيراد اكثر من ثلاثة الاف سلعة] كان الكثير منها مقصور على القطاع العام في السابق .

٢ – قانون الاستيراد بدون تحويل عمله .

٣ – القانون رقم ٩٧ لسنة ١٩٧٦ – قانون النقد الاجنبي الذي يهدد السيطرة الحكومية على النقد الاجنبي المتحصل من بعض المصادر الهامة (مثل دخول العاملين المصريين بالخارج) ، ويضفي صفة الشرعية على عملية تسرب النقد الاجنبي الى الخارج

عبر البنوك الاجنبية التي لا تخضع للرقابة ، وكذلك يمنح الغطاء القانوني لعمليات تهريب العملة وتداول النقد الاجنبي غير المشروعة .

٤ ـ قوانين انهاء العمل باتفاقات التجارة والدفع (مع الدول الاشتراكية) ، وربط مصر بالسوق العالمي الراسمالي .

٥ ـ القانون رقم ١١١ لسنة ١٩٧٥ باعادة تنظيم القطاع العام والغاء المؤسسات العامة التي كانت تقوم بدور الشركات القابضة التي تنسق وتخطط وتتابع انشطة الشركات التابعة لها .

٦ ـ قرار الغاء جهاز تخطيط الاسعار ، وقرار اطلاق حرية شركات القطاع العام في تحديد الاسعار .

٧ ـ قرارات تطوير سوق النقد الاجنبي (السوق الموازية) ، وقرارات تنشيط البورصة للسماح باكبر قدر من الحرية في تعاملات القطاع الخاص .

لقد مثلت هذه القوانين والقرارات المتتابعة ، ملامح الطريق الذي اختط الطبقة الحاكمة في مصر ، لتحقيق مجموعة من الاهداف المتكاملة تتفرع كلها من هدف اساسي واحد ، حدده الكاتب عن حق بأنه « **ارساء دعائم نظام راسمالي فردي حر ، يسهل دمجه في السوق الراسمالي العالمي ، والحاقه تابعا للشركات العملاقة المتعددة الجنسية التي تتحكم فيها راس المال الاجنبي** » .

(٥)

مقياس (١)

(إن (٢،٣) بالمائة من مجموع المصريين يستهلكون قرابة ربع الاستهلاك القومي . واقل من (١٠) بالمائة من سكان مصر يستهلكون اقل قليلا من نصف الاستهلاك القومي (٤٥٪) ، **بينما الـ ٩٠ بالمائة الباقون .. يستهلكون النصف الباقي !!** .

مقياس (٢)

(إن نسبة (٥) بالمائة من الاسر تحصل على قرابة ربع الدخل القومي ، (٢٤ بالمائة) ، بينما حوالي ثلث (٣٤٪) هذه الاسر ، لا تحصل الا على نسبة (١١) بالمائة فقط من الدخل القومي) .

من هذين المقياسين (مقياس الاستهلاك ـ ومقياس الدخل) ـ وبموجب هذه الاحصاءات الصادرة عن جهاز رسمي ـ الجهاز المركزي للتعبئة والاحصاء ـ [الاحصاءات قديمة ، صادرة في عام الانفتاح الاقتصادي الاول] ، يمكننا ان نرى عمق التمايز الطبقي الحادث في مصر الساداتية واخطاره .

والطبقة المسيطرة اقتصاديا وسياسيا الان ، عرفت ، وتعرف من اين تؤكل الكتف ، فكل الطرق تؤدي الى روما « ها » .. حيث النهب بكل الوسائل والسبل .. وتبلغ الصورة وضوحها الاكمل حينما نعدد عددا من اشكال النهب والاثراء الفاحش لها على حساب سواد الشعب الاعظم الذي يعيش تحت مستوى الفقر بمقاييسه العلمية العالمية .

(١) النهب المركز ونمو الفئات الاحتكارية :

« في كل انواع التجارة المختلفة ، كان هناك عدد محدود من تجار الجملة الكبار فيها مثل : ٣ تجار للبنور ، ٤ تجار لكل من قطع غيار السيارات والسمك ، ٥ تجار للكابلات ، ٩ تجار لكل من الورق والخردة ، ١١ تاجر للمواسير المحلية ، ١٨ تاجرا للكيماويات ، ٢٠ تاجرا للحوم ، ٥٧ تاجرا للاحذية ، ٣٥٠ تاجرا للخضر والفاكهة ، ٧٢٢ تاجرا للبقالة ، وذلك في كل انحاء مصر » .

وهؤلاء التجار « هم الذين يفرضون احتكارهم على السوق بكل الوسائل » ..

وهناك ايضا « ١٢ توكيلا للسجائر الأجنبية في مصر ، توزع شهريا ـ طبقا للبيانات الرسمية الواردة من الجمارك ـ ٦٠٠ مليون سيجارة ، عدا السجائر التي يتم جلبها عن طريق التهريب .. اي ان رقم التوزيع السنوي يصل الى (٧،٢) مليار سيجارة .. وهامش ربح السجائر الاجنبية ، يحدده القرار (١١٩) بنسبة (١٥ بالمائة) (...) اي ان اجمالي ربح توكيلات السجائر الأجنبية الاثني عشر في السنة يبلغ حوالي ٢٩ مليون جنيه (اضافة لربح السجائر المهربة) .

.. ان تمركز التجارة في ايدي هذه الفئة المحدودة من التجار اتاح لهم « ان يفرضوا احتكارهم على السوق بكل الوسائل » ، وسهل لهم مراكمة الارباح بدون نهاية .

(٢) التهرب من الضرائب

« لا يوجد في مصر ممول واحد غير متهرب من الضرائب بدرجة او باخرى .. غير الموظف » بهذه الكلمات الحاسمة حدد رئيس مباحث الضرائب القضية .. فالتهرب من دفع الضرائب المقررة ـ على تفاهتها بالنسبة لهامش الربح الضخم ـ اصبح « هواية » كل التجار واصحاب رؤوس الاموال ورجال الاعمال من طبقة الانفتاحيين الجدد .. وخلال عام واحد فقط « ضبطت حوالي ١٥٠ الف حالة تهرب من الضرائب في قطاعات المقاولات والاستيراد والتصدير والتوكيلات التجارية » !!.

ان هذه الحقيقة وحدها كافية لكي تقدم احد ملامح الطبقة الحاكمة في مصر التي تجيد ، في آن ، النهب المركز ، والتهرب من دفع اقل القليل في مقابل نهبها .

(٣) العمولات

وتعد العمولات التي يتقاضاها السماسرة والوسطاء ، ـ في مصر الانفتاح ـ الآن ، مصدرا اساسيا من مصادر الدخل والثروات .. ومشهورا في مصر الحوار الذي تفجر ذات يوم تحت قبة مجلس « الشعب » . وعلى اعمدة الصحف حول هذا المصدر من مصادر دخول الطبقة الحاكمة في مصر .. ولقد قدرت العام ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ بما يبلغ مليارى جنيه ، مما حدا بالرقابة الادارية لان تؤكد في تقاريرها ان « العمولة هي الان اهم شروط التعاقد في اغلب صفقاتنا التجارية » .. وحتى اذا اخذنا برأي الاجهزة الحاكمة ذاتها التي ترى في الرقم (٢٠٠٠ مليون جنيه) رقما مبالغا فيه ، وجاريناها في حساباتها على اساس ما تحدده من نسبة متعارف عليها (وهي ١٠ بالمائة) ، فمجموع ما يدخل جيوب السماسرة والوسطاء من هذا المجال لم يقل عن ٢٠٠ مليون جنية سنويا ، وهو رقم ضخم بالرغم من كونه لا يعبر الا عن جزء ضئيل فقط من الحقيقة .

(٤) المقاولات

يعد هذا المجال ، هو المجال التقليدي الثاني ، الذي يجد اقبالا في العمل من خلاله بعد التجارة ، من قطط الانفتاح الاقتصادي ورموزه ، وبحسبة بسيطة يقوم بها الكاتب ، يستنتج ان نصيب الطبقة الحاكمة في مصر نحو ٢٧٥ مليون جنية ، في الحد الادنى من هذا الفرع ، الحصة الكبرى فيه تذهب الى عثمان احمد عثمان وشركاه ، اصحاب اكبر شركات المقاولات في مصر « المقاولون العرب » ، والذي تربطه بالسادات صلة المصاهرة عبر زواج ابن الاول ببنت الثاني .

(٥) تربية الماشية

تتحكم الطبقة الحاكمة ايضا باحتكار تربية الماشية في مصر [سيد مرعى صهر السادات الثاني من كبار الراسماليين الزراعيين ، مالكي حظائر الماشية] ، وتتمتع هذه المشاريع بسبب تداخلات اصحابها مع اجهزة الدولة بتخفيضات كبيرة في اسعار العلف وباقي الاحتياجات ، ولقد قدر الكتاب السنوي للجهاز المركزي للتعبئة والاحصاء ، الايراد السنوي لمربي الماشية بحوالي ٥٠٠ مليون جنيه في العام « نصفها ـ على الاقل ـ يذهب الى جيوب كبار المربين اي حوالي ٢٥٠ مليون جنية ، يكسبها كل عام القطط السمان » !

(٦) حدائق الفاكهة

ويبلغ مقدار ما يملك كبار الملاك واغنياء الريف من بساتين الفاكهة ، ما مساحته ٢٠٠ الف فدان ، قدر اجمالي ايرادها السنوي بمائة مليون جنيه كاملة ، تذهب الى جيوب الطبقة المستغلة الحاكمة ، والتي خاضت نضالا ضاريا ضد استصدار قانون من مجلس (الشعب) يفرض ضرائب محدودة ـ عليها .. وتكلل هذا النضال بالنصر ـ طبعا .

لوحة اجمالية

بناء على ما تقدم .

وبدون حساب عوائد النشاط الراسمالي في قطاع الصناعة وكذلك السياحة ، وايضا بدون حساب ، عائدات شركات الانفتاح التي لا تتوفر ارقامها بدقة ، يرسم الكاتب لوحة اجمالية ، لنهب ثروات الشعب المصري الذي تقوم به الشرائح الطفيلية ، والكومبرادورية والراسمالية المستغلة في مصر على النحو التالي :

١٣٥٠ مليون جنيه ، ارباح وعائدات **ظاهرة** من الانشطة والاعمال المختلفة للقطط السمان في مجال التجارة او ما يتعلق به .

٢٧٥ مليون جنيه ، ارباح وعائدات **ظاهرة** من انشطة المقاولات .

٢٥٠ مليون جنية ، ارباح وعائدات **ظاهرة** من تربية الماشية .

١٠٠ مليون جنيه . ارباح وعائدات ظاهرة من نشاط زراعة حدائق الفاكهة .

المجموع ١٩٧٥ مليون جنيه

اي نحو ملياري جنية في العام « ٢٥٠٠ مليون دولار تقريبا » . فاذا حسبنا المبلغ التقريبي الادنى لنهب الطبقة الحاكمة (على مدى سنوات الانفتاح الخمس السابقة ١٩٧٤ ـ ١٩٧٩) لبلغ ١٢,٥ مليار دولار بالتمام والكمال .

● انتفاضة يناير .. الرد الشعبي على الانفتاح

إزاء هذا الوضع المفجع الذي انقسم فيه المجتمع المصري الى قسمين .. الغالبية العظمى التي تعيش حياة « لا انسانية ، تحتويها القبور في احشائها مع الموتى ورائحة العفن ، ويفترسها الجوع والامراض والجهل المطبق ، واقلية متخمة نهمة ، تحيا لياليها وايامها لاهية غير مكترثة الا بنزواتها وملاذها .. ازاء هذا الوضع كان لا بد من الانفجار ، وثار الزلزال من صباح ١٨ يناير ١٩٧٧ ، لكي يخرج من باطنه حمم الثورة الشعبية الضارية ، حيث خرج الملايين من ابناء الشعب يواجهون عسف النظام وانحطاط رموزه ، رافعين الشعارات التي رفعتها من قبل الطلائع الديمقراطية في الجامعات والمصانع :

قولوا للنايم في عابدين — دا الفقرا بايتين جعانين
شعب الفول يا شباب بيقول — خلوا الفقرا يشوفوا النور
الاضراب مشروع مشروع — ضد الفقر وضد الجوع
الوزرا ساكنين في قصور — والعمال ساكنين في قبور
ياللي حاكمنا بالمباحث — كل الشعب بظلمك حاسس
هو بيلبس اخر موضة — واحنا تاكلنا السوق السودا
هو بينشيء في استراحات — واحنا نعاني اهات واهات
يا مجلس شعب صباح الخير — يالي رئيسك مليونير
سيد مرعى ده يبقى مين — يبقى حرامي الفلاحين
يا ابو وافيه* يا ابو وافيه — انت حرامي الناس الحافية .

..الخ .. الخ

لقد اصدرت الجماهير ، بانتفاضتها ـ حكمها على انفتاح الاستغلال والنهب المنظم والسرقة المقننة .. تماما مثلما اصدره عبد القادر شهيب في كتابه القيم (الذي لا يغنى مطلقا هذا العرض الموجز عن دراسته) .. ففي وطن يبلغ الحد الاعلى فيه « **مائة وخمسون الف الحد الادنى للدخول** » ، كما يحصيه الكاتب من ناتج استقصاءاته ، « **لن يفلت الانفتاح الاقتصادي من مصيره ، مهما طال الزمن** » ، وبمعنى اخر .. لن يفلت اولئك الذين دمروا مصر ، وخربوا اقتصادها ، وباعوا استقلالها وقضيتها والقضية العربية برمتها بابخس الاسعار .. مهما احتموا وتآمروا .. **فهذا هو حكم الشعب .. ولا مجال للمساومة .**

احمد المصري

* ابو وافيه .. زوج اخت السادات واحد اركان نظامه .

سعيد جواد .
النهوض الوطني الفلسطيني في الضفة وغزة والجليل (١٩٧٤ ـ ١٩٧٨) .
بيروت،دار ابن خلدون ، ١٩٧٩ .

على اتساع ٢٦٢ صفحة ، يتكامل الوطن الفلسطيني ، وتتلاشى الحدود المصطنعة ، وتتلاحم الميادين وتتفاعل ، ويصير النضال واحداً ، ولكن اشكاله تتباين ، تبعا لاختلاف الميدان . ويختار **سعيد جواد** حلقة محددة من حلقات نضال الشعب الفلسطيني ، (من ١٩٧٤ ـ ١٩٧٨) محور الدراسة : النهوض الوطني الفلسطيني في الضفة والقطاع والجليل وإطارها العام من الالحاق الهاشمي ، حتى الالحاق الاسرائيلي .

يتناول الكتاب حركة نهوض الشعب الفلسطيني بأسره في الوطن وخارجه ، وفي فترة محددة مرتبطة بسياقها التاريخي ، وضمن واقع اقتصادي وسياسي واجتماعي محدد ، وهذا ما يكسب الكتاب اهمية خاصة .

يتألف الكتاب من عشرة فصول ، مترابطة ومتكاملة ، وتشكل كلا واحداً ، ومعبرا صادقا ومنسجما مع عنوانه .

الفصل الاول : الخلفية الاقتصادية والسياسية لناهضة عودة الالحاق الهاشمي : يشكل الفصل مدخلا علمياً لموضوع الدراسة ، ويستند الكاتب فيه الى الارقام من اجل التوصل الى ان السياسة الالحاقية الهاشمية جعلت من المناطق المحتلة لقمة سائغة وسهلة للعدو الصهيوني ابان حرب حزيران ١٩٦٧ . حيث يمكن تشبيه الضفة ان جاز ذلك « بالرجل المريض » الذي استقبل غزوا توسعيا واستيطانيا شرسا ذلك ان « اولى نتائج التخريب الاقتصادي الهاشمي ، هي عرقلة الانماء الاقتصادي ؛ ناهيك عن التنمية الاقتصادية الوطنية ، واضعاف عناصرها المادية الاساسية ، اما الثانية فقد تمثلت ، في الانهاك السياسي والتنظيمي والجسدي ، للحركة الوطنية الفلسطينية ـ الاردنية ، وهو ما جعل الضفة الغربية ، تواجه الاحتلال منهوكة القوى السياسية ، ومشلولة القوى الاقتصادية ، وفاقدة لأبسط متطلبات المقاومة ، والصمود » (ص ٢٧) .

ويرى الكاتب أن معظم الطبقات الاجتماعية ، تضررت من هذه العملية باستثناء كبار ملاك الارض ، وكبار التجار ، والوجهاء ، « الذين ساهموا في تنظيم عملية الحاق الضفة بعجلة النظام الهاشمي » (ص ١٧) .

نضيف هنا استكمالا لما ذكره الكاتب بان الاقتصاد الاردني ، هو اقتصاد متخلف ومرتبط ، ويعتمد بالاساس على قطاعي الاستهلاك والخدمات ، وان السلطة الهاشمية اتجهت بعد عملية الالحاق الى خلق وتوسيع القطاعات التالية في الضفة الغربية : القطاع الاداري البيروقراطي ، وقطاع الجيش والامن العام ، وقطاع الاستهلاك والاستيراد ، والخدمات . ولقيت هذه القطاعات ، الدعم بنسب متفاوته ، من السلطة ، وبالتالي فان هذه القطاعات كانت بدورها معنية ، بحجم مصالحها ـ بدعم السلطة ، اما بقية الطبقات الاجتماعية ، كالبرجوازية الصناعية والزراعية ، والبرجوازية الصغيرة ، والطبقة العاملة ، فقد تضررت بنسب مختلفة ، من عملية الالحاق الهاشمي ، من هنا واجهت هذه الطبقات النظام الهاشمي باشكال نضالية مختلفة .

ان الكاتب اورد في هذا الفصل ارقاما حول المؤسسات الصناعية ، والبرجوازية الزراعية ، والبرجوازية الصغيرة .. دون ان يذكر لنا من اين استقى هذه الارقام ، الأمر الذي يتعارض مع النهج العلمي .

وفي الفصل الثاني : يرصد الكاتب التطورات

١٠٠ مليون جنيه ، ارباح وعائدات **ظاهرة** من نشاط زراعة حدائق الفاكهة .

المجموع ١٩٧٥ مليون جنيه

اي نحو ملياري جنية في العام « ٢٥٠٠ مليون دولار تقريبا » ، فاذا حسبنا المبلغ التقريبي الادنى لنهب الطبقة الحاكمة (على مدى سنوات الانفتاح الخمس السابقة ١٩٧٤ ـ ١٩٧٩) لبلغ ١٢,٥ مليار دولار بالتمام والكمال .

● انتفاضة يناير .. الرد الشعبي على الانفتاح

إزاء هذا الوضع المفجع الذي انقسم فيه المجتمع المصري الى قسمين .. **الغالبية العظمى التي تعيش حياة « لا انسانية ، تحتويها القبور في احشائها مع الموتى ورائحة العفن ، ويفترسها الجوع والامراض والجهل المطبق** ، واقلية متخمة نهمة ، تحيا لياليها وايامها لاهية غير مكترثة الا بنزواتها وملاذها .. ازاء هذا الوضع كان لا بد من الانفجار ، وثار الزلزال من صباح ١٨ يناير ١٩٧٧ ، لكي يخرج من باطنه حمم الثورة الشعبية الضارية ، حيث خرج الملايين من ابناء الشعب يواجهون عسف النظام وانحطاط رموزه ، رافعين الشعارات التي رفعتها من قبل الطلائع الديمقراطية في الجامعات والمصانع :

قولوا للنايم في عابدين
شعب الفول يا شباب بيقول
الاضراب مشروع مشروع
الوزرا ساكنين في قصور
ياللي حاكمنا بالمباحث
هو بيلبس آخر موضة
هو بينشيء في استراحات
يا مجلس شعب صباح الخير
سيد مرعى ده يبقى مين
يا ابو وافيه* يا ابو وافيه

دا الفقرا بايتين جعانين
خلوا الفقرا يشوفوا النور
ضد الفقر وضد الجوع
والعمال ساكنين في قبور
كل الشعب بظلمك حاسس
واحنا تاكلنا السوق السودا
واحنا نعاني آهات وآهات
ياللي رئيسك مليونير
يبقى حرامي الفلاحين
انت حرامي الناس الحافية .

..الخ .. الخ

لقد اصدرت الجماهير ، بانتفاضتها ـ حكمها على انفتاح الاستغلال والنهب المنظم والسرقة المقننة .. تماما مثلما اصدره عبد القادر شهيب في كتابه القيم (الذي لا يغنى مطلقا هذا العرض الموجز عن دراسته) .. ففي وطن يبلغ الحد الاعلى فيه « **مائة وخمسون الف الحد الادنى للدخول** » ، كما يحصيه الكاتب من ناتج استقصاءاته ، « **لن يفلت الانفتاح الاقتصادي من مصيره ، مهما طال الزمن** » ، وبمعنى اخر .. لن يفلت اولئك الذين دمروا مصر ، وخربوا اقتصادها ، وباعوا استقلالها وقضيتها والقضية العربية برمتها بابخس الاسعار .. مهما احتموا وتآمروا .. فهذا هو حكم الشعب .. **ولا مجال للمساومة .**

احمد المصري

* ابو وافيه .. زوج اخت السادات واحد اركان نظامه .

سعيد جواد .
النهوض الوطني الفلسطيني في الضفة وغزة والجليل (١٩٧٤ ـ ١٩٧٨) .
بيروت.دار ابن خلدون ، ١٩٧٩ .

على اتساع ٢٦٢ صفحة ، يتكامل الوطن الفلسطيني ، وتتلاشى الحدود المصطنعة ، وتتلاحم الميادين وتتفاعل ، ويصير النضال واحداً ، ولكن أشكاله تتباين ، تبعاً لاختلاف الميدان . ويختار **سعيد جواد** حلقة محددة من حلقات نضال الشعب الفلسطيني ، (من ١٩٧٤ ـ ١٩٧٨) محور الدراسة : النهوض الوطني الفلسطيني في الضفة والقطاع والجليل وإطارها العام من الألحاق الهاشمي ، حتى الالحاق الاسرائيلي .

يتناول الكتاب حركة نهوض الشعب الفلسطيني بأسره في الوطن وخارجه ، وفي فترة محددة مرتبطة بسياقها التاريخي ، وضمن واقع اقتصادي وسياسي واجتماعي محدد ، وهذا ما يكسب الكتاب اهمية خاصة .

يتألف الكتاب من عشرة فصول ، مترابطة ومتكاملة ، وتشكل كلا واحداً ، ومعبراً صادقاً ومنسجماً مع عنوانه .

الفصل الاول : الخلفية الاقتصادية والسياسية لمناهضة عودة الالحاق الهاشمي : يشكل الفصل مدخلا علمياً لموضوع الدراسة ، ويستند الكاتب فيه الى الارقام من اجل التوصل الى ان السياسة الالحاقية الهاشمية جعلت من المناطق المحتلة لقمة سائغة وسهلة للعدو الصهيوني ابان حرب حزيران ١٩٦٧ . حيث يمكن تشبيه الضفة ان جاز ذلك « بالرجل المريض » الذي استقبل عدواً توسعياً واستيطانياً شرساً ذلك ان « اولى نتائج التخريب الاقتصادي الهاشمي ، **هي** عرقلة الانماء الاقتصادي ؛ ناهيك عن التنمية الاقتصادية الوطنية ، واضعاف عناصرها المالية الاساسية ، اما الثانية فقد تمثلت ، في الانهاك السياسي والتنظيمي والجسدي ، للحركة الوطنية الفلسطينية ـ الاردنية ، وهو ما جعل الضفة الغربية ، تواجه الاحتلال منهوكة القوى السياسية ، ومشلولة القوى الاقتصادية ، وفاقدة لأبسط متطلبات المقاومة ، والصمود » (ص ٢٧) .

ويرى الكاتب أن معظم الطبقات الاجتماعية ، تضررت من هذه العملية باستثناء كبار ملاك الارض ، وكبار التجار ، والوجهاء ، « الذين ساهموا في تنظيم عملية الحاق الضفة بعجلة النظام الهاشمي » (ص ١٧) .

نضيف هنا استكمالا لما ذكره الكاتب بان الاقتصاد الاردني ، هو اقتصاد متخلف ومرتبط ، ويعتمد بالاساس على قطاعي الاستهلاك والخدمات ، وان السلطة الهاشمية اتجهت بعد عملية الالحاق الى خلق وتوسيع القطاعات التالية في الضفة الغربية : القطاع الاداري البروقراطي ، وقطاع الجيش والامن العام ، وقطاع الاستهلاك والاستيراد ، والخدمات . ولقيت هذه القطاعات ، الدعم بنسب متفاوته ، من السلطة ، وبالتالي فان هذه القطاعات كانت بدورها معنية ، بحجم مصالحها ـ بدعم السلطة ، أما بقية الطبقات الاجتماعية ، كالبرجوازية الصناعية والزراعية ، والبرجوازية الصغيرة ، والطبقة العاملة ، فقد تضررت بنسب مختلفة ، من عملية الالحاق الهاشمي ، من هنا واجهت هذه الطبقات النظام الهاشمي باشكال نضاليه مختلفة .

ان الكاتب اورد في هذا الفصل ارقاما حول المؤسسات الصناعية ، والبرجوازية الزراعية ، والبرجوازية الصغيرة .. دون ان يذكر لنا من اين استقى هذه الارقام ، الأمر الذي يتعارض مع النهج العلمي .

وفي الفصل الثاني : يرصد الكاتب التطورات

الاقتصادية ، والتغييرات الطبقية في الضفة الغربية ، خلال السنوات الثمانية الأولى للاحتلال . حيث ان السلطات العسكرية الاسرائيلية ، بدأت منذ اليوم الاول لسيطرتها على بقية الارض الفلسطينية ، بغرس الاسس العسكرية ، والسكانية ، والاقتصادية ، والاجتماعية اللازمة لضم المناطق المحتلة ، وقد انعكست هذه الاجراءات على مجمل التركيبه الاقتصادية والاجتماعية في الضفة والقطاع . فالهيمنة الاسرائيلية بعد حرب حزيران ١٩٦٧ جاءت لتستكمل ما بدأته الهيمنة الهاشمية التي سبقتها . الا ان السيطرة هذه المره كانت اشد خطورة وشراسة . اذ أن ما يميز هذه الحلقة من الصراع « هو الطابع التحكمي الكامل لجميع قطاعات الاقتصاد الفلسطيني » (ص ١٩) . فالالحاق ، في هذه المرة ، انتقل من « الحاق باقتصاد تبعي متخلف للامبريالية... الى اقتصاد متطور ، يرتبط بتبعيه متميزة للامبريالية ... بعد ان فقدت الضفة ، وغزة ، أدنى درجات المناعة الذاتية » (ص ٣٠) .

ويظهر لنا الكاتب بعض جوانب التخريب الاقتصادي والاجتماعي في المناطق المحتلة ، والتطورات التي طرأت على كل طبقة من الطبقات الاجتماعية الفلسطينية وبالتالي المواقف التي ميزت هذه الطبقات الاجتماعية من الاحتلال الاسرائيلي .

فبالنسبة للبرجوازية الوطنية (الصناعية ، والزراعية) تفاقمت تناقضاتها مع الاحتلال وسياسته الالحاقية ، فالبرجوازية الصناعية « داهمها الاحتلال ، وبالتالي سياسة الحاق ، وهي مستنزفة ، وشديدة الانهاك ، ولا تملك اية قدرات ذاتية لمجابهة اجراءات الدمج ...» (ص ٣١) . لقد كان على هذه البرجوازية ان تواجه ظروف منافسة غير متكافئة [صناعات اسرائيلية متقدمة ، بضائع رخيصة نسبياً ، بفعل التشجيع الحكومي ، وكثافة رأس المال] . ونضيف بان طبيعة تركيب البرجوازية الوطنية في الضفة الغربية ، والضعف الأساسي الذي يميزها ، مهدأ لارتباطها أقتصاديا ، بالاقتصاد الاسرائيلي ، حيث أن أهم نقاط ضعف هذه البرجوازية هو سيطرة طابع الاكتناز على نشاطها الاقتصادي وذلك على حساب الادخار من اجل التوظيف والاستثمار في مشاريع انتاجيه . وهذه السمة ليست بالجديدة ، ولم توجد بفعل الاحتلال فقط ، وان كان الاحتلال قد زادها سلبية . وانما هي سمة متوارثة منذ الالحاق الهاشمي ، وفي اعتقادنا أن البرجوازية الوطنية ، وخاصة الشريحة الكبيرة منها ، رغم تناقضاتها مع الاحتلال ، الا انها غير معفية من مساهمتها ، بشكل او بآخر في عملية تسهيل الالحاق الاقتصادي . ونسوق على ذلك بعض الأمثلة : –

١ – ان عدم توجه الشريحة الكبيرة من البرجوازية الوطنية ، نحو اقامة مشاريع انتاجية جعلها تحرص على حيازة الأموال وحسب ، وهذه الأموال غالبا ما تجد طريقها للبنوك في الخارج ، الأمر الذي انعكس سلباً وعلى اكثر من مجال ، وعلى الرغم من ان هذه الأموال كانت تستثمر قبل حرب حزيران ، بشكل غير فعال [في البناء] إلا ان هذا الاستثمار يبقى أقل سلبية من توجه هذه الشريحة بعد الحرب نحو الاكتناز وايداع اموالها في البنوك الخارجية ، مما يولد مشكلة للسكن من جهة [وهذا قائم بالفعل] ، ويحد بالتالي من إمكانية إرساء قاعدة صناعية إنتاجية ، قادرة على استيعاب الايدي العاملة الفائضة التي وجدت نفسها مرغمة على التوجه نحو سوق العمل المأجور في اسرائيل . والنتيجة هي : تفريغ المناطق المحتلة من نحو ثلث طاقتها العاملة .

إن دعوتنا الجادة الى التحالف الطبقي لمواجهة الاحتلال ، لاتعني اطلاقا – المصالحة الطبقية او المهادنة الطبقية ، ولا تعني ان نغض الطرف عن مواقف بعض الشرائح الطبقية تجاه الاحتلال . صحيح أن هذا التحالف مطلب ملح في ظروف الاحتلال . وصحيح انه صخرة مانعة في وجه الاحتلال وسياسته الالحاقية . ولكن المطلوب هو التحالف ضمن اسس سليمة . فهناك بعض المنتمين الى شريحة البرجوازية الصناعية الكبيرة ، كل ما يهمها هو الحصول على الربح اليومي والمباشر ، دون الالتفات الى التناقض التاريخي مع الاحتلال ، وسياسته الالحاقية ، ان بعض هؤلاء تمادى في سلبيته ، لدرجة شروعه في التعاون مع الرأسمالية الاسرائيلية ، الأمر الذي يدعم سياسة الالحاق ويجعلها تخطو خطوات اوسع وارسخ .

اضافة الى ذلك ، فان بعض القائمين على المصانع الكبيرة في الضفة ، يقومون بتصدير مصنوعاتهم إلى الاردن ومنه الى الدول العربية ، فهم بالنتيجة يخسرون السوق المحلي ، ويفتحون المجال أما السلع المماثلة الاسرائيلية ، وهذا الامر يدعم سياسة الالحاق أيضا . لسنا هنا بصدد الاغراءات التي تعرضها السلطات الاسرائيلية على هؤلاء للقيام بذلك ، ولكننا بصدد اؤلئك الذين يتقبلون هذه الاغراءات ، ويساهمون بصورة مباشرة في الازمة المتدرجة والنهائية ، للسلع المحلية الوطنية ، لتحل محلها السلع الاسرائيلية كما أن هناك ملاحظة بشأن الأموال التي يحولها الرأسماليون الفلسطينيون للخارج ، فالكاتب يذكر ان الرأسماليين الفلسطينيين حولوا بعد الاحتلال نحو ١٦ مليون دينار اردني إلى الضفة الشرقية (ص ٣١) ، دون أن يحدد الفترة التي تم فيها هذا التحويل ، علما بأن لذكر الفترة بشكل محدد دلالة هامة تفيد في صحة استنتاجاتنا . وفي هذا المجال ، تذكر المصادر الاسرائيلية انه « منذ سنة ١٩٧٤ وحتى نهاية ١٩٧٧ ، تم تهريب نحو ١٥ مليون دينار اردني الى الدول المجاورة ، أي ما يقارب ٧,٥ مليار ليرة اسرائيلية » (هآرتس ٢/٥/٧٨) . من هنا ، نلاحظ أن التوجه نحو تهريب « العملة العربية وتحويلها للخارج ، الذي تعرض له الكاتب في السنوات الثمانية الاولى ، ما زال قائما ، وهذا ما يؤكد صحة موقفنا من هذه الشريحة التي لا يهمها إلا جمع المال ، دون استثماره في مشاريع انتاجية .

واخيرا فان النتيجة التي توصل اليها الكاتب ، بشأن البرجوازية الصناعية الكبيرة ، والمتوسطة – رغم صحتها – موضوعيا ، فيها شيء من الاختزال ، وتحتاج الى مزيد من التوضيح ، خاصة وأن ادراك هذه البرجوازية لمسألة تناقض نموها مع الاحتلال ، جاء بعد ان مستها الاجراءات الاقتصادية مباشرة [مثال : – برز موقفها في اعقاب فرض الضريبة الاضافية] أما بالنسبة للبرجوازية الزراعية ، فيذكر الكاتب انها واجهت ، أيضاً ، تدميراً لعناصر نموها الوطني المستقل ، وقد اتخذت سياسة الدمج الاقتصادية تجاه القطاع الزراعي ظاهرتين رئيسيتين ، الأولى تكييف الزراعة بما يتناسب وحاجات الصناعة الاسرائيلية والثانية ، تصريف الفائض من المنتجات الزراعية عبر جسور الاردن المفتوحة . ونذكر هنا ، ان من المشاكل التي واجهت البرجوازية الزراعية : ١ – قلة الأيدي العاملة في الزراعة ، بسبب توجهها للعمل في اسرائيل ؛ ٢ – غياب بنوك للتسليف الزراعي ، وغياب الهيئات والجمعيات الزراعية الفعالة ؛ ٣ – سياسة مصادرة الاراضي الزراعية ، واقامة المستوطنات الزراعية عليها ، حيث تبلغ نسبة الاراضي الزراعية التي صودرت ، واقيمت عليها مستوطنات ١٣,١٪ من مجموع الأراضي القابلة للزراعة في الضفة ، ومساحتها ٢٦٥٦ دونما ؛ ٤ – ظروف المنافسة ، غير المتكافئة ، ولصالح الانتاج الزراعي الاسرائيلي ، إذ أن المستوطنات الزراعية في الضفة ، تطرح قسماً من انتاجها في أسواق الضفة ؛ ٥ – ضبط عملية تصدير الانتاج الزراعي ، بواسطة مؤسسات التسويق التابعة **للهستدروت** ، وعملية الضبط هذه متغيرة حسب المصلحة الاسرائيلية ؛ ٦ – إحجام المزارع في الضفة الغربية عن الاستثمار في مشاريع زراعية طويلة الأمد ؛ وذلك في ظل سياسة المصادرة ، والمنافسة الاسرائيلية ، وغياب التوجيه ، وعدم الاستقرار السياسي ؛ ٧ – النقص الطارىء في الموارد المائية ؛ وذلك نتيجة لسياسة الاحتلال المتبعة في هذا المجال ، والمتمثلة في السيطرة على الابار وتقنين توزيع المياه على مزارعي الضفة ، وتزويد المستوطنات الاسرائيلية بالمياه على حساب مزارع الضفة .

اما بالنسبة للبرجوازية التجارية ، فأن هذه الشريحة « لم ترتبط في البناء العضوي للاقتصاد الوطني أصلا فدورها الوسيط في خطط الالحاق الهاشمي ، اكمل دورته في ظل الالحاق الاسرائيلي ؛ وبالتالي لم تتأثر بعملية التدمير للقطاعات المادية ، بل بالعكس ، فأن ازدياد حركة الاستيراد والتصدير ... انعكست بتراكم ثرواتها ، (ص ٣٥) ، وبحكم طبيعة هذه الشريحة ، فأن اسرائيل ، والرجعية الهاشمية ، حاولتا أن « تجعل من هذه الشريحة احدى أهم قواها الاحتياطية في الصراع ... » (ص ٣٦) .

نضيف هنا أن هذه الشريحة قامت منذ بداية الاحتلال ، وحتى الان ، بترويج وتسويق منتجات البلد الأقوى [اسرائيل] ، لذلك فأن وضعها المالي مرتبط بوجود الطرف الاقوى [المصدر ، والمهيمن]

حيث أن ما يعني هذه الشريحة هو الحصول على المال . لقد قبلت هذه الشريحة ، منذ بداية الاحتلال ، القيام بدور الوكيل ، للشركات الاسرائيلية ، وكان هذا القبول بهدف تحصيل الربح العالي ، وليس لسبب عدم امكانية الاستيراد من الخارج ، او لسبب غياب السلع المحلية . ودليل نلك ، أن بعض التجار عملوا على تسويق البضائع الاسرائيلية ، رغم وجود بضائع محلية مشابهة في السوق المحلي .

وتجدر الاشارة الى ان هذه الشريحة هي التي مهدت الطريق أمام الطبقات الأخرى بمختلف شرائحها ، لان تتعاون مع الاحتلال اقتصادياً ، ونلك في الوقت الذي كان العمال في المناطق المحتلة يرفضون العمل في اسرائيل ، ورغم البطالة الواسعة التي جاءت في اعقاب حرب حزيران مباشرة .

وبشأن البرجوازية الصغيرة فقد خضعت ، بجميع فئاتها وقطاعاتها ، لعملية محاصرة ، واستنزاف تامين . كما واجهت بعض قطاعاتها الزراعية والحرفية ، التدمير الكامل لملكيتها الخاصة ، ويشير الكاتب الى أن اهمية هذه الطبقة ، سواء بالنسبة للاحتلال ، أو الثورة ، تنبع من « حجمها الكبير ، وتأثيرها الفعال » . كما يشير الى أن هذه الطبقة قد واجهت عملية تدمير قومية ، كما أن أفواجاً منها أخذت « تغادر مواقع الانتاج البرجوازي الصغير ، الزراعية ، والصناعية ، والتجارية ، ... نحو العمل المأجور ... وباتجاه (الحدود) خارج الضفة ، اضافة إلى أفواج الكفاءات العلمية ، والتقنية ، التي تخضع لعملية الهجرة ، والتهجير الاضطرارية » (ص ٣٨) وفي هذا الموضوع نلاحظ ما يلي :

هناك معالجة سريعة لموضوع الهجرة ، بين صفوف البزجوازية الصغيرة ، علماً بأن لهذا الموضوع أهمية كبيرة ، ويحتاج إلى مزيد من الضوء ، للوقوف على العوامل التي تؤثر على ارتفاع وتيرة الهجرة ، [عوامل الجذب والدفع] . خاصة عندما نعرف أن عدد الذين هاجروا ، خارج المناطق المحتلة ، للعمل في شرق الاردن ، ودول الخليج بين ١٩٧٥ ـ ١٩٧٨ ، يزيد عن ٦٣ ألفاً . كما أن الهجرة الكبيرة التي رافقت وأعقبت حرب حزيران لم تتوقف إطلاقاً ، بل استمرت على نطاق واسع ، ففي الاشهر الخمسة الأولى من عام ١٩٦٨ ، نزح من الضفة الغربية ، وقطاع غزة مايزيد عن ٢٢ الف مواطن [حسب تقديرات **اللجنة العليا للاغاثة** ، في عمان] .

وننكر هنا ، أن الهجرة مست جميع فئات الشعب الفلسطيني .. إلا انها مست بشكل خاص ، شريحتين رئيسيتين ، الاولى هي شريحة المتعلمين وحملة الشهادات العليا والثانية هي أصحاب الحرف اليدوية ، من العمال المهرة .

ويأتي تأكيدنا على ضرورة معالجة هذا الموضوع ، لما له من آثار سلبية ، على البنية الاجتماعية في المناطق المحتلة ، وخاصة وأن الكاتب يتحدث عن التطورات الاقتصادية والتغييرات الطبقية تحت الاحتلال .

وفيما يتعلق بالطبقة العاملة ينكر الكاتب انها واجهت تحت الاحتلال ، استغلال ، وتمييز عنصري واستلاب ، وعن طبيعتها قال « لا يمكن أن تتبلور تركيبتها البنيانية وتشكل وحدتها الطبقية إلا في ظل نمو وتطور برجوازيتها المستقلة ، من هنا فأن عموم الشغيلة الفلسطينية ، قد احتجزت ، هي الأخرى في عملية الألحاق الاقتصادي ... » (ص ٤٠) ، والنقاط الرئيسية التي يعالجها الكاتب في هذا الموضوع ، هي :

ـ تمركز الطبقة العاملة الفلسطينية في الاعمال الشاقة ، وغير الماهرة وهذا يعني ، أجوراً منخفضة ، بالمقارنة مع أجور العمال الاسرائيليين :

ـ دفعت سياسة العمالة الاسرائيلية الى الحيلولة دون مساهمة العمال الفلسطينيين في بناء اقتصادهم الوطني ، ونلك من خلال تفريغ المناطق المحتلة من عمالها ، ودفعهم الى تغير مواقع عملهم :

ـ جاءت السياسة الاسرائيلية الألحاقية لتكمل دورة الالحاق الهاشمي ، بهدف عرقلة التكوين الطبقي وتعطيل نمو الوعي الطبقي والوطني .

ـ تتوزع الطبقة العاملة في ميادين انتاج ثلاثة [فلسطين المحتلة ١٩٤٨ ، في المشاريع المشتركة في الضفة وفي الضفة ذاتها] .

هناك وجهتا نظر رئيسيتين بشأن تشغيل العرب في المرافق الانتاجية في اسرائيل : « **سياسة العمل العبري** » ، و« السياسة التي تدعو الى تشغيل العرب » . ولكل من وجهتي النظر أنصارها ، وهناك وجهة نظر تجمع بين الاثنين وتمثلت هذه برؤية **ديان** حول تشغيل العرب :

ـ ان للأجور التي يتقاضاها العمال العرب ، طابعاً براقاً وخداعاً ؛ فبالرغم من التحسن النسبي والمؤقت الذي طرأ على مستوى حياة الشغيلة الا ان ارتفاع الاسعار كان يلتهم هذا التحسن ؛

ـ إن العمال العرب هم او المتأثرين بأية أزمة اقتصادية اسرائيلية وبرأينا أن هذا الموضوع على جانب كبير من الخطورة خاصة وأن اسرائيل لم تستنفد بعد كل الاساليب الرامية الى تفريغ المناطق المحتلة من سكانها ، ويعتبر تشغيل العرب ، على هذا النحو الواسع ومن ثم اغلاق أبواب العمال في وجوههم فجأة من أهم الاسباب التي خلفتها السياسة الاقتصادية الاسرائيلية عام ١٩٧٤ ، إذ بدأت القطاعات الاقتصادية تمارس سياسة التقشف ، وأدى نلك الى الاستغناء عن آلاف العمال العرب خلال العام ١٩٧٥ ، وبالتالي فان الهجرة نحو الخارج قد ازدادت في نلك العام .

ونسجل هنا الملاحظات التالية :

لم يورد أي نكر عن نزول المرأة الفلسطينية لميدان العمل المأجور في اسرائيل :

ـ لم يتناول ، بشيء من التخصيص ، الاجراءات الاسرائيلية الرامية الى منع البطالة بالمناطق المحتلة بشكل عام ، وفي قطاع غزة بشكل خاص ، اذ انه ولأسباب متعددة ، تميز وضع القطاع بعد حرب حزيران مباشرة ، حيث أخذ شكل التصدي للاحتلال ، وخلال السنوات الاولى طابعا عسكريا أرق مضاجع الاحتلال . ولكن بعد مجازر أيلول في الاردن ، اشتدت حملات القمع الاسرائيلية في القطاع لاجتثاث المقاومة المسلحة ، وبدأت عندها السلطات الاسرائيلية تنهج نهجا خاصا تجاه قطاع غزة ، فعلى سبيل المثال ، فأن اول المشاريع الاسرائيلية [صناعية زراعية] التي اقيمت في المناطق المحتلة ، كانت في قطاع غزة ، ونلك لامتصاص البطالة فيه قدر الامكان ، خاصة وأن سياسة تشغيل عمال غزة في اسرائيل جاءت متأخرة عن الضفة ، وفي المرحلة الثانية استكمل العدو خطواته وفتح المجال امام عمال غزة للعمل في اسرائيل ، وكلما برزت في الافق عوامل بطالة ، نتيجة لأية أزمة اقتصادية اسرائيلية ، كانت السلطات الاسرائيلية تسارع إلى خطوات تنفيذية لمنع حدوث بطالة في المناطق المحتلة بشكل عام ، وفي قطاع غزة بشكل خاص ، إضافة الى السياسة الاسرائيلية المتبعة حيال المخيمات الفلسطينية في القطاع . وقد تعرض الكاتب الى هذا الموضوع بشكل سريع فلم يتعد حدود الاشارة إليه . مع أن موضوع هذا الفصل ، هو التطورات الاقتصادية ، والتغيرات الطبقية ... لقد اتبعت السلطات الاسرائيلية سياسة تصفية المخيمات تحت شعارات زائفة هي [التنمية ، رفع المستوى ، التأهيل] بينما كانت هذه السياسة ترمي الى اجراء تغيير في البنية الاقتصادية والاجتماعية للاجئين في المخيمات وبشكل يساعد اسرائيل على تصفية القضية الفلسطينية سياسياً . إضافة إلى نلك شكلت الكثافة السكانية في المخيمات مصدر ازعاج امني لاسرائيل :

ـ لم يرد أي نكر لحجم العمال العرب في سوق العمل الاسرائيلي بطريقة غير رسمية [خارج نطاق مكاتب العمل] . علماً بأن هذه الاعداد ، وصلت حسب بعض المصادر الاسرائيلية ، الى ١٥ ألف عامل ، واكثر [**دافار** ١٦/٥/١٩٧٨] . الأمر الذي يزيد من عملية النزف ، ويدعم الاستغلال والتمييز .

الفصل الثالث : ـ انتفاضة تشرين الوطنية : ـ مسار ودلالات ودروس

يتعرض الكاتب في هذا الفصل الى عوامل تفجير الانتفاضة ، وينكر ان هذه العوامل مزدوجة « سياسية واقتصادية في آن معاً » (ص ٥٧) .

وقد تمثلت المراحل السياسية ، بنجاحات الثورة خاصة بعد حرب تشرين ١٩٧٣ ، والانتصارات السياسية التي حققتها ، على الصعيدين العربي [قرارات الرباط] والعالمي [دخول الأمم المتحدة] . أما العوامل الاقتصادية ، فقد تمثلت في تفاعلات الحرب الاقتصادية ، وما بعدها : من

اجراءات اقتصادية اتخذتها الحكومة الاسرائيلية في محاولة يائسة لوقف التدهور الاقتصادي ... وقد انعكست هذه الازمة ، بدورها ، على المناطق المحتلة . وذلك بفعل سياسة الألحاق : حيث ان قاعدة الالحاق الاقتصادي ، تجعل من الفلسطينيين في المناطق المحتلة ، شركاء لأية أزمة تجتاح اسرائيل ، إلا انهم بالطبع ، ليسوا شركاء في أي مكسب . وبشكل عام فإن الازمة الاقتصادية ، وتبعياتها مست جميع الطبقات والفئات في المناطق المحتلة ، ولكن التوزيع لهذا الأثر كان متفاوتاً .

وعدد الكاتب مواقف القوى المنتفضة والمساندة : ونسب مساهمتها وطبيعة ادوارها ، وهي :

- البرجوازية الصغيرة والحركة الطلابية الصدامية ؛

- الطبقة العاملة ؛

- البرجوازية الوطنية ؛

كما حدد الأهمية النسبية لادوار القوى الوطنية والديمقراطية فذكر ان الحركة الطلابية بشكل خاص والمثقفين بمختلف فئاتهم بشكل عام ، قد شكلوا القوة الأساسية والمحركة للأنتفاضة ... » (ص ٨٣) .

أما الطبقة العاملة ، فأن « طبيعة مساهمتها في التحركات الجماهيرية ، عبر تنظيماتها السياسية والنقابية الفعالة ، قد جعلها القوة الثانية بعد الحركة الطلابية والمثقفين ، وجميع فصائل البرجوازية الصغيرة ، في تحريك الانتفاضة وتوجيهها ، وقيادتها » (نفس الصفحة) .

وقد حدد الكاتب الأسباب التي جعلت من الطلبة المثقفين على رأس القوى المحركة للانتفاضة . فهم اولا ليسوا طبقة اجتماعية ، وانما ينحدرون من طبقات اجتماعية مختلفة وبحكم ثقافتهم ومستوى وعيهم السياسي ، فهم قادرون على التعبير عن تطور المصالح الطبقية ، والتشكيلات السياسية في المجتمع بأسره ، سيما وأن الطابع العام للانتفاضة هو « طابع الانتفاضة الوطنية المناهضة للاحتلال » (نفس الصفحة) .

وبالنتيجة ، فأن الطلبة ، والمثقفين ، وفي اطار السياق التاريخي المحدد ، قد عبروا موضوعياً ، عن المصالح الوطنية الراهنة لمختلف طبقات الشعب وفئاته الوطنية .

كما ذكر ان البرجوازية الوطنية ، خاصة قطاعاتها المتقدمة شكلت « قوة وطنية ثورية مساندة للأنتفاضة ، وبدرجات مختلفة ، كانت أدوار قطاعاتها العليا الوطنية المترددة ، قد أرغمت على الدخول بشكل واضح ومباشر في الصراع ومن ثم أخذت أدوارها المساندة لمطالب الجماهير » (ص ٨٤) .

« اما القشرة العليا من كبار التجار وملاكي الأرض ، والوجاهات ، فلم تشكل أية قوة مؤثرة على الاطلاق ، سواء في خدمة سياسة اسرائيل المباشرة اوباستقلال نسبي عنها ... » (نفس الصفحة) .

ثم تحدث الكاتب عن مسار الانتفاضة وتفاعلاتها ، ليصل إلى نقطة هامة في رأينا ، تعتبر من الحلقات المركزية في الكتاب . وهي « وحدة ميادين الكفاح ، والوحدة العضوية لنضالات الشعب الفلسطيني المتنوعة » . حيث يتمكن الكاتب ، بعلمية وبذكاء ، أن يوضح « العلاقة العضوية بين أشكال الكفاح المختلفة وتأثيرها بعضها ببعض ، وبالتالي ، تفاعلات نضالات الشعب الفلسطيني وحركته الوطنية في مختلف مناطق تواجده ، لتصب في ناظم واحد وعلى أراضيه برنامج سياسي مرحلي واحد » (ص ١٠٢) .

ثم يتوصل الى الدروس السياسية والاقتصادية والعسكرية للانتفاضة . فانتفاضة تشرين كانت بمثابة « التمرين » الجاد ، لما هو آت .

وفي نهاية استعراضنا للفصل ، لا بد لنا وأن نشير الى الملاحظات التالية :

- لدى تعرض الكاتب الى مواقف البرجوازية الوطنية ونسبة مساهمتها في الانتفاضة . ظهرت بعض ، الادانات المؤدبة والملطفة ، لبعض الرموز المعروفة بمواقفها المعادية للثورة والجماهير ، فعلى سبيل المثال ، لا داعي لأن نمنح هذه الرموز شهادات حسن سلوك نتيجة تصريح ما أو موقف ما . حيث أن هذا التصريح قد لا يعبر عن حقيقة هذه الرموز أو حقيقة مواقفها ، واعتراضنا هنا على التعابير التي أطلقها الكاتب لدى تعرضه لموقف رئيس الغرفة التجارية في رام الله مثل « الموقف الحازم » ، « وبعد أن وضع يده على هذا الاستنتاج الشديد الوضوح » : « طالب السلطات الاسرائيلية بشجاعة وطنية » (ص ٧٤) .

ونؤكد أن الاعلان عن موقف ما ، بفعل ظروف ضاغطة ، شيء ، وحقيقة الموقف شيء آخر . ودليل ذلك أن بعض الاشخاص والرموز ، الذين يتحدثون مع الاسرائيليين ، سواء « من تحت الطاولة » أو بشكل مكشوف من أجل تحقيق مشروع « الحكم الذاتي » وبنفس الوقت أعلنوا أكثر من مرة ، أن منظمة التحرير الفلسطينية ، هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني ، علما بأن مواقف هؤلاء النظرية والعملية على عكس هذا الاعلان . وتنسف هؤلاء الاشخاص أنفسهم تصريحاتهم ، كلما سنحت لهم الفرصة .

وأخيراً ، فأن انحياز شريحة ، لصالح الانتفاضة ، لا يصدر عفواً عاما عن مجموع الطبقة بشرائحها ورموزها المختلفة .

- الملاحظة الاخيرة ، تتعلق بموضوع « الانتفاضة وحقائق ديان » (ص ١٠٧) . حيث ذكر الكاتب أن الانتفاضة نسفت حقائق ديان التي كانت عماد سياسة اسرائيل تجاه المناطق وهي : « عدم التواجد » ، « عدم التدخل » ، « الجسور المفتوحة » .

إن أي من هذه الحقائق غير موجود أصلا ، باستثناء « الجسور المفتوحة » وإن كان ديان قد طرح « عدم التواجد » و« عدم التدخل » ، كأهداف وأمنيات . أن عدم التواجد ، وعدم التدخل ، لم يحقق ، بالاصل ، قبل الانتفاضة . وإن كانت الانتفاضة اكدت استحالة تحقيق مرامي ديان . أما بشأن « الجسور المفتوحة » ، فأن الكاتب يذكر أن بيرس « عندما وصل إلى التهديد بالغاء الجسور المفتوحة ، اكمل عملياً ، عناصر سياسية جديدة ، على أنقاض السياسة التي اؤتمن عليها [سياسة ديان] (ص ١١١) .

ويستدل الكاتب على ذلك عندما أشار بأن السلطات خلال الانتفاضة قامت « بالغاء جزء من قنوات الجسور المفتوحة ، والتهديد بالغائها نهائيا » . إننا نغالط الحقيقة عندما نعتقد أن العدو الاسرائيلي ، قد يصل في يوم من الايام ، إلى الغاء الجسور المفتوحة ، نهائيا ، خاصة وأن هذا الاجراء ، يعتبر من أهم « الانجازات » التي حققها العدو الصهيوني خلال سيطرته على الارض المحتلة . فهو لا يقل أهمية عن السيطرة على الارض وعن المستوطنات ، وعن الدمج الاقتصادي ، بل بالعكس ، يتكامل تماماً مع هذه الاجراءات ويعبر عن حقيقة السياسة الاسرائيلية تجاه المناطق المحتلة . إن اغلاق الجسور لفترة محددة ، لا يعني أن اسرائيل تنوي اغلاقها كلية . فالجسور المفتوحة ، عدى عن فائدتها السياسية والاقتصادية للعدو ، تعتبر من أهم الأعمدة لأي مشروع قد يطرح بشأن المناطق المحتلة . بما في ذلك مشروع الادارة الذاتية المقترح .

الفصل الرابع : - النضال الوطني عام ١٩٧٥ :

شكل هذا العام استمراراً للاعوام السابقة بشكل عام ، ولانتفاضة تشرين بشكل خاص . وعلى امتداده كانت المواجهة بين الشعب الفلسطيني ، من جهة ، وسلطات الاحتلال ، وتحركات النظام الهاشمي من جهة أخرى ، قد سارت على الوجه التالي :

استمرار القمع والتعسف ، واستمرار الزحف الاستيطاني ، والمضي قدما في سياسة الالحاق الاقتصادي . وما لذلك من أثر على تصدير الازمات الاقتصادية للمناطق المحتلة ، والاستمرار في طرح المشاريع المشبوهة « الادارة الذاتية المدنية » وخلال هذا الفصل استعرض الكاتب مسار النضال الفلسطيني ضد الاحتلال وضد سياسته المذكورة أعلاه .

أما **الفصل الخامس** ، فيتواصل مع ما أورده الكاتب في الفصل الرابع ، حيث يتحدث عن « مواجهة مشروع الادارة الذاتية المدنية » وعن « الوحدة العضوية لأشكال الكفاح المتنوعة » . واعتبر الكاتب أن الربع الأخير من العام ١٩٧٥ ، شكل « الوثبة الثانية » من انتفاضة جماهير الأرض المحتلة ضد الاحتلال ومخططاته .

وفي **الفصل السادس** ، يتعرض الكاتب إلى

« الوثبة الثالثة » والمعارك المتنوعة ضد الاحتلال ، خلال العام ١٩٧٦ . وفي تقديرنا انه اذا كانت الانتفاضة الجماهيرية في الاراضي المحتلة ، قد برزت بشكل خاص خلال عشرة أيام . سنة ١٩٧٤ ، وخلال الربع الاخير من سنة ١٩٧٥ ، فان الانتفاضة الشعبية العارمة خلال العام ١٩٧٦ ، كانت تغطي جميع أيام السنة . وهذا ما يميزها عن غيرها أضافة إلى خصائصها الأخرى ، وأهمها « الاستمرارية » ، « الشمولية » ، « التخطيط والاعداد المسبقين » . لقد جاءت انتفاضة ١٩٧٦ ، لتشكل في اطار الخط الوطني الجماهيري الصاعد ، الحلقة الأنضج والأرقى ، في مسار هذا الخط . الأمر الذي يسمح لنا بتسمية ذلك العام بـ « عام الانتفاضة » .

وفي نهاية هذا الفصل ، توصل الكاتب الى الدلالات السياسية « للوثبة الثالثة » فذكر ان التحركات الجماهيرية ، خلال خريف ـ شتاء ١٩٧٦ ، تميزت بما يلي :

ـ اتساع القاعدة الاجتماعية للقوى المنخرطة في الوثبة ؛

ـ وضوح الشعارات والمطالب والمهام الوطنية المباشرة ودقتها :

ـ اشتداد حدة الصدام وأشكال عنفه المتنوعة :

ـ الروح الهجومية والصدامية التي تميزت بها التحركات الشعبية ومواقف الشخصيات الوطنية : اعتبرت الانتفاضة كاشفاً للعناصر الرجعية الفلسطينية المتواطئة مع اسرائيل ، والنظام الهاشمي فهذه ، لم تستطع اخفاء قلقها ازاء تصاعد النضالات الجماهيرية .

أما الفصل السابع ، فيتناول موضوع « النهوض القومي في الجليل » ، موضحاً مشاركة الشعب الفلسطيني في الارض المحتلة ١٩٤٨ ، في النهوض القومي الشامل ، فيذكر أن « من الواضح أن الهيمنة الكولونيالية الصهيونية هي واحدة ، وهي تهدف لسلب الارض الفلسطينية ولأجلاء شعبها ، وهذا يعني أن الخطط الاستيطانية التهويدية ، سواء في الارض المحتلة عام ١٩٤٨ او في الضفة الغربية وقطاع غزة ، هي واحدة أيضا وان اختلفت من حيث الواقع الذي عليه كل منهما » (ص ١٨٥) .

من هنا ، وبسبب وحدة المصير ، ووحدة حركة التحرر الوطنية الديمقراطية ، « كانت المعركة ضد الاستيطان والتهويد ، وضد محاولات طمس مقومات الشخصية الفلسطينية ، واحدة ايضا » (نفس الصفحة) . إلا أن أشكال النضال تباين من ساحة لاخرى تبعاً لاختلاف الظروف الموضوعية لهذه الساحة أو تلك .

ويتعرض الكاتب ، في هذا الفصل ، لسياسة مصادرة الأراضي في الجليل ، وعن « **يوم الأرض** » في ٣٠ آذار ١٩٧٦ ، والخطوات التي سبقته وتبعته . وعن ردود الفعل الصهيونية تجاه تحرك الجليل . ليصل ، في نهاية المطاف ، إلى أن ما يحصل في الجليل ، غير منعزل عما يحصل في ميادين الصراع الأخرى ، وأن هناك حركة قومية عربية آخذة بالتعاظم والصعود . وليؤكد أن ما جرى ويجري جاء لينسف زيف سياسة « التعايش » التي تتشدق بها السلطات الاسرائيلية ـ من جذورها .

وفي الفصل الثامن ، يواصل الكاتب متابعته « للوثبة الثالثة » في المناطق المحتلة ، ويشير إلى أن استمرارية هذه الوثبة جاءت لسببين رئيسيين ، الأول « ضد ضريبة القيمة الأضافية » ، التي فرضت على المناطق المحتلة ، والتي جاءت لتشكل استمراراً للتدابير والاجراءات الاقتصادية الاسرائيلية التي تثقل عاتق الجماهير الفلسطينية والسبب الثاني هو مساندة ، وانتصاراً لمعركة الثورة الفلسطينية في لبنان ، وبالتحديد « انتصاراً لمعركة تل الزعتر » حيث أن الجماهير الفلسطينية « تدرك : بحسها الوطني ، أن نجاح أهداف المؤامرة في لبنان ، يخدم مباشرة السياسات الصهيونية وجميع أطراف العداء للشعب الفلسطيني ، وبالتالي يساعد على إطالة أمد الاحتلال وعكس ذلك صحيح . (ص ٢١١) .

ونسأل هنا عن دواعي افراد موضوع « الوثبة الثالثة » في فصل خاص ، علماً بأن هذا الفصل هو جزء لايتجزأ عن الفصل السادس .

وفي الفصل التاسع ، يتحدث الكاتب عن « المجالس البلدية » ، كمواقع نضالية هامة ضد الاحتلال وسياساته .

ويتناول بالعرض ، موضوع « الانتخابات البلدية ، والمجالس المحلية والقروية » ، في الضفة الغربية ، والتي جرت على مرحلتين في الربع الاخير من عام ١٩٧٥ ، وفي ربيع ١٩٧٦ كما يتحدث عن الأهداف التي رمت إليها سلطات الاحتلال من إجراء هذه الانتخابات ، وكيف أن القوى الوطنية والديمقراطية تمكنت من احباط هذه الأهداف ، وقطع الطريق على مخططاته ، والفوز بمعظم المقاعد البلدية ، والقروية .

وبرأينا ، أنه كان مطلوبا من الكاتب ان يتحدث عن التطورات التي طرأت على هذه المواقع ، منذ الانتخابات الاولى [١٩٧١ ـ ١٩٧٢] ، وحتى الانتخابات الثانية في ظل الاحتلال . وذلك لالتقاط حركة هذه المواقع ، والذي لا تنفصل عن النهوض الوطني في المناطق المحتلة ، بشكل عام .

وهناك ملاحظة اخرى تتعلق بعدد المجالس القروية ، فقد ذكر الكاتب أن الانتخابات قد جرت في « نحو ٦٠ قرية من قرى الضفة » (ص ٢١٧) . في حين ان هذه الانتخابات قد جرت في ٥٧ مجلسا .

وفي الفصل العاشر ، يستعرض الكاتب مسار النضال الوطني ضد السياسات الهاشمية المعادية ، ويذكر المراحل ، والأشكال التي انتهجها النظام الهاشمي في تحركه تجاه المناطق المحتلة ، وبالمقابل الخطوات النضالية المتصدية لمجمل السياسة الهاشمية .

وفي هذا الفصل عندما تعرض الكاتب للتحركات المشبوهة التي قام بها المحامي **حسين الشيوخي** وللعناصر التي واصلت تحركها المشبوه بعده ، ورد خطأ اسم « **حمدي كنعان** » [ص ٢٤٢] . ومن اجل الدقة وحسب ، نذكر أن رئيس بلدية نابلس السابق **حمدي كنعان** ، **قد اعتزل السياسة منذ فترة طويلة ، وأنه أصيب بمرض عقلي منذ فترة** ، وهو عاجز عن التحرك السياسي .

ويختتم الكاتب دراسته ، باستعراض الرد الوطني على **مشروع بيغن** المقترح لاقامة « حكم ذاتي » في الضفة والقطاع . ثم ينتقل الى وثيقة « **كامب ديفيد** » ، وجوهر البنود الفلسطينية التي تضمنتها ، كما أورد الكاتب تفسير **بيغن** لهذه البنود المتعلقة بالارض والمستوطنات ، وطبيعة الحكم الذاتي ، والوجود العسكري ، وتحدث الكاتب عن الاشكال التي ميزت الرد الوطني في الضفة والقطاع ، والتي تمثلت في المؤتمرات الوطنية المتعددة ، وفي الاضراب العام والتظاهرات .

تقييم عام

بعد ان استعرضنا محتويات الكتاب فصلا فصلا لا بد وأن نركز بالاضافة الى النقاط التي أشرنا اليها خلال تناولنا للكتاب على الملاحظات التالية :

يعتبر الكتاب اول محاولة جادة لدراسة طبيعة النهوض الوطني الفلسطيني في الضفة والقطاع والجليل وتبرز اهميته في الرؤية الشمولية للصراع ولوحدة ميادين الكفاح ، والوحدة العضوية لنضالات الشعب الفلسطيني المتنوعة . وإن كان الكاتب قد وفق في تسليط الضوء على مجمل ميادين الصراع فانه لم يصل الى نفس المستوى في توزيع هذا الضوء على تلك الميادين . فعلى سبيل المثال : كان جل تركيز الكاتب في دراسته متمحوراً حول « الضفة الغربية » بينما خرج « قطاع غزة » مظلوماً من حيث حصته لهذا الضوء . لقد أبقى أكثر من جانب في القطاع ، دونما معالجة . ومع ذلك : ليس المطلوب من هذه الدراسة أن تضم بين ثناياها كل شيء بقدر ما هو مطلوب ، سلامة المنهج وصحة التحليل ، ودقة النتائج ، وهذا ما حققته الى حد كبير ـ وهي بذلك تفتح آفاقا جديدة أمام دراسات جديدة تستكمل ما يحتاج الى استكمال في الدراسة المعروضة .

ـ تجمع الدراسة بين « الرصد ، والتحليل ، والتوثيق ، والتقرير » وهي بالتالي تستند الى حشد كبير من الوقائع والأرقام ، والمعلومات دون ذكر مصدر هذه الارقام و المعلومات غالباً .

ـ استخدام الكاتب في دراسته بعض التعابير ، التي لا نوافقه على استخدامها ، والمسألة هنا قد تكون نابعة من اختلاف القناعات في هذا الموضوع مثل : « المجتمع الاسرائيلي » [ص ١٠٥] إن لهذه العبارة مدلولات سياسية مثيرة للجدل ، فبرأينا أن مصطلح « التجمع الاسرائيلي » أدق في مدلوله على الكيان الصهيوني ، الذي يشكل ثكنة عسكرية متقدمة للامبريالية في المنطقة ، من مصطلح « مجتمع اسرائيلي » .

ـ وأخيرا . تبقى الدراسة ، جهداً كبيراً ، وعملا جاداً ، يستحق كل التقدير .

وليد الجعفري

تقرير

الموسم الثقافي لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين

فرع سورية

بدأ الموسم الثقافي لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين (فرع سورية) نشاطه في ٣٠/١٠/١٩٧٨ ، واختتمه في ٢٨/٥/١٩٧٩ ، حيث دأب الفرع ، طيلة هذه المدة ، على إقامة الندوات والأماسي الأدبية والسياسية والثقافية العامة كل يوم إثنين ، ولم يتوقف انتظام هذه الندوات والأماسي الا ثلاث مرات ، عندما اعتذر محاضران في اللحظة الأخيرة عن تقديم محاضرتيهما بسبب ظروف قاهرة ، وعندما اتفق قدوم عيد الأضحى مع احد أيام الاثنين .

يضاف إلى هذا ، أمسية الشاعر **محمد مهدي الجواهري** ، التي اقامها الفرع في مخيم اليرموك بالتعاون مع دائرة الأعلام والثقافة في **منظمة التحرير الفلسطينية** وأمسية الشاعر **محمود درويش** ، التي اقيمت في جامعة حلب بالتعاون مع اتحاد الكتاب العرب ، وأمسية بعنوان ليلة الشعر الفلسطيني اقامها الأخوة الشعراء : **عصام ترشحاني وعادل اديب اغا ونظيم ابو حسان** ، في المركز الثقافي بحلب .

بلغ مجموع الندوات والأماسي ، التي اقيمت في هذا الموسم ، تسعاوعشرين ، اسهم فيها سبعة واربعون أديبا وكاتبا ، بينهم تسعة من ابناء القطر السوري وكتابه ، وإثنان من القطر العراقي ، وإثنان من القطر التونسي ، وواحد من القطر الاردني ، والباقون من فلسطين .

ولقد توزع نشاط هذا الموسم على تسع عشرة امسية ادبية (قصصية او شعرية او مشتركة) ، وست ندوات سياسية ، واربع ندوات في النقد والموضوعات الثقافية العامة .

وكان يعقب هذه الأماسي والندوات ، دائماً ، حوار مفتوح بين الجمهور والمحاضرين ، وكثيراً ما كان يتسع هذا الحوار ليشمل قضايا أوسع من الموضوع المقرر ، ويمكن القول إن الفائدة الأساسية من هذا النشاط كانت تتجلى في مثل هذه الحوارات الجادة المسؤولة .

افتتح الموسم الثقافي بأمسية قصصية شعرية ، حيث القى الكاتب **عادل محمود** قصة طويلة ، تميزت بالحرارة وبالمناخ الشعري الذي تخللها ، على هيئة مقاطع حينا وبتلاحق الصور والانفعالات حينا آخر ، أعقبه الشاعر **نزيه ابو عفش** الذي القى عدداً من قصائده ، التي قدمته كواحد من أهم شعراء القطر العربي السوري ، ألقى قصيدة حديثة (تفعيلة) وعدداً من القصائد النثرية ، وكان في جملته صرخة احتجاج مركزة ، مشحونة ضد استعباد الانسان ، وقهره ، وإذلاله .

في الأمسية الثانية القى الكاتب **محمود شاهين (صقر)** قصته المعروفة ، نار البراءة ، التي طرحت عدداً من الأسئلة الفنية الهامة ، ومشكلة الكتابة باللهجة المحكية ، كما فجرت نقاشا حاراً حاداً حول بعض العادات الشعبية ، وعن مسؤولية الفن تجاه المجتمع المتخلف المحكوم بتلك العادات .

اما أمسية الكاتب **نصر الدين البحرة** والشاعر **عدنان عمامة** ، فكان متوقعا لها أن تحمل « مفارقة » لاتخلو من فائدة ، ذلك أن القاص **البحرة قرا** شيئا من اشعاره ! وكان المتوقع من الشاعر **عمامه** ان يلقي إحدى قصصه ، لكنه عدل عن فكرته والقى بعض قصائده ، وكانت الفكرة إعداد امسية كهذه ، تتركز حول تخصص الكاتب في جنس أدبي معين ، والى أي حد يستطيع الكتابة في اجناس ادبية مختلفة عن توجهه .

وفي امسية لاحقة القى الشاعر **صالح هواري** عدداً من قصائده الجديدة ، كما القى الكاتب **توفيق الأسدي** قصتين قصيرتين ، وبعدها اشتركا في حوار مع الجمهور ، حول الفن والالتزام والرمز والتوصيل .

اما امسية الأخوة **محمد جوهر الشهابي وحسن الباش وسامي ابو النور** ، التي القوا خلالها بعض نتاجهم الشعري ، فلم يقدمها امين العلاقات الثقافية للفرع بسبب اشتراكه في مهرجان تكريم **ابي سلمى** في بيروت ، وقد قدمهم الأخ **صالح هواري** .

امسية الشاعر **محمد عمران** كانت مركزة وشديدة الخصوصية ، حيث اكتفى الشاعر بالقاء قصيدتين طويلتين ، اثارتا نقاشا حول القصيدة المركبة ، والقصيدة النثرية ، وحول طبيعة الصورة الشعرية ، وتشابه لهجات الشعراء وتمايزهم .

اما امسية الشاعر **الجواهري** التي اقيمت في مخيم اليرموك فكانت تظاهرة شعبية ، **احتفاء بالشعر والشاعر** الذي القى عدداً من قصائده القديمة والجديدة .

وفي امسية لاحقة القى الشاعر **احمد مفلح** عدداً من قصائد مجموعته الجديدة ، وكان أن تغيب ، لعذر ما ، الشاعر الآخر ، فحضر الشاعر **محمود مفلح** والقى بعض قصائده القديمة الملفتة للنظر ، بعد أن اعتذر لعدم تمكنه من إحضار جديدة ، بسبب دعوته بشكل مفاجىء .

وكانت امسية الكاتبين **حسيب كيالي واكرم شريم** امسية القصة الواقعية ، حيث القى **حسيب** واحدة من

القصص التي تذكرنا بنهجه الواقعي الاشتراكي منذ الخمسينات ، وألقى أكرم قصة مؤثرة تدور أحداثها في مقبرة الشهداء .

الشاعران **عصام ترشحاني وعادل أديب آغا** ألقيا في أمسيتهما آخر ما كتباه ، وأجابا عن أسئلة الحضور ضمن حالة من « الاشتباك » الفني الجاد .

ويمكن اعتبار أمسية الكاتب **أحمد السرساوي** والشاعر **بشير البكر** هي بداية الأماسي الساخنة من حيث الحوار ، حيث استغرق الحوار ـ خاصة ما يتعلق بالقصيدة النثرية ـ ضعف الوقت الذي شغلته قراءة الشاعر والكاتب .

وهذا ما يصدق ، أيضاً ، على أمسية **الدكتور محمود موعد** والشاعر **عبد الكريم عبد الرحيم** ، وإن كان الحوار تركز ، هذه المرة ، حول جدوى الادب غير المباشر ، وحول قضية التوصيل .

أما الكاتب **هاني الراهب** فقد ألقى في أمسيته ـ قصة واحدة ، طويلة ومؤثرة ، أثارت حواراً طويلا ومفيداً .

وفي الأمسية اللاحقة ألقى الكاتب **زهير غزاوي** إحدى قصصه ، ثم ألقى الشاعران **محمود علي السعيد وسليمان السلمان** بعض قصائدهما ، وجرى ، كالعادة ، حوار مع الحضور .

وكانت خصوصية أمسية الشاعر **ميخائيل عيد** تتجلى أول ما تتجلى بقصائده المكتوبة باللهجة المحكية، التي أحبها الجمهور واستزاد الشاعر منها ، وألقى الكاتب **يوسف جاد الحق** قصتين ، تنتميان الى المدرسة الواقعية.

وفي أمسية الشاعرين العربيين التونسيين **محمد الكنايسي وصالح العياري** . استمع الحضور الى نوع خاص من الشعر أكد ارتباط ثقافة المغرب العربي بمشرقه . وصادف في هذه الأمسية حضور الكاتب العراقي **عادل عبد الجبار** ، الذي دعى فألقى قصة مدهشة ، بلغتها ، ورموزها ، ورشاقة حركتها .

أمسية الشاعر **محمود درويش في حلب كانت استمراراً للتظاهرة الثقافية الشعبية الكبرى التي أحاطت بالشاعر في دمشق ، حيث احتشد حوله أثنا عشر الف مستمع ، ولقد كانت أمسية محمود درويش** في حلب واحدة من الأماسي التاريخية في المدينة .

وفي ذكرى **يوم الأرض** ألقى الشعراء **عصام ترشحاني وعادل أديب آغا ونظيم أبو حسان** عدداً من قصائدهم ، في المركز الثقافي بحلب ، ظهرت أصداؤها إيجابية في صحيفة المدينة المحلية .

وكانت آخر أمسية شعرية قصصية في هذا الموسم هي التي اشترك بها الكاتب **أحمد سعيد نجم** ، بقصصه القصيرة جداً . والمتميزة جداً ، والشاعر **راسم المدهون** والشاعرة **سهام عيطور شاهين** . وكالعادة ، جرى حوار مثمر بين الحضور والأدباء المسهمين .

أما الندوات ذات الطبيعة الثقافية العامة ، فكانت أولاها للناقد **يوسف اليوسف** ، الذي ألقى بحثاً هاماً في الثقافة العربية ، درس فيه علاقة الطبيعة (الصحراء خاصة) بالثقافة والفلكلور ، وتكون المزاج الثقافي .

ثم كانت ندوة الدكتور **شوقي شعث** ، الذي قدم معلومات شديدة الأهمية عن آفاق حضارة إيبلا ، مستعيناً بالفانوس السحري ،حيث فند المزاعم الصهيونية التي تتطاول على هذه الحضارة السورية ـ العربية العريقة .

وكانت هناك ، أيضاً الندوة الهامة **للدكتور فخر الدين القلا** ، حول التعليم العالي وتعليم الكبار للفلسطينيين في الأرض المحتلة .

أما آخر هذه الندوات ، وهي آخر نشاطات هذا الموسم ، فكانت **للدكتور حسام الخطيب** ، الذي تحدث عن

الموضوع الفلسطيني في ثلاث روايات فلسطينية ، هي « البحث عن وليد مسعود » **لجبرا ابراهيم جبرا** ، و « العشاق » **لرشاد ابي شاور** ، و « النقيض » **للدكتور أفنان القاسم** .

أما الندوات السياسية فقد بدأت بموضوع عام ، هو « فلسطين في الاستراتيجيات العربية » ، حيث اشترك كل من الأخوة **ميشيل كيلو** ، الذي تحدث عن بداية المشكلة الفلسطينية مع نشوء دولة التجزئة (مشروع سايكس ـ بيكو) **وفواز ياسين** ، الذي تحدث عن الاقليمية والبعد القومي وموقع القضية الفلسطينية بينهما ، **وفيصل حوراني** ، الذي تحدث عن نشوء منظمة التحرير الفلسطينية في ظروف التجزئة وعلاقة هذا الوضع ببرامجها وتحركها ، وأدار هذه الندوة الأخ **شريف جيوسي** .

والندوة الثانية كانت للأخ **محمود الخالدي** ، مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في دمشق ، وكانت بعنوان « لماذا نرفض كامب ديفيد » ؟

الندوة الثالثة كانت للأخ **فيصل حوراني** ،عن الميثاق القومي الفلسطيني ، وهو الميثاق الأول لمنظمة التحرير الفلسطينية .

أما الندوة الرابعة فكانت للأخ **هاني حوراني** ، الذي تحدث عن « واقع الأردن الاقتصادي الاجتماعي ومشكلاته » .

وكانت الندوة الخامسة للدكتور **مصطفى جفال** ، عن **الحركة النقابية والطبقة العاملة الفلسطينية في الضفة والقطاع** .

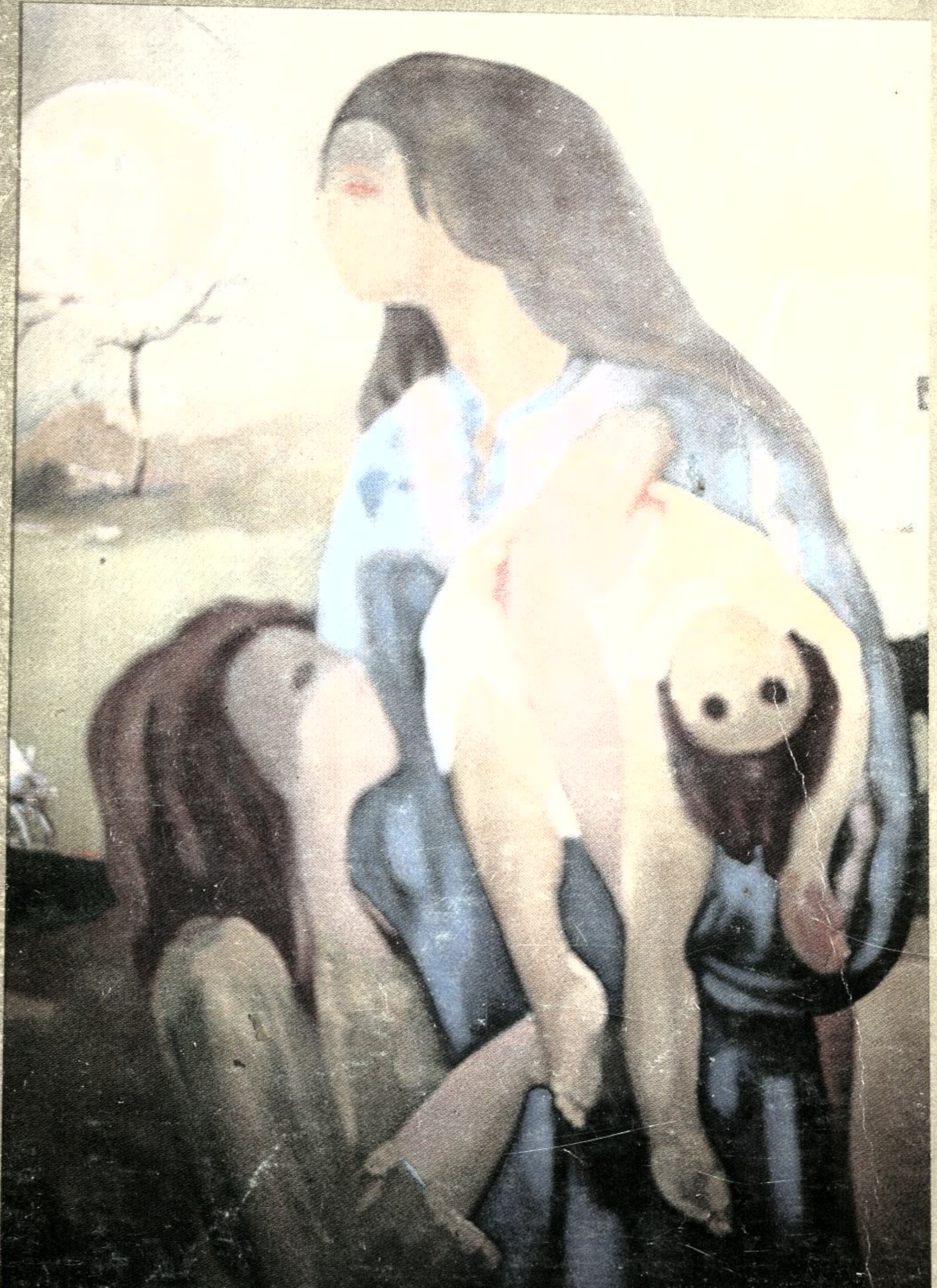
أما الندوة الأخيرة ، فكانت للأخ **حسين عمر حمادة** عن « الماسونية » .

ونورد هنا أسماء الأساتذة الذين أسهموا في إحياء هذا الموسم الثقافي ، حسب تسلسل تواريخ الندوات والأماسي .

(نزية ابو عفش ، عادل محمود) ، (محمود شاهين) ، (ميشيل كيلو ، فيصل حوراني ، فواز ياسين) ، (نصر الدين البحرة ، عدنان عمامة) ، (صالح هواري ، توفيق الأسدي) ، (محمد جوهر الشهابي ، حسن الباش ، سامي ابو النور) ، (محمد عمران) ، (محمد مهدي الجواهري) ، (احمد مفلح ، محمود مفلح) ،(حسيب كيالي، اكرم شريم) ، (عصام ترشحاني ، عادل أديب آغا) ، (احمد سرساوي ، بشير البكر) ، (د . محمود موعد ، عبد الكريم عبد الرحيم) ، (د . هاني الراهب) ، (زهير غزاوي ، محمود علي السعيد ، سليمان السلمان) ، (ميخائيل عيد ، يوسف جاد الحق) ، (محمد الكنايسي ، صالح العياري ، عادل عبد الجبار) ، (محمود الخالدي) ، (محمود درويش) ، (فيصل حوراني) ، (يوسف اليوسف) ، (د . شوقي شعث) ، (عصام ترشحاني ، عادل أديب آغا ، نظيم ابو حسان) ، (هاني حوراني) ، (د . مصطفى جفال) ، (حسين عمر حمادة) ، (سهام عيطور شاهين ، راسم المدهون ، احمد سعيد نجم) ، (د . فخر الدين القلا) ، (د . حسام الخطيب) .

أمين السر
أمين العلاقات الثقافية
لفرع سورية

أحمد دحبور



الثمن : ٥ ليرات لبنانية